القسم الأول

الجزائر

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الجغرافية والتاريخ

١

الجغرافية[١]

تتوسط الجزائر فى الشمال الإفريقى بين المغرب الأدنى : تونس شرقا والمغرب الأقصى : مراكش غربا ، ولذلك سماها جغرافيو العرب المغرب الأوسط . ويحدها شمالا البحر المتوسط ويمتد عليه ساحلها نحو ١٢٠٠ كيلومترًا ، وهو ساحل صخرى حجرى ، ولذلك تقل عليه – بل تنعدم – الخلجان العريضة ، وعلى منعطفات فيه أو خلجان صغيرة نشأت موانى الجزائر ، وأهمها من الشرق إلى الغرب عنابة (بونة قديما) فإسكيكدة ، فجيجل ، فبجاية ، فدلس ، فالجزائر (المدينة) فشرشال ، فتنس ، فأرزو ، فوهران ، فالمرسى الكبير .

وتلى الساحل من الشرق إلى الغرب جبال أيدوغ المشرفة على عنابة ، ثم زكار والظهرة بين مدينة الجزائر وميناء أرزو ، ثم الطرارة إلى الغرب . وجنوبى تلك الجبال تمتد من الشرق إلى الغرب سلسلة جبال الأطلس التلّى بادئة بجبال مجردة ، فجبال البابور ، فجبال الجرجرة شمالا والبيبان جنوبا ، فجبال تيطرى وشماليها جبال مدينة البليدة ، ثم جبال الونشريش ، فجبال سعيدة ، فجبال الضاية ، فجبال تلمسان . وتكتظ مناطق تلك الجبال بسهول واسعة وعيون ونهيرات وبعض أنهار ، مما جعلها أوسع مناطق الجزائر عمرانا ، وإذا كان ساحل الجزائر يتميز بكثرة حدائقه وبساتينه فإن تلك المناطق التلية تتميز بغاباتها وزروعها وأشجارها المثمرة ومن أهم مدنها قالمة وقسنطينة فى الشرق ، ومليانة جنوبى شرشال وتلمسان فى الغرب .

وتمتد جنوب هذا الأطلس التلى هضبة كبيرة ، وهى قفار واسعة ينبت بها شجر الحلفا وعشب كثير فى الربيع فتؤمها قطعان الأغنام والماشية من الجنوب للرعى حتى اقتراب زمن الشتاء ، فتنسحب إلى ديارها ومواطنها جنوبا . وتطوّق الهضبة سلسلة جبال الأطلس الصحراوى ، ومن أهم أجزائها شرقا جبال أوراس ، وإلى الشمال من تلك الجبال جبال

(١) انظر فى جغرافية الجزائر كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبى عبيد البكرى وصفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (مقتبس من نزهة المشتاق للإدريسى) طبع ليدن ، وكتاب صورة الأرض لابن حوقل وكتاب الجزائر للأستاذ أحمد توفيق المدنى (طبع الجزائر) وكتاب تاريخ الجزائر لمبارك الميلى (طبع الجزائر) ص٢٧ وما بعدها ومادة الجزائر فى دائرة المعارف الإسلامية .

الحضنة ، وأنشأ فى أحد سهوبه خليفة الفاطمى المهدى مدينة المَسيلة (المحمدية قديما) وشرقى سهلها خرائب مدينة طُبْنة عاصمة الزاب أيام الدولة الأغلبية التونسية ، وإلى الجنوب من المسيلة قلعة بنى حماد عاصمة دولتهم . وإذا مضينا بعد جبال الأوراس غربا فى سلسلة جبال الأطلس الصحراوية لقيتنا جبال الجلفة ، فجبال عمور ، فجبال القصور . وجبال هذه السلسلة أعلى وأضخم من جبال الأطلس التلّى وكثير منها جبال جرداء .

وإذا انحدرنا من هذه الجبال نحو الجنوب لقيتنا الصحراء الكبرى ، ويسمى القسم الشرقى منها أرض تُقْرت ، وبه واحات متناثرة تكتظ بالنخيل وببعض الأشجار المثمرة ، وإلى الغرب من هذه القسم الصحراوى الشرقى أرض ميزاب وعاصمتها غرداية ، وهى أكثر جدبا من القسم الشرقى ، وإليها هاجر الإباضيون حين دالت دولتهم فى تاهرت ، وقد حفروا بها آلاف الآبار ، وأحالوا بقاعا منها كثيرة إلى واحات غنية بالنخيل والحدائق والبساتين ، وبذلك بثوا فيها غير قليل من الحياة والحضارة والعمران .

والأمطار تبدأ فى الجزائر منذ شهر أكتوبر وتغزر فى شهر يناير بالمنطقة الساحلية ومنطقة الأطلس التلّى ، وتأخذ فى القلة بالهضبة الوسطى بين سلسلتى جبال الأطلس التلية والصحراوية ، وتكاد تنعدم فى أكثر أجزاء الأطلس الصحراوى وجنوبيه فى الصحراء الكبرى . ولقلة الأمطار داخل الجزائر لم تتكون بها أنهار كبيرة ، إنما تكونت غالبا نهيرات ومجار للمياه قصيرة ، وهى جميعا لا تجرى إلا فى الشتاء فصل الأمطار، ومنها مايتجه إلى البحر المتوسط ، وقد تتجه إلى البحيرات المالحة فى الهضبة أو إلى الصحراء حيث تغيب فى طبقات الرمال . وأهم أنهارها مجردة فى الشرق ، وينبع من الجبال المتاخمة لإقليم الزاب ، وهو كثير المنعرجات فى مجراه الجبلى ، ويخترق شرقى الجزائر متجها إلى الديار التونسية حتى مصبه بالقرب من قرطاجة فى البحر المتوسط ، ويعد نهرا تونسيا أكثر منه جزائريا لمسيرته الطويلة فى الديار التونسية . وأطول أنهار الجزائر الداخلية نهر شلف وينبع من جبال عمور فى الأطلس الصحراوى ، ويتجه إلى الشمال ، وترفده نهيرات كثيرة ، ويخترق منطقة الأطلس التلّى ، ويتجه شرقا ثم يغير اتجاهه إلى الشمال ، وعند مدينة مليانة جنوبى شرشال يتجه إلى الغرب حتى مدينة مستغانم ويصب فى خليج أرزو . ووراء هذين النهرين الكبيرين نهيرات كثيرة أو أنهار ومجار صغيرة منها نهير سيبوز النابع من الجبال المتاخمة لقسنطينة ويصب فى البحر المتوسط بالقرب من عنابة ، ونهير العروش ومصبه بالقرب من إسكيكدة ، ونهير الرمل أو الوادى الكبير ويرفده بومرزوق المخترق لقسنطينة ويصب شرقىَّ جيجل ، ونهير الصمام ومصبه بالقرب من بجاية ، ونهير حميز ومصبه فى خليج مدينة الجزائر ، ونهير الحراش ويخترق سهول المتيجة ومصبه قريب من مدينة الجزائر إلى غير ذلك من نهيرات ، كلها غير صالحة للملاحة. والنهيرات الداخلية ، منها

نهير جدى الذى يمر بمدينة الأغواط ويصب فى بحيرة ميغليغ، ونهير ميا ومصبه سبخة ورقلة إلى غير ذلك من نهيرات داخلية ، وتتجه إلى الصحراء الكبرى نهيرات كثيرة، تغيب فى الرمال ومنها تنبع فى الصحراء الآبار الفوارة الارتوازية.

ووراء الموانى على الساحل سهول تُعِد لنمو أشجار النارنج والليمون والفواكه ، وفى الأطلس التلى سهول واسعة متقطعة ، تزرع بها الحبوب والغروس ، وأكثر سكان الجزائر يعيشون من خيراتها . وتتسع السهول جنوبى عنابة ومدينة الجزائر وفى تلمسان ، وتزرع الحبوب فى وديان الأطلس التلّى ، ومن أهم مناطق زراعتها شرقى الهضبة بين ذراعى الأطلس التلّى والأطلس الصحراوى ، وبالمثل منطقة وهران والقسم الغربى من الجزائر . ولاختلاف الطقس فى الجزائر تلقاك على جبالها وسفوحها أشجار مختلفات ، ففى السفوح النخيل ، وفوقها أشجار الفواكه من مثل التين والخوخ ، وفى أعلاها أشجار الزيتون والنقل . وتشغل الغابات مساحات شتى فى الأطلس التلّى وجبال أوراس الصحراوية ، وعليها جميعا فى أماكن مختلفة تتراءى أشجار القرو والأرز والصنوبر وخاصة فى جبال الأوراس والونشريس . ويكثر النخيل فى الواحات ومعه بعض الفواكه وخاصة فى بِسْكرة . وفى الهضبة بين ذراعى الجبال التلية والأطلسية الصحراوية بحيرات عدة ، من أهمها بحيرة الحضنة .

والطقس على الساحل الجزائرى معتدل مثل سواحل البحر المتوسط عامة ، والسهول الداخلية وراء وهران حارَّة جافَّه . وجبال الأطلس التلى معتدلة صيفا باردة شتاء ، والثلوج تتوج الجبال أحيانا فى الشتاء ، وتتجمد المياه فى قسنطينة نحو شهرين كل عام . ومناخ الهضبة بين ذراعى الجبال التلّية والصحراوية قارّى ، شديد البرد شتاء شديد الحر صيفا . ومناخ جبال الأطلس الصحراوية والنواحى الجنوبية المنحدرة منها والمترامية فى الصحراء شديدة البرد شتاء ، وتشتد الحرارة فى الصحراء بالصيف شدة لا تطاق .

٢

التاريخ[1] القديم

يتوغل تاريخ الجزائر فى العصور القديمة السحيقة إلى آماد بعيدة ، ويأخذ هذا التاريخ فى الجلاء والوضوح مع ارتياد الفينيقيين الشاميين لسواحل إفريقيا فى القرن العاشر قبل الميلاد وقبله وبعده بحثا عن مواقع تصلح لرسو سفنهم التجارية ونزولهم بها لتبادل سلع التجارة مع

(١) انظر فى تاريخ الجزائر القديم والحديث تاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبوز (طبع القاهرة) وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى (طبع دار المعارف بالقاهرة) وتاريخ الجزائر القديم والحديث لمبارك الميلى : الكتاب الأول فيه وأبوابه الثمانية .

السكان . وكانوا شعبا ملاحيا متحضرا عريقا يحترف التجارة ، ومضوا طويلا يتعرَّفون على المواقع التى تلائمهم فى سواحل إفريقيا ، وبمرور الزمن ودوراته المتعاقبة أقاموا مدينة قرطاجة بالقرب من مدينة تونس الحالية ، ونزلت فيها منهم جالية فينيقية كبيرة ، وأداهم البحث عن أماكن صالحة مماثلة فى شمالى الجزائر لتبادل السلع مع السكان إلى موقعين مهمين هما بونة (عنابة الحالية) وجيجل ، وأضافوا إليهما – فيما بعد – مواقع أو مدنا جديدة هى إسكيكدة وبجاية وشرشال ، واتخذوا من سكانها جميعا إدارات تدين لهم بالولاء ، واختلطوا بهم وبثوا فيهم حضارتهم الفينيقية ، ونقلوا إليهم – كما نقلوا إلى قرطاجة وإقليمها – من ديارهم الأصلية فى الشام أشجارا متنوعة من الفاكهة والنقل ، وعلّموا كثيرين من أهل الجزائر لغتهم وما استحدثوه من حروف الكتابة الفينيقية التى نشروها فى العالم القديم .

ولما نشبت الحرب بين قرطاجة وروما وظلت طويلا من سنة ٢٦٤ حتى سنة ١٤٦ قبل الميلاد استطاعت روما أن تستميل سكان الجزائر وملكهم ماصينصا ، حتى إذا علت كفّتهم فى الحرب وتغلبوا نهائيا على القرطاجيين فرضوا على الجزائر وماصينصا ملكها الولاء لهم ، ورضخ إلى أن قضى نحبه ، وخلفه ابن أخته يوغورطة وكان بطلا مغوارا ، فأنف من التبعية للرومان ونازلهم مرارا ، غير أن صهره ملك موريتانيا خانه وسلمه إليهم سنة ١٠٦ قبل الميلاد . وحكم بعده ملوك أو أمراء جزائريون كانوا يعدون موظفين رومانيين أكثر منهم حكاما جزائريين ، ومن أهمهم يوبا الأول وابنه يوبا الثانى الذى نشأ فى روما حتى أصبح كأنه مواطن رومانى ، وجعلوه ملكا على نوميديا أخذا من اسم كان يطلقه الجزائريون على القسم الشرقى من ديارهم أو لعله اشتق من لفظة نوماد الإغريقية وتعنى الرعاة الرحل ، واتخذ شرشال عاصمة له ، وضموا إليه – فيما بعد – موريتانيا الشرقية والغربية من وهران فى غربى الجزائر إلى أقصى بلاد المغرب على المحيط الأطلسى ، ولم يلبث الرومان بعده أن ضمّوها إلى إمبراطوريتهم ، وأخذوا يولون عليها حكاما رومانيين تابعين لروما أو لحاكم قرطاجة الكبير . وتوغلوا فى ديارها جنوبا ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما أسسوه من مدن فى الداخل إلى مسافات بعيدة عن الساحل مثل تبسة الواقعة على بعد ١٥٠ ميلا جنوبى جيجل وبها أطلال لمبنى كان يقوم على أعمدة رخامية ، ويقول الحسن الوزان : على تلك الأعمدة كتابات لاتينية ، وكان اسمها الرومانى نيفسته ، وفى شماليها الشرقى واحة بِسْكرة ، واسمها الرومانى فيسيكرا وهى قرية جزائرية عتيقة . وجنوبى بسكرة نفطة وبها آثار وأطلال رومانية ، وإلى الجنوب من جيجل فى الداخل قسنطينة وكان اسمها أيام الفينيقيين سرتا ، وكانت بها أسرة سيفاكس التى أسست لها مملكة فى الجزائر ، ومنها انحدر ماصينصا الذى وضع يده فى يد الرومان – كما أسلفنا – للقضاء على القرطاجيين ، وخُرِّبت سرتا فى بعض ثورات الجزائريين على الرومان ، وأعاد الرومان بناءها فى عهد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ – ٣٣٧ م) . وسموها قسطنطينة وسماها العرب قسنطينة ،

والأطلال والآثار الرومانية كثيرة فى مدن الجزائر الداخلية . وأرهق الرومان الجزائريين طوال حكمهم بصور شتّى من العسف والظلم والضرائب الفادحة مع نهب طيبات الأرض من الحبوب والزيتون . ولما اعتنقت روما الديانة المسيحية واتخذتها دينها الرسمى أخذت فى نشرها بإمبراطوريتها والجزائر ، وساعد على انتشارها فيها الجاليات والأسر الرومانية التى استوطنت المدن الجزائرية ، فبُنيت الكنائس والأسقفيات فى غير مدينة لا فى المدن الساحلية فحسب ، بل أيضا فى المدن الداخلية مثل قالمة جنوبى عنابة (بونة قديما) وبها آثار رومانية ، ومثل بسكرة وكان بها أسقفية ، واشتهر فى تلك المدن بعض القديسين مثل أوغسطين قديس بونة فى القرن الرابع الميلادى ، ويُعَدُّ بمواعظه ومؤلفاته من أكبر آباء الكنيسة ووعاظها البارعين .

ومع نهاية العقد الثالث للقرن الخامس الميلادى تكتسح البلاد موجات الوندال التى قضت على الدولة الرومانية الغربية ، وتظل نحو مائة عام تخرب فى الجزائر وتدمر كل ما أسسه بها الفينيقيون والرومان من منشئات العمران والحضارة إلى أن خلصتها منهم الدولة البيزنطية سنة ٥٣٤ للميلاد على يد القائد البيزنطى المشهور بليزير ، وأصبحت الجزائر – من حينئذ – تابعة لتلك الدولة ، ولم تحاول أن تنشر بها لغتها اليونانية على نحو ما نشر بها الرومان لغتهم اللاتينية وظلت هى المسيطرة فى البلاد طوال العهد البيزنطى . وكان عهدهم لا يقل عسفا وظلما عن عهد الوندال ومن قبلهم الرومان ، وكانوا يحكمون الجزائر بولاة تابعين لحاكم قرطاجة الكبير الملقب بالبطريق ، وكان اسمه بأخرة من عهدهم جريجوريوس ، وسماه العرب جرجير ، وحين رأى ضعف الدولة البيزنطية واستيلاء العرب منها على أكبر دُرَّتين فى تاجها : الشام ومصر صمَّم على الاستقلال عنها بما تحت يده من إفريقية التونسية والجزائر وقامت خصومة عنيفة بينه وبين الدولة البيزنطية وخلع طاعتها وضرب الدنانير باسمه .

٣

الفتح والولاة – الأغالبة – الإباضية – تلمسان

(أ) الفتح[1] والولاة

بينما جريجوريوس غارق فى حلمه بتكوين دولة له مستقلة فى البلاد المغربية إذا عمرو بن العاص والى مصر لعمر بن الخطاب يقدم على رأس جيش عربى مجاهد فى سبيل الله لتعقب الروم فى برقة وديار المغرب تأمينًا لحدود مصر فى أواخر سنة ٢١ للهجرة ، وسرعان ما يستولى على برقة وزويلة حاضرة فزان سنة ٢٢ هـ / ٦٤٢م وبعد أن رتب شئون الحكم فيهما تقدم غربًا

(١) انظر فى الفتح والولاة: فتوح مصر والمغرب لابن عبدالحكم والكامل فى التاريخ لابن الأثير، والبيان المغرب لابن عذارى، وتاريخ ابن خلدون، وفتوح البلدان للبلاذرى ومقدمات كتاب رياض النفوس للمالكى، والجزء الثانى من تاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبوز وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى.

ففتح طرابلس سنة ٢٣ هـ/٦٤٣م . ويعود عمرو إلى مصر ويتوفى الخليفة عمر ويخلفه عثمان فيولى على مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح ويستأذن عثمان فى غزو إفريقية التونسية ، وأذن له ، وانضم إلى جيشه بعض أبناء كبار الصحابة ، ودق الجيش أبواب إفريقية التونسية سنة ٢٧هـ/ ٦٤٧م واستولى على مدينة قابس . وكان جريجوريوس قد عرف أن العرب لابد أن يغزوا دياره وكان قد ترك عاصمته قرطاجة واحتمى بحصن أنشأه الروم فى الداخل جنوبى القيروان يسمى سبيطلة خوفًا من أن يهاجمه بقرطاجة أسطول الروم ، وجمع إليه جيشًا ضخمًا من الروم وغيرهم استعدادا لمنازلة العرب وسرعان ما أداروا معه معركة حامية ، ودارت عليه وعلى جيشه الدوائر وقتل فى المعركة ، قتله عبد الله بن الزبير ، وكانت معركة حاسمة ، قضت على الروم فى إفريقية التونسية وفتحت بلدانها أبوابها للجيش العربى إلا ما كان من قرطاجة فقد ظلت بها حامية رومية ، ورجع ابن أبى سرح إلى مصر وترك عليها نافع بن عبد القيس الفهرى ، ويولى عليها عثمان سنة ٣٤ للهجرة معاوية بن حُديج ، ويبدو أنه عاد منها أيام فتنة عثمان ، وأعاده إليها معاوية بن أبى سفيان ، فنازل الروم فى بنزرت وركبوا البحر فارِّين ، وولاها بعده معاوية عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ /٦٧١م وكان قد شهد فتح برقة وطرابلس وقابس والديار التونسية ، وكان قائدا حربيًا ممتازًا بعيد النظر ، فرأى أن يتخذ لجيشه العربى مدينة تكون مستقرا له ودارًا لا يبرحها ، وأخذ توا فى بناء مدينة القيروان أى المعسكر وأتمها سنة ٥٥هـ /٦٧٦م وبنى بها المسجد الجامع ودار الإمارة ودورًا لقواده وجنوده ، وبنى حولها سورًا منيعًا ، وأصبحت عاصمة للمغرب . غير أنه لم يلبث أن عُزل ووَلى المغرب بعده أو بعبارة أدق إفريقية التونسية أبو المهاجر ، وصمم على فتح نوميديا أو القسم الشرقى من الجزائر ، وتقدم فيه بجيشه حتى بجاية ، وواصل سيره إلى موريتانيا الشرقية حتى تلمسان ، وهو ينشر الإسلام ، وسكان الجزائر يقبلون عليه .

ومضى يتغلغل فيها وكانت الزعامة بها حينئذ لقبيلة أوربة ورئيسها كسيلة ، وكان قد جمع الجموع من البربر والروم ، والتقى به أبو المهاجر فى تلمسان ودارت بينهما معركة حامية الوطيس انهزم فيها جيش كسيلة ، ووقع فى الأسر ، فعامله أبو المهاجر معاملة كريمة جعلته يعتنق الإسلام ، وأخذت أفواج من قبيلته الكبيرة تدخل فيه . وعُزل أبو المهاجر سنة ٦٢هـ/٦٨٣م وتولَّى مكانه عقبة بن نافع ، وكان قائدا حربيًا باسلا ، غير أنه لم يكن سيوسا ، فأساء إلى كسيلة مما جعله يصُّر على الانتقام منه ، واستخلف عقبة على القيروان زهير بن قيس البلوى وخرج إلى الجهاد فى سبيل الله ، فاقتحم بلاد الزاب فى وسط الجزائر يحالفه النصر ، ومضى يفتح بقية الجزائر والمغرب الأقصى حتى طنجة قاعدته ، وفتح السوس الأدنى والأقصى واتجه إلى المحيط فبلَّ قوائم فرسه منه ، ونادى ربه قائلا : « اللهم إنى أشهدك أنى وصلت براية الإسلام إلى آخر المعمورة حتى لا يُعْبَد أحد سواك » وفى عودته رصده كسيلة وقومه ، حتى

إذا تقدم جيشه وبقى فى جمع قليل حاصره واستشهد البطل المغوار هو ومن معه سنة ٦٣هـ . ومضى كسيلة بجموعه حتى استولى على القيروان ونصب نفسه ملكًا على البلاد ، وتراجع زهير بن قيس إلى برقة منتظرًا لمدد ضخم ، وكان قد توفى يزيد بن معاوية واضطربت الأمور حتى إذا أصبح زمام الخلافة بيد عبد الملك بن مروان أرسل إليه جيشًا وولاه على المغرب سنة ٦٩هـ/٦٩٠م وواقع كسيلة ، وأنزل الله نصره عليه وعلى المسلمين وقُتِلَ فى الواقعة كسيلة المرتد الباغى الأثيم . ورأى زهير بعد هذا النصر العظيم أن يعود إلى المشرق ، وبينما هو فى نفر قليل من أصحابه عند برقة – وقيل عند طرابلس – إذ هو يرى بعض سفن للروم وهم يسوقون أمامهم بعض المسلمين فنازلهم وكتبت له عند ربه الشهادة .

وفى سنة ٧١ يرسل عبد الملك بن مروان إلى المغرب حسان بن النعمان أحد ولاة القيروان العظام فى القرن الأول الهجرى ورأى فى بدء حكمه بثاقب بصيرته أن البلاد لن تهدأ ما دامت قرطاجة لم تستسلم وما دامت بها الجالية الرومية الكبيرة التى تنزلها ، والتى تتجسس منها لحساب بيزنطة والتى تعيث وتفسد فى البلاد موغرة صدور البربر على العرب بكل وسيلة ، فحاصرها وافتتحها وفرَّت كثرة الروم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وهدم أسوارها حتى لا يتجمعوا فيها مختبئين مرة ثانية ، وطهَّر ميناء بنزرت وشمال إفريقية التونسية من الروم ،وفرض الجزية على من بقى على دينه المسيحى منهم ومن البربر . ومنذ أوائل عهده اشتعلت فتنة كبرى بقبيلة جراوة من قبائل زناتة بجبال أوراس فى الجزائر بزعامة كاهنة هناك ، ونازلها بجيش جرار قرب باغاية شمالى جبال الأوراس وانهزم المسلمون وطاردتهم حتى قابس ، ومكث بمدينة سرت فى ليبيا خمس سنوات ينتظر المدد من الخليفة عبد الملك ، وجاءه مدد ضخم سنة ٨٠ واشتبك مع الكاهنة فى حرب ضروس بجبال الأوراس ، حتى كانت الموقعة الفاصلة فانهزمت الكاهنة مع جيشها ، وولَّت وجهها نحو تبسَّه هاربة ولحقتها كتيبة فتكت بها ، واستأمن إليه من بقى من جيشها على الإسلام فأمَّنهم وأمَّن سكان أوراس الجزائريين جميعًا على أن يكون منهم اثنا عشر ألفًا مجاهدين معه ، فأجابوا وأسلموا وحسن إسلامهم وولَّى أكبر أبناء الكاهنة على قومه من جراوة وعلى جبل أوراس ، وأكرمهم وأكرم أبناء الكاهنة ، فملك قلوب الجزائريين وساد الأمن والهدوء . وكان حسان سيوسا ، فنظم البلاد تنظيما إداريًا وماليًا محكمًا إذ دوَّن الدواوين : ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الرسائل . وأصلح القنوات للرىّ ، وأقام لإفريقية التونسية ميناء جديدًا ليكون قاعدة لأسطول لها يحمى السواحل من غزوات الروم ، مما جعله ينشىء مدينة تونس ، ويلحق بها دار صناعة كبرى ، وسرعان ما أنشأ أسطولا ضخمًا وضرب للبلاد سكة جديدة .

وخلفه موسى بن نصير سنة ٨٦ فعمل على استكمال نشر الإسلام فى ربوع المغرب ، وأرسل حملات إلى أنحاء كثيرة ثم قام بحملته الكبرى فاكتسح بلاد المغرب حتى طنجة وإقليم

السوس ، وولى على طنجة طارق بن زياد مولاه البربرى . وكان يترك فى النواحى التى لم يتم إسلامها من يعلمون أهلها فرائض الإسلام ويحفظونهم القرآن الكريم ، وأسلم كثير من البربر فى أيامه . وأتم التنظيم الإدارى لبلدان المغرب ، فقسمه إلى ولايات ولكل ولاية قاعدتها وحاكمها ، فالمغرب الأقصى عاصمته طنجة ، وغربى المغرب الأوسط (الجزائر) عاصمته تلمسان ، وشرقى المغرب الأوسط (إفريقية التونسية ونوميديا الجزائرية وطرابلس) عاصمته القيروان ، وجعل لبلاد السوس جنوبى المغرب الأقصى ولاية مستقلة عاصمتها سجلماسة ، وجعل إقليم برقة ولاية مستقلة عاصمته برقة . وقام بعمل عظيم مع مولاه طارق والى طنجة إذ فتحا إسبانيا ونشرا الإسلام بها فى إقليمها الجنوبى والأوسط المسمى – فيما بعد – باسم الأندلس ، وهو شرف للبطلين لا يمائله شرف .

وعزل الخليفة سليمان بن عبد الملك قصير النظر موسى بن نصير . ويعد عهد موسى بن نصير نهاية الفتح العربى للربوع المغربية ونشر الإسلام فى جميع أرجائها . وقد خلفه محمد بن يزيد مولى قريش سنة ٩٧ للهجرة وكان حسن السيرة – كما يقول الرقيق القيروانى – عادلا رفيقا كل الرفق بالرعية . ويصبح عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين سنة ٩٩ فيصلح أداة الحكم فى الدولة ، ويرسل إلى إفريقية والقيروان بعثة من عشرة فقهاء ليعملوا على نشر الدين الحنيف فى الديار المغربية واختار أحدهم وهو إسماعيل بن عبيد الله حفيد أبى المهاجر والى القيروان بين فترتى عقبة بن نافع الذى فتح المغرب الأقصى ونشر به الدين الحنيف ، وكان الحفيد مثل جده تقوى وسياسة حكيمة ، فأصلح الجباية بالمغرب وسوّى فيها – كما أمر عمر بن عبد العزيز – بين البربر والعرب ، وعمل بقوة – مع زملائه الفقهاء التسعة الذين أرسلهم معه عمر – على نشر الدين الحنيف فى المغرب ، ودخله منهم أفواج لا تكاد تحصى . وتوفى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ للهجرة ، وخلفه يزيد بن عبد الملك ، فعاد ولاته إلى الخسف والظلم فى جمع الضرائب والأموال من الولايات المغربية ، وقد اختار للمغرب يزيد بن أبى مسلم صاحب شرطة الحجاج سنة ١٠٢ فساس المغرب بسياسة الحجاج الغاشمة التى قامت على التفرقة بين العرب والموالى المسلمين فى العراق ، غير ملاحظ أن أهل المغرب من البربر انتظموا فى سلك الجيوش التى أتمت فتح المغربين الأوسط والأقصى وأنهم كانوا الأكثرية فى الجيش الذى فتح إيبيريا وأدخل الشطر الأعظم منها فى الدين الحنيف ، وبذلك أصبحوا – بالقياس إلى العرب – رفقاء سلاح وجهاد ، ولم يلبث البربر أن أجمعوا على قتله ، فقتلوه سنة ١٠٣ للهجرة ، وكان ذلك درسا ليزيد بن عبد الملك ، فولّى على المغرب فى نفس السنة بشر أبن صفوان الكلبى ، وكان رءوفا بالرعية ، وأرسل حملة من العرب وإخوانهم البربر لغزو صقلية سنة ١٠٧ وعادت الحملة بغنائم وفيرة ، وتوفى سنة ١٠٩ للهجرة ، فولّى هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السلمى سنة ١١٠ وأخذ البربر بالرفق والمعاملة الحسنة ، وأرسلت

حملة إلى صقلية وعادت فى ريح عاصفة فغرقت كثرة منها . وتولّى بعده عبيدالله بن الحبحاب سنة ١١٤ للهجرة ، فأعاد بناء جامع الزيتونة بتونس الذى بناه حسان ، ولم يلبث أن أساء السيرة هو وعماله فى جميع أنحاء المغرب ، إذ تشددوا فى جمع الخراج وجباية الأموال من البربر ، ورفضوا – فى إصرار غريب – التسوية بين العرب والبربر فى الشئون المالية كما تقضى بذلك شريعة الإسلام ، وبلغ من تهور عامل طنجة عمر بن عبيد الله المرادى وسفهه أن أعلن أنه عازم على تخميس أراضى البربر زاعما زعما آثما أنها فَيْءٌ للعرب وغنائم حرب لهم .

وكان طبيعيًا أن يثور البربر على هذه السياسة الغاشمة الظالمة ، وكان دعاة الخوارجُ صُفْرِيَّة وإباضيَّة قد أخذوا ينشرون فى المغرب مبادئهم التى تحتّم التسوية بين العرب والموالى المسلمين فى جميع الشئون المالية وفى الخلافة فهى حق لجميع المسلمين بحيث يتولاها أكفأهم جميعا عربًا وموالى . واعتنق البربر فى جبل نفوسة بليبيا العقيدة الإباضية المعتدلة التى لا يكفّر أصحابها إخوانهم المسلمين ولا يقاتلونهم إلا إذا بادروهم بالقتال ، بينما اعتنق المغرب الأقصى عقيدة الصُّفْرِيَّة الذين يكفّرون غيرهم من المسلمين ويوجبون على أنفسهم حربهم ، وتزعَّم الدعوة لتلك العقيدة بالقرب من طنجة على المحيط بربرى من قبيلة مضغرة البُتْرِيَّة يدعى ميسرة ، وبايعه البربر واتخذوه إمامًا لهم ، وكوَّن منهم جيشا ضخما احتلَّ به طنجة سنة ١٢٢هـ/٧٣٦م وقتل عاملها الغشوم عمر بن عبيد الله المرادى . ولم يلبث أن هُزم فى بعض معاركه مع جيوش ابن الحبحاب فظن به بعض أنصاره الخيانة فقتلوه ،وولت الصفْرية فى المغرب الأقصى عليها خالد بن حميد الزناتى سنة ١٢٣ إمامًا لها وقائدًا ، وأخذ يعدّ العدة للقاء جيش ابن الحبحاب ، والتقى به فى الجزائر على نهر شلف شمالى تيهرت ، ونشبت بين الطرفين معركة عنيفة كان النصر فيها حليف الصفْرية وقُتل فيها كثيرون من أشراف العرب ، ولذلك سُمِّيت معركة الأشْراف . ويعزل هشام بن عبد الملك ابن الحبحاب ، ويولّى المغرب كلثوم بن عياض القشيرى وشدّ أزره بابن أخيه بلج بن بشر ، ويقدمان إلى المغرب الأقصى فى جيش ضخم ، ويديران مع خالد بن حميد إمام الصفْرية جنوبى طنجة معركة ضارية ، ويهزمان ويتوفّى كلثوم ، فينسحب بلج ببقية جيشه إلى مدينة سبتة ، وتحاصره الصفْرية فيها وتشدد الحصار ويضطر إلى العبور بجيشه إلى الأندلس ، ويثور البربر فى المغرب بجميع دياره . ويولى هشام عليه حنظلة بن صفوان سنة ١٢٤هـ/٧٤١م وأمدَّه بجيش جرَّار . وعرف أن قائدين صُفْريين هما عكاشة بن محصن الفزارى وعبد الواحد بن يزيد الهوارى حشدا جموع الصفرية فى الزاب بالجزائر لحربه ، واتفقا أن يسيرا فى طريقين لمهاجمة القيروان : عبد الواحد من الشمال وعكاشة من الجنوب ، وعلم حنظلة بخطتهما فأسرع بلقاء عكاشة ومزّق جيشه ، وأخذ يستعد فى القيروان لمنازلة عبد الواحد ، واستثار الفقهاء لحربه ، فانضموا إلى جيشه ووزّع عليهم السلاح ، وبرزت النساء مع الجيش حاملات السلاح وامتلأ الجيش حمية ، ودارت المعركة فسُحق جيش عبد الواحد

وحُملت رأسه إلى حنظلة فخرَّ لله ساجدًا . وقُتل الوليد بن يزيد الخليفة الأموى سنة ١٢٦ فأحسَّ عبد الرحمن بن حبيب حفيد عقبة بدنوِّ أجل الدولة الأموية فأعلن الثورة سنة ١٢٧هـ/٧٤٤م وكان حنظلة تقيا فكره أن يتقاتل المسلمون وعاد إلى المشرق . ولما أصبح صولجان الخلافة بيد مروان بن محمد سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م أقر ولاية عبد الرحمن بن حبيب على المغرب دَرْءًا للفتن هناك ، ولأنه أعلم من غيره بشئونها إذ هى داره ودار جده عقبة بن نافع ، وثارت الإباضية بطرابلس سنة ١٣٠ بقيادة عبد الله بن مسعود التجيبى وأخمد الثورة ، وبايع الإباضيةُ هناك الحارث بن تليد بالإمامة واتخذ عبد الجبار بن قيس المرادى وزيرًا له ومستشارا ، وأدارا الحرب مع جيوش عبد الرحمن واغتيلا سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م . وفى نفس السنة تحولت الخلافة إلى العباسيين فأقروا عبد الرحمن بن حبيب فى ولايته ، وسمع بتجمع للصفرية بتلمسان فى الجزائر سنة ١٣٥ ففاجأهم وكُتب له النصر عليهم . وأرسل حملة إلى صقلية رجعت بكثير من الغنائم ، واستولى على جزيرة قوصرة التى تبعد عن الشاطىء التونسى نحو ثلاثين ميلا ، وتنازل عنها – فيما بعد – أبو زكريا مؤسس الدولة الحفصية بتونس لفردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة « ملك صقلية » سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م . وتآمر على عبد الرحمن أخواه إلياس وعبد الوارث فقتلاه سنة ١٣٧ وتولى بعده إلياس ، وقتله ابن أخيه : حبيب بن عبد الرحمن وتولَّى مكانه ، ولم تلبث قبيلة وَرْفجومة النفزاوية الصفرية الغالبة أن هاجمته واستولت على القيروان واستباحتها سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م وحاول حبيب أن يستردها سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م ففتكت به ورفجومة . وكانت قد استحلت المحارم فى القيروان فغضب لأهلها أبو الخطاب عبد الأعلى إمام الإباضية بطرابلس وجبل نفوسة ، فهاجم ورفجومة وخلَّص منها القيروان سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وولَّى عليها عبد الرحمن بن رستم أحد قواده ، ولم يلبث محمد بن الأشعث والى مصر أن قدم على رأس جيش ضخم ، فاشتبك مع أبى الخطاب فى معركة ضارية قتل فيها أبو الخطاب ، وفرَّ واليه على القيروان عبد الرحمن بن رستم إلى الزاب فى الجزائر وأسس فى شماليه دولة للإباضية بمدينة تاهرت ظلت بعده حتى سنة ٢٩٦ . وولَّى ابن الأشعث على الزاب الأغلب بن سالم التميمى ولم يلبث أن تولَّى على المغرب الأدنى سنة ١٤٨هـ/٧٦٢م ويقتل فى بعض حروبه سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م ويتولى على المغرب عمرو بن حفص الملهبى (هزارمرد) بانى طَبْنة بالزاب ، ونازل فى الجزائر الصفرية والإباضية بتاهرت ، وثارت عليه إباضية طرابلس وحاصرت القيروان وخرج إليها واستشهد فى المعركة سنة ١٥٣هـ/٧٧٠م . وخلفه ابن عمه بزيد بن حاتم المهلبى سنة ١٥٤ ويقول عنه الرقيق القيروانى : « كان كثير الشَّبه بجدِّه المهلب فى حروبه ودهائه وكرمه وسخائه وكان خبيرًا بشئون الإدارة فرتَّب القيروان وسوقها ، كما كان خبيرًا بشئون السياسة والحرب ، فقلم أظفار الصفرية فى الجزائر ولم يعد لهم نشاط إلا فى ديار زناتة بالصحراء ، وقلَّم بالمثل أظفار الإباضية ، فلم يعد لهم نشاط إلا فى تاهرت وجبل نفوسة ،

وهدأت الأمور بإفريقية واستقرت طوال عهده ، وكان أديبا ، وأسبغ عطاياه على الشعراء ووفدوا عليه من المشرق ، وأحدث فى القيروان حركة أدبية واسعة ، وجدَّد جامع عقبة الأعظم بها ، وازدهر فى عهده العمران . وظل واليا على إفريقية التونسية ونوميديا أو شرقى الجزائر حتى قسنطينة والزاب ستة عشر عامًا كانت أعوام رخاء وهدوء بالمغرب إلى أن توفى سنة ١٧١هـ/٧٨٧م وتولى بعده أخوه روح بن حاتم ، وكان لا يقل عن أخيه شجاعة وبطولة وحنكة سياسية ، ونعمت إفريقية التونسية والزاب فى أيامه باطراد الهدوء والرخاء وفى عهده تأسست الدولة الإدريسية الحسنية فى وَليلى جنوبى طنجة بالمغرب الأقصى ، وتوفى سنة ١٧٤هـ/٧٩١م وخلفه ابنه الفضل حتى سنة ١٧٩ وخلفه هرثمة بن أعين أحد قواد الدولة العباسية العظام ، ونشر فى الاقليم التونسى والطرابلسى الأمن والنظام ، وبنى مدينة المنستير وقصرها الكبير سنة ١٨٠ واختار للزاب واليًا إبراهيم بن الأغلب التميمى ، وأعجب بشجاعته وحسن سياسته ودهائه ، وعاد إلى بغداد سنة ١٨١هـ/٧٩٧م وخلفه محمد بن مقاتل العكّى إلى سنة ١٨٤ وكان ضعيفًا سيىء السياسة . واستشار هرون الرشيد هرثمة فيمن يوليه المغرب ويحسن القيام عليه وقمع ثوراته ، فأشار عليه بإبراهيم بن الأغلب وامتدحه له طويلا ، فارتضى ولايته عليه منذ سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م وجعله له ولأبنائه من بعده آملا أن يكوِّن به أسرةً حاكمة له حكما سديدا كحكم المهالبة المذكورين آنفا .

(ب) الأغالبة[1]

كانت الجزائر تحظى حينئذ فى شرقيها (نوميديا القديمة) بدولة الأغالبة المستقلة ، وكان منذ الفتح تابعا للقيروان ، وكان يمتد غربى الإقليم التونسى إلى بجاية على البحر المتوسط ومنها إلى الصحراء جنوبا شاملا قسنطينة وإقليم الزاب وعاصمته طَبْنة . ونعم هذا القسم من الجزائر فى عصر الدولة الأغلبية بنهضة عمرانية وحضارية وعلمية شأنه فى ذلك شأن عاصمته الكبرى القيروان وما تحقق لحكامها الأغالبة من مجد حربى عظيم باستيلاء الأمير زيادة الله الأغلبى على صقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م ونقله هو وخلفائه من أسرته إليها الدين الحنيف العظيم والحضارة العربية المزدهرة وكل ما ارتبط بها من العلوم والصناعات . وكان ذلك فتحا عظيما للدولة الأغلبية ورعاياها فى الإقليمين التونسى والجزائرى ، فرحل منهم كثيرون إليها ينعمون بما فيها من طيبات الأرض ، مما عاد على التونسيين والجزائريين بخير وفير ، مع شعورهم بغير قليل من العزة . وظل هذا الشعور يزداد قوة طوال أيام الأغالبة بفضل أسطولهم العظيم وغزواته

---

(١) انظر فى الأغالبة المصادر السابقة والجزء الثالث من كتاب أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب والحلة السيراء لابن الأبار ، وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى والجزء الأول من كتاب ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب وما كتبه فيه عن أمرائها .

لبارى فى شرقى إيطاليا ولروما نفسها ، وحصون وبقاع إيطالية كثيرة جنوبيها ، واستولى على مالطة سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م ونشر بها الإسلام وحضارته الباهرة . وتبلغ هذه الدولة التونسية الجزائرية أعظم قسط من الحضارة والمدنية فى عهد إبراهيم بن أحمد الأغلبى (٢٦١هـ/٨٧٤م - ٢٨٩هـ/٩٠١م) إذ يؤسس فى مدينته رقادة التى بناها بجوار القيروان بيت حكمة على غرار بيت الحكمة للرشيد والمأمون ببغداد ، وهو أول جامعة للعلوم نشأت فى البلاد المغربية ، وكان يدرس بها الطب والفلك وتقويم البلدان والفلسفة ، وقاد إبراهيم الأسطول بنفسه إلى جنوبى إيطاليا ، واستولى فيه على طائفة كبيرة من الحصون . وكل ذلك كان يملأ الرعية فى الإقليم التونسى وشرقى الجزائر بالبهجة . وكان الأغالبة على وعى كبير بالسياسة وتدبير شئون الحكم ، فكانوا يولون على شرقى الجزائر فى طَبْنة ولاة يحسنون إدارة الحكم ، وكانوا يمنحونهم سلطة إدارية واسعة ، وكان قاضى القيروان يولى على البلاد قضاة نزهين ثقاة يحكمون بين الناس بالعدل والإنصاف لافرق بين عربى وبربرى ، بل مساواة تامة فى الحقوق والواجبات ، فازدهرت الحياة فى شرقى الجزائر - لعهد الأغالبة - وازدهرت الحضارة الإسلامية ازدهارا رائعا .

(جـ) الإباضيون[1]

تأسست الدولة الإباضية فى القسم الغربى من الجزائر الداخل قديما فى موريتانيا الشرقية ، أسَّسَها عبد الرحمن بن رستم فى منطقة جبلية وعرة متخذًا مدينة تاهرت عاصمة لها ، ولما أن كثر أتباعه من الإباضية أعلنها سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م وقد أقامها على أسس مبادىء الإباضية المثالية إذ جعلها ديمقراطية يولَّى الإمام فيها بمشورة ستة من وجوه القوم ورؤساء القبائل على نحو ما صنع عمر بن الخطاب واشترط فى الإمام أن يكون عادلا منتهى العدل عالما بالإسلام وتعاليمه حق العلم عاملا بمبادئه التى تكفل بدقة مصلحة الجماعة فى الدنيا وسعادتها فى الآخرة ، ويُبايَعُ الإمام بيعة عامة بعد انتخاب الشورى له ، ويستشير فى الأمور المهمة « الشراة » وهم عظماء المذهب الإباضى وعلماؤه ، كما يستشير فى الأمور العامة سادة القوم والقبائل ، ويعيِّن القضاة بعد استشارة الشراة ، ويضبط الحكم عن طريق نوعين من الشرطة : شرطة تقوم بالحراسة والمحافظة على الأمن ، وشرطة تسمى شرطة الحسبة تشرف على الأسواق وتحكم فى خصوماتها وتطوف فى المدينة أوالقبيلة ، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر . وتداول الإمامة فى تاهرت ستة أئمة ، أولهم عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة حتى سنة ١٧١ وكان يتميز

(١) انظر فى الدولة الإباضية بتاهرت كتاب أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير بتحقيق الدكتور ناصر والأستاذ النجار والبيان المغرب لابن عذارى وكتاب السير للشماخى وتاريخ الجزائر لأحمد توفيق المدنى والجزء الثالث من تاريخ المغرب الكبير لمحمد على دبوز والأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية لسليمان الباروني وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث للميلى ص٤٣٦ وما بعدها .

بالعدالة والتقوى وسعة العلم ، واختارت شورى الإباضية بعده ابنه عبد الوهاب وظل إماما للإباضية حتى سنة ٢١١هـ/٨٢٧م غير ملاحظين أن ذلك يفضى بالإمامة إلى أن تكون وراثية ، مما يناقض إنكارهم لنظام الخلافة الوراثى ، وأدَّى ذلك إلى انشقاق فى صفوف الإباضية هناك إذ نشأت بينهم طائفة تسمى النكارية أنكرت إمامة عبد الوهاب الوراثية . وتمرَّدت عليه فى شمالى الدولة فرقة الواصلية المعتزلة نسبةإلى زعيم المعتزلة فى البصرة واصل بن عطاء وحاربها وقضى على فتنتها ، وانضم إلى مذهبه الإباضى جبل أوراس أو بعضا منه ، وخلفه ابنه أفلح حتى سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م وكانت النكارية لا تزال تشاقُّ جماعة الإباضية شاهرة السلاح فأدار معها حربا انتهت بمقتل قائدها وتشتت أنصاره فى البلاد والقبائل ، وخلفه ابنه أبواليقظان حتى سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م وأخذت الدولة فى الضعف وتفاقم فى عهد ابنيه أبى حاتم وأبى اليقظان . وكان أبو عبد الله الشيعى داعية المهدى الفاطمى قد نشر الدعوة الفاطمية فى قبيلة كتامة وأيدته فى القضاء على الدولة الرستمية نهائيا سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م .ومما يذكر لهذه الدولة تنشيطها التجارة إلى الصحراء الإفريقية المدارية فى بلاد تشاد والنيجر ومالى وفولتا وإلى السودان النيلى فى مناطق كردفان وواداى . وقد عنيت الدولة عناية واسعة بحراسة السبل وإقامة الفنادق والمحطات وحفر الآبار للقوافل وحراستها ، وأهم من ذلك أنها أقامت فى الواحات وفى كثير من الجهات زوايا بها مساجد لنشر الإسلام فى كل البقاع التى كانت تنزلها القوافل ، وهى خدمة دينية وحضارية كبرى . ولما قُضى على الدولة الإباضية فى تاهرت انحاز الإباضيون فى الجزائر إلى الجنوب – حتى اليوم – فى أرض ميزاب والواحات مثل بسكرة والأغواط وغرداية وورجلان . وتبع سقوط الدولة الرستمية سيطرة المذهب السنى – وخاصة مذهب مالك – على البلاد وعلى مراكز التجارة والزوايا فى الصحراء الإفريقية المدارية والسودان النيلى .

(د) تلمسان

فى أقصى الغرب من الجزائر تقع تلمسان وإقليمها ، وكان بها من قديم بنو يفرن الزناتيون مؤسسوها وكانوا يعتنقون مذهب الصفرية الخوارج ، وشدوا أزر ميسرة فى حربه ضد جيش ابن الحبحاب كما شدوا أزر الإمام الصفرى بعده خالد بن حميد . ونراهم فى سنة ١٤٨ يبايعون بالإمامة الصفرية رجلا منهم هو أبو قرة اليفرنى الزناتى ، ويُعِدّ فى سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م جيشا كبيرا لمنازلة الأغلب بن سالم التميمى فى ولايته على المغرب الأدنى (الإقليم التونسى وشرقى الجزائر) ويبلغ النبأ الأغلب فيقدم إليه بجيش جرار ، حتى إذا اقترب منه هرب وتفرَّقت عنه جموعه . ويتولى المغرب الأدنى سنة ١٥١هـ/٨٦٨م عمر بن حفص المهلبى ويأخذ فى إعداد جيش لمنازلة أبى قرة ويحصن طبنة عاصمة الزاب ، وكان أبو قرة أعد جيشا كثيفا لملاقاته ، وتقدم إلى طبنة ، غير أن خلافا دبَّ فى جيشه ، وتفرَّق عنه جنوده . واضطر عمر بن حفص

إلى العودة إلى القيروان لبلوغه نبأ ثورة قبيلة هوارة بطرابلس عليه ، وانتهز أبوقرة غيابه عن طَبنة فهاجمها ، وكان عمر بن حفص ترك بها المهنَّا مع قطعة من جيشه ، فاشتبك مع أبى قرة فهزمه وولّى الأدبار وأخذ المهنا عسكره بكل ما فيه . ولا نعود نسمع بثورة لأبى قرة ، وتظل تلمسان خاضعة لقبيلة بنى يفرن الزناتية حتى تأخذها منهم قبيلة مغراوة سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م . ولما أسس إدريس الأول الحسنى دولة الأدارسة فى وَليلى بإقليم فاس سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م ودار العام واشتدت شوكته رأى الزحف على تلمسان وما جاورها من قبيلة مغراوة ، وعلم بزحفه محمد بن خزر المغراوى فخرج إليه حين اقترب من البلدة ، وبايعه هو وجميع وجوه تلمسان ، وعيَّنه إدريس واليا عليها وأمره ببناء مسجدها وعاد إلى وليلى وتوفى سنة ١٧٥هـ/٧٩١م وخلفه ابنه إدريس الثانى حتى سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م وكان فقيها وراويا للحديث وشجاعا مقداما فى مهام الأمور ، وهو الذى بنى مدينة فاس واتخذها عاصمة للدولة ، ونزل تلمسان وأقام بها ثلاث سنوات نظَّم فيها شئونها الإدارية والمالية ومحا منها دعوة الصفرية . ونزلها – كما يقول ابن خلدون وبعض المؤرخين – عمه سليمان بن عبد الله ، ويبدو إن إدريس الثانى أو ابنه محمد تركها له فتملكها وبايعه أهلها ، وتوارثها هى وإقليمها فى الجزائر عنه أبناؤه وأحفاده إلى أن أخذت منهم موسى بن أبى العافية فى القرن الرابع ثم تصير للدولة العبيدية .

٤

الدولة العبيدية – الدولة الصنهاجية – بنو حماد

(أ) الدولة العبيدية[1]

لم يلبث أبو عبد الله الشيعى أن دخل القيروان وقضى على الدولة الأغلبية ، وبذلك يكون قد قضى فى عام واحد على الدول الثلاث التى كانت تتقاسم الجزائر : دولة الأغالبة فى شرقيها ودولة الإباضيين بتاهرت فى وسطها ودولة الأدارسة من أبناء سليمان بن عبد الله فى غربيها ، وبذلك دانت الجزائر للدولة العبيدية منذ أواخر القرن الثالث للهجرة فكان يديرها المهدى الفاطمى من القيروان ثم من مدينة المهدية التى بناها بجوارها عاصمة له ولمن بعده ، ونالت الجزائر فى أيامه رخاء وأمنا وانتعشت التجارة بينها وبين الصحراء المدارية والسودان ، وأيضا بينها وبين أوربا ، وبنى عامله على الزاب على بن حمدون الزناتى بسهل الحضنة مدينة المسيلة (المحمدية) سنة ٣١٥ ، ويتوفى سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م . ويخلفه ابنه القائم وفى أيامه أخذ ثائر بربرى من الخوارج يُعِدّ العدة فى الجزائر للانتقاض عليه والثورة يُدْعَى أبا يزيد مخلد بن كيداد ،

(١) انظر فى الدولة العبيدية اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا للمقريزى وكتابه الخطط والبيان المغرب لابن عذارى وأعمال الأعلام لابن الخطيب وأخبار بنى عبيد وسيرتهم لابن حماد وافتتاح الدعوة للقاضى النعمان وكتابه المجالس والمسايرات وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى ص٥٠٢ وما بعدها .

أصله من مدينة توزر التونسية فى بلاد الجريد ، وكان فى أوائل حياته يحفّظ الصبية والغلمان القرآن الكريم فى مدن مختلفة بتونس والجزائر ، ونزل تاهرت فى أواخر أيام الرستميين ، ويقول المؤرّخون إنه اعتنق عقيدة الإباضية النكّارية ، وأخذ يجتمع إليه كثيرون من قبيلته زناتة ومن البربر الخوارج إباضيين وصفريين ، وكوّن منهم جيشا لقى به قبيلة كتامة فى الأربس وغير الأربس وهزمها مرارا . وكان يبيح لجيشه نهب البلاد وحرقها وسَبْى النساء وقتل الأطفال مما يؤكد أنه لم يكن إباضىّ العقيدة كما يذكر المؤرخون ، إذ الإباضية لا يستحلون شيئا من ذلك كله ، ومن أجل ذلك نرى أنه كان على مذهب الصفرية من الخوارج لا الإباضية ، ويبدو أنه قرأ عن الخوارج الأزارقة المتطرفين الذين كانوا يستحلون سَبْى النساء وقتل الأطفال ، فاقتدى بهم ، وبئس القدوة . وماتوافى سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٤ م حتى يحشد جيشًا ضخمًا يستولى به على كثير من البلدان فى الجزائر والإقليم التونسى ، ويتقدم بجيشه حتى مدينة رقادة بالقرب من القيروان وينهبها ، ويقتل واليها العبيدى خليل بن إسحق . ويقصد القيروان ويستولى عليها وينضم إلى جيشه أهل السنة من سكانها يريدون الانتقام من العبيديين لمحاولتهم فرض عقيدتهم الإسماعيلية عليهم ومحو مذاهب السنة من مثل مذهب مالك ، وزحفوا معه إلى أسوار مدينة المهدية عاصمة العبيديين وحاصرها . وتوفّى الخليفة العبيدى القائم فى أثناء حصاره لها سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م وخلفه ابنه الخليفة المنصور، وظلت الحرب بينه وبين ابن كيداد سجالا، واستصرخ زيرى زعيمَ صنهاجة فى الجزائر، فلبى صراخه ، وانهزم ابن كيداد هزيمة ساحقة ، وولّى الأدبار إلى الجزائر، والخليفة المنصور من ورائه يتعقبه فى باغاية بجبال الأوراس وغير باغاية إلى أن جاءوه به مكبلا بالأغلال ، ففتك به سنة ٣٣٦ هـ/٩٤٧ م وبالقضاء على ثورته انتهت ثورات الخوارج فى الجزائر .

(ب) الدولة[1] الصنهاجية

إذا كانت قبيلة كتامة الجزائرية هى التى لعبت الدور الأول فى نصرة أبى عبد الله الشيعى على دول الجزائر الثلاث : الأدارسة فى تلمسان والإباضيين فى تاهرت والأغالبة فى القسم الشرقى من الجزائر فإن قبيلة صنهاجة هى التى كان لها الدور الأول فى القضاء على ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الصُّفرى ، والقبيلتان جميعا كانتا تحتلان شمالى الجزائر : كتامة إلى الشرق وصنهاجة إلى الغرب ، وكانتا تأخذان بحظ من الحضارة ، وهما من قبائل البرانس المتحضرة . وكانت قبيلة زناتة تحتل الجنوب الجزائرى ، وهى من قبائل البُتْر المتبدّية ، وكانت شعبها

(١) انظر فى الدولة الصنهاجية الكامل لابن الأثير والبيان المغرب لابن عذارى وأعمال الأعلام لابن الخطيب والجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وابن خلكان فى تراجم بادبس والمعز وتميم وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى ص ٥٢٩ وما بعدها .

وفروعها تمتد إلى تلمسان والمغرب الأقصى غربا وإلى جنوبى الإقليم التونسى وطرابلس شرقا . وولّى الخليفة الفاطمى المنصور زيرى الصنهاجى على المنطقة الغربية فى الجزائر وحين تولى المعز الخلافة العبيدية سنة ٣٤١ هـ/٩٥٢ م أبقاه عليها ، وكان مثل قبيلته على حظ من الحضارة ويتضح ذلك فى بنائه مدينة أشير إلى الشمال الشرقى من تاهرت سنة ٣٢٤ هـ/٩٣٥ م واتخاذها عاصمة له ولقبيلته ، ودفع ابنه بلكين – فيما بعد – لتأسيس مدينة الجزائر على البحر المتوسط ومدينة مليانة جنوبى شرشال على الضفة الشرقية لنهر شلف ومدينة المدية إلى الجنوب الشرقى من مليانة . وساعد زيرى جوهرا الصقلى فى سنة ٣٤٧ هـ/٩٥٨ م فى حملته التى استولى بها على جميع بلدان المغرب الأقصى ما عدا سبتة وطنجة اللتين كانتا تدينان بالولاء لعبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى فى قرطبة . وكان جوهر الصقلى قد استولى على مصر للمعز سنة ٣٥٩ هـ/٩٦٨ م وشاع عقب ذلك أن الخليفة االعبيدى المعز سيترك عاصمته المهدّية فى إفريقية التونسية إلى مصر ، وسيولّى زيرى على المغرب جميعه نائبا عنه ، فامتعض لذلك جعفر بن على بن حمدون الزناتى والى الزاب للمعز سنة ٣٦٠ هـ/٩٧٠ م وكانت بينه وبين زيرى ضغائن وأحقاد وعداوة ، ولم يلبث أن جمع عسكره وسلاحه وأمواله وخرج من مدينة المسيلة عاصمة ولايته التى بناها أبوه فى ولايته عليها كما مرَّ بنا ، واتجه إلى قبيلته : زناتة خالعا طاعة المعز ، واحتفت به قبيلته وملّكته عليها ، واستطاع فى سنة ٣٦١ أن يجمع منها جيشا ضخما وزحف به على أراضى صنهاجة ، وعلم زيرى فجمع رجاله بسرعة ، والتقى به ، واشتبك الخصمان ورجحت كفة جعفر بن على وزناتة وقتل زيرى فى المعركة . وكان ابنه بلكين فى أشير وجاءه نبأ مصرع أبيه ، فأعدَّ العدة سريعا للأخذ بثأر أبيه ، والتقى بزناتة ومزّق جموعها ونكّل بها تنكيلاً شديدًا ، وبلغ انتصاره عليها المعز ، فأقرّه على ولاية أبيه وأضاف إليه الزاب وتاهرت وسائر أعمال المغرب . وقبل مبارحة المعز المهدية إلى مصر ولاه على إفريقية التونسية والمغرب جميعه فى ذى الحجة لسنة ٣٦١ هـ/٩٧٢ م مع استثناء طرابلس وصقلية ، وكان ينبغى أن يترك له صقلية لأنها بعيدة عن مصر ، ولن تستطيع حمايتها عند الضرورة .

وأخذ بلكين ينهض بمسئوليات الحكم فى المغرب ويرتّب شئونه ، وهو بربرى مغربى من صنهاجة ، وقد مضى يعمل على تأسيس دولة صنهاجية مغربية يتوارثها أبناؤه ، وهى أول مرة فى التاريخ الإسلامى تنشأ دولة مغربية إسلامية فيه ، وتتوالى بعدها دول مغربية كبيرة ، مما يجعل حكم بلكين للمغرب فاتحة انتقال الملك والسلطان فيه من العرب إلى البربر وبعبارة أدق إلى زعماء البربر ورؤساء قبائلهم ، وهو تطور طبيعى إذ ظل البربر ، وبعبارة أخرى أبناء المغرب ، يتدربون قرونا – طوال الحكم العربى – على النظم الإسلامية فى إدارة الدولة وأخذوا يحكمون أقاليمها المختلفة . وآن أن تنشأ لهم دولة مغربية أو دول من ذات أنفسهم ، أما ما يقوله مارسيه فى كتابه : « البربر المسلمون فى العصور الوسطى » وكتابه : « بلاد المغرب الشرقية » من أن

هذا التحول فى المغرب من حكم العرب إلى البربر كان نفورا من العرب وكرها لهم وتحقيقا لآمال البربر فى الاستقلال عن العرب ودولهم فإن ذلك كله ليس بصحيح ، إنما الصحيح أنه تطور طبيعى لتمرُّن البربر على أساليب الحكم وبناء الدول ، وأيضا بناءُ المدن ، ومرَّ بنا آنفا بناء على بن حمدون لمدينة المسيلة وبناء زيرى لمدينة أشير وبناء بلكين لمدينتى الجزائر ومليانة .

واتخذ بلكين القيروان عاصمة له ، وتوفى الخليفة العبيدى المعز سنة ٣٦٥ هـ/٩٧٥ م وتولّى ابنه العزيز وثبَّته فى ولايته وأضاف إليه طرابلس وإقليمها . وثارت فى أوائل عهده بالجزائر تاهرت وباغاية وتلمسان واستسلمت له سريعا ، وكانت الخلافة الأموية بقرطبة لا تزال توعز لزناتة وتلمسان وسجلماسة وفاس بالثورة على الخلافة العبيدية وبلكين ، وقاد فى سنة ٣٦٨ هـ/٩٧٩ م جيشا كثيفا إلى تلك الأنحاء ، واستسلمت له جميعا . وتوفى فى أثناء عودته من المغرب الأقصى سنة ٣٧٣ للهجرة ، وخلفه ابنه المنصور فى أوائل سنة ٣٧٤ هـ/٩٨٤ م فعقد لأخيه يطوفت على أشير عاصمة صنهاجة . وكان المنصور بن أبى عامر المستبد بحكم الأندلس باسم خليفته الشرعى المؤيد قد أعان زيرى ابن عطية زعيم زناتة على بسط سلطانه على سجلماسة ، وبالمثل على فاس واتخذها عاصمة له ، فأمر المنصور أخاه يطوفت أن يقود جيشا إلى المغرب الأقصى ليسترجعه من زيرى ، وصدع بأمره ، غير أن زيرى هزمه وعاد إلى أشير يجر أذيال الهزيمة . وكان المنصور رجل سلم فصمم أن تضع الحرب أوزارها بين قبيلته صنهاجة وقبيلة زيرى زناتة فلا يعودوا إلى القتال ، وأعلن أن تلك آخر حرب بين القبيلتين حتى ينهى الحروب العقيمة التى أنهكت قواهما طويلا . وعرف العزيز الفاطمى فى القاهرة هذا النبأ فغضب لما يؤدى إليه من ضياع المغرب الأقصى نهائيا ، فأرسل إلى كتامة فى الجزائر داعية يسمى أبا الفهم الخراسانى سنة ٣٧٦ لتأليبها على المنصور ، وظل سنة يثير الكتاميين ويجمعهم حوله ، ولقيه المنصور هو وجموعه فى سطيف شرقى تاهرت وقضى عليه . وأدت سياسته الحكيمة مع زناتة إلى أن تنضم إليه جماعة منها سنة ٣٧٩ بزعامة سعيد بن خزرون فولاّه على طبنة ، وتوفى سنة ٣٨٢ فولّى ابنه فلفلا مكانه . وعم الجزائر الأمن والهدوء فى بقية أيامه وتوفى سنة ٣٨٦ هـ/٩٩٦ م وخلفه ابنه باديس فى الثالثة عشرة من عمره فدبَّر له أمور الدولة فى إفريقية التونسية والجزائر أعمامه ، وخاصة يطوفت فى تاهرت وحمادا وقد ولاه على أشير سنة ٣٨٧ . وماتوافى سنة ٣٨٩ حتى يُعِد زيرى بن عطية صاحب فاس جيشا ضخما ويحاصر يطوفت فى تاهرت ، وينجده سريعا حماد كما ينجده باديس بجيش يقوده محمد بن أبى العرب ، ويضع القادة الثلاثة الخطط ويشنون هجوما على زناتة ، وتدور عليهم الدوائر ، ويولى جيشهم الأدبار تاركين وراءهم مضاربهم وما فيها من الأموال والسلاح غنيمة لزناتة وزيرى . وبلغ باديس الخبر فخرج على رأس جيش للقاء زيرى ، وعلم به فعاد إلى فاس ، وخرج عليه فلفل بن سعيد فظلت فرق من الجيش تطارده ، وفرَّ إلى طرابلس سنة ٣٩١ واستوطنها . وجاءه خبر

فى نفس السنة من عمه حماد أنه قضى على الثائرين من أعمامه عليه بقتله ماكسن وأولاده ورحيل زاوى بن زيرى وإخوته إلى الأندلس ، وكان لهم فى الفتنة التى نشبت بقرطبة وقضت على الخلافة الأموية دور فى غاية السوء . وفى نفس السنة توفى زيرى بن عطية صاحب فاس والمغرب الأقصى وتنفست صنهاجة وحماد الصعداء ، وعادت زناتة فى سنة ٣٩٢ إلى مهاجمة صنهاجة فى أشير ولكن بطلها زيرى كان قد توفى فهزمها حماد هزيمة ساحقة .

(جـ) بنو حماد[1]

كان حماد – كما يقول لسان الدين بن الخطيب – نسيج وحده وفريد دهره شجاعا حصيفا ، قرأ الفقه بالقيروان ونظر فى كتب « الجدال » وفكر جادًّا فى الاستقلال عن ابن أخيه : باديس وتكوين دولة له ولأبنائه فى الجزائر ، وكان أول ما فكر فيه بناء قلعة تكون عاصمة للدولة ، ولم يلبث أن بنى فى سنة ٣٩٨ قلعة بنى حماد على منحدر وعر فوق سفوح جبال كيانة على الحدود الشمالية لسهول الحضنة على بعد ٢٦ كيلومترا من المسيلة (المحمدية) وأحالها سريعا إلى مدينة تكتظ بالأحياء والفنادق والمساجد تتوسطها قصبة أو بعبارة أخرى حصن منيع ، ولا تزال خرائبها وأطلالها قائمة إلى اليوم . وصمَّم حماد على إعلان استقلاله . وماتوافى سنة ٤٠٥ هـ/١٠١٤ م حتى يعلن استقلاله عن باديس فى القيروان وعن الدولة العبيدية وعقيدتها الشيعية المتطرفة ويدعو للعباسيين على المنابر معتنقا لمذهب أهل السنة . وصمم باديس على حربه ، وأعد جيشًا ضخمًا لمنازلته سنة ٤٠٦ واتجه به إلى القلعة وهزمه بجوارها ، وفر حماد إلى القلعة تاركا خيامه ومضاربه . وتوفِّى باديس فى نفس السنة وخلفه ابنه المعز فى الثامنة من عمره ، ودبَّر له شئون الحكم أعمامه ورجال دولته ، وانتهز حماد الفرصة واستولى على مدينتى المسيلة وأشير عاصمة صنهاجة وحاصر باغاية ، فزحف إليه جيش للمعز سنة ٤٠٨ للهجرة وهزمه فى معركة عنيفة ، وفرَّ على وجهه إلى القلعة محتميا بها ، ولم يجد بدا من طلب الصلح ، وتمَّ ، وبمقتضاه يستقل حماد وأبناؤه بأشير والمسيلة وطبنة والقلعة وتاهرت وبلاد الزاب وكل ما يفتحونه فى المغرب الأقصى . وانقسمت دولة الصنهاجيين بذلك إلى دولتين : دولة آل المنصور بن بلكين فى القيروان بإفريقية التونسية ، ودولة آل حماد بن بلكين بالقلعة فى الجزائر .

وتُعَدّ دولة حماد وأبنائه فى القلعة أول دولة جزائرية فى العصور الإسلامية بأدق معنى لهذه الكلمة ، وحقا سبقتها الدولة الرستمية فى تاهرت ، كما مر بنا ، ولكن مؤسسها كان فارسى الأصل ، وحكمها هو وأبناؤه من بعده . وكانت اللغة البربرية تشارك اللغة العربية فى أيامهم

(١) انظر فى بنى حماد الكامل لابن الأثير والجزء الثالث من أعمال الأعلام لابن الخطيب والبيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون وكتاب دولة بنى حماد ملوك القلعة وبجاية لإسماعيل العربى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى ص ٦٠٢ وما بعدها وراجع مادة : « بنوحماد » فى دائرة المعارف الإسلامية.

وألّف بها كثير من الكتب وخاصة فى الدعوة الإباضية ، أما الدولة الحمادية فكانت لأسرة من صميم البربر وبيوتهم العريقة فى صنهاجة ، وبذلك كانت دولة بربرية بحتة ، وأيضا فإنها اتخذت العربية لسانها ولغة رسمية لها ، وعملت – بكل وسيلة – على نشرها لا فى العاصمة فحسب ، بل أيضا بين القبائل ، وعملت أيضا – بكل ما استطاعت – على ازدهار نهضة فى بلادها أدبية وعلمية وحضارية .

وعاش حماد هانئا بقلعته ودولته حتى سنة ٤١٩ وخلفه ابنه المسمى بالقائد ، ووسّع حدوده فى المناطق الشرقية للمغرب الأقصى ، ونشب نزاع وبينه وبين ابن عمه المعز سنة ٤٣٢ وزحف إليه بجيش ، ولم تقع بينهما حرب ، وعادت العلاقات بينهما طيبة كما يقول ابن خلدون ، وتوفى القائد سنة ٤٤٦ هـ/١٠٥٤ م وخلفه ابنه محسن وخرج عليه بعض أعمامه وتغلب عليهم ، وكانت مدة ولايته قصيرة : تسعة أشهر ، وتولى بعده بُلُكّين بن محمد بن حماد سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م . وكان المعز بن باديس فى القيروان قد خلع سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦ م طاعة الفاطميين العبيديين وقطع اسمهم من خطبة الجمعة وجعل مكانهم فيها اسم الخليفة العباسى وحمل الناس على الرجوع إلى مذهب مالك الذى يرتضيه فقهاؤهم ، وبذلك تطهر المغرب من عقيدة الإسماعيلية الفاطمية ، وجُنّ جنون المستنصر الخليفة الفاطمى العبيدى بمصر فأشار عليه أحد وزرائه المسمى اليازورى أن يتخلص من جموع كبيرة من بنى هلال وسليم كانت نزلت بشرقى النيل فى الصعيد بدفعها إلى إفريقية التونسية وبلاد المغرب ، وكانوا يعدون بمئات الألوف ، فاكتسحوا برقة وطرابلس وإفريقية التونسية ، ولم يستطع المعز بن باديس دفع هذه السيول الجارفة فانحاز إلى المهدية سنة ٤٤٩ وبقى بها إلى نهاية حكمه ووفاته سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م . وكانوا بدوا غير متحضرين ينهبون ويخربون المدن ويفسدون الزروع ، وانصبّ منهم إلى الجزائر لعهد بلكين سيل هلالى جارف على رأسه قبائل أثبج وعدى وعامر ، وحاولت زناتة فى تلمسان بزعامة أبى سعيد الخزرى أو الخزرونى أن تكبح جماح هذا السيل فقتل زعيمها وتشتت جيشه ، أما بلكين فى القلعة فرأى من الخير أن يترك للأثبج وعدىّ الأرياف ينهبون فيها ، وتحالف معهم لحرب المغرب الأقصى وزحف عليه بجيش ضخم ودخل مدينة فاس . وفى عودته فاجأه ابن عمه الناصر بن علناس جنوبى وهران وقتله ثأرًا لأخت له كان بلكين ظن أنها هى القاتلة لزوجها ، وكان شقيقا له ، وأعلن نفسه حاكما للقلعة وصنهاجة مكانه سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢ م .

والناصر بن علناس أعظم ملوك هذه الدولة وأكثرها دهاء وحنكة سياسية ، وقد دام حكمه سبعا وعشرين سنة ، ولم يشمل الجزائر جميعها فحسب ، فإن انحياز المعز بن باديس وابنه تميم إلى المهدية وأحوازها جعل حكمه يمتد من حدود المغرب الأقصى إلى القيروان

وصفاقس ، ولعل ذلك ما أوغر عليه صدر تميم ، فأوعز إلى أمراء بنى رياح أن يهاجموا الناصر قبل أن يفتك بهم ، ونازلهم فى سبيبة شرقى الجزائر ودارت عليه الدوائر ، غير أن الناصر استطاع أن يسترد ما كان معه من البلدان فى الاقليم التونسى حتى القيروان . وكان يحدث شغب فى كثير من البلدان ويستطيع الناصر القضاء عليه ، وصافته زناتة ، وعادت العلاقات حسنة بينه وبين تميم بن المعز . وكان بعيد النظر فعمل على التسامح مع المسيحيين ببلاده حتى يشعروا بالأمان ، ويعظم إنتاجهم وعملهم فيها ، وأرسل إلى البابا جريجورى السابع بتكريس قسيس يسمى سرفاند أسقفا لأبرشية بونة وافتدى جميع الأسرى المسيحيين فى بلاده أو مملكته . وكان لذلك أثر طيب فى نفس البابا فأجابه إلى تكريس سرفاند ورد عليه سنة ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ م برسالة لطيفة قال فيها إن المسلمين والمسيحيين جميعا يؤمنون بإله واحد خالد . وخوفا على القلعة عاصمة الدولة من أن يصيبها من التخريب على أيدى العربان من بنى هلال ما أصاب القيروان وغيرها من مدن إفريقية التونسية بَنَى بجاية على البحر المتوسط فى الشمال سنة ٤٦١ هـ لتكون عاصمة جديدة للدولة ، وعُنى بتخطيطها وتشييد قصور شامخة فيها وظلت بعده تشتهر بما فيها من مساجد ومدارس وفنادق وحمامات ومستشفيات .

وخلفه ابنه المنصور سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م وفى أول حكمه ازداد ضغط القبائل الهلالية عليه واضطرته إلى أن تتقاسم معه نصف غلة الأرض ، مما جعله يصمم على هجران القلعة إلى مدينة بجاية سنة ٤٧٣ هـ/١٠٨٠ م . وخلال السنتين اللتين قضاهما فى القلعة شيَّد عددا من القصور ، حتى إذا اتخذ بجاية عاصمة له شاد بها طائفة من القصور أهمها قصر اللؤلؤ ، وخرج عليه بعض الثوار فى بونة وقسنطينة ، وعادتا إليه ، واشتبك مع زناتة فى الجنوب الغربى وردَّ المرابطين إلى المغرب الأقصى بعد أن استولوا على تلمسان وتقدموا إلى مدينة الجزائر . وظل سيد الجزائر دون منازع إلى وفاته سنة ٤٩٨ هـ/١١٠٤ م . وتولى الدولة بعده ابنه باديس ، وكان فظا سريع الغضب ، وتوفى بعد ستة أشهر من حكمه ، وولى بعده أخوه العزيز ، وعمل على عودة السلام بين قبيلته صنهاجة وقبيلة وامانو الزناتية وتزوج بنت زعيمها ماخوخ ، وكانت أيامه هادئة وآمنة . وعنى بتشجيع الحركة العلمية والأدبية وإعداد بجاية لإيواء اللاجئين من الأدباء والعلماء الذين غادروا القلعة إلى عاصمته حين تدهورت وأصبحت نهبا للأعراب ، وكانوا قد أخذوا يتوغلون من جبال البابور إلى بونة . وتوفى العزيز سنة ٥١٨ هـ/١١٢٤ م وخلفه ابنه يحيى ولم يستطع إعادة الدولة إلى ما كانت عليه إذ اتسعت زغبة وغيرها من القبائل الهلالية فى التخريب والقضاء على العمران فى الجزائر وخوفا على ما فى القلعة من ذخائر وطرف ومن أدوات ترف وبذخ نقلها يحيى إلى بجاية سنة ٥٤٣ للهجرة .

٥

دولة الموحدين – الدولة الحفصية – بنو عبد الواد

(أ) دولة[١] الموحدين

لم يلبث عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين بالمغرب الأقصى أن دخل بجاية سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م واصطحب يحيى معه إلى عاصمته مراكش ، واتسع فى إكرامه . وبذلك انتهت دولة بنى حماد فى الجزائر ، وكان حكامها يأخذون بأسباب من الحضارة ، وكانوا بصيرين بشئون الحكم ، وعاملوا رعاياهم معاملة حسنة ، وأحدثوا فى القلعة وبجاية عاصمتيهما نهضة فى الآداب والعلوم والتحضر بلغت شأوا عظيما ، وعنوا بالصناعة والزراعة والتجارة مع إفريقيا والسودان فى الجنوب ومع أوربا فى الشمال ، وكان أسطولهم التجارى يمخر عباب البحر المتوسط إلى مدن إيطاليا والأندلس، وأقاموا له ببجاية دار صناعة بحرية كبرى تمده بالسفن ، وقد عقدوا مع الدول البحرية الأوربية معاهدات تجارية . وبدون ريب كان لهجرة الأعراب البدو من بنى هلال واكتساحهم للزاب بإبلهم وخيلهم ورجلهم فى القرن الخامس الهجرى أثر غير قليل فى إفساد الزاب ، وحدثت الطامة فى القرن السادس الهجرى إذ أخذوا يتقدمون إلى الأطلس التلى وجبال البابور وامتدوا شرقا حتى سهول بونة (عنابة) وأصبح بنو حماد وبجاية فى حاجة إلى من ينقذهم ، وأنقذهم عبد المؤمن خليفة الموحدين فى مراكش . وكان يعرف خطورة الهلاليين على البلاد، فأدار معهم معركة حاسمة بالقرب من سطيف جنوبى بجاية ومزقهم تمزيقا وطارد فلولهم حتى تبسة جنوبى باغاية . وتعد هذه المعركة نهاية المعارك الكبرى للهلاليين فى الجزائر ، وأخذوا بعدها يتأقلمون ويتغرَّبون أو يصبحون جزءا من الشعب المغربى ، وانتفع بهم عبد المؤمن فى حروبه بالأندلس وكذلك ابنه يوسف وحفيده يعقوب وخاصة فى معركة الأرَك المشهورة . وكان نورمان صقلية قد استولوا على المهدية سنة ٥٤٣ وبالمثل على طرابلس وطلب أهلهما من عبد المؤمن النجدة ، فسار سنة ٥٥٣ بجيش ضخم وأسطول كبير إليهم ، وقلم فى الجزائر وإفريقية التونسية أظفار الأمراء المستبدين بالبلاد ، وحاصر المهدية ثم طرابلس برا وبحرا سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٦٠ م وفر النورمان خاسئين مدحورين ، ويطبق فى الأقليمين التونسى والجزائرى ما اتخذه فى المغرب من التراتيب المخزنية فى إدارة الحكم ، وظلت قائمة إلى نهاية الدولة الحفصية . وتظل الجزائر هادئة فى عهده وعهد ابنه يوسف الذى خلفه سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢م وتوفى يوسف ويخلفه ابنه يعقوب

(١) انظر فى دولة الموحدين البيان المغرب لابن عذارى وكتاب المعجب للمراكشى والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون وكتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى وعصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان .

سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤م. وفى عهده ثار عليه بنو غانيَّة ولاة المرابطين فى جزيرة ميورقة، ونزل منهم على وأخوه فى الجزائر والإقليم التونسى يحاولان أن يقيما فيهما دولة لمقاومة دولة الموحدين بالمغرب الأقصى ويعدا جيشا لحربهم . وأحدث على قلاقل كثيرة فى الساحل الجزائرى بين بجاية وملیانة وكذلك فى الساحل التونسى، فخرج إليه يعقوب بجيش جرار سنة ٥٨٣ وظل طوال مسيرته إليه فى بلدان الجزائر وتونس يبنى المساجد كما يبنى المستشفيات، وعلى بن غانية يفر أمامه إلى أن لقى مصرعه، وعاد يعقوب إلى عاصمته.وخلف على فى شغبه على الموحدين أخوه يحيى وظل يستعين بالعصابات الهلالية، ومرة ينتصر ومرة ينهزم حتى توفى فى برية تلمسان سنة ٦٣١.

(ب) الدولة[1] الحفصية بتونس

فى هذه الأثناء قامت الدولة الحفصية ، وكان مؤسسها أبو زكريا بن عبد الواحد بن يحيى بن أبى حفص واليا للموحدين على إفريقية التونسية ، واستطاع أن يخضع الجزائر ، أو بعبارة أدق أن يضمها إلى ولايته ، إذ كانت دولة الموحدين قد ضعفت ضعفًا شديدًا ، فاستقام له حكم البلدين حكمًا رشيدًا يقوم على نشر العدل والأمن فى البلاد ، وحين نشأت الدولة المرينية ظلت تعلن البيعة والولاء له حتى وفاته سنة ٦٤٧ هـ/١٢٥٨ م وكذلك لابنه محمد ، وكان التتار قد قضوا على الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م وأصبح المسلمون بدون خلافة ، فانتسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعمل بعض أتباعه على أن تبايعه مكة بالخلافة وبايعته ، وتسمى باسم أمير المؤمنين وتلقب بلقب المستنصر بالله ، وكان عهده فى الجزائر شرقًا وغربًا – كعهد أبيه – عهد رخاء واستقرار إلى وفاته سنة ٦٧٥ هـ/١٢٥٨ م . وقامت منافسات على الحكم بين أبنائه واقتتلوا وأخذ حكم الدولة ينحسر عن غربى الجزائر كما أخذ المرينيون يتخلصون من الولاء لهم ، واقتحم الجزائر أبو يحيى أخو السلطان يوسف بن يعقوب المرينى سنة ٧٠١ هـ/١٣٠١ م ودخل بجاية وخرَّب بستانها المسمَّى بالبديع وعاد أدراجه . وانتهى من حينئذ حكم الدولة الحفصية بالجزائر ، فلم تعد تمد سلطانها على تاهرت وشرشال ومدينة الجزائر ، إذ تراجع حكمها – حتى نهاية أيامها فى القرن العاشر الهجرى – إلى بجاية وسطيف وبسكرة وقسنطينة والزاب . وفى الأكثر كانت تفرض تلمسان فى عهد بنى زيان سلطانها على الجزائر الغربية وأحيانا كان يفرضه عليها بنو مرين وقلما كانت تفرضه الدولة الحفصية . وحاول الخليفة الحفصى أبو عصيدة تلافى هذه الخصومة سريعا ، فأرسل فى سنة ٧٠٣ وفدا

(١) انظر فى الدولة الحفصية البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى والأدلة البينة النوراتية فى مفاخر الدولة الحفصية لابن الشماع والفارسية فى مبادى الدولة الحفصية لابن قنفذ وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى .

إلى السلطان المرينى لتحسين العلاقات بينهما ، وتحسنت وتعددت بينهما السفارات . وأخذت الدولة الحفصية تزداد ضعفا فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ، مما جعل السلطان المرينى أبا الحسن يجتاح تلمسان والجزائر ويدخل تونس سنة ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م ويظل بها سنتين ، ويعلم بثورة أبى عنان ابنه عليه فى المغرب الأقصى فيعود إلى بلاده . وتعود للحفصيين دولتهم فى طرابلس وتونس والجزائر الشرقية حتى بجاية ، ويحاول أبو عنان – بعد توليه الحكم – الاستيلاء من جديد على تونس ويكتسح الجزائر سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٢ م ويوجه إلى تونس حملة بحرية لمعاونة القوات البرية . ويستولى عليها لمدة شهرين ، إذ يضطر إلى مبارحتها لثورة قبيلة رياح عليه ويهدم حصونها فى الزاب ، ويعود إلى فاس عاصمته . وتستعيد الدولة الحفصية مدنها فى الجزائر الشرقية وتتحسن العلاقات بينها وبين الدولة المرينية . وتعود إليها قوتها فى عهد السلطان الحفصى أبى فارس عبد العزيز فيعدُّ سنة ٨٢٧ هـ/١٤٢٣ م جيشا جرارا يفتح به غربى الجزائر وتلمسان حتى إذا اقترب من فاس يريد غزوها أرسل إليه صاحبها أبو سعيد عثمان المرينى رسالة يقول فيها : « إن البلاد بلادكم والسلطنة سلطنتكم وجميع ما تأمروننا به نمتثله » وكانت الرعية شكت من ظلمه فأمره أبو فارس بالعدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، وعاد إلى عاصمته تونس . ويتولى الحكم بعده حفيده أبو عمرو عثمان سنة ٨٣٨ هـ/١٤٣٤ م وامتد حكمه إلى خمسة وخمسين عاما نعمت فيها تونس والجزائر الشرقية بالأمن والعدل والرخاء ، وثارت عليه تلمسان فاستردَّ ولاءها لدولته وهو خاتمة الخلفاء الحفصيين المهمين ، وتوفى سنة ٨٩٣ هـ/١٤٨٧ م وأخذت الدولة بعده فى التدهور وأخذت تستقل عنها بعض البلاد فى إقليم الجزائر الشرقية .

(جـ) بنو عبد[1] الواد بتلمسان

لم نفصل القول حتى الآن عن تلمسان ، وكان بنو زناتة يسيطرون عليها ، ومر بنا أن الأدارسة استولوا عليها ، وأن الفاطميين أخضعوها لهم بعدهم ، وانحسرت عنهم دولتهم ، أو ثاروا عليها ، مما جعل صنهاجة بزعامة بلكين تغزوهم سنة ٣٦٨ للهجرة ويثأرون لأنفسهم بزعامة زيرى بن عطية سنة ٣٨٩ وتهزمهم صنهاجة سنة٣٩٥ وتظل زناتة مسيطرة على تلمسان إلى أن يستولى عليها يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين بمراكش سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م وتظل تابعة للمرابطين إلى انتهاء دولتهم ، وتتبع بعدهم دولة الموحدين . وقرَّبوا منهم بنى عبد الواد الزناتيين . وفى سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م ولوا منهم جابر بن يوسف

(١) انظر فى بنى عبد الواد أوبنى زيان كتاب تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان لمحمد بن عبد الله التنسى تحقيق د.محمود بو عياد وكتاب بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبدالواد ليحيى بن خلدون تحقيق د. عبد الحميد حاجيات وكتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ ابن خلدون وكتاب أبو حمو موسى الزيانى للدكتور عبد الحميد حاجيات وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك بن محمد الميلى

على تلمسان. فأخذ يعمل على الاستقلال ببلده عن الموحدين ، غير أنه توفى سريعا ، وخلفه بعض أفراد من أسرته ، وصارت سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م إلى يَغْمْراسن فأعلن استقلاله عن الموحدين ، ونصَّب نفسه أميرًا للمسلمين ، وسيَّر إليه أبو زكريا الحفصى أمير إفريقية التونسية والجزائر الشرقية جنده فأعلن له الولاء ، وعاد بجنده . وزحف إليه السعيد الموحدى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م وانتصر عليه يغمراسن . ونشبت بينه وبين قبيلة المعقل وغيرها من القبائل الصحراوية حروب كثيرة ، وجعل بينه وبينها قبيلة بنى عامر لتدرأ خطرها ، وواقع مرارا بعض أعمال تلمسان فى غربى الجزائر ، وتوفى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م بعد أن ثبَّت فى تلمسان دعائم الملك لأبنائه . وخلفه ابنه أبو سعيد عثمان ، وقد وسَّع أطراف مملكته فى غربى الجزائر حتى جبال ونشريس ومدينة المدية فى الأطلس التلى جنوبى مدينة الجزائر ومدينة تنس على الساحل غربى شرشال . وغزا تلمسان لعهده سلطان الدولة المرينية يوسف خمس مرات هزم فى أربع منها وفى الخامسة حاصر تلمسان سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م وظل محاصرا لها ثمانى سنوات وثلاثة أشهر ، ومات أبو سعيد فى الحصار كمدا سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م وأعقبه ابنه أبو زيان وتوفى كمدا مثله سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م وفى نفس السنة توفى السلطان المرينى يوسف وفكَّ المرينيون الحصار عن تلمسان ، وكان وليها أبو حمو موسى الأول فاشتغل بتثبيت ملكه وغزا غربى الجزائر واستولى على مليانة ومدينة الجزائر وسهل متيجة جنوبيها وكاد يستولى على بجاية وقسنطينة واغتيل سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م وخلفه ابنه أبو تاشفين ، وكان مولعا بتشييد القصور ونزل قسنطينة وأفسد الزرع ، واستولى على بجاية من الدولة الحفصية مما جعل سلطانها يطلب العون من بنى مرين أصهاره فتشفَّع له سلطانهم أبو الحسن ، فرد أبو تاشفين رسله إليه أسوأ رد . فحاصر تلمسان ، وبنى أمامها مدينة غربيها لسكناه سماها المنصورة وضيَّق عليها الحصار وشدَّ الخناق سنتين حتى دخلها عنوة سنة ٧٣٧هـ وقاتل أبو تاشفين وأبناؤه دونها وقتلوا جميعا ، وبذلك انتهت دولة بنى عبد الواد الأولى بتلمسان بعد أن حكمتها مائة عام ونيفا .

وأخذ أبو الحسن المرينى يستولى على بعض البلدان فى غربى الجزائر . وفى سنة ٧٤٨ عين ابنه أبا عنان على تلمسان وما صار إليه من بلدان الجزائر ، وزحف شرقا إلى تونس واستولى عليها من السلطان الحفصى وظل بها ما يقرب من سنتين ، وعصته القبائل العربية فى تونس ونازلته وهزمته ، وجاءته أخبار بأن أبا عنان ابنه غادر تلمسان إلى فاس العاصمة ودعا لنفسه فيها فبارح تونس سريعا إلى فاس ، وفى هذه الأثناء انتهز أميران من الأسرة الزيانية الفرصة هما : أبو سعيد وأبو ثابت واستوليا على تلمسان سنة ٧٤٩ واشتركا فى حكمها ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٣ نازلهما السلطان المرينى أبو عنان واستولى منهما على تلمسان ، ونرى الشاب الزيانى أبا حمو موسى الثانى يفر إلى تونس ويكرمه سلطانها ووزيره ابن تافراكين . وفى سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م جهَّز أبو حمو موسى الثانى جيشا من تونس والجزائر وفتح تلمسان وأخرج

منها المرينيين وأعادها إلى أسرته . ولم تتسمَّ الدولة حينئذ دولة بنى عبد الواد ، بل تسمت باسم دولة بنى زيان نسبة إلى أحد الجدود الأولين ، وهو أبو يغمراسن مؤسس الدولة الأولى ودبَّر أبو حمو أمور الدولة تدبيرا سديدا ونهض بتلمسان نهضة علمية وأدبية ، وكان شاعرا ، واتخذ هو وخلفاؤه لقب أمير المؤمنين واصطنعوا بها لها نظاما شبيها بنظم الخلافة فى الشرق فصَّل القول فيه الحسن الوزان فى كتابه وصف إفريقيا قائلا إنهم اتخذوا مراسم دقيقة إذ قسموا الإدارة قسمين إدارة عسكرية وإدارة مدنية ، وعلى رأس الأولى القائد ، وعلى رأس الثانية الكاتب الأول ، ومن ورائهما خازن المال أو الصراف الذى يأمر بصرفه إلى مناصب ووظائف عديدة . وتوفى أبو حمو موسى الثانى سنة ٧٩١ وتنازع أبناؤه وتقاتلوا فى سبيل الاستيلاء على الحكم ، ومن أهمهم أبو زيان استولى على مقاليد الحكم سنة ٧٩٦ وكان عالما شاعرا وتهادى مع السلطان المملوكى برقوق وقتل سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م بيد أخيه أبى محمد عبد الله وحكم تلمسان حتى سنة ٨٠٤ وخلفه أخوه أبو عبد الله محمد المعروف بابن خولة إلى سنة ٨١٣هـ/١٤١٠م وأخذ يكثر فى الأسرة القتل والخلع ، وتتدخل الدولة الحفصية لنصرة الأخ على أخيه أو القريب عما أو غير عم على القريب . وفى سنة ٨٢٧ استولى السلطان أبو فارس الحفصى على تلمسان ، واتسع من حينئذ تدخل الدولة الحفصية فى تولية حكام الدولة الزيانية، وقد ولّى عليها أبو فارس الحفصى أبا مالك عبد الواحد وقتل سنة ٨٣٣ وتولاها أحمد العاقل ابن أبى حمو ويتولاها المتوكل بعده سنة ٨٦٦هـ/١٤٦١م وثار عليه محمد بن غالية وقضى على ثورته وتاريخ وفاته شديد الغموض .

وأخذت دولة بنى زيان بتلمسان وغربى الجزائر تتدهور سريعا منذ نهاية القرن التاسع الهجرى ، وبالمثل تدهورت الدولة الحفصية فى شرقى الجزائر وتونس وطرابلس ، وكان فرديناند ملك إسبانيا قد أخرج العرب من غرناطة آخر قلعة بالأندلس ، فنزلوا سواحل الجزائر وتونس وطرابلس ، فرأى أن يستأنف الحروب الصليبية بتعقبهم فى تلك السواحل ، وأطمعه أنه لم يجد للدولة الزيانية ولا للدولة الحفصية أسطولا يحمى ثغورهما على البحر المتوسط ، واستولى فى الساحل الغربى للجزائر على المرسى الكبير إلى الشمال الغربى من وهران سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٥م وعلى وهران سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٩م وأيضا على مستغانم ومدينة الجزائر إلى الشرق من وهران ، واستولى فى الساحل الشرقى للجزائر التابع للدولة الحفصية على بجاية سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م وأيضا على ثغرى جيجل وعنابة ، وكأنما أصبح الساحل الجزائرى جميعه غربا وشرقا فى قبضته ، إذ أهمل التلمسانيون والحفصيون الرباطات والمحارس الساحلية التى أكثرَ الأسلاف من إقامتها على البحر المتوسط حماية للبلاد من قراصنة الغرب .

٦

العهد[1] العثمانى

وفى هذه الأثناء كان يجوب البحر المتوسط بطلان تركيان من رجال البحر هما عرّوج وخير الدين (بربروس) وكانا قد تطوعا بنقل الأندلسيين المطرودين من غرناطة وإقليمها إلى سواحل البلاد المغربية ، وغضبا غضبا شديدًا لاستيلاء النصارى الإسبان على سواحل الجزائر الإسلامية والبلدان المغربية وصمما على إنقاذها منهم ، واتفقا مع الخليفة أبى عبد الله الحفصى أن يتخذا جزيرة جربة فى تونس قاعدة لضرب الأسطول الإسبانى وتحرير الساحل الجزائرى . ولم يلبثا أن استوليا من الإسبان على مدينة الجزائر سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م وأخذا يديران منها معارك حامية مع الإسبان ، اشترك معهم فيها الجزائريون والأندلسيون المهاجرون الموتورون من فرديناند والإسبان ، وحميت المعارك وأخذت بعض الموانى الساحلية تسقط فى حجر البطلين ، وتوفى عروج قبل الأوان ، ومضى خير الدين فى حملاته ، ورأى – بثاقب نظره – أنه لا يستطيع إقامة ملك تركى مستقل بالجزائر ، فأرسل إلى السلطان العثمانى بولائه له هو وفتوحاته فى الساحل الجزائرى ، وقبل منه ذلك ، وسماه : « بايلاريك » أى أمير الأمراء ، وأمده بجند وأسطول ، وبذلك دخل الأتراك الحرب ضد الإسبان المعتدين ، واستطاع خير الدين (بربروس) حتى سنة ٩٤٢هـ/١٥٣٦م أن يحرر الساحل الشرقى والغربى من الجزائر ما عدا المرسى الكبير ووهران ، ودمّر الأسطول الإسبانى فى مواقع عديدة . وبذلك وقف هذه الحرب الإسبانية الصليبية ، وأنقذ الإسلام فى إفريقيا ، وأسس بقوة السلاح – فى الجزائر – دولة إسلامية عثمانية . وظلت الملحمة الحربية دائرة فى الجزائر بين النصرانية تمثلها إسبانيا والإسلام يمثله الترك . ويخلف خير الدين (بربروس) ابنه حسن ، وتمنحه الدولة العثمانية لقب بايلاريك مثل أبيه ، وكان على شاكلته بطلا مقداما . وشنّ شارل الخامس ملك إسبانيا سنة ٩٤٨هـ/١٥٤١م حملة بحرية على مدينة الجزائر ظل يستعد لها طويلا ، وما إن ألم أسطوله بها حتى سُحق سحقا أمام المدينة ، وغنم البايلاريك حسن والجزائريون والأندلسيون المهاجرون كل ما كان بالأسطول من سلاح وآلات وعُدَد . واستولى البايلاريك حسن على المرسى الكبير وهدمه ، كما استولى عنوة على كل المواضع التى كان يحتلّها الإسبان هناك ما عدا وهران ، فقد بقيت فى يد الإسبان حتى سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧م إذ استطاع القائد أوزن حسن فى عهد الباشا محمد بكداش فتحها وطَرْدَ الإسبان منها ، وعادت إليهم سنة ١١٤٤هـ/١٧٣٢م إلى أن طُردوا

(١) انظر فى العهد العثمانى بالجزائر كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى وكتاب تاريخ الجزائر لعبد الرحمن الجيلالى وكتاب تاريخ الجزائر الثقافى من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجرى للدكتور أبى القاسم سعد الله ومادة الجزائر فى دائرة المعارف الإسلامية .

منها نهائيا فى عهد الباى محمد الكبير سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩١م . وفى عهد البايلاريك حسن عاد الإسبان بعد هزيمة شارل الخامس بقيادة الكونت دالكادوت سنة ٩٦٥هـ/١٥٥٧م وأداروا معركة عند مدينة مستغانم شرقى المرسى الكبير وسرعان ما اندحروا وقُتل قائدهم وفروا إلى البحر وما وراءه ، وهو ما حدث للأسطول الدانماركى سنة ١١٨٤هـ/١٧٧٠م ولحملة أدريلى الإسبانية آخر القرن الثانى عشر الهجرى .

ويذكر للبايلاريك حسن بن خير الدين أنه بسط الحكم التركى أو العثمانى على الجزائر جميعها على الساحل والجبل التلى والداخل ، وكان ملوك تلمسان الزناتيون يناورونه – كما ناوروا أباه خير الدين – فتارة معه وتارة مع الإسبان ، وسئم أهلها من هذا الصنيع ، وأفتى مجلس علماء تلمسان بخلع الحسن آخر ملوكهم سنة ٩٦٢ فالتجأ إلى إسبانيا وبها قضى نحبه ، وأظلّ الحكم العثمانى تلمسان منذ هذا التاريخ مثل أخواتها من المدن الجزائرية . وكانت تحدث أحيانا مناوشات حربية بين الجزائر والدولة العلوية فى المغرب الأقصى ، ولعل أهمها ما حدث زمن إسماعيل العلوى فى سنتى ١١٠٢هـ/١٦٩١م و ١١١٤هـ/١٧٠٣م إذ باءت بالإخفاق الذريع محاولاته فى نزع إقليم تلمسان من الجزائر العثمانية .

وقد وضع البايلاريك خير الدين للجزائر العثمانية ناموس الحكم وقوانينه ورتب الدواوين وقدَّر الرواتب ، وخلَّف حامية عسكرية عثمانية من الإنكشارية ، وهم جند الدولة العثمانية الذين كانت تعنى بتربيتهم تربية عسكرية إسلامية ، وكانوا من الأناضول أو من رعاياها . وفى الأكثرية كانوا من سباياها فى أوربا ، وكان على كل مائة منهم رئيسا يسمى الداى . وخطب الخطباءُ فى بلدان الجزائر باسم السلطان العثمانى وضُربت السكة باسمه ، وتولى أربعة بلقب البايلاريك (أمير الأمراء) حتى سنة ٩٩٧هـ/١٥٨٧م ، وكانوا أشبه بحكام مستقلين يديرون شئون البلاد مع الاعتراف بسيادة السلطان العثمانى الأعظم ، وحاولوا الحد من سلطان الإنكشارية بتكوين فرق مجندة من العرب ، وخاصة من قبائل التل وزواوة .. وأقلق استقلالهم الدولة العثمانية فى الآستانة ، فرأت أن يتحول الحكم فى الجزائر من البايلاريك إلى الباشا وظل عهد الباشوات حتى سنة ١٠٦٩هـ/١٦٥٩م وكان الباشا يولَّى لمدة ثلاث سنوات ، وقد تجبره الإنكشارية ورؤساؤها إلى العودة قبل ذلك ، مما جعل مددهم قصيرة وحاولوا لذلك جمع ثروات طائلة ، وثار عليهم الأغوات من قادة الإنكشارية فاستولوا على أزمة الحكم ولم يعد للباشوات إلا بعض المهام التشريفية حتى سنة ١٠٨١هـ/١٦٧١م واختل الأمن فى هذا العهد ، واغتيل الأغوات جميعا ، واغتصب السلطة رؤساء الإنكشارية المعروفين باسم الدايات حتى الاحتلال الفرنسى سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م واختفت الباشوات فلم يعد الباب العالى العثمانى يولى منهم أحدا ، إذ أصبح الداى الذى ينتخبه رؤساء الإنكشارية الحاكم المطلق فى الجزائر ،

وكانوا يولونه ويخلعونه وفقا لأهوائهم ، ويستجيب لهم الباب العالى ، وبلغوا حتى الاحتلال الفرنسى ثمانية وعشرين دايا ، اغتيل نصفهم . وأخذ الحكم يفسد ، وزاد فى فساده أن القرصنة التى كانت مصدر دخل كبير للدولة فى القرنين السادس عشر الميلادى والسابع عشر ضعفت وتضاءلت لسيطرة الدول الأوربية العظمى على البحر المتوسط ، وعوَّض ذلك الدايات بكثرة السلب والنهب من الجزائريين مما أدى إلى فساد الحكم العثمانى فى هذا العهد – وخاصة فى أواخره – فسادا شديدا . وكانت سلطة الداى – كما قلنا – مطلقة ، وكان يعاونه فى الحكم مجلس يعرف بالديوان لا يقطع أمرا دون مشورته ، وهو أشبه بمجلس وزراء ، وكان يتألف من ستة : الأغا وهو القائد الأعلى للقوات البرية ، ووكيل الخرج وهو وزير البحرية ويشرف على القرصنة ، والقبودان وهو القائد للأسطول وجند البحر ، والخزنجى وهو وزير المالية ، وخوجة الخَوْل وهو جابى الضرائب وشيخ المدينة المشرف على القضاء والشرطة ، والباش كاتب وهو رئيس الديوان ومعهم بعض كبار رجال الدين ونقيب الأشراف . وبجانب هذا الديوان أو المجلس مجلس الديوان العسكرى ويتألف من رؤساء الجنود ، ومجلس الرياس البحرى ويتألف من قواد البحر ، وكان لهذين المجلسين نفوذ كبير . وكان هناك مجلس أعلى للقضاء يرأسه القاضى الحنفى ، وكان فى أول الأمر يأتى من الآستانة مع الوالى ، ويعاونه فى المجلس قضاة مذهبى الحنفية والمالكية . وكانت تعرض على المجلس بعض أحكام القضاة مما يستوجب إعادة النظر ، وهو أشبه بمجلس استئناف شرعى . وكانت الجزائر مقسمة إلى ثلاث ولايات كبرى : ولاية قسنطينة فى الشرق ، وولاية تيطرى فى الوسط وعاصمتها مدينة المدية ، وولاية غربية وكانت عاصمتها مدينة مزونة ثم معسكر منذ سنة ١١٢٢هـ/١٧١٠م ثم وهران منذ سنة ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م وقسمت هذه الولايات – أو كما كانت تسمى البكويات نسبة إلى البك حاكمها من قبل البايلاريك أو الباشا أو الأغا أو الداى ، وكان لكل بك سلطة واسعة فى ولايته . وكانت صلته بالحاكم العثمانى فى مدينة الجزائر تنحصر فى شيئين أساسيين هما : جباية الأموال فى ولايته وأداؤها للخزينة العامة ، وجمع الجند الذين ينبغى أن يرسل بهم للخدمة فى الجيش ، وكانوا جندا معاونا يعاونون فى الأزمات تحت قيادة الضباط العثمانيين . وكانت بالجزائر قبائل كثيرة فى الأطلس التلى ووراءه وبالمثل فى الأطلس الصحراوى ووراءه فى الصحراء الجنوبية ، وكانت هذه القبائل قسمين : قسما تتفاوت تبعيته للداى أو للعثمانيين قوة وضعفا ويدفع العشور وضريبته تسمى لازمة ، وقسما مواليا للدولة معفىً من الضرائب ما عدا الرسوم القانونية ، وتسمى قبائله باسم قبائل المخزن ، وكانت تمد الدولة العثمانية فى الجزائر بالمحاربين وجباة الضرائب وموظفى الشرطة المحافظين على الأرض فى البلاد . ودعموا دائما شيوخ القبائل ، فكانوا يقطعونهم الأراضى ويمدونهم ، – إذا شاءوا – بالحاميات العسكرية ،

وفرضوا على أنفسهم تجلة علماء الدين ، وأشركوا بعض كبارهم فى ديوان الحكم ، كما مرَّ بنا ، وبالمثل كانوا يجلُّون المتصوفة ويحمون طرقهم ويطلبون منهم البركات والعون على الرعية .

وكان العثمانيون طوال حكمهم للجزائر يستأثرون بكل مناصب الدولة ، مع أنهم دخلوها بطلب من أهلها لعونهم ضد الغزو الإسبانى ، وهم إخوانهم فى الدين ، والعدو عدو لدينهم معا ، فكان ينبغى أن يطبقوا تعاليم الإسلام وأن يوثقوا الأخوة بينهم وبين الجزائريين وأن يشاوروهم فى الحكم وأن يفسحوا لهم فى تولى مناصب الدولة الرفيعة . ونعجب إذ نراهم يعاملون الجزائريين معاملة المنتصر للمهزوم . وكثيرون من القوة الإنكشارية ورؤسائها تزوجوا من جزائريات ، ومع الزمن نشأت طبقة من الأبناء آباؤهم عثمانيون وأمهاتهم جزائريات ، وكان العثمانيون يسمونهم كراغلة جمعا لكرغلى ، وجعلوهم أدنى منهم مرتبة فلا يولون منصبا رفيعا من مناصب الدولة ، فضلا عن منصب الداى الحاكم للبلاد باستثناء البايلاريك حسن بن خير الدين ، فقد كانت أمه جزائرية . وفى أواسط القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) تمرد الكراغلة فقبضوا على رؤسائهم ونكَّلوا بهم ، وبذلك أوصدوا الأبواب فى وجوههم ، فلم يتولوا المناصب العليا فى الدولة مثلهم فى ذلك مثل الجزائريين . وكان الجزائريون يثورون أحيانا على العثمانيين ، غير أن لهب الثورة كان ينطفىء سريعا ، ومن أهم ثوراتهم ثورة زواوة سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م بسبب ضرائب جديدة فُرضت عليها وظلت الثورة نحو عام وقُضى عليها حين جنَّدت لها الدولة جيشا جرارا .

وكانت الجزائر قد مُنيت – منذ أواخر القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) بعهد الدايات وفى عهدهم أخذت تشيع الرشوة ويشيع الظلم واغتصاب الجنود الإنكشاريين من المواطنين الأموالَ عسفا دون أى مراعاة لدين أو خلق . وظل الدايات بعيدين عن الشعب الجزائرى لا يعرفون لغته ولا عاداته وتقاليده وطرق معيشته ، ولم يحاول أحد منهم أن يجعل حكم الجزائر وراثيا فى أبنائه كما فعل بايات تونس وباشوات طرابلس ، ولو حدث ذلك لأصبح الحكم العثمانى فى الجزائر شيئا فشيئا وطنيا على نحو ما حدث فى تونس وطرابلس . وما نصل إلى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) حتى يهبط الدخل العام للدولة بسبب ضعف القرصنة كما أسلفنا وما تَجْبى الدولة منها من أموال . ولم تكن القرصنة فى نظر الجزائريين والترك لصوصية بحرية كما قد يظن ، بل كانت فريضة جهاد إزاء دار الحرب الأوربية النصرانية ، وظلت موردا مهما للجزائر منذ القرن العاشر إلى القرن الثانى عشر . وكان القراصنة الجزائريون والترك والمهاجرون من الأندلس يغيرون على سواحل إسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا ويعودون بغنائم وأموال وافرة . ومنذ أواسط القرن الثانى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) كانت تقاومهم أساطيل إنجلترا وفرنسا ، غير أن الدول والإمارات الأوربية الصغيرة مثل السويد والدانمارك وهولندة ونابولى ظلت طويلا تدفع لدولة الجزائر العثمانية إتاوة سنوية نظير ضمان

قراصنتها لسلامة رعاياها ، وكان القراصنة يجلبون إلى الجزائر مئات بل آلافا من الأسرى الأوربيين المسيحيين ، وكثيرا ما كانت تكتظ موانى الساحل الجزائرى بأفواج منهم ، وكانوا يعاملون – حسب تعاليم الإسلام – معاملة كريمة ويؤدون شعائرهم الدينية فى حرية تامة ، فى الوقت الذى كانت فيه إسبانيا تخير الأندلسيين فيها بين التنصر أو الموت ، راكلة بأقدامها حقوقهم الإنسانية المشروعة . واعتنق كثيرون من هؤلاء الأسرى الدين الحنيف ، وآثروا البقاء فى الجزائر ولم يقبلوا الرجوع إلى أوطانهم وبلدانهم الأوربية .

وبينما كانت الجزائر العثمانية تعانى من أزمة اقتصادية خانقة فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى وأوائل الثالث عشر (أواخر القرن الثامن عشر الميلادى) بسبب تضاؤل موارد القرصنة إذا شركتان يهوديتان ليهودى يسمى نفتالى تسيطران على اقتصاد البلاد وتمتصان خيراتها منذ سنة ١١٩٥هـ/١٧٨٠م وما يزال سخط الجماهير والإنكشارية العسكرية يزداد على هذا الرجل حتى إذا كانت سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م ثاروا عليه وعلى اليهود ثورة عنيفة فقتلوه مع كثيرين من إخوانه فى الدين . وفى سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٦م حطم الداى على خوجه النفوذ التركى باعتماده على الجند الزواوى الجزائرى الوطنى ، وبذلك أخذت الحكومة العثمانية فى الجزائر شكلا وطنيا كان له فرحة عميقة فى نفوس الجماهير ، ولم تبق للعثمانيين فى الجزائر إلا سلطة اسمية ، وتوفى على خوجة سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٨م . وولى الجزائر بعده وزيره حسين داىّا ، وفى هذه السنة اتخذ مؤتمر لاشابيل قرارا بإلغاء القرصنة ، وذهب إلى الجزائر وفد إنجليزى فرنسى لإقناع الداى بإلغائها نهائيا ، غير أنه أصرَّ على إبقائها مع كل دولة لا تؤدِّى للجزائر إتاوة لسلامة سفنها ورعاياها . وكانت الشركتان اليهوديتان المذكورتان آنفا مدينتين للداى والجزائر بنحو مليونين ونصف من الفرنكات ، وكانتا تدينان فرنسا بنحو سبعة ملايين لصفقات من القمح اشترتها ، وقررت فى سنة ١٢٣٥هـ/١٨١٩م أن تدفع للشركتين مبلغ أربعة ملايين ونصف ، وكان الداى أبلغها ماله على الشركتين من دين حتى تحتفظ عندها بدينه عليهما ، ولم تعره التفاتا مما أثار غضبه ، وفى استقبال الداى لرجال السلك السياسى بأبريل سنة ١٢٤٣هـ/١٩٢٧م تحاور مع القنصل الفرنسى ويقال إنه أثار حفيظته فصاح به مشيرا بمروحة فى يده مسَّها طرفه وطرده . وعَّدت فرنسا تلك إهانة وطلبت من الداى اعتذارا علنيا ، فلم يعتذر . وفى يونية من هذه السنة أعلنت الحرب على الجزائر وحاصرتها لمدة ثلاث سنوات وأخذت فى الإعداد لحملة عسكرية ، وفى مارس سنة ١٨٣٠هـ/١٢٤٥م قال شارل العاشر ملك فرنسا فى خطاب العرش : إنه سيقوم بعمل لترضية الشرف الفرنسى فيه فائدة للمسيحية ، وكأنه عدَّ حربه للجزائر حربا دينية بين المسيحية والإسلام . وفى آخر مايو سنة ١٨٣٠م أقلع وزير الحرب الفرنسى دى بورمون بأسطول حربى ضخم أرسى بسيدى فرج بالقرب من مدينة الجزائر ، ودارت معارك ضارية لمدة شهر اضطر الداى بعدها إلى الاستسلام فى الخامس من

شهر يوليه وأُجْبر هو والإنكشارية على الرحيل عن البلاد . وبذلك انتهت مدة العثمانيين فى الجزائر بعد أن استمرت أكثر من ثلاثمائة عام وبدأ الاحتلال الفرنسى الآثم وظل الجزائريون يجاهدون الفرنسيين جهادا عنيفا أبلوا فيه بلاء عظيما تحت راية البطل المغوار الأمير عبد القادر حتى سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م ولم تسقط الراية من أيدى المجاهدين فقد تسلمتها لالا فاطمة فى شرقى الجزائر سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م وحملها سى سليمان وبيته من عشيرة سيدى شيخ لمدة عشرين عاما منذ سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م كما حملها مُقْرانى وأخوه فى منطقة قسنطينة لمدة عامين . وهذه الحركات التحررية جميعها مكانها فى صحف تاريخ الأدب الجزائرى فى العصر الحديث .

obeikandl.com

الفصل الثانى

المجتمع الجزائرى

١

عناصر[1] السكان

البربر هم العنصر الأول الذى ملأ بقبائله وشعوبه وبطونه السواحل والسهول والتلال والجبال والهضاب من إقليم الجزائر ، مثله فى ذلك مثل بقية أقاليم المغرب ، واختلف المؤرخون طويلا فى نسب البربر من الأمم القديمة ، فقيل إنهم أخلاط من اليمن فى آسيا ، وقيل إنهم من لخم وجذام كانت منازلهم بفلسطين وأخرجهم منها بعض ملوك فارس ، فلما وصلوا إلى مصر منعهم ملوكها من المقام بها ، فعبروا النيل إلى ديار المغرب وانتشروا فى أرجائها ، وقيل إنهم من ولد القبط المصريين ، وقيل هم من ولد جالوت ولما قتل رحل بهم إفريقش من ساحل الشام إلى ديار المغرب وأسكنهم إفريقيا ، وقيل هم قبائل شتى من حمير اليمنية ومضر العدنانية والقبط والعمالقة والكنعانيين ، وقيل إنهم أبناء مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح ، وكان مازيغ أخا لفلسطين ، وبارح أبناؤه الشام إلى ديار المغرب فهم حاميون . ويعلق ابن خلدون على هذه الأقوال فى أنساب البربر وما يماثلها بقوله : إنها « أحاديث خرافة » ، إذ مثل هذه الأمة (البربرية) المشتملة على أمم وعوالم ملأت جانب الأرض لا تكون منتقلة من جانب آخر وقطر محصور ، والبربر معروفون فى بلادهم وأقاليمهم متميزون بشعارهم من الأمم منذ الأحقاب المتطاولة قبل الإسلام ، فما الذى يحوجنا إلى التعلق بهذه الترهات فى شأن أوليتهم ، ولا يُحتاج إلى مثله فى كل جيل وأمة من العجم والعرب » . ويذكر ابن خلدون أن من النسابين البربر من يزعم فى بعض قبائلهم وشعوبهم أنهم من حمير اليمنية مثل لواته وهوارة وزناتة ، ثم يقول : الحق الذى شهدت به الرطانة والعجمة (فى ألسنة البربر) أنهم بمعزل عن العرب » . وابن خلدون محق فى قوله إن ذلك كله خرافة وترهات ومزاعم باطلة ، ولا حاجة – أى حاجة – للبربر به ، إذ هم شعب عريق لا يقل عراقة عن العرب والمصريين والفرس والروم ، عاشت

(١) انظر فى تلك العناصر الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان والبيان المغرب لابن عذارى والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى وتاريخ المغرب الكبير للعبوز والجزء الأول من تاريخ المغرب لرشيد الناضورى وتاريخ المغرب فى القديم والحديث لمبارك الميلى وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى وكلمة الجزائر فى دائرة المعارف الإسلامية .

قبائله فى ديار المغرب : جزائر وغير جزائر من عصور سحيقة ، وهم لا يمتون إلى الساميين عربا وغير عرب بأى عرق ، وأولى أن يُعَدّوا حاميين إفريقيين ، ولعل ذلك ما جعل ابن خلدون يقول عن اقتناع : « والحق الذى لا ينبغى التعويل على غيره فى شأن البربر أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح .. وأن اسم أبيهم مازيغ بن كنعان » ويؤيد رأى ابن خلدون ما ترجحه الدراسات اللغوية المقارنة بين اللغتين البربرية والمصرية القديمة الحامية من أن بينهما تشابها فى النظام الفعلى وفى بعض الصيغ مما يؤكد أن البربر من الحاميين .

وكما أن فى نسب البربر اختلافا فى الآراء كذلك كلمة البربر نفسها ، فمن قائل إن البربر هم الذين سموا أنفسهم بهذا الاسم من قديم ، ومن قائل إن العرب هم الذين أطلقوا هذا الاسم على سكان البلاد المغربية لعدم فهمهم للغتهم ، ومنه قالوا « بربر » الشخص إذا تمتم بالكلام ولم يعرف السامع المراد ، ومن قائل إن الكلمة من أصل لاتينى هو بربروس Barbarus وهو من لا يفهم كلامه ، وأطلق الرومان الكلمة على شعوب البربر ، لأنهم يتكلمون بلغة لا يفهمونها ، ولعل هذا القول أكثر الأقوال سدادا ، لنزول الرومان فى المغرب من قديم ، وعنهم أخذها العرب وأطلقوها على سكان المغرب جميعا .

وما زال البربر بعيدين عن الشعوب القديمة لا يتصلون بها حتى إذا كان القرن العاشر قبل الميلاد – وربما قبله أو بعده بقليل – أخذ الشعب الفينيقى اللبنانى – وكان شعبا يحترف الملاحة – تجوب أسراب منه سواحل البلدان المغربية بحثا عن أماكن صالحة لرسو سفنهم وتبادل السلع مع السكان من البربر ، واختاروا قرطاجة فى الإقليم التونسى فنزلوا بها أو قل اختاروا موقعها فأسسوا به أول موطن إفريقى لهم ، وأخذوا يبحثون سريعا عن مواطن لهم فى ساحل الجزائر ، فاختاروا بونة (عنابة) وجيجل وبجاية وشرشال وإسكيكدة غربيها وأخذوا يختلطون بسكان تلك المدن وينشرون بينهم حضارتهم الفينيقية ، ويعلمونهم الزراعة وغراسة الأشجار . ويُظَنّ أنهم نقلوا إلى الجزائر أشجار الزيتون والنقل والفاكهة ، وعلموا الجزائريين أيضا الملاحة والتجارة وكانت قوافلهم تجوب الجنوب وتحمل منه بعض الزنوج ، وسمحوا لليهود منذ القرن الثالث قبل الميلاد بالنزول فى مدنهم . وبذلك كانت تعيش فى الجزائر لعهد الفينيقيين عناصر من اليهود والزنوج بالإضافة إليهم وإلى البربر .

وينشب صراع هائل بين قرطاجة وروما وينتهى سنة ١٤٦ قبل الميلاد باستيلاء روما على المدن الفينيقية فى الإقليمين الجزائرى والتونسى ، ويستوطن هذه المدن كثير من الأسر الرومانية ، وتكثر روما من قوافلها إلى الجنوب ، وتعود محملة بكثير من الزنوج الذين يستخدمون فى الزراعة والرعى . ومنذ سنة ٧٠ للميلاد يفد على المدن الفينيقية بعض الأسر اليهودية بعد تدمير الإمبراطور تيتوس لمعبد بيت المقدس . وتستولى جموع الوندال الألمان من روما على الإقليمين

الجزائرى والتونسى فى سنة ٣٩ للميلاد ، وتظل بها نحو مائة عام إلى أن يخرجهم منها قائد بيزنطى سنة ٥٣٤ للميلاد ، ويخلفهم البيزنطيون وجنودهم وموظفوهم الإغريقيون . ومعنى ذلك أنه كان يعيش فى الجزائر بالقرن السادس الميلادى سبع سلالات : سلالة أساسية من البربر أصحاب البلاد ثم سلالات من الفينيقيين والزنوج واليهود والرومان والوندال الألمان واليونان .

ويقتحم العرب أسوار الجزائر حاملين مشاعل الدين الحنيف ، وتظل تقتحمها جيوش عربية لإكمال الفتح وللقضاء على ما ينشب بها من ثورات طوال القرن الأول الهجرى ، وتستجيب الجزائر لدعاة الدين الحنيف ولولاتها العظام فى هذا القرن الذين سوَّوا فيه بمنتهى العدل بين الجنود المسلمين الفاتحين وبين من يسلم من البربر فى جميع الحقوق والواجبات : فى الضرائب وفى دخول الجيش والجهاد . ويتولى المغرب مع فواتح القرن الثانى الهجرى ولاة طغاة بغاة أخذوا يحرمون البربر من حقوقهم التى شرعها الإسلام ، مما جعل بعض البربر يعتنقون مذهبى الإباضية والصفرية اللذين يريان التسوية المطلقة بين البربر والعرب فى الخراج وغير الخراج وحتى فى الخلافة فلا يصح أن تقصر على قريش وحدها ، وهبَّت ثورات متعاقبة منذ سنة ١٢٢ هـ/٧٣٩ م يقوم بها أتباع الصفرية أو أتباع الإباضية حتى عهد يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤ – ١٧٠ هـ) . وإنما نذكر ذلك لندل على أن الجيوش العربية ظلت تقدم إلى الجزائر منذ الفتح ، وكان كثير من جنودها جميعا يقيمون فى الجزائر وغيرها من الأقاليم المغربية ، ولم يكونوا جميعا عربا بل كان بينهم كثيرون من أهل الرافدين والشام ومصر وإيران ، ومن كل هذه العناصر استقرت سلالات فى الجزائر وعاشت مع أهلها وامتزجت بهم امتزاجا سريعا بحكم ما يجمع بين الجانبين من الدين واللغة . وأخذ ينزل فى المدن الساحلية بعض المسيحيين واليهود لما رأوا فى الإسلام وأصحابه من المعاملة السمحة .

وحول منتصف القرن الخامس الهجرى تحدث هجرة قبيلتى بنى هلال وسليم إلى الإقليمين التونسى والجزائرى انتقاما من المعز بن باديس حين وقف الدعوة العبيدية الفاطمية وخلع طاعة الخليفة وانضوى تحت لواء الخليفة العباسى ، وكان آباء هاتين القبيلتين قد وضعوا أيديهم فى أيدى القرامطة ضد الدولة الفاطمية ، فلما استسلموا لها أنزلتهم فى القفار بين النيل والبحر الأحمر ، ورأى وزير خبيث للمستنصر أن يستخدمهم ضد المعز بن باديس ووعدهم بامتلاك دياره ، فانقضّوا عليها واكتسحتها سيولهم اكتساحا حول منتصف القرن الخامس ، مما اضطره إلى الانسحاب من القيروان إلى المهدية ، وتدافعت سيول من هلال وبطونها : أثبج ورياح وعامر ومعقل وعدى ، وكذلك من سليم وعشائرها : دياب وزغبة وعوف ومرداس والطرود ، وكانوا بدوا رعاة غير متحضرين فمضوا ينهبون ويتلفون الزروع ، ورأى صاحب قلعة بنى

حماد أن يترك لهم الريف . وبدون ريب أحدثت هذه الهجرة الأعرابية كثيرا من الاضطراب فى الجزائر ، غير أنها أفادتها فائدة كبرى إذ أكملت تعريبها وكانت قد أخذت فى التعرب منذ القرن الأول الهجرى واستيطان كثير من الجنود المسلمين لها ، وقد تحولوا ينشرون الإسلام ومبادىء العربية وأخذ ذلك يتسع مع الزمن . غير أن تعرب الجزائريين كان لا يزال محدودا ، حتى إذا حدثت هذه الهجرة الأعرابية الكبيرة لمئات الألوف من العرب ، إذ لم يلتق بذلك بضعة آلاف من الأعراب بالشعب الجزائرى ، بل التقت به مئات الألوف ، بل التقى شعبان : الشعب البربرى صاحب الديار والشعب العربى المهاجر ، ولم يلبث الشعبان أن اندمجا وأصبحا شعبا واحدا دينه واحد ولغته فى الغالب واحدة ، إذ ظل هناك من يحافظون على لغتهم البربرية وخاصة فى أوعار الجبال ، ومع ذلك كانوا يستخدمون مع قومهم اللغة التى تكونت فيما بعد ، ونقصد العامية المشتقة من العربية . وقد أصبحت الكثرة الكاثرة من الجزائريين عربا فى اللغة والزىّ وعادات المآتم والأفراح ، بل لقد أصبحت الجزائر جميعها شعبا عربيا ضخما بفضل هذه الهجرة الأعرابية .

وما نصل إلى سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩٢ م حتى يستولى النورمان نهائيا على جزيرة صقلية وفى العام التالى يستولون على جزيرة مالطة ، وينزح إلى الجزائر وتونس كثير من المسلمين فى الجزيرتين فرارا بدينهم من اضطهاد النورمان ، وكانت كثرتهم – إن لم يكن جمهورهم – من أبناء إفريقية التونسية من سلالات الفاتحين للجزيرتين وكان بينهم بعض أبناء الجزيرتين ممن اعتنق آباؤهم الدين الحنيف . ونمضى إلى القرن السابع الهجرى وتسقط بلدان أندلسية كثيرة فى حجر نصارى الإسبان الشماليين ، وينزح كثيرون من مسلمى الأندلس إلى الجزائر وبلدانها. وإذا كانت الهجرة الأعرابية أفادت الجزائر اكتمالا فى التعرب فإن الوفود المسلمة التى نزحت إليها من الأندلس أفادتها فى الزراعة والصناعات المختلفة : صناعة النسيج وغيره ، وأفادتها فوائد كثيرة فى حياتها العلمية والأدبية ، إذ نزح إليها كثير من العلماء وشاركوها فى حياتها العلمية كما شاركها فى حياتها الأدبية كثير من أدباء الأندلس الذين هاجروا إليها واتخذوها دارا ومقاما . واتسع نزوح من بقى بالأندلس من المسلمين منذ سنة ١٠١٦ هـ/١٦٠٩ م حين نفى الإسبان من كان لا يزال بالأندلس من المسلمين إلا من أعلن تنصره أو تظاهر بأنه نصرانى وتضاعفت إفادة الجزائر من هؤلاء النازحين – كإخوانهم السالفين – فى العلوم والآداب والزراعة والصناعات وما حملوا من الأندلس إلى الجزائر من مدنيتهم الأندلسية العظيمة . وقد نزح معهم كثيرون من اليهود فرارا من عسف الإسبان وبطشهم .

وكان الولاة فى العهد العثمانى يحيطون أنفسهم بحاميات عسكرية من الإنكشارية ، ومعروف أنها كانت تتكون من الترك فى الأناضول ومن أجناس شتى من أنحاء الدولة العثمانية ومن

أسرى جيوشها الغازية فى البلاد الأوربية ، وكانت تعنى بتربيتهم تربية عسكرية إسلامية ، وترسل إلى الجزائر – كما ترسل إلى ولاياتها الأخرى – بضعة آلاف منهم ، وكانوا يتزوَّجون من جزائريات أحيانا مما جعلهم يرتبطون بأسرهن وبالجزائر ارتباطا وثيقا . والمجتمع الجزائرى لا تتداخل فيه سلالات هذه العناصر الكثيرة فحسب ، فإن القرصنة جلبت إليه كثيرا من العناصر الأوربية ، ومرَّ بنا أنها أخذت تتسع اتساعا شديدا منذ استطاع خير الدين وعروج أن يجعلا من البحر المتوسط فى القرن العاشر الهجرى بحرا عثمانيا ، وكان النازحون المسلمون من إسبانيا يملئون قلوب البحارة الترك حماسة ليتسعوا ما استطاعوا بالقرصنة انتقاما من الإسبان والأوربيين ، وكانوا يسحبونهم على وجوههم من البحر المتوسط بالآلاف إسبانًا وفرنسيين وإيطاليين ويونانيين وكريتيين ، وكان كثيرون منهم يعتنقون الإسلام وتُرَدّ إليهم حرياتهم ويصبحون جزائريين دينا ولغة ، ويندمجون فى أهل البلاد اندماجا تاما .

وواضح أن الجزائر دخلتها من قديم عناصر كثيرة إفريقية وآسيوية وأوربية بجانب سكانها الأصليين من البربر ، وقد فتحتها وعاشت فيها أمم كثيرة : فينيقيون ورومان ووندال وبيزنطيون وعرب وترك ، وقد أفادت منها جميعا فى نظمها وطرق معيشتها وزراعتها وصناعتها . وكان كل من ينزلها من هذه الأمم ويستوطنها لا يلبث أن ينفصل عن موطنه ويزايل صبغته الأولى ويذوب فى الجزائر لما تتميز به من قوة الشخصية والهويَّة الراسخة .

٢

المعيشة[1]

كان أساس المعيشة فى الجزائر الزراعة ورعى الأنعام ، وتأتى بعد ذلك الصناعات اليدوية والملاحة وما ارتبط دائما بها من الصيد فى البحر ومما تحولت إليه فى أواسط العصر من القرصنة . والإقليم يموج بطيبات الرزق ، ونستطيع أن نتمثل ذلك بوقوفنا أولا عند النواحى الزراعية فى مدن الساحل الشمالى ثم فى المدن الداخلية وما وراءها من المدن الصحراوية . وإذا سرنا فى الساحل من الشرق إلى الغرب لقيتنا مدينة القالة ، وكانت تسمى قديما مرسى الخزر ، وتليها مدينة بونة ومرَّ بنا أن القديس أوغسطين كان أسقفا لها فى عهد الرومان ، وهى تقع وسط سهل زبرجدى بالقرب من مصب نهر سيبوز وبها صهاريج رومانية قديمة . وكان الرومان

(١) راجع فى المعيشة كتاب أبى عبيد البكرى : المسالك والممالك وابن حوقل بنفس العنوان (وصفة المغرب وأرض السودان ومصر – مقتبس من كتاب نزهة المشتاق) وكتاب الجغرافيا لابن سعيد بتحقيق إسماعيل العربى ومعجم البلدان لياقوت وتاريخ بنى زيان للتنسى تحقيق الأستاذ محمود بو عياد وكتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ترجمة د . عبد الرحمن حميدة (نشر جامعة الإمام محمد بن سعود) وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى .

يسمونها هيبون ثم أصبحت بونة العربية . وسميت فيما بعد عنابة لكثرة ثمر العناب بها ويجفَّف ويصدَّر ، ويقول ابن حوقل : إنها ذات أسواق حسنة ، والأرض المحيطة بها ذات تربة خصبة ، وتنتج القمح والشعير والكتان والفواكه والعسل بكثرة ، ويقول الحسن الوزان : « الأرض المزروعة خارجها تبلغ أربعين ميلا طولا وخمسة وعشرين ميلا عرضا ، وكل الأراضى ممتازة لزراعة القمح ، ويملك أهلها من قبيلة مرداس العربية أعداد كبيرة من الأبقار والثيران والأغنام » . وإلى الغرب منها ميناء جيجل وأرضها وعرة ، كما يقول الحسن الوزان غير صالحة إلا لزراعة الشعير والكتان والقنب ، وبها كثير من شجر الجوز والتين . وغربها بجاية وكانت أكبر ميناء فى الساحل الجزائرى ، ويقول الإدريسى : الحنطة والشعير موجودان فيها بكثرة والتين وسائر الفواكه . وإلى الغرب منها مدينة الجزائر ، وهى ثغر رومانى جدَّد بناءه بنو مزغنَّة ، ثم زيرى بن مناد سنة ٣٥٦ للهجرة ويقول الحسن الوزان : « حولها الكثير من البساتين والأراضى المزروعة بأشجار مثمرة ويمر بجوارها من الجانب الشرقى نهر نُصبت عليه طواحين ، وسهول منطقتها جميلة جدا ولاسيما سهل المتيجة ويبلغ طوله حوالى خمسة وأربعين ميلا بعرض مقداره ستة وثلاثون ميلا حيث ينمو قمح وفير للغاية من أجود الأنواع » . وغربيها مدينة شرشال وهى ميناء فينيقى رومانى ويقول الإدريسى : بها مياه جارية وآبار عذبة وفواكه حسنة كثيرة وسفرجل كبير الجرم ذو أعناق كأعناق القرع الصغار وبها كروم وبعض أشجار التين . ويقول الحسن الوزان إنها كانت قد هُجرت فى أعقاب الحروب بين ملوك تلمسان وفاس وظلت خاوية خلال مدة تقارب ثلاثمائة عام حتى سقوط غرناطة بأيدى النصارى فى عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م فقصدها كثير من الغرناطيين (الأندلسيين المسلمين) فأعادوا بناء قلعتها وقسم كبير من منازلها وزرعوا أراضيها . وإلى غربيها مدينة تنيس ، وهى ميناء فينيقى قديم ، ويقول الإدريسى : بها من الفواكه كل طويفة ومن السفرجل الطيب المعنق ما يفوق الوصف فى صفته وكبره وحسنه ، ويقول الحسن الوزان تنتج أرضها الكثير من القمح والكثير من العسل . وكانت قد خُرِّبت فأعاد إليها مهاجرو الأندلس الغرناطيون العمران والزراعة مثل أختها شرشال . وغربيها مدينة وهران ويقول الإدريسى : « على مقربة منها نهر عليه بساتين وجنات ، وبها فواكه كثيرة وأهلها فى خصب ، والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبدة والبقر والغنم فيها رخيصة وبالثمن اليسير » . وكانت وهران قرية صغيرة حتى إذا كانت الهجرة الأندلسية نزلها كثيرون من الغرناطيين وأسسوا وهران الحديثة .

وإذا تركنا مدن الساحل الشمالى إلى ما وراءه وسرنا فيه من الشرق إلى الغرب لقيتنا قالمة جنوبى بونة أو عنابة وهى مدينة فينيقية قديمة ، ويقول الأستاذ أحمد توفيق المدنى إنها اشتهرت بتربية نوع من البقر يعد من أجمل أنواع البقر الموجود فى الجزائر ، وبه صفات لا توجد فى غيره ، ويذكر أنه يوجد بقربها حمام بديع يدعى حمام المسخوطين وبه مياه معدنية تفور من

عشرة عيون شديدة الحرارة وهى تتراوح بين ٩٤ و ٩٨ درجة ، ولها قيمة طبية عالية » . ونلتقى بعدها بمدينة نقاوس ويقول الحسن الوزان إنه يمر بجوارها نهر تقع مزارع التين والجوز على ضفافه ، ويشتهر تين المنطقة بأنه أفضل أنواع التين وينقل منها إلى قسنطينة ، وحول نقاوس سهول جيدة صالحة لزراعة القمح . وتلقانا مدينة قسنطينة وهى مدينة فينيقية رومية ، جدد بناءها الإمبراطور قسطنطين فنسبت إليه ، وهى – كما يقول الأستاذ المدنى – أم المدن بالناحية الشرقية الجزائرية ، وكانت تتبع صاحب القيروان وتونس ، وكان ينزل بها نائبه ، وكانت لذلك مركزا كبيرا للإدارة ، ويقول الحسن الوزان : جميع الأراضى الزراعية الواقعة حول المدينة طيبة وخصبة ويبلغ محصولها ثلاثين ضعفا لما بذر فيها ، وتوجد بساتين جميلة جدا فى السهل على طول النهر الذى يمر بأسفلها وبجوارها نبعان : نبع ساخن ونبع بارد بجانبه بناء من الرخام . وعلى بعد ٥٠ كيلومترا منها مدينة ميلة وهى مدينة رومانية ، ويقول الحسن الوزان إن منطقتها ذات إنتاج غزير من التفاح والكمثرى والثمار الأخرى . وغربيها جنوبا مدينة المسيلة (المحمدية) وهى مدينة رومانية وسهولها مشهورة بإنتاج القمح والشعير والفواكه ، كما تشتهر بتربية الحيوانات : البقر والغنم والخيل ، وبنهرها سمك صغير مزدان بخطوط حمراء ، ويقول الإدريسى إنه لم ير فى المعمورة سمكا على صفته . وإلى الشرق منها طبنة عاصمة الزاب الأعلى شرقى شط الحضنة المالح وتقع على نهير يسقى بساتينها وزروعها وحقول الحنطة والكتان ومختلف أنواع الفواكه . وشمالى طبنة والمسيلة مدينة سطيف وهى مدينة رومانية وتتوسط منطقة من أغنى مناطق الجزائر الزراعية . وإلى الجنوب من قسنطينة باغاية وبجوارها نهر يسقى بساتينها وحقولها الواسعة المنتجة للحبوب من القمح والشعير ، وسكانها إباضيون انحازوا إليها بعد سقوط تاهرت فى آخر القرن الثالث الميلادى . وإلى الجنوب شرقا من باغاية تبسَّة ، وتشتهر بكثرة الفواكه وبالجوز ، وينوِّه أبو عبيد البكرى بكبر حجمه وطيبه . وإلى الجنوب الغربى منها مدينة بسكرة وتقع فى أشهر الواحات الجزائرية ، وكان الرومان يسمونها فيسيكرا وكان بها قديما أسقفية ، وعلى مقربة منها استشهد عقبة بن نافع وأصحابه كما مر بنا فى الفصل الماضى ويكثر بها النخل والزيتون ومختلف الثمار ويشيد البكرى بآبارها الكثيرة . وإذا اتجهنا إلى الشمال الغربى التقينا بتاهرت عاصمة الدولة الرستمية الإباضية ، وهى على سفح جبل يسمى جزول وكان يجرى بجوارها نهر يروى زروعها وبساتينها التى وصفها البكرى بقوله : « فيها جميع الثمار وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ومشمًّا » وينوه الإدريسى بمزارعها وحقولها وما اشتهرت به من تربية الأنعام والخيل ، ويقول إنها وافرة العسل والسمن . وإلى الشمال منها مدينة مليانة وهى مدينة رومانية قديمة تشرف على نهر شلف وحولها بساتين زاخرة بالفواكه وقرى عامرة ومزارع واسعة ، ويقول الإدريسى عنها : حسنة البقعة كريمة المزارع وتقع على نهر يسقى مزارعها وحدائقها وجناتها ولها أرحاء على نهرها » . وعلى بعد

مائة وأربعة وسبعين كيلومترا من وهران تقع مدينة تلمسان الكبيرة بين جبال تزدان بالخضرة والخمائل النضرة وسهول مكتظة بالزروع والبساتين الخلابة ، يقول ابن حوقل فيها : مدينة لطيفة قديمة ولها أنهار جارية وعليها أرْحِية وفيها فواكه كثيرة وغلاتها عظيمة ومزارعها كثيرة ، ويقول الحسن الوزان : « توجد فى خارج تلمسان عدة كور بديعة بها منازل غاية فى الأناقة ، ومن عادة سكان المدينة قضاء الصيف فيها حيث ينعمون بأكبر متعة ، فلهم فيها بساتين فاخرة تنتج أعنابا من كل الألوان وذات نكهة رائعة ، وكرزا من كل نوع تبلغ وفرته حدا لم أر له مثيلا فى أى مكان آخر ، وتينا شديد الحلاوة أسود اللون كبير الحجم يجفَّف ليؤكل فى الشتاء ، ودرَّاقا ، وجوزا ولوزا وبطيخا وخيارا وثمارا أخرى مختلفة » وعلى نهرها العديد من طواحين القمح . وإذا توغلنا جنوبى تاهرت لقيتنا واحة الأغواط بنخيلها الكثير ، وإلى الجنوب منها منطقة ميزاب ومدنها وأهمها غرداية ويكثر بها النخيل والحدائق والبساتين ، ومن ورائها ست قرى وافرة النخيل والفواكه ، وأهلها جميعا إباضيون وكان آباؤهم حين قضى على الدولة الرستمية فى تاهرت انسحبت كثرة منهم إلى ورقلة (ورجلان) فى الجنوب الشرقى من الجزائر ، ولما غادروها إلى بلاد ميزاب بقيت منهم بقية قليلة وحل محلهم فى تلك الواحة كثير من الزنوج . وشرقى بلاد ميزاب وادى سوف وهو بلاد واحات شاسعة تمتد من أراضى ميزاب إلى أراضى الجريد فى تونس ، وتنتج واحاته تمرا بديعا . وطبيعى أن تغطى الهضاب الصحراوية الكثيرة فى جنوبى الجزائر أثناء الربيع أعشاب ونباتات ، ويتنقل البدو فيها لرعى أغنامهم وإبلهم ، وينقسمون إلى بدو أو رعاة شبه مقيمين إذ يقل ظعنهم وهم المجاورن لتخوم جبال أطلس والجبل التلى ، وبدو أو رعاة رحَّل وهم المتنقلون فى الهضاب والصحارى ، وهم جميعا يمدون مدن الجزائر بكثير من قطعان مواشيهم .

ومن قديم تعنى مدن الجزائر بالصناعات اليدوية كالحدادة والنجارة والحياكة واستخراج المعادن وتصنيعها وخاصة الحديد ، وكانت بونة (عنابة) تشتهر بمصانعه ، ومنها الرصاص والزنك فى جبال الونشريس ونواحى سطيف ، وكان ببجاية دار صناعة كبرى لإنشاء الأساطيل والسفن وكانت تلك الدار تستمد الخشب من أوديتها وجبالها ، كما كان بها معدن الحديد اللازم لتلك الصناعة وكان الزفت والقطران البالغا الجودة يجلبان إليها من أقاليمها كما يقول الإدريسى ، وكان بها من الصناعات طرائف كثيرة ، واشتهر ميناء دليس غربى بجاية بأن أكثر سكانه – كما يقول الحسن الوزان – من الصباغين لكثرة ما فيها من الينابيع والجداول ومثلها فى ذلك ضاحية تلمسان المسماة مدينة عباد . ويتوقف الحسن الوزان مرارا عند بعض المدن ليقول إن كثيرين – أو الكثرة – من سكانها صناع ، ويذكر عن صناع تلمسان أنهم يحيون حياة هادئة ممتعة وينعمون بأوقات لراحتهم ويلبسون ثيابا لائقة وقليل منهم الذين يضعون عمامة على الرأس ، فيستخدمون قلنسوة دون ثنيات ويلبسون أحذية تصعد حتى أواسط سيقانهم ، وكانت

تلمسان تشتهر بصناعة الجلد ، ويقول ابن سعيد الأندلسى : « منها تُحْمَل ألجم الخيل والسروج وما يتبع ذلك » مما يدل على ما كان بها من مصنع للحديد .

وكانت تنتشر فى أنحاء الجزائر المنسوجات الكتانية والصوفية والقطنية والحريرية ، واشتهرت بونة (عنابة) بمنسوجاتها الكتانية ، ويقول الحسن الوزان إن أكثر سكان وهران من الصناع والحاكة . ولما سكن الأندلسيون الغرناطيون فى هجرتهم الكبرى إلى الجزائر مدينة شرشال نهضوا فيها بصناعة الحرير إذ وجدوا بجوارها كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود فربوا فيها دود القز ، واتسع إنتاجهم من المنسوجات الحريرية . ويذكر الحسن الوزان كثرة ما بمدينة قسنطينة من الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا وكذلك الكتانية ، ويقول الحسن الوزان : فى مدينة ميلة عدد كبير من الصناع ولاسيما الذين يعملون فى نسج الأقمشة من الصوف التى تصنع منها أغطية الأسِرَّة . ويطيل الحسن الوزان فى تلمسان من وصف أكسية الصوف والجلد والقطن ووصف المعاطف . وقد اشتهرت نساء المدن الجزائرية بصناعة التطريز على الأقمشة الحريرية والجلدية ، وتحتفظ المتاحف الجزائرية بمجموعات منها لا تزال أسلاكها الذهبية والحريرية والقطنية تومض كأنما وضعت عليها بالأمس .

ويكثر الحسن الوزان وغيره من المتحدثين عن المدن الجزائرية عن كثرة من بها من الصناع والحاكة ، وقلما يذكرون ما يقومون به من الصناعات والحياكات ، ويذكر الوزان عن أهل مليانة أنهم جميعا من الصناع ومن الحاكة ومن الخراطين الذين يصنعون أوانى جميلة من الخشب . وكان أهل الجزائر يصنعون بجانبها أوانى جميلة من الخزف الملون والجص المجزَّع ، ولابد أن تفننوا طويلا فى صناعة الحلى إرضاء للمرأة ، وبالمثل فى صناعة أحذيتها وأحذية الرجال . وكانت معاصر الزيتون منتشرة فى بلدان كثيرة ، وكان الزيت لذلك يصدر بكثرة من الجزائر . ولابد أن صناعة الورق من الكتان كانت منتشرة وخاصة فى المدن الكبرى وفاء بحاجة العلماء والطلاب وبما انبثَّ فى الجزائر من نهضة علمية وأدبية واسعة .

ومنذ القرون الإسلامية الأولى تشاد فى الجزائر المنشآت العمرانية ، ولا يشاد بناء مفرد أو أبنية مفردة فحسب بل تشاد مدن بمساجدها وقصورها وفنادقها وحماماتها ومارستاناتها فقد بنى فيها الخليفة العبيدى المهدى سنة ٣١٣ مدينة المحمدية أو المسيلة . وبنى زيرى الصنهاجى والى الجزائر من قبل الخليفة العبيدى المنصور « أشير » إلى الشمال الشرقى من تاهرت ، وبنى ابنه بلكين مدينة الجزائر ومدينة مليانة جنوبى شرشال ومدينة المدية إلى الجنوب الشرقى منها ، وبنى حماد بن زيرى قلعة ضخمة شمالى المسيلة عاصمة لدولته وجدَّد الناصر الحمادى مدينة بجاية وأحضر لها العمال والمهندسين ومواد البناء واتخذها عاصمة للدولة . وكل حاكم منهم كان يعنى بإنشاء قصور كثيرة فى عاصمته على نحو ما نقرأ فى دولة بنى زيان ملوك تلمسان ،

وبخاصة فى تاريخ عبد الرحمن أبى تاشفين (٧١٨-٧٣٧هـ) فقد كان مولعا بتشييد القصور - كما يقول يحيى بن خلدون - مستظهرا على ذلك بآلاف عديدة من فعلة الأسارى الأجانب وغيرهم من نجارين وبناءين ومبلّطين للخزف وزوّاقين ، وشاد قصورا عدة : دار الملك ودار السرور وأبا فهر وغيرها والصهريج الأعظم الذى لا يزال موجودا - كما يقول الأستاذ محمود أبو عياد - غربى المدينة . وإذا كان بناء ثلاث قصور استلزم آلافا من العمال فما بالنا بمن بنوا مدنا بقصورها ومساجدها وكل منشآتها العمرانية . وكل هذه القصور والمدن استلزمت صناعات كثيرة من نجارة وحدادة ونقاشة وقدرة على استخدام الفسيفساء (الموزايكو) فى الحيطان والسقوف والأروقة مع رسوم مختلفة من الرياحين والأزهار ، ونضرب مثلا لروعة العمارة فى مدن الجزائر بقول الحسن الوزان عن مدينة بجاية المبنية فوق سفح جبل شديد الارتفاع على ساحل البحر المتوسط إنها تمتد من حيث العرض على خاصرة الجبل امتدادا كبيرا خارقا للعادة ، وسائر بيوتها جميلة ، وهى مجهَّزة بالجوامع بشكل طيب وبالمدارس التى يكثر فيها الطلاب وكذلك أساتذة الشريعة والعلوم ، كما تحوى أيضا زوايا للمتعبدين المسلمين ، وحمامات وفنادق ومارستانات وكلها عمارات حسنة البنيان وأسواقها جميلة حسنة التنسيق ، وتقوم المدينة كلها على تلال صغيرة حتى إنه ليتعذر السير بضع خطوات بدون صعود أو نزول . وإلى جانب الجبل - أو جانبها - توجد قلعة كبيرة ذات جدران متينة ، وتزدان بالكثير من الفسيفساء وبالجص المجزَّع وبالأخشاب المحفورة بالنقوش التى تعلوها رسومات عجيبة بلون أزرق سماوى ، حتى لتساوى هذه الأشغال الفنية من حيث القيمة أكثر من البنيان ذاته » . وإنما نقلنا هذا النص الطويل لندل بوضوح على ارتقاء صناعة المدن والقصور فى الجزائر وكيف أنه رافقها ارتقاء فى الحفر والنقش والزينة بالفسيفساء والرسومات العجيبة باللون الأزرق البهيج ، وقد خلبت بروعتها وحسنها لبَّ الحسن الوزان كما خلبه جمال البيوت وعمارتها وعمارة جميع المؤسسات وحتى الأسواق . وكل ذلك إنما نهض به فى بجاية وغيرها من مدن الجزائر أيد بالغة المهارة فى العمارة وكل ما يتصل بها من زخرف وزينة .

وهيَّأ هذا الإنتاج الصناعى الوافر وما سبقه من الإنتاج الزراعى القطر الجزائرى لأن تصبح موانيه أسواقا عالمية ، فكانت تصدر منتجاتها شمالا إلى الغرب وشرقا إلى تركيا والشام ومصر ، ومنذ عصر الفينيقيين كانت قوافلها تعبر فلوات الصحراء الكبرى إلى السودان الأوسط والغربى محملة بالسلع الجزائرية من المنسوجات على اختلاف أنواعها صوفية وكتانية وقطنية ومن النقل جوزا وغير جوز ومن الزيتون والزيت ومن السروج واللبود والمفاتيح وأقفال الحديد ، وتعود محملة بالعاج وريش النعام والتِّبر والجلود والرقيق السودانى . ونستطيع تصور الحركة التجارية ومدى نشاطها إذا رجعنا إلى ما كتبه الحسن الوزان وغيره عنها فى الموانى والمدن الكبرى ، فمن ذلك ما يقوله عن ميناء القالة ، وكانت تعرف باسم مرسى الخزر : « إن أهلها يقومون

بتجارة طيبة لأنهم يستمدون من جبلهم الكثير من الشمع ولديهم كمية كبيرة من الجلود ويقايضون هذه المنتجات بالسلع التى يجلبها الجنويون (تجار جنوة) الذين يترددون على مينائهم » . ويقول الوزان عن أهل بونة إنهم يبيعون كمية كبيرة من أقمشتهم الكتانية ، ويقول عن أهل سكيكدة إن سكانها يزاولون التجارة بكثرة مع الجنويين فيقدمون لهم القمح ويأخذون منهم بالمقابل أقمشة ومنتجات أوربية أخرى . ويذكر عن ميناء جيجل غربيها أنه يوجد به الكثير من شجر الجوز والتين وتنقل ثمار هذا الشجر إلى تونس . وكانت بجاية سوقا تجاريا كبرى ، وفيها يقول الإدريسى : « السفن إليها مقلعة ، ولها القوافل متجهة ، والأمتعة إليها بحرا وجوا مجلوبة ، والبضائع بها نافقة ، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء ، وبها تباع البضائع بالأموال المقنطرة » . ومن أجل هذه الحركة التجارية الواسعة فيها عقدت الدول البحرية الأوربية مع بجاية فى عصر الدولة الحمادية قديما معاهدات تجارية . ويقول الإدريسى عن ميناء تينس : « به فواكه وخصب وإقلاع وحطٌ ، وبه الحنطة وسائر الحبوب تخرج منه إلى كل الآفاق فى المراكب » . وكان ميناء وهران سوقا كبيرة . ويقول الوزان : كانت وهران مقصد التجار القطالونيين (الإسبان) والجنويين (الطليان) ولا زال فيها – لعصره فى القرن العاشر الهجرى – بيت يُدْعى بيت الجنويين لأنهم كانوا يسكنون فيه . وكانت قسنطينة فى الداخل مركزا تجاريا كبيرا ، ويقول الوزان : « فيها عدد كبير من الباعة الذين يزاولون تجارة الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا ، ويصدر بعض التجار الزيت والحرير وكذلك الأقمشة الكتانية ، ويباع كل ذلك بالمقايضة مقابل التمور والعبيد . ويجتمع أهل قسنطينة مرتين فى العام فى قافلة تجارية ، ونظرًا لكثرة تعرضهم لهجمات الأعراب يصطحبون معهم بعض رماة البنادق من الأتراك الذين ينالون أجرا طيبا على ذلك . ولا يدفع تجار قسنطينة رسم دخول إلى تونس (إذ كانت جزءا من مملكتها) ولكنهم يدفعون عند خروجهم من قسنطينة مقدار اثنين ونصف بالمئة من قيمة بضائعهم » . ويقول الحسن الوزان عن تجار تلمسان إن مَتْجرهم إنما هو الرحلة إلى السودان وجلب منتجاته ، وبها كما يقول بضعة فنادق من بينها اثنان لسكن التجار البنادقة والجنويين .

ولإتمام بيان وجوه المعيشة والكسب فى الجزائر كان كثير من سكان المدن الشمالية الساحلية يشغلون أنفسهم بصيد السمك والحيتان من البحر المتوسط ويقول الحسن الوزان عن أهل دليس إنهم يصيدون بالشباك الكثير منه وينطبق ذلك على أهل الموانى الشمالية جميعا . واشتهرت مدينة القالة المسماة قديما بمرسى الخرز بكثرة ما بساحلها من المرجان ، وهو شجر فى البحر لين أبيض اللون ، وإذا ضربه الهواء احمرَّ وصلب ، ويقول الحسن الوزان : ليس لأحد من أهل القالة الحق فى صيده أو التقاطه من الساحل حين تقذف به الأمواج إلى البر لأن سلطان تونس أعطى هذا الساحل بالتأجير إلى أهل جنوة الإيطاليين . وهو تصرف مخطىء لأن ذلك

من شأنه أن يطمع الجنويين أو غيرهم فى احتلال ذلك الجزء من البلاد ثم فى احتلال البلاد جميعها حين تحين الفرصة ، على نحو ما سوَّل الشيطان ذلك لفرنسا بالأمس .

٣

الثراء[1] – الرفه – الموسيقى

(أ) الثراء

طبيعى أن أهَّلت التجارة الواسعة فى موانى الجزائر الساحلية أهلها ليكونوا أثرياء ، وكلٌّ ثراؤه حسب قدرته فى التجارة وحسب نشاطه ، ونضرب مثلا لذلك مدينة القالة التى كان يتجر أهلها مع الجنويين فى الشمع والجلود كما مر بنا ، ويقايضونهم عليهما بما يحملون من السلع ويقول الحسن الوزان : « لا يوجد على الساحل مدينة أكثر غنى من هذه المدينة ، فهى تربح من تجارتها مع الجنويين (تجارجنوة) ضعف قيمة ما تعطيه لهم ، ثم تبيع بالقطاعى فى الجبال المجاورة لها البضائع التى جلبها الجنويون وتجنى من ذلك كسبا ضخما . ومثلها فى هذا الاتجار والغنى بقية الموانى الشمالية ، ويعبر المؤرخون عن ذلك بعبارات كثيرة كأن يقول البكرى عن بونة (عنابة) إنها كثيرة اللحم واللبن والعسل ويقول الوزان إن أهلها يبيعون كمية كبيرة من الأقمشة الكتانية وكل أراضيها ممتازة لزراعة القمح ويمتلك أهلها عددًا كبيرًا من الأبقار والثيران والأغنام ، وتنتج المواشى كمية ضخمة من السمن . وكل تلك مؤهلات كبيرة للثراء . ويقول الوزان عن أهل بجاية إنهم مياسير وعلى قدر كبير من الغنى ومرَّ بنا أنها كانت مركزا تجاريا ضخمًا وأن السلع كانت تباع فيها بالأموال المقنطرة . ولم يكن أهل مدينة الجزائر يقلون ثراء عن أهل بجاية ، واتسع ثراؤهم فى العهد العثمانى اتساعًا كبيرًا ، وبالمثل أهل وهران . وينوه الوزان بثراء قسنطينة وكثير من المدن الداخلية ويقول عن تجار تلمسان إنهم أغنياء جدًا بما يملكون من عقار وستاع ونقود وهم ذوو هندام جيد ، وينوِّه – كما مر بنا – بالصناع وثيابهم اللائقة ، ويقول أفضل الناس كساء فى تلمسان الأساتذة والقضاة والأئمة والموظفون لما كانوا يتقاضون من رواتب عالية ، ويذكر أن العساكر يتقاضون أجورا مرتفعة . ويذكر عن أهل ميزاب أنهم أغنياء لأنها كانت مركز التلاقى التجارى بين تجار مدينتى بجاية والجزائر وتجار بلاد السودان ، ويقول عن مدينة وَرْقلة (ورجلان) الداخلة فى الصحراء

---

(١) انظر فى الثراء المصادر السالفة فى المعيشة وخاصة كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان ، ونفس المصادر تراجع فى الرفه ويراجع معها كتاب بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد فى وصف المنكانة أو الساعة ٢/٤٠ ونقلها عنه التنسى فى تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ونقلها عن التنسى المقرى فى نفح الطيب وأزهار الرياض . وراجع فى الموسيقى وصف إفريقيا للحسن الوزان وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى .

الكبرى إن أهلها من كبار الأغنياء لأنها مركز تجارى يتباذل فيه تجار البربر من قسنطينة وتونس منتجات بلادهم بالسلع التى جلبها تجار بلاد السودان .

وزاد فى ثراء سكان المدن الشمالية الساحلية – على مر العصور – تحول بعضها إلى ما يشبه قاعدة للقرصنة فى البحر المتوسط ، ونقرأ أخبار هذه القرصنة منذ أيام الدولة الحمادية ، فقد كان من قراصنة الجزائر من يتخذ بونة (عنابة) فى عهدهم مركزًا ينطلق منه للقرصنة ، ومثلها بجاية عاصمة الحماديين وظل ذلك دأب أهلها طويلا ، ويقول الحسن الوزان : «كان أهل بجاية على قدر كبير من الغنى ، فكانوا يسلحون مراكب وسفنا حربية ويرسلونها لغزو إسبانيا ولجلب غنائم البحر من السلع والرقيق رجالا ونساء » وكثير منهم كانوا يسلمون ويصبح لهم ما للمسلمين من الحقوق ، واتسعت هذه القرصنة فى الموانى الشمالية حين استقر بها الغرناطيون والأندلسيون فى هجرتهم الكبرى أواخر القرن التاسع الهجرى وكان يحفزهم عليها محاولتهم الانتقام من نصارى إسبانيا الذين أخرجوهم من ديارهم ومواطنهم فى الأندلس ، ولم يلبث أن ظهر خير الدين (بربروس) وعروج القائدان التركيان البحريان العظيمان واستوليا على الجزائر ، وأخذ خير الدين يطرد الإسبان من الموانى التى كانوا قد استولوا عليها واستطاع خلال عشرين عاما أن يطهر الساحل الجزائرى منهم واستدار بالبحارة الترك ومن انضم إليهم من المهاجرين الأندلسيين يتوغل فى البحر المتوسط ، وظل ذلك طوال هذا العصر حتى العقد الثانى من القرن التاسع عشر ، وظلت بجاية والجزائر ووهران تستقبل جميعا غنائم البحر من السلع والرقيق وبالمثل غنائم ميورقة ومنورقة والساحل الإسبانى . ولكى يتضح لنا مدى هذه الغنائم ينبغى أن نعرف أنه كان يُجْلَبُ أحيانا فى الغزوة البحرية الواحدة مئات من رقيق النصارى رجالا ونساء سوى ما كان يجلب من الغنائم ، وكان ذلك مصدر ثروة واسعة لقراصنة الساحل الجزائرى من جهة وللدولة نفسها من جهة ثانية ، مع ما كانت تموج به الجزائر من طيبات الرزق فى الزراعة والصناعات اليدوية والتجارة الواسعة .

(ب) الرَّفه

معروف أن الغنى الواسع يجر إلى الرَّفه ورغد العيش ، ولم يكن هذا الغنى أو الثراء خاصا بفرد أو أفراد قليلين فى المدن الجزائرية ، بل كثيرا ما كان يشمل كل أفراد المدينة فالجميع فى يسار وبُلَهنية وسعة من العيش تتيح لسكان المدينة رفاهية واسعة ، ومن خير المدن التى تصور ذلك مدينة نِقاوس ، وفيها يقول الحسن الوزان : « مدينة رومانية على مسافة نحو ثلاثين ميلا من مدينة المسيلة ، وسكانها أغنياء شرفاء كرماء ويلبسون ثيابا لائقة مثل سكان بجاية ، وبالبلدة بيت معد لسكنى الغرباء وفيها مدرسة للطلاب الذين جرت العادة أن يعفوا من نفقات الكساء والغذاء ، كما أن فيها جامعا جميلا فسيحًا جدا ومجهزا بكل ما تمسُّ الحاجة إليه ،

والنساء هنا جميلات ، لون بشرتهنَّ أبيض ، وشعورهن فاحمة ولامعة ، لأنهن يكثرن من التردد على الحمامات ويعتنين بأنفسهن كثيرا ، وبيوتها جميعا من طابق أرضى واحد ، ومع ذلك أنيقة جدا وبهيجة المنظر ، لأن لكل بيت منها حديقة مليئة بالزهور المتنوعة لاسيما من الورود والرَّيحان والبنفسج والقرنفل وأزهار أخرى لا تقل عنها بهاء ، ولجميع البيوت عيون ماء تُسْقَى منها . وعلى الجانب الآخر من الحديقة تكعيبة بديعة تعطى فى الصيف ظلاً ظليلا ومنعشا . ولذلك فإن من ينزل فى نقاوس يود لو يبقى فيا حينا طويلا من الدهر ويأسف لاضطراره إلى مغادرتها لما لقيه من أهلها المضيافين من حفاوة وترحاب » . ونقاوس لم تكن ميناء تتوسط حقول عناب مثل بونة مثلا ولا كانت تتلقى غنائم البحر مثل بونة وموانى الساحل الشمالى ، إنما هى مدينة عادية فى البقاع الداخلية تعيش على ما تنتجه سهولها من قمح ومزارعها من تين وجوز ، مثلها فى ذلك مثل بلدان عادية كثيرة فى الجزائر ، ومع ذلك فيها دار ضيافة لإكرام الغرباء ومدرسة مجانية تكفل لطلابها الكساء والغذاء وجامع فسيح جميل مجهز بكل متطلباته ونساء جميلات ، والبيوت جميعا من طابق أرضى واحد ، فليس بينها قصر أو قصور ، بل الجميع سواء فى المسكن والمعيشة ، ولكل بيت حديقته المكتظة بالأزهار العطرة وتكعيبته التى تتيح لساكنيه فى الصيف ظلا ظليلا منعشا . ولكأن الحسن الوزان يصف فردوسًا من فراديس الجنان امتلأ برفاهية لا حدَّ لها ولا نهاية ، وإنه لآسف أشد الأسف لمبارحته لها . وتلك كانت مدن الجزائر وقراها قبل أن يحتلها الفرنسيون ، وبون بعيد بين نقاوس الأمس ونقاوس أيام الفرنسيين وما نزل عليها من بلاء حين وطئتها هى وأمثالها أقدام المحتلين الباغين . وبدون ريب كانت مدن – أو على الأقل بعض المدن وخاصة الساحلية بل أيضًا الداخلية يغمرها مثل هذا الرفه الرائع . ويتوقف الحسن الوزان مرارا أمام بعض المدن التى بهرته مبانيها ليقول إنها بديعة ، ومن قوله عن بجاية : « سائر بيوتها جميلة » ويذكر جوامعها ومدارسها وحماماتها وفنادقها ومارستاناتها ويقول : « كلها عمارات حسنة البنيان » ويقول عن وهران : إنها مجهزة بكل العمارات والمؤسسات التى تميز مدينة حضرية كالجوامع والمدارس والمارستانات والحمامات والفنادق . ويفيض فى الحديث عن رفه أهل تلمسان ، ومما يذكره بها خمس مدارس بديعة حسنة البنيان جدا ومزدانة بالبلاط الملون وسواه من الأعمال الفنية » . ومرَّ بنا ما ذكره من أن سكانها يقضون الصيف فى كور بديعة لهم فيها منازل غاية فى الأناقة ومن حولها بساتين فاخرة تنتج كرزا وأعنابا من كل الألوان ودرَّاقا وجوزا ولوزا وثمارا مختلفة ، وينوه بملابس أهلها من صناع وغير صناع ومن أساتذة مدرسين وقضاة ، ويتسع فى الحديث عن البلاط الملكى بها وموظفى الدولة ورئيس التشريعات ، وكأننا بإزاء عاصمة دولة حديثة متحضرة غاية التحضر ناعمة بغير قليل من الرفاهية .

ويدل أبلغ الدلالة على ما نعمت به تلمسان من رفه أيام دولة بنى زيان ما نفذ إليه عالم

رياضى عظيم بها يسمى أبا الحسن على بن أحمد الملقب بابن الفحام من صنع منكانة أو ساعة كانت دقاقة ، وقد وضعها فى خزانه كبرى ذات تماثيل فضية محكمة الصنع ، وبأعلاها أيكة – أو شجرة ملتفة – تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويخاتله فيهما ثعبان نافذ من كوّة بجذر الأيكة يحاول الصعود ينتظر غفلته ، وبصدر الخزانة أبواب موصدة بعدد ساعات الليل الزمانية – إذ كانت توضع فى الاحتفال الكبير بليلة المولد النبوى زمن أبى حمو موسى الثانى (٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م –٧٩١هـ/١٣٨٩م) – ويصاقب (يجاور) طرفى هذه الأبواب بابان مغلقان أطول من الأبواب الأولى وأعرض ، وفوقها جميعا دون رأس الخزانة قمر مكتمل يسير على خط استواء سير نظيره فى الفلك ويسامت (يوازى) أول كل ساعة بابها المُرْتج (المغلق) فينقضُّ من البابين الكبيرين عُقابان بظفرى كل واحد منهما صنجة من الصُّفْر يلقيها إلى طست مجوف من النحاس بوسطه ثقب يفضى بها إلى داخل الخزانة فيرنّ وينقضُّ الثعبان على أحد الفرخين فيَصفِر له أبوه ، وهنالك يفتح باب الساعة الراهنة (الحالية) وتبرز منه دمية على هيئة جارية بخصرها حزام كأظرف ما أنت راء ، بيمناها صحيفة فيها رقم ساعتها (العاشرة مثلا) منظوما ، ويسراها موضوعة على فمها ، وكأنها تعلن عن الساعة على استحياء . ومن يزور مدينة بيرن عاصمة سويسرا سيأخذه مرافقه السويسرى قبيل الساعة الثانية عشرة إلى مشهد ساعة كبيرة مثبتة على برج شاهق وفى الجزء العلوى منها مهرج يدق جرسين قبيل دق الساعة لجرسها معلنة الثانية عشرة ، وفى الحال يصيح ديك على اليسار ويحرك أحد جناحيه ، ويواجهه تمثال أسد مايزال يحرك رأسه وتمثال عمدة يحرك عصاه وتدور مجموعة من الدببة ، وفى الساعة الثانية عشرة تمامًا تدق الساعة ويصيح الديك ويحرك أحد جناحيه كأنه يهم بالطيران . وهذه الساعة السويسرية التى يفتخر السويسريون باختراع أحد مواطنيهم لها سنة ١٥٣٠ للميلاد ليست أروع ولا أبدع من ساعة ابن الفحام التى اخترعها قبلها بقرن ونصف مما يدل على ذكائه الوقاد من جهة وعلى ما أصابه الجزائريون فى تلمسان من رفه من جهة ثانية .

(جـ) الموسيقى

ليس بين أيدينا أخبار عن تعلق أهل الجزائر بالموسيقى والغناء فى الحقب الأولى من هذا العصر ، وإذا رجعنا إلى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان وجدناه يصف أهل بجاية بأنهم « ميالون إلى المرح وإلى الموسيقى والرقص ولاسيما الأمراء » . ويقول عن مكان ميناء دلس الواقعة غربى مدينة بجاية إنهم « لطفاء ويحيون حياة مرحة ويجيدون كلهم تقريبا الضرب على العود وعلى القانون » . ولم يصور لنا الوزان حياة المرح ومختلف وسائله عند أهل بجاية كما لم يصور رقصهم وأوقاته ، ومع أنه ذكر التى العود والقانون الموسيقيتين اللتين كان يضرب عليهما جميع أهل دلس لم يذكر هل كانوا يصحبون هذا الضرب بتلاحين لأشعار ينشدونها أو يغنونها دائما أو فى بعض الأحوال .

وأكبر الظن أن الجزائر ظلت طويلا تعتمد على موسيقاها والضرب على العود والقانون على ألحان بسيطة ، حتى إذا كانت هجرة الغرناطيين الكبرى إليها بعد سقوط عاصمتهم غرناطة فى أيدى فردناند وإيزابيلا نقلوا معهم إلى مدنهم التى استوطنوها وخاصة على الساحل الشمالى موسيقاهم الأندلسية ، ولا نعرف إلى أى حد امتزجت هذه الموسيقى بموسيقى الجزائر المحلية ، وكانت الموسيقى الأندلسية موسيقى راقية ذات قواعد وقوانين فى تلاحينها وذات رُقُم مضبوطة (أى نُوَت جمع نوتة) وكانت تصحبها أغان أندلسية بهيجة أو شجية من الغزل وغير الغزل . ولم تلبث الموسيقى التركية أن انتقلت بدورها إلى الجزائر فى العهد العثمانى عن طريق الطاقم الموسيقى العسكرى الذى كان يلازم الوالى وما يحمل من آلات النفخ والدق . وأخذت تتسع معرفة الجزائريين بالموسيقى التركية وآلاتها وقواعدها فى التنغيم والتلحين . وهذه الموسيقى التركية وأختها الأندلسية التحمتا بما كان فى الجزائر من موسيقى أولية ، وتألفت من ذلك كله منذ القرن الحادى عشر الهجرى الموسيقى الجزائرية بطوابعها وخصائصها الموسيقية ، وقد أدخل الجزائريون في ديوان موسيقاهم مصطلح البشرف وهى كلمة تركية معناها الافتتاحية ولا ينشد معها أو يغنى كلام ثم تتوالى الأدوار فى الموسيقى ، وكل دور يسمى نوبة ، ولكل نوبة اسمها الخاص وتلاحينها . وتعتمد الموسيقى الجزائرية على الآلات الموسيقية التالية : الناى والعود والرباب والقانون والكمنجة والطبل والدربكة والطار والمزمار .

وبجانب هذه الموسيقى الجزائرية التى كانت تشيع بين الحضر فى المدن الجزائرية كان للبدو من الأعراب أغانيهم البدوية التى توارثوا طرائق التغنى بها وإنشاءها من آبائهم فى الجزيرة العربية، وقد أخذوا يستعيدون تلك الطرائق فى هضاب الجزائر ومراعيها الواسعة التى كانوا يتنقلون فيها، وأخذها عنهم جيرانهم من البربر المتبدين مثلهم، وكانوا ينشدونها مع طبل وزمر أحيانًا فى أسمارهم وحفلات اعراسهم وأفراحهم واستقبالاتهم للحجاج بلهجاتهم البدوية الدارجة.

٤

الدين – المالكية والحنفية – الإباضية – المعتزلة

(أ) الدين[1]

كان البربر فى القطر الجزائرى – مثل إخوانهم من البربر فى الأقطار المغربية – وثنيين

(١) راجع فى الدين قديما الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون ووصف إفريقيا للحسن الوزان وفى اليهود والنصارى تاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى وفى علاقة الناصر بن علناس الحمادى بالبابا جريجوار السابع كتاب دولة بنى حماد لإسماعيل العربى وفى نشاط القرصنة وصف إفريقيا لدابرDapper وكلمة الجزائر فى دائرة المعارف الإسلامية وفى اعتناق البربر للإسلام وتحولهم إلى شعب عربى مسلم مواضع مختلفة فى كتاب البيان المغرب لابن عذارى وغيره من كتب التاريخ السابقة .

يعبدون الشمس والقمر والكواكب السيارة ويقيمون لها المعابد ويقدمون إليها القرابين ويوقدون لها النار لحراستها ويقدسون كثيرا من الأحجار . ونزل بديارهم الفينيقيون وكانوا مثلهم وثنيين وكذلك القرطاجيون . وأخذ اليهود يهاجرون إلى بلدان الجزائر بعد استيلاء الملك الكلدانى بختنصر على بيت المقدس ، ولهم هجرة إليها ثانية حين هدم الإمبراطور تيتوس هيكلهم ببيت المقدس سنة ٧٠ للميلاد . وحاول يهود الهجرة الأولى والثانية أن ينشروا دينهم اليهودى بين البربر ، واستجاب لهم بربر مختلفون فى جبال الأوراس ، وما زالت توجد آثار للقبائل البربرية التى اعتنقت اليهودية وتمسكت بها إلى اليوم . وفى ذلك ما يفسر وجود بعض اليهود البدو الذين يلبسون ملابس البربر المسلمين ويعيشون معيشتهم . ولهم هجرة ثالثة إلى الجزائر وغيرها من البلاد المغربية ، حين أنزل الإسبان بهم بعد سقوط غرناطة أهوالا من العذاب وأوصدت أوربا أبوابها دونهم فلم يجدوا لهم ملاذا سوى الجزائر وشقيقاتها العربيات المسلمات وعاملوهم معاملة الإسلام السمحة ولم يشعروهم أنهم عنصر غير مرغوب فيه ، بل فسحوا لهم فى المعيشة وكانوا يعدون بالآلاف فى قسنطينة والجزائر وغيرهما من المدن الكبرى مثل تلمسان ، ويقول الحسن الوزان : كان بها خمسمائة بيت من اليهود ، ومازالت المدن الجزائرية تفسح لهم فى المعيشة بها ، حتى إذا كانوا فى أواخر هذا العصر احتكروا التجارة والأعمال المالية وثار الشعب الجزائرى فخففوا قليلا من وطأة احتكارهم وسرعان ما استعادوا احتكارهم ونفوذهم المالى على نحو ما عرضنا ذلك فى الفصل الماضى .

وأخذت المسيحية تنتشر فى الجزائر منذ القرن الثانى للميلاد ، وأخذ انتشارها يتسع منذ عهد الإمبراطور قسطنطين واستيلائه فى روما على صولجان الحكم سنة ٣١٢ للميلاد إذ أعلن المسيحية دينًا رسميا للدولة وأخذ يعمل على نشرها فى إفريقيا والبلاد التابعة لروما ، وتكاثرت الأسقفيات والكنائس فى المدن الساحلية وفى الداخل فقد كان لهم أسقفية فى بونة (عنابة) وكان القديس أوغسطين أسقفاها وكانت فى قسنطينة أسقفية ثانية وكذلك فى باغاية ، وكانت هى وأمثالها تتبع كنيسة روما . ويظن أن المسيحية سقط منها بعض التأثير إلى القبائل الرحل فى الجنوب إذ توجد بعض كلمات فى لغة الطوارق ترجع إلى أصل مسيحى مثل اسم ميسى ومعناه عندهم إله وأنجلوس ومعناه عندهم ملاك . ولكن من المؤكد أن البربر ظلوا – قبل الإسلام – لا يقبلون على المسيحية لصعوبة تصورهم لعقيدة التثليث المسيحية المعقدة ولأن حملتها من الرومان كانوا يذيقونهم قهرا وبطشا شديدا ، فظلوا منصرفين عنها ، ومن اعتنقها منهم ظل يعتنقها اعتناقا ظاهريا دون أن تحتل قلبه وفؤاده ، وظل يشعر أنها ديانة رومانية أوربية غريبة عليه . ومع ذلك فإن الجاليات والأسر والحاميات الرومانية ومن تنصَّر من القرطاجيين كانوا كثيرين مما أتاح لتأسيس بعض الأسقفيات والكنائس وبدون ريب حاول بعض القساوسة الدعوة للمسيحية بجاهدين فى أرجاء البلاد حتى صحاريها . وبعد الفتح العربى أخذ كثيرون ممن

اعتنقوها يعتنقون الدين الحنيف ، وأقبلت عليه جموع البربر وجماهيرها ، لبساطته ولتحريره الشعوب من كل عبودية واسترقاق وظلم مع محوه لجميع الفوارق الطبقية والاجتماعية بين رعيته فهم جميعا سواء فى الحقوق والواجبات ، وهذا هو التفسير الصحيح لقضاء الإسلام على المسيحية فى القطر الجزائرى وغيره من الأقطار المغربية ، مع ملاحظة أن العرب عاملوا من ظلوا على مسيحيتهم من الروم وغيرهم معاملة سمحة كما يقضى بذلك دينهم وجعلوا لهم حقا مفروضا إقامتهم لشعائر دينهم المسيحى وتجديد كنائسهم ولم يمسوا أى مس حريتهم الدينية . وظل ذلك لا فى القرون الأولى بعد الفتح فحسب ، بل أيضا فى جميع القرون ، حتى لنجد الناصر بن علناس أمير دولة بنى حماد فى بجاية والقلعة يرسل – كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل الماضى – خطابا رقيقا إلى البابا جريجوار السابع الذى تولى البابوية بين سنتى ١٠٧٣ و ١٠٨٥ خطابا رقيقا يطلب إليه فيه تكريس القديس سرفاند أسقفا على أبرشية بونة (عنابة) وأرسل إليه معه بهدايا نفيسة ، وأهم من ذلك أنه افتدى جميع الأسرى المسيحيين الذين جلبهم القراصنة إلى مملكته وأرسل بهم إليه . وكان لذلك أجمل وقع فى نفس البابا وكبار رجال الكنيسة فى روما ، وأرسل إليه مع الأسقف الجديد لبونة برسالة تفيض بشكره وشكر القسيسين وأشراف روما لهذا العمل النبيل محييا عقيدة المسلمين التى تشترك مع عقيدة المسيحيين – كما يقول – فى الاعتقاد بإله واحد خالد . وإنما سقت ذلك لأدل على مدى المعاملة الطيبة للمسيحيين فى الجزائر ، وكانت لهم فى مدنها الكبيرة بعض الأحياء ، كما كان لهم – مثل اليهود – مقابر خاصة . ومرَّ بنا أن القرصنة اتسعت منذ القرن العاشر إلى نهاية هذا العصر ، مما أدَّى إلى وفود آلاف من الأسرى المسيحيين على الجزائر من مختلف مناطق البحر المتوسط (إسبان وفرنسيين وإيطاليين وكريتيين وصقليين ويونان) وكانوا يعدون رقيقا فى خدمة الدولة أو فى خدمة بعض الأعيان ، وكانوا يزاولون الزراعة وحرف الصناعة والبناء ويزعم دابر Dapper فى وصف إفريقية أنه كان بمدينة الجزائر ستة آلاف أسرة من هؤلاء المسيحيين الأسرى ممن جلبهم القراصنة ، وكان كثيرون من هذا الرقيق المسيحى الأسير يسلمون وتُرَدّ إليهم حرياتهم ويكونون أسَرًا ما زال بعضها يحمل اسم بلدهم الأصلى ، وعمل بعضهم فى الدولة وارتقى إلى المناصب الرفيعة .

ومنذ فتح المسلمون المغرب الأوسط أو إقليم الجزائر ، والبربر يسارعون إلى الدين الحنيف واعتناقه ، ويبدو ذلك واضحا فى عهد أبى المهاجر دينار (٥٥ هـ/٦٧٤م – ٦٢ هـ/٦٨١ م) إذ يرجع إليه الفضل فى فتح جميع الجزائر ونشر الدين الحنيف فيها وكانت قد فتحت بعض أرجائها وأخذ أهلها يتعرفون على الإسلام ويدخلون فيه ، فأتم ذلك كله ، متخذا له جيشًا جرارًا من العرب والبربر المسلمين . وسمع أن الروم وبعض البربر يتجمعون لحربه فى مدينة ميلة إلى الجنوب الشرقى من بجاية ، فنازلهم واحتل البلدة واتخذها مركزًا لأعماله الحربية وظل

فيها عامين ، تخرج فيهما سراياه للفتح بعد الفتح . وكانت الزعامة فى الجزائر حينئذ لقبيلة أوربة البرنسية ورئيسها أو زعيمها كسيلة وكان نصرانيا وأخذ يستعد استعدادًا واسعًا للقاء أبى المهاجر ، ولقيه بجيش كثيف من الروم والبربر بالقرب من تلمسان ودارت عليه وعلى جيشه – كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى –الدوائر ، ووقع أسيرًا فعامله أبو المهاجر معاملة سمحة ، جعلته يدخل – وتدخل معه قبيلته أوربة – فى الدين الحنيف . وخلف أبا المهاجر فى ولاية القيروان والبلاد المغربية عقبة بن نافع سنة ٦٢ هـ/٦٨٣ م فرأى أن يقتحم الجزائر والمغرب الأقصى جميعا ، وأعدَّ جيشًا ضخمًا أخذ يهزم به البربر ومن اجتمع إليه من الروم حتى أوطأ حافر حصانه مياه الأطلسى . ومنذ هذا التاريخ أصبحت البلاد المغربية جميعها من أدناها إلى أقصاها بلادا إسلامية . غير أن عقبة كان قد عامل كسيلة الأوربى معاملة أغضبته وصمم على الانتقام ، حتى إذا كان عائدا بالجيش فى المغرب الأوسط وتخلف عنه مع فرقة صغيرة بالقرب من طبنة هجم عليه كسيلة مع جنود من الروم والبربر كان قد أعدهم لمثل هذه الفرصة ، واستشهد البطل العظيم عقبة . وانتقم له خليفته زهير بن قيس فنازل كسيلة فى موقعة ضارية خرَّ صريعا فيها وتفرَّق من معه فى البلاد والجبال . وعاد زهير فتولَّى البلاد المغربية بعده حسان بن النعمان فرأى أن يفتتح قرطاجة التى كان ينزل فيها الروم ويحاولون الاتصال بالبربر للحرب والإفساد ، وفر كثير من الروم إلى البحر ومن بقى منهم فُرضت عليه الجزية . وكانت كاهنة بربرية تتزعم البربر فى جبال أوراس بالجزائر قد أعلنت الحرب على حسان والعرب ، ولقيها حسان ولم يكتب له النصر فانسحب انتظارا لمدد يأتيه من الخليفة عبد الملك بن مروان وأتاه المدد سنة ٨١ هـ/٧٠٠ م فنازلها وسحق جيشها سحقًا ذريعًا وأمَّن من بقى منه وأمَّن سكان أوراس فى الجزائر جميعا وولَّى أكبر أبناء الكاهنة على قبيلته جراوة وجبل أوراس ، واتخذ من قومه كتيبة فى جيشه عدادها اثنا عشر ألفا . ومن حينئذ أصبحت الجزائر عربية إسلامية تعتنق الدين الحنيف وتجاهد فى سبيله عن إيمان وإخلاص . ويخلف حسانا على القيروان والبلاد المغربية موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ/٧٠٥ م فيمكن لهذا الامتزاج التام بين العرب والبربر فى الجيش وحكم المدن وفى جميع الحقوق والواجبات ، ويعمل بكل ما استطاع على نشر الدين الحنيف بين البربر ، ويتوَّج ذلك بالبعثة التى أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز لنشر الدين الحنيف وتعاليمه فى البلاد المغربية .

وبذلك أصبحت الجزائر – مثل بقية البلاد المغربية – عربية إسلامية ، وحقا ولى على البلاد المغربية منذ أوائل القرن الثانى الهجرى ولاة أمويون باغون أساءوا حكم البربر سوءا شديدًا فلم يسوُّوا بينهم وبين العرب فى الحقوق وظلموهم فى الخراج والضرائب ظلمًا شديدًا ، وعرفوا دعوة الخوارج وما يدعون إليه من المساواة التامة بين جميع المسلمين عربا وغير عرب فى كل الحقوق حتى فى ولاية الأمة وخلافتها أو إمامتها ، فليس من الحتم أن يكون الخليفة قرشيا بل

يتولى الخلافة أكفأ المسلمين ولو كان عبدًا جشيا ، وسارع إليهم دعاة مذهبى الإباضية والصفرية ، وكان المذهب الأول معتدلا وقريبا من مذاهب أهل السنة ، وتبع دعاته جبل نفوسة فى طرابلس واستطاعوا أن يكونوا لهم دولة فى تاهرت ، وبذلك كثر أتباع هذه الفرقة الخارجية وسنخصها فيما يلى بحديث مستقل ، أما فرقة الصفرية فكانت فرقة متشددة غاية التشدد وكانت تستبيح دماء المسلمين ، وتأسست فى سجلماسة والمغرب الأقصى ، فلم يتبعها جزائريون إلا ما كان يحدث أحيانا من مرور جيوشها بأراضى الجزائر فى ذهابها لحرب ولاة المغرب أو لحرب الدولة العبيدية ، فكان ينضم إليها بعض الجزائريين . وبقاع محدودة فى الجزائر هى التى شاعت فيها الدعوة الإباضية ، ومعنى ذلك أن الجمهور فى الجزائر ظل سنيا وظلت الجزائر دارا كبيرة للمذاهب السنية .

(ب) المالكية[1] والحنفية

ظل شرقى الجزائر طويلا جزءا لا يتجزأ من ولاية القيروان ، وكانت قد سبقت – كما مرَّ فى القسم الخاص بالإقليم التونسى – إلى الاعتماد فى الفقه على مذهب مالك ، وفتحت أبوابها للمذهب الحنفى وخاصة فى عهد الأغالبة الذين تابعوا بغداد فى اتخاذ القضاة غالبا من بين فقهاء الأحناف حتى نهاية القرن الثالث الهجرى ، إذ خيمَّت – حينئذ – العقيدة الشيعية على الإقليمين الجزائرى والتونسى ، وكادت تتوقف فيهما دراسة الفقه السنى المالكى والحنفى حتى إذا فارقوا المهدية إلى القاهرة فى أواخر العقد السادس من القرن الرابع عادت إلى الفقهاء السنيين حريتهم ، وأخذوا يعنون بدراسة الفقه المالكى ، وتولى المعز بن باديس شئون القيروان وشرقى الجزائر سنة ٤٠٦ واشتد فى عهده تذمر أهل القيروان من ذكر الخطباء على المنابر أسماء الخلفاء العبيديين والدعاء لهم فى خطب الجمعة ، وبلغ بهم الأمر أن قطعوا صلاة الجمعة احتجاجًا على الدعوة والدعاء لهم فيها ، ويقول ابن عذارى إن بعضهم كان إذا بلغ إلى المسجد قال سرا : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، وانصرف ، فصلَّى الظهر . وانتهى الحال إلى تعطيل الجمعة فى القيروان زمنا ، وأخذت تقوم مشادات عنيفة بين أنصار السنة وأنصار الدعوة العبيدية الشيعية منذ سنة ٤٠٧ هـ/١٠١٦ م وفى نفس هذه السنة قتلت العامة من أنصار العبيديين خلقا كثيرا رجالا ونساء ونهبوا دور قوم منهم وأموالهم . ومن حين إلى حين كانت تثور بهم العامة فى القيروان وأيضا فى المهدية عاصمة العبيديين ومدينتهم المنصورية حتى إذا كانت

---

(١) انظر فى المالكية الجزائريين كتاب رياض النفوس للمالكى والديباج المذهب لابن فرحون وفى المالكية المصريين الكبار المذكورين كتاب حسن المحاضرة للسيوطى وراجع فى قرار المعز بن باديس بقطع الدعوة العبيدية وحمل أهل المغرب على مذهب مالك البيان المغرب لابن عذارى والجزء السادس من تاريخ ابن خلدون وانظر فى تعليله لاتباع أهل المغرب مذهب مالك مقدمته فى الحديث عن علم الفقه وراجع المذهب الحنفى فى العهد العثمانى بالجزء الأول من كتاب تاريخ الجزائر الثقافى فى العهد العثمانى لأبى القاسم سعد الله .

سنة ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م ثارت بهم العامة ثورة دامية سفك فيها كثير من الدماء فى الحواضر والبوادى ، ولم يتمكن المعز من إيقافها ، فرأى نزولا على إرادة شعبه نبذ الدعوة العبيدية أو الفاطمية علانيةً وخلع طاعة خلفائها فى القاهرة ، وأمر بأن يحمل جميع أهل المغرب على اتباع مذهب الإمام مالك سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦ م وقيل بل فى السنة التالية ، وأمر أن يخطب على المنابر باسم الخليفة العباسى القائم بأمر الله وجاءه منه تقليد يعترف له فيه باستقلاله . ومن حينئذ أصبح مذهب مالك هو المذهب الفقهى السنى الذى تتبعه البلدان المغربية وجماهيرها حتى فى الإقليم التونسى وشرقى الجزائر فحسب ، بل فى جميع بلدان الجزائر والمغرب الأقصى وأيضا فى طرابلس وبرقة وأخذ يدرس فى كل بلد مغربى وكثر فقهاؤه كثرة مفرطة .

ويقول ابن خلدون – فى المقدمة – إن أهل المغرب اختاروا مذهب مالك دون غيره من المذاهب السنية كالمذهب الحنفى والمذهب الشافعى لأنه مذهب أهل الحجاز الذين تجمعهم بهم البداوة ، وفى رأينا أن هذا التعليل غير دقيق ، لما سنرى عما قليل من شيوع مذهب الاعتزال فى الجزائر – ومثلها المغرب الأقصى – ومعروف أن البصرة هى التى وضعته دون الكوفة لأن عقلها – كما قلت فى كتاب المدارس النحوية – كان أدق وأعمق من عقل الكوفة لاتصالها بالثقافات الأجنبية وبالفكر اليونانى ، ولذلك وضعت أصول الاعتزال . فالتعليل لاختيار أهل المغرب مذهب مالك بالبداوة تعليل لا يستقيم ، وأولى من ذلك أن يعلَّل إيثارهم لمذهب مالك من قديم ، لأنهم كانوا يقصدون إلى المسجد الحرام للحج ويزورون المدينة دار الهجرة وكان مالك إمام المدينتين غير مدافع وإمام أهل الحجاز ، فجلسوا إلى محاضراته فى المدينة دار الرسول ﷺ منذ أواسط القرن الثانى للهجرة وحملوا عنه موطَّأه إلى القيروان وتدارسوه فيها كما تدارسوه على تلاميذه المصريين النابهين يتقدمهم عبد الرحمن بن القاسم ، وكان قد فرَّع على المذهب فروعا فى مدوَّنة له حملها عنه أحد تلاميذه القيروانيين : سحنون ، وأذاعها فى طلابه ، وأصبحت فى البلاد المغربية : الجزائر وغير الجزائر أمًّا للمذهب المالكى مثل كتاب إمامه الموطأ ، وظل المغاربة بعد سحنون يلتمسون المذهب المالكى عند أئمته المصريين الذين خلفوا عليه ابن القاسم المتوفى سنة ١٩١ هـ/٨٠٦ م وخلفه على إمامة المذهب المالكى بالفسطاط أشهب بن عبد العزيز المتوفى سنة ٢٠٤ هـ/٨١٩ م وتولاها بعده عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ هـ/٨٢٩ م وإمام المالكية بعده فى الفسطاط أصبغ بن الفرج المتوفى سنة ٢٢٥ هـ/٨٣٩ م فكل هؤلاء الأئمة كان يرحل إليهم شباب المالكية المغاربة للتزود فى المذهب من حلقاتهم العلمية ، كما كانوا يتزودون من تلامذة سحنون فى ديارهم المغربية ، وتوالت طبقات فقهاء المالكية فى الجزائر إلى اليوم .

وقد أخذ المذهب الحنفى وفقهاؤه ينشطون فى العهد العثمانى إذ كانت الدولة العثمانية

تقصر الفتوى والقضاء على فقهاء المذهب الحنفى ، وكان كبير المفتين أو أصحاب الفتوى عندهم يلقب بلقب شيخ الإسلام وما إن استقر الحكم العثمانى حتى أشرك الولاة العثمانيون مع القاضى المالكى قاضيا حنفيا ، وكان يأتى فى أول العهد من إستانبول . وكان حكم القاضى المالكى لا يصبح نافذا إلا إذا وقّع عليه القاضى الحنفى ، وتبعت هذا القضاء الحنفى مدارس تعنى بالفقه الحنفى ، وأخذت تنشأ فئة كبيرة من فقهائه ومدرسيه ، وبعد أن كان القاضى الحنفى يأتى فى صدر العهد العثمانى من إستانبول أخذ أولو الأمر يعينون القضاة من أسر حنفية توارثت المذهب فى الجزائر .

(جـ) الإباضية[1] والصفرية

الإباضية – قديما – من فرق الخوارج الذين أنكروا التحكيم الذى ارتضاه على بن أبى طالب فى الحرب الدائرة بينه وبين معاوية فى صِفين ، وقالوا إن الخلافة – أو إمامة المسلمين – لا يصح أن تقصر على قريش ، إذ ليست حقا لها ، بل هى حق لله ، وينبغى أن يتولاها خير المسلمين تقوى وإقامة للعدل ولو لم يكن قرشيا بل لو كان عبدًا جبشيا ، وحاربهم على بن أبى طالب وهزمهم ، وظلوا بعده يقاومون الخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية ، وانقسموا فرقا كان من أكثرهم غلوا فرقتا الصفرية والأزارقة الذين عدُّوا دار المسلمين دار حرب ينبغى حربهم وجهادهم ماداموا يستسلمون لحكام الأمويين والعباسيين القرشيين الجائرين ، وتبع فرقة الصفرية كثيرون فى سجلماسة والمغرب الأقصى وحملوا السلاح ضد حكامهم من العرب وخاضوا معهم حرباطاحنة ، وكانت جيوشهم تمر أحيانا بالجزائر قاصدة القيروان مقر الحاكم الأموى والعباسى ومن بعدهما الحاكم العبيدى لحربه ، وكان يتبعهم بعض العامة من الجزائر ، ولكن جماهير الجزائر ظلت بعيدة عن اعتناق هذه العقيدة الخارجية الغالية .

وإذا كانت الجزائر لم تعتنق العقيدة الصفرية فإن جماعات فيها اعتنقت العقيدة الإباضية ، وتأسست لها دولة فى مدينة تاهرت ، حتى إذا قضى عليها أبو عبيدالله الشيعى داعية المهدى العبيدى انسحب منها الإباضيون إلى باغاية وورقلة ، ثم تجمعوا فى غرداية وقرى ميزاب ، ولايزالون إلى اليوم فى كل هذه الأنحاء . وفرقة الإباضية لم تكن تغلو – من قديم – غلو فرقة الصفرية ، فهى لا تعدّ دار المسلمين دار حرب ولا تحمل السلاح لقتالهم وسفك دمائهم مثل الصفرية ، إلا أن يضطروها إلى ذلك ، وهى لا تعد – مثل الصفرية والأزارقة – مرتكب الكبيرة كافر ملةٍ يجب قتله ، إنما هو كافر نعمة فلا ينبغى قتله ، وهم يتوارثون مع إخوانهم السنيين

---

(١) انظر فى الإباضية والصفرية كتاب الملل والنحل للشهرستانى وراجع فى الإباضية السير للشماخى والأزهار الرياضية لسليمان - البارونى وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى والجزء الثانى من تايخ المغرب الكبير لدبوز .

ويصهرون إليهم ، ولذلك يرى بعض الباحثين المعاصرين منهم أنهم ليسوا خوارج إذ لا يخرجون على الدين الحنيف وتعاليمه إنماهم فرقة إسلامية كانت – ولاتزال – ترى أن تكون الخلافة – أو إمامة المسلمين – جمهورية ، فالمسلمون يختارون لها أكفأهم وأولاهم بحكمهم وتحقيق العدل بينهم ، وهم – إلى ذلك يختلفون مع أهل السنة مالكية وغير مالكية وجوها من الاختلاف ، من ذلك أنهم – مثل المعتزلة – ينفون تشبيه اللهبالمخلوقين نفيا مطلقا ، والآيات القرآنية التى قد يفيد ظاهرها ذلك تؤوَّل كما أوَّلها المعتزلة ، وهم مثلهم يرون أن صفات الله عين ذاته الكاملة كالا مطلقًا ويرون أن مرتكب الكبيرة إن مات على غير توبة خُلد فى النار ، بينما يذهب أهل السنة إلى أن أمره مفوَّض إلى مشيئة ربه إن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفرما دون ذلك لمن يشاء﴾ . ويذهبون إلى أن الإيمان لا يكفى فيه القول وحده ، بل لابد من العمل معه بحيث لا يعد المسلم مؤمنًا إلا إذا أدَّى جميع الفروض الدينية . وكان أهل السنة يرون أن تظل الخلافة فى قريش ، بينما يرى الإباضية –كما أسلفنا– أنها حق للمسلمين جميعا يتولاها أصلحهم لها. وكلها خلافات يمكن عدّها خلافات فرعية لفرقة إسلامية .

(د) المعتزلة[1]

أخذ واصل بن عطاء إمام المعتزلة بل مؤسس مذهب الاعتزال يتألق – فى أواخر العصر الأموى – فى عملين كبيرين : وعظه المؤثر فى الناس ودعوته لهم أن يعتنقوا مذهبه فى الاعتزال ومبادئه التى كان يدعولها ، وفى مقدمتها مسألة مرتكب الكبيرة وهل يعد مؤمنًا أو كافرًا ، وكانت المرجئة تعده مؤمنًا وكان الخوارج من الصفرية والأزارقة يعدونه كافرا وكان أهل السنة يعدونه مؤمنا فاسقا ، وعدَّه الإباضية كافر نعمة لا كافر ملة ، ونفذ واصل إلى القول بأنه فى منزلة وسطى بين منزلتى الإيمان والكفر ، وأضاف إلى هذا المبدأ فى الاعتزال أربعة مبادىء أخرى هى وحدانية الله وتنزيهه عن الشبه بالمخلوقات ، ومرَّ بنا أن الإباضية يأخذون بهذا المبدأ الاعتزالى ، ومبدأ ثان هو العدل على الله وتترتب عليه حرية الإرادة عند الإنسان بحيث يحاسب على عمله فلا جبر ولا قدر مقدور كما يرى ذلك أهل السنة والإباضية ، ومبدأ ثالث انفاذ الوعد بثواب المتقين المؤمنين والوعيد بعذاب العاصين الكافرين ، ومبدأ رابع هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وكان واصل ينفذ إلى القلوب بوعظه المؤثر وإلى العقول ببراهينه الساطعة لمبادئه الاعتزالية ، وأعجب به فى المجالين شباب موطنه البصرة إعجابًا شديدًا ، واتخذهم دعاة يدعون إلى نحلته الاعتزالية ، فى أطراف الأرض ويصور ذلك صفوان الأنصارى فى مدحته له التى أنشدها الجاحظ فى أوائل الجزء الأول من بيانه قائلا :

---

(١) انظر فى مبادىء المعتزلة الملل والنحل للشهرستانى وكتابنا عن العصر العباسى الأول ، وراجع فى قصيدة صفوان الجزء الأول من البيان والتبيين ، وانظر فى مجادلاتهم للإمام الإباضى عبد الوهاب وعلماء الإباضية وثورة جموعهم عليه الجزء الثالث من تاريخ المغرب الكبير لدبوز .

لـه خلفَ شَعْب الصِّين في كلِّ ثُغْرَةٍ ... إلى سوسها الأقصى وخلفَ البرابرِ
رجـــالٌ دعـــاةٌ لا يفـلُّ عزيمَهم ... تهكُّمُ جبَّـــارٍ ولاكيـدُ مـاكـر
وأوتـــادُ أرضِ الله في كلِّ بلـــدةٍ ... ومو ضع فُتْياها وعلـمِ التشـاجُرِ

ويصفهم صفوان بالقدرة على التشاجر والجدال وقرع الحجة بالحجة البيِّنة ، ويصفهم في أبيات تالية بروعة البيان والخطابة ويقول إنهم رسله ودعاته وحاملو مبادئة الاعتزالية إلى أطراف الأرض في أقصى الشرق حتى الصين وفي أقصى الغرب حتى بلاد السوس وقد استطاع هؤلاء الدعاة لواصل أن يجذبوا إلى نحلته الاعتزالية جماعات في الجزائر شمالا بين ميناءى مستغانم و وهران وجنوبا في وادى ميزاب بمدينة العطنا ، ولاتزال لهم مقبرة بها ، ونجد المناظرات محتدمة في تاهرت بين الإباضية والمعتزلة المقيمين شماليها وكانوا يبلغون ثلاثين ألفاً ، وهو عدد ضخم ، واشتعلت هذه المناظرات في عهد إمام الإباضية عبد الوهاب (١٧١ - ٢١١هـ) ونازله هو وعلماء دعوته أحد علماء هؤلاء المعتزلة وهزمهم جميعا ، واستنجد عبد الوهاب بعلماء نفوسة في طرابلس وأرسلوا إليه شيخا منهم يسمى مهدِّى ، وتناظر مع عالم المعتزلة مناظرات حادة ، ولم تلبث المعتزلة أن حملت السيوف لقتال الإباضية ، ولم يكتب لهم النصر كما يقول مؤرخو الإباضية ، ولو كُتب لهم لتكونت في الجزائر دولة اعتزالية لأول مرة في التاريخ العربى . ويبدو أن الدعوة الشيعية التى قضت على الدولة الإباضية في تاهرت لأواخر القرن الثالث الهجرى قضت أيضا هناك على الدعوة الاعتزالية لا في الجزائر وحدها بل أيضا في المغرب الأقصى .

٥

الزهد[1] والتصوف

أخذت تشيع في الجزائر نزعة مبكرة للزهد في متاع الحياة العاجل والإقبال على العبادة والنسك طلبا للثواب عند الله في الآجل . وكان مما عمل على إشاعة الزهد والتقوى في نفوس الجزائريين الوعَّاظ في أيام الجمع بالمساجد وفي غير أيام الجمع إذ كانوا مايزالون ينفِّرون الناس من ملذات الدنيا مذكِّرين لهم بيوم القيامة وما ينتظر العصاة فيه من العذاب الأليم والتقاة من النعيم المقيم ، مستشهدين لهم بآيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية التى تصور عذاب الجحيم ونعيم الفردوس ، حاثين لهم على القناعة بالكفاف من العيش وطيباته فتلك هى الوجهة المفلحة

(١) تفيض تراجم الفقهاء والمحدثين الجزائريين في كتاب عنوان الدراية للغبريني والديباج المذهب لابن فرحون بأخبار زهد الزهاد . وفي كتاب التشوف إلى معرفة رجال التصوف لابن الزيات التادلى وكتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم تراجم عن أعلام الصوفية ، وانظر في صوفية الأندلس المذكورين كتابنا عن الأندلس وما فيه لهم من مراجع .

والصفقة الرابحة . لذلك لا نعجب أن يتكاثر الزهاد فى البلاد المغربية بالجزائر وغير الجزائر وأن ينعت العديد من الفقهاء والمحدِّثين بالزهد فى خيرات الحياة وإيثار التقشف والرضا بالقليل .

وتظل موجة الزهد حادة فى الجزائر ، وتتدافع معها موجة تصوف منذ ولاية يزيد بن حاتم المهلبي (١٥٤ - ١٧٠هـ) وبنائه على الساحل التونسى لرباط المنستير الذى آوى إليه كثرة من العُبَّاد لحراسة الساحل التونسى ، وأخذت تبنى رباطات أخرى على سواحل البلاد لحمايتها من قراصنة أمم البحر المتوسط الأوربية . وكان ينزلها كثير من النسَّاك والفقهاء للإسهام فى هذه الحماية قيامًا بحقوق الدين والوطن ، واستحالت هذه الرباطات قرونًا إلى دور عبادة ونسك كبرى . ومنذ القرن السادس الهجرى يتخذ بعض النساك لهم فى المدن مراكز يتابعون فيها نسكهم وما قد يُلْقون من دروس إن كانوا فقهاء أو محدِّثين ، وسميت هذه المراكز رباطات وزوايا ، ويتبرع كثيرون لبعض هذه المراكز ، فيتضاعف حجمها ويتضاعف مريدو الشيخ الناسك وقصَّاده . وأخذت هذه الزوايا والرباطات تتكاثر مع الزمن لا فى المدن فحسب ، بل أيضا فى سفوح الجبال وفى الهضاب والصحارى البعيدة القاحلة .

وكانت الطرق الصوفية قد شاعت فى المشرق على نحو ما هو معروف عن الطريقة القادرية المنسوبة إلى عبد القادر الجيلانى المتوفى ببغداد سنة ٥٦١هـ /١١٦٥م والطريقة الرفاعية المنسوبة إلى أحمد بن على الرفاعى العراقى المتوفى سنة ٥٨٧هـ/١١٨٢م . وأخذت هاتان الطريقتان تشيعان فى جميع البلاد الإسلامية ، وكان أتباع الطريقة القادرية فى الجزائر أكثر عددًا . وتصوف الطريقتين جميعا تصوف سنى . وكان يجرى بجانبهما فى المشرق تيار من التصوف الفلسفى الذى يفسح لفكرة الحلول الإلهى فى الكائنات كما يفسح لفكرة الاتحاد الصوفى مع الذات العلية ، وهو تيار قديم فى التصوف منذ الحلاج مؤسسة المتوفى سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م وأخذ أتباع هذا التصوف الفلسفى يتكاثرون فى الأندلس منذ القرن السادس الهجرى على نحو ما بسطنا ذلك فى كتابنا عن الأندلس ، وقد تحدثنا هناك عن أبى عبد الله الشوذى الإشبيلى وتلميذه إبراهيم بن دهاق المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٤م كما تحدثنا عن ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨هـ/١٢٤١م بدمشق وابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م بمكة . وهم جميعا من أصحاب التصوف الفلسفى ونزلوا جميعا فى تلمسان ، وبها تتلمذ ابن دهاق على أبى عبد الله الشوذى ونزل بها فترة ابن عربى وابن سبعين وتجولا فى بعض مدن الجزائر ، ونزلها قبلهم جميعا الصوفى المشهور وبخاصة فى الجزائر أبو مدين شعيب وسنترجم له بين شعراء التصوف وتصوفه فلسفى ، وقد استوطن بجاية وتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م .

وهذا التصوف الفلسفى لم تتكون حول أئمته طرق صوفية ، فقد ظلت تلك الطرق تخص التصوف السنى وتكونت معها فى القرن السابع الهجرى طريقة صوفية سنية مغربية هى طريقة

أبى الحسن على بن عبدالله الحسنى الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٩م ولم يكد يدعو إليها فى شاذلة بالقرب من تونس وفى تونس نفسها حتى تكاثر أتباعه فى البلاد المغربية ونزل القاهرة مع تلميذه أبى العباس المرسى ، وكُتب لطريقته أن تصبح أهم الطرق الصوفية السنية لا فى مصر وحدها ، بل أيضا فى الجزائر وجميع البلاد المغربية . ويتكاثر شيوخ الصوفية وزواياهم فى الجزائر منذ القرن الثامن الهجرى ويعنى بعض المؤرخين بالترجمة لهم وفى مقدمتهم يحيى بن خلدون إذ نراه فى كتابه « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » يسوق ترجمات لمائة وتسعة من العلماء وأهل التقوى والصلاح ، ويتكاثر رجال التصوف فى القرن التاسع الهجرى ويزدادون زيادة مفرطة فى العهد العثمانى ، لعنايته بالتصوف وتقريبه لهم وإغداقه الأموال على زواياهم وكان الولاة العثمانيون يزورونهم ويتبركون بهم ويزورون أضرحة المتوفّين منهم ، ودخلت معهم إلى الجزائر الطرق الصوفية التى اشتهرت ببلادهم مثل البكداشية والنقشبندية والمولوية أتباع جلال الدين الرومى ، ولكن الطريقتين الشاذلية والقادرية ظلتا تجذبان إليهما كثرة من الأتباع . وأخذ بعض أتباع الشاذلية يؤسس لنفسه فيها طريقة فرعية جديدة ، بحيث أصبحت هى والطرق التى اشتقت منها مثل الميانية والزيانية والرحمانية والدرقاوية أهم الطرق التى استوعبت جماهير الجزائر فى المدن والقرى والهضاب والصحارى . ولابد أن نشير إلى أن هذه الفئة من المتصوفة اندس بينها كثيرون فى الحقب الأخيرة من هذا العصر يدَّعون لأنفسهم التقوى وهى منهم براء ، بل لقد كانوا يدعون أنهم أولياء يكشفون الغيب وينسبون لأنفسهم الكرامات ، واندس معهم كثيرون من الدراويش الجوالين والمشعوذين الدجالين ، مما جعل عبد الكريم الفكون يؤلف كتابه : « منشور الهداية فى كشف حال من ادعى العلم والولاية » وهو فى ثلاثة فصول أولها فيمن لقيه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم ومن كانوا قبل زمنهم ممن نقلت إليه أحوالهم وصفاتهم . والفصل الثانى فى المتشبهين بالعلماء والصلحاء ، والفصل الثالث فى المبتدعة « الدجاجلة » الكذابين على طريقة الصوفية . والفصلان الثانى والثالث مليئان بنقد متصوفة عصره من أدعياء العلم ودجاجلة الشعوذة الصوفية الذين يتخذون الرقص الصوفى أو ما يسمى بالذكر والتغنى عليه بضاعة لهم يستغلون بها العامة مع تحالفهم عليها مع أصحاب الحكم والسلطان ، ويصيح ضد البدع والخرافات ، ويدعو إلى الاجتهاد واستخدام العقل والعمل بالكتاب والسنة .

الفصل الثالث

الثقافة

١

الحركة العلمية

(أ) فاتحون ناشرون للإسلام ومعلمون

عجب كثير من المستشرقين فى السرعة التى انتشر بها الإسلام فى الجزائر وغيرها من أقطار المغرب ، إذ لم يمض نحو قرن أو بعبارة أدق لم يمض القرن الأول الهجرى ، حتى أصبحت الأقطار المغربية أقطارًا إسلامية ، ومبعث العجب عندهم أن الفينيقيين ظلوا – وحدهم – فى البلاد أكثر من ستة قرون ولم يستطيعوا أن ينقلوهم إلى لغتهم وحضارتهم وديانتهم وعاداتهم ، وخلفهم الرومان نحو ستة قرون أخرى وظل تأثيرهم لا يكاد يعدو مدن الساحل الشمالى ، وحاولوا نشر المسيحية فى تلك المدن ، ولم يعتنقها فيها من البربر إلا قليلون . ونزلتها بيزنطة وشعبها الإغريقى ، وكان تأثيرهم فى المدن الشمالية محدودا . وظل البربر بعامة محافظين على دينهم الوثنى ولغتهم وعاداتهم ، حتى إذا فتح العرب الجزائر وغيرها من بلاد المغرب أخذت جماهير البربر تعتنق الإسلام وتحاول النطق بلغته ، وكان لذلك عاملان : عامل الإسلام نفسه وتعاليمه الدينية البسيطة وما فرضه على الفاتحين من العرب والمسلمين أن يعاملوا الأمم المفتوحة معاملة سمحة وأن يصبح للمسلمين منها أو بعبارة أدق من يسلمون منها كل ما للفاتحين من حقوق ، فلا عبودية ولا استعمار ولا استنزاف لخيرات البلاد ولا استعباد لفرد فضلا عن شعب ، فالجميع متساوون ، وقد محيت بين المسلمين الجدد من البربر والفاتحين كل الفوارق الجنسية والاجتماعية . والعامل الثانى هو الفاتحون أنفسهم ، إذ لم يكونوا يفتحون للغنائم والسلب والنهب ، ولم تكن تلك أمنيتهم حينما خرجوا من ديارهم للفتوح فى الأقطار المغربية وغيرها ، إنما كانت أمنيتهم أن ينتظموا فى جيوش المجاهدين فى سبيل الله ابتغاء نشر دينه الحنيف فى أرجاء الأرض .

كان الجندى فى الجيش العربى الفاتح بمجرد أن يضع قدمه فى بلدة جزائرية أو مغربية أو فى أى قبيلة جبلية أو صحراوية يحاول أن يُدْخل فى الدين الحنيف من يأنسون إليه من البربر ، فيحفظهم فاتحة الكتاب وبعض كلم العربية فى التخاطب . وأخذت الكتاتيب تنشأ

سريعا فى كل مكان لتعليم البربر فروض الإسلام وتحفيظهم بعض سور القرآن . وأخذ الولاة يسندون نشر الدين الحنيف بوسائل كثيرة ، ومن أهمهم فى هذا الجانب حسان بن النعمان (٧١-٨٦هـ) وكان قد ثار عليه شطر كبير من الجزائر فى جبل أوراس قادته قبيلة جراوة وزعيمتها الكاهنة : « داهية » وأشعلت جميع الجزائر نارا ، وامتدت نار ثورتها حتى طنجة فى أقصى المغرب ، وساعدها الروم ، وواقعت حسان بن النعمان سنة ٧٧ للهجرة وهزمته ، وظل ينتظر المدد من الخليفة عبد الملك بن مروان سنوات ، وبمجرد أن جاءه نازل الكاهنة وجموعها ودارت عليها الدوائر . وبإلهام من الإسلام وتعاليمه فى معاملة البلاد المفتوحة جنَّد حسان من هذا الجيش الجزائرى المنهزم اثنى عشر ألفا أدخلهم فى الجيش العربى للمشاركة معه فى الجهاد بنفس الأعطيات والرواتب والحقوق للجند العربى وليس ذلك فحسب ، فقد عدَّ أرض الجزائر – والمغرب عامة – فُتحت صلحا لا عَنْوة ، وهى بذلك تظل لأهلها مع ما يؤدون عنها من خراج أو زكاة ، وأيضا ليس ذلك فحسب ، فإنه ولَّى على قبيلة جراوة وجبل أوراس واليا بربريا هو أكبر أبناء الكاهنة « داهية » . وكل تلك كانت بواعث فعالة لدخول الجزائريين والمغاربة فى دين الله أفواجا ، فلم يعودوا مستعبدين لفاتحين فينيقيين أو رومان أو بيزنطيين يظلمونهم ويرهقونهم بالضرائب المتنوعة ، بل أصبحوا أحرارا فى ديارهم ولهم ما للفاتحين من الحقوق ، فهم إخوة دين حنيف وهم زملاء سلاح وهم حكام أنفسهم . وبهذه السياسة الحصيفة الرشيدة انفتحت قلوب البربر فى الجزائر وغير الجزائر لدين الله القويم . وخلف حسانا موسى بن نصير (٨٦-٩٦هـ) فوثَّق هذه السياسة وزادها ضبطا وإحكاما ، إذ جاس خلال الديار المغربية حتى أقصاها فى الغرب ، وفى كل بلد وفى كل قبيلة خلَّف معلمين يحفظون الناس القرآن ويعلِّمونهم فروض دينهم وتعاليمه ، واتخذ للبربر ولاة من ذات أنفسهم ، ومن أهمهم طارق بن زياد والى طنجة الذى عهد إليه بفتح الأندلس وعبر إليها بجيش من العرب والبربر ، وتبعه موسى بن نصير بجيش مماثل ، مما يدل بوضوح على اندماج البربر فى العرب دينا وجهادا فى سبيل الله ونشر دينه الحنيف .

ولا نبلغ سنة مائة للهجرة فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، حتى نجده يكلف عشرة من الصفوة فى فقهاء التابعين بالذهاب إلى إفريقيا لاستكمال نشر الإسلام فيها وتعليم البربر شريعة الإسلام وما تقوم عليه من الإيمان بوحدانية الله وغير ذلك من أصول العقيدة الإسلامية وأيضا ما تقوم عليه من العبادات والفرائض ، واختار أحدهم ، وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر ليكون الوالى على جميع البلاد المغربية جزائر وغير جزائر ، ويقول عنه ابن عذارى : « ما زال حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلمت بقيتهم على يديه » وعلى أيدى معاونيه من الفقهاء التسعة الذين اصطفاهم عمر بن عبد العزيز لهذه المهمة ، وهم عبد الرحمن بن رافع التنوخى وعبد الله بن يزيد المعافرى الحُبُلى وإسماعيل بن عبيد الأنصارى وحبان بن أبى جبلة وبكر بن سوادة

الجذامى وجعثل بن عمير وموهد بن حى المعافرى وطلق بن حابان وسعيد بن مسعود التجيبى وكل منهم كان فقيها يتقن معرفة الشريعة ويروى الحديث النبوى عن الصحابة من أمثال عبد الله بن عمر بن الخطاب وأبى أيوب الأنصارى وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وكانوا يحسنون تفسير القرآن الكريم ، وقد تحولوا جميعا مع إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر فى إفريقية إلى معلمين يفقهون البربر أمور شريعتهم ، وأتاهم البربر من كل فج من الجزائر وغير الجزائر يدرسون عليهم الشريعة الإسلامية ، وعنوا بتحفيظهم القرآن الكريم . واتخذ كل منهم بجانب المسجد الذى بناه كُتّابا لتحفيظ الناشئة القرآن . فأسلمت وتفقهت على أيديهم جموع كبيرة من البربر ، وهم يُعَدّون – بحق – المعلمين الأولين للبربر تعاليم الشريعة الإسلامية ، وبهم تمّ العمل الكبير من نشر الجيوش العربية وولاة المغرب من أمثال حسان بن النعمان وموسى بن نصير الدينَ الحنيف فى ربوع المغرب جزائر وغير جزائر ، وانضمت الأمة البربرية إلى الأمة العربية فى دين واحد وعقيدة واحدة .

(ب) دور العلم : الكتاتيب – المساجد – المدارس – الزوايا – المكتبات

الكتاتيب

أخذت تتأسس عقب الفتوح الإسلامية فى بلدان الجزائر كتاتيب لتعليم الناشئة والناس القراءة والكتابة العربيتين وتحفيظهم القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية وتعريفهم بما ينبغى أن يعلموه من فروض الإسلام وتعاليمه . وكانت هذه الكتاتيب تُبْنىَ مستقلة أو ملحقة ببعض المساجد ، وأخذت المعارف فى هذه الكتاتيب تتسع بمر الزمن ، فشملت مبادىء الحساب وسيرة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ولكن العناية الكبرى إنما كانت تنصب على تحفيظ القرآن وبعض الأحاديث حتى يرسخ الإيمان فى نفوس الناشئة ، وتأتى بعد ذلك مدارسة الحساب وغيره من مبادىء العلوم ، وكانت الكتاتيب منبثة فى المدن والقرى وفى كل تجمع للقبائل الجزائرية الجبلية والصحراوية وتكاثرت فى المدن كثرة مفرطة ، حتى كانت تعد بالعشرات فى طبنة وقسنطينة وبونة وبجاية وتاهرت والجزائر وتلمسان والميزاب فى بسكرة وغير بسكرة .

المساجد

كانت الناشئة حين تنهى حفظها للقرآن الكريم وبعض متون الحديث وتتعرف على مبادىء العربية والعلوم فى الكتاتيب تتجه إلى حلقات المساجد وما يلقى فيها الشيوخ من الدروس فى موضوعات كثيرة ، فى مقدمتها تفسير الذكر الحكيم ، ورواية الحديث النبوى ، والفقه

وما يصور من تعاليم الشريعة ، وتاريخ الرسول والخلفاء الراشدين والفتوح الإسلامية والأمة العربية ، وكان من هؤلاء الشيوخ من يقدِّم فى دروسه أوليات المواد والعلوم فى الدراسات الدينية والدراسات النحوية واللغوية وكأنه هو ومن يماثلونه يشبهون معلمى التعليم الثانوى فى عصرنا ، حتى إذا أتقنها الناشىء وفقهها حق الفقه انتقل إلى حلقات شيوخ أعلى فى المستوى العلمى ، يلقون محاضرات متعمقة فى تفسير الذكر الحكيم ، ويقرءون – ويشرحون – بعض كتب الحديث النبوى المهمة ، ويلقون على الطلاب كتاب الموطأ لمالك أو ما يماثله حتى يتسع فهمهم وفقههم لتعاليم الإسلام فى فروض الدين ووجوه المعاملات ، ويحاضرونهم فى قواعد العربية ، ويقرءون لهم بعض كتبها المهمة مع الشرح والتفسير ، كما يقرءون لهم بعض كتب الشعر والنثر محاولين أن يغرسوا فى نفوسهم السليقة العربية وأن يصبحوا قادرين على نظم الشعر والكتابة الأدبية . ومع مر الزمن أخذت تلك الحلقات الكبرى وخاصة فى الجامع الأعظم أو الكبير بالمدينة تدرس علوم أصول الفقه والكلام والمنطق والطب والفلسفة ، وبذلك كان الجامع الأعظم فى كل مدينة جزائرية يعد جامعة كبرى لدراسة العلوم النقلية والعقلية . وكانت تلحق به وببعض المساجد أبنية أو زاوية بها غرف معدة بالأثاث والفُرش اللازمة لسكنى الطلاب من خارج المدينة وبعض الشيوخ ، ويقوم عليها من يعدّ لهم الطعام ومن يخدمهم . وكان يُنْفَقُ على الجوامع والمساجد من أوقاف محبوسة وكان أهل الثراء والسعة فى الرزق يتنافسون فيما يحبسون عليها من عقارات . ومن التوابع الضرورية للجوامع والمساجد الثريات والمصابيح المضيئة والميضات للوضوء والطهارة .

المدارس

بجانب الجوامع والمساجد أخذت تنشأ منذ عصر الحفصيين فى القرن السابع الهجرى المدارس فى القسم الشرقى من الجزائر الذى كان تابعا لهم ، أسوة بما أسسوا من مدارس فى عاصمتهم تونس ، حتى إذا استولت دولة بنى زيان على مقاليد الحكم عُنِى بعض حكامها بتشييد المدارس فى عاصمتهم تلمسان ، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة . وأول مدرسة أسسوها مدرسة أولاد الإمام أسسها أبو حمو موسى الأول (٧٠١–٧١٨هـ) للفقيهين أبى زيد وأبى موسى ابنى الإمام الخطيب أبى عبد الله ، وأسس بعده ابنه أبو تاشفين عبد الرحمن الأول (٧١٨–٧٣١هـ) المدرسة التاشفينية ، وأسس أبو حمو موسى الثانى (٧٦٠–٧٩١هـ) المدرسة اليعقوبية ، وأسس أحمد العاقل مدرسته الجديدة ووقف عليها أوقافا جليلة ، وأسس أبو الحسن مدرسة خامسة بالعباد ضاحية تلمسان . ويذكر الحسن الوزان فى كتابه : وصف إفريقيا أنه شاهد بتلمسان حين زيارته لها حوالى سنة ٩٢٠ للهجرة خمس مدارس بديعة حسنة البنيان جدا (لعلها المدارس السابقة) ومزدانة بالبلاط الملوّن وسواه من الأعمال الفنية . وأخذت

المدارس تتكاثر فى العهد العثمانى بالجزائر لا فى العاصمة : مدينة الجزائر وحدها بل أيضا فى المدن المختلفة مثل قسنطينة ، وكان بها وحدها سبع مدارس . وكان يقوم على التدريس فى مدارس الجزائر جميعا علماء مهرة فى العلوم الدينية واللغوية والأدب والفلسفة والطب والمنطق ، وكانت تنفق عليها الدولة أحيانا . وفى أكثر الأحيان كانت تعتمد على أوقاف حبسها ذوو اليسار عليها ، وكانت تلحق بها مبان لسكنى الطلبة الغرباء وكانت تزود بكل ما يلزمهم من مطعم وملبس وأثاث وبمن يخدمهم ويوفر لهم النظافة والراحة .

الزوايا

أخذت تتكاثر منذ القرن الثامن الهجرى الزوايا فى أنحاء البلاد المغربية جميعها جزائر وغير جزائر ، وكانت الزاوية تشتمل على مسجد تؤدَّى فيه فروض الصلاة ، وأبنية لسكنى الطلبة الغرباء والفقراء (الزهاد) ، وكانت تحبس عليها أوقاف كثيرة ينفق منها على شيوخها الذين ينهضون فيها بدروس العلوم الدينية واللغوية وعلى طلابها الغرباء والنازلين بها من الفقراء ، وكانت بذلك دار تعليم ودار عبادة ، وكثيرا ما كان يدفن فيها الشيخ الصالح الذى أقامها ، فينصب له ضريح فيها وتقام عليه قبة ، ويقصده الناس للزيارة والتبرك به ، ويعد مؤسس الزاوية المسئول الأول عنها ، وترث ذريته القيام عليها ، ويتبعها موظفون للقيام بالخدمات المختلفة . وكانت الزوايا بجانب أنها دور عبادة تعنى بإلقاء المحاضرات فى الموضوعات والعلوم الدينية المختلفة ، فهى دور عبادة وتعليم ، وتحول كثير منها – وخاصة فى المدن الجزائرية – إلى ما يشبه مدارس عالية . وكان كثير من التلامذة يقصدها من الأماكن القريبة والبعيدة ، وكما كانت تعنى بتعليم الناشئة كانت تعنى بتنوير العامة ، وكثرت كثرة مفرطة منذ القرن العاشر فى منطقة زواوة وبجاية وعنابة أو بونة ، ويقال إنها بلغت فى مدينة الجزائر نحو ١٥ زاوية ، وبلغت فى قسنطينة نحو ١٦ زاوية ، أما فى تلمسان فبلغت نحو عشرين زاوية .

المكتبات

فى كل مسجد – من قديم – كانت الزوايا تتخذ المكتبات ، وكانت تجمع إليها بجانب المصاحف وكتب الحديث النبوى أمهات الكتب فى الفقه وغير الفقه ، وكانت الدولة تساعد فى شرائها ويساعد ذوو اليسار ، وكثيرا ما كانت توقف أو تُحْبَسُ لطلاب العلم وشيوخه ، واشتهر إبراهيم الثانى الأغلبى باتخاذه فى عاصمة رقادة بقرب القيروان بيتا أو مؤسسة سماها بيت الحكمة جلب إليها أصحاب علوم الأوائل وغيرهم من العلماء وأقام بها مكتبة ضخمة تتبعها قاعات للجلوس والمطالعة . وكأنما أراد بها أن ينافس الدولة الرستمية فى تاهرت التى عنيت منذ إمامها عبد الرحمن بن رستم (١٦٠–١٧١هـ) بإنشاء مكتبة كبيرة فى عاصمتها وتبعه خلفاؤه يعنون بها ، ويذكر عن ابنه عبد الوهاب (١٧١–٢١١هـ) أنه أرسل إلى بعض

الإباضيين فى البصرة بألف دينار ليشتروا له كتبا بها ، فاشتروا له كثيرا من الكتب وأرسلوها إليه على أربعين بعيرا كما يقول البارونى فى الأزهار الرياضية . وما زال خلفاؤه يجمعون لتلك المكتبة الكتب مسمين لها باسم المعصومة حتى بلغت ثلاثمائة ألف كتاب فى الدراسات الدينية واللغوية والرياضية وغير الرياضية من علوم الأوائل ، وهالت أبا عبيد الله داعية العبيديين حين استولى على تاهرت سنة ٢٩٦ للهجرة ، فأمر بإحراقها ما عدا الكتب الخاصة بعلوم الأوائل من طب وغير طب .

وظل الاهتمام بجمع الكتب لمكتبات المساجد مطردا فى عهد الدولة الحمادية ، ولها وللمدارس والزوايا فى عهد الدولة الزيانية . وينوه المؤرخون بما كان فى زاوية إبراهيم التازى بالقرن التاسع الهجرى من خزائن متعددة مكتظة بالكتب العلمية . وظلت – طوال القرون المختلفة فى العصر – الكتب تهاجر مع طلبة العلم الوافدين على المشرق إلى الجزائر ، وظلت تودع فى المكتبات المختلفة للزوايا والمدارس والمساجد . ومن يقرأ تراجم العلماء فى كتاب مثل عنوان الدراية يشعر أنه لم يؤلف فى المشرق ولا فى تونس والأندلس كتاب مهم إلا نقل إلى الجزائر : فى القراءات والتفسير أو الحديث النبوى أو الفقه المالكى أو النحو أو الأصول أو المنطق أو علوم الأوائل وخاصة كتب الشفاء والنجاة والإشارات والتنبيهات لابن سينا ، وبالمثل كتب ابن رشد الأندلسى . فالتيار العلمى فى الأقطار العربية كان جارفا ، وكانت كتبه شرقا وغربا تصبُّ فى مكتبات كل بلد عربى جزائر وغير جزائر ، فيما بها من مساجد وزوايا ومدارس . وكثير من الأسر التى كانت تتوارث العلم اشتهرت باقتنائها مكتبات كبيرة مثل أسرة الفكون فى قسنطينة ، وكان بالجزائر هواة للكتب ينفقون فى جمعها أموالا طائلة ، وكانوا منبثين لا فى المدن فحسب بل أيضا فى الواحات والصحارى ، ويذكر العياشى فى القرن الحادى عشر الهجرى برحلته أن مكتبة شيخ يسمى محمد بن إسماعيل تيكوران كانت تضم نحو ألف وخمسمائة كتاب ، فما بالنا بما ضمته مكتبات المساجد والمدارس والزوايا .

(جـ) نمو الحركة العلمية

أخذت الحركة العلمية تنمو فى الجزائر منذ القرن الثانى الهجرى ، وخاصة منذ عهد الدولة الأغلبية إذ كانت ترعاها فى شرقىّ الجزائر فى بونة (عنابة) وقسنطينية وطبنة وغيرها من البلدان . وتأسست منذ سنة ١٦٠ للهجرة فى غربى الجزائر بمدينة تاهرت الدولة الرستمية الإباضية ، وظلت طوال قيامها حتى سنة ٢٩٦ للهجرة ترعى العلم والعلماء ، ويعدُّ الأستاذ محمد على دبوز فى الجزء الثالث من كتابه : تاريخ المغرب الكبير عشرات منهم قائلا إن الدولة الرستمية كانت دولة العلم والمعرفة وإن العلماء كثروا فيها ، وزخرت بهم مدنها وقراها ، حتى

ليعدون بالمئات . وخلفت الدولة الرستمية دولة بنى حماد واتسع سلطانها ، فشمل الجزائر أو أكثرها ، وقد بنى حماد مؤسسها قلعة سنة ٣٩٨ على منحدر جبلى بالقرب من المسيلة (المحمدية) وسرعان ما أصبحت مدينة عربية ضخمة ، يقول ابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه إن « حمادا استكثر فى القلعة من المساجد والفنادق فاستبحرت فى العمارة واتسعت فى التمدن ورحل إليها من الثغور القاصية والبلدان البعيدة طلاب العلوم وأرباب الصنائع لرواج أسواق المعارف والحرف والصنائع بها » وظلت – من حينئذ – مركزا كبيرًا للدراسات الدينية واللغوية ، حتى بعد انتقال الناصر الحمادى منها سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م إلى عاصمته الجديدة : بجاية وكان كثير من أبنائه وأحفاده يكرمون العلماء ويعقدون لهم مناظرات فى مجالسهم وبعثوا فى القلعة ثم فى بجاية نهضة علمية وأدبية ، وأمَّ حاضرتيهما بعض العلماء والشعراء المرموقين من أمثال ابن حمديس مادح المنصور بن الناصر بن علناس (٤٨١ – ٤٩٨) بالقصائد الطنانة فى مدحه ووصف قصوره ، واشتهر ابنه العزيز (٤٩٨ – ٥١٨هـ) بأن بلاده كانت سلاما وأمنا وأن العلماء – كما يقول ابن خلدون – كانوا يتناظرون فى مجالسه وقد بذل جهودا خصبة فى إنماء الحركة العلمية ببجاية ، حتى أصبحت مركزا علميا ضخمًا لا بعلمائها المحليين فحسب ، بل أيضا بوفود العلماء المنتقلين إليها من القلعة ووفودهم اللاجئة إليها من الأندلس والبلاد المغربية ، واطردت هذه المكانة العلمية لبجاية بعد سقوط دولة بنى حماد سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م إذ اشتهرت بها طائفة أو طوائف من العلماء والأدباء وظل يفد عليها غير عالم وأديب وخاصة من الأندلس ، ويوضح ذلك كتاب عنوان الدراية فى علماء بجاية للغُبْرينى إذ ترجم فيه لأكثر من مائة عالم من علماء بجاية فى القرنين السادس والسابع للهجرة ، وهؤلاء هم المشهورون ووراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم فى الشهرة . ويدل على كثرة غير المشهورين ما رواه الغبرينى عن أبى على المسيلى المتوفى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م من أنه قال : « أدركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتيا » ويعلق الغبرينى على كلمته بقوله : وإذا كان من المفتين ببجاية تسعون فكم يكون من المحدثين ومن النحاة والأدباء وغيرهم ممن تقدم عصرهم ممن لم يدركهم . وظلت النهضة العلمية بها مزدهرة فى القرون التالية وزارها الحسن الوزان حوالى سنة ٩٢٥هـ/١٥١٩م وقال إنها « مجهزة بالجوامع بشكل طيب وبالمدارس التى يكثر فيها الطلاب وأساتذة الشريعة والعلوم سوى الزوايا للنساك المتعبدين » .

ومنذ سنة ٦٣٣هـ/١٢٤٠م تنشأ فى تلمسان دولة بنى زيان ، وقد بثَّتْ فيها نهضة علمية وأدبية رائعة ، ويقول التنسى فى كتابه تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان عن مؤسس الدولة : يَغُمْراسن (٦٣٣ – ٦٨١هـ) إنه كان له فى أهل العلم رغبة عالية يبحث عنهم أينما كانوا ويستقدمهم إلى بلده ويقابلهم بما هم أهله ، وممن استقدمهم إبراهيم بن يخلف

التنسى وأقطعه إقطاعات واسعة ، ولما اشتهرت عنايته بأهل العلم والأدب وفد عليه من الأندلس أبوبكربن خطاب الكاتب، فأكرمه، وجعله رئيس ديوانه . ويقول التنسى عن حفيده أبى حمو موسى الأول (٧٠١-٧١٨هـ) إنه كان محبا للعلم وأهله معتنيا به قائما بحقه، ولما وفد عليه الفقيهان أبو زيد وأبو عيسى ابنا الإمام محمدبن عبدالله من أهل برشك بالقرب من تنس على الساحل الشمالى للجزائر احتفل بهما، وبنى لهما المدرسة التى سميت مدرسة أولاد الإمام فنشرا بتلمسان كثيرا من العلوم، وكان ابنه أبو تاشفين حفيًّا مثله بالعلم وأهله ولما وفد عليه الفقيه أبوموسى عمران المشدالى الزواوى احتفى به وولاه التدريس بمدرسته التاشفينية الجديدة. وكان على شاكلته أبوحمو موسى الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) فى رعاية العلم والعلماء، وكان أديبا وشاعرًا بارعًا وله كتاب نظم السلوك فى سياسة الملوك ضمنه بعض أشعاره، وهو أول من احتفل من ملوك الدولة بليلة المولد النبوى، وبلغ من احتفائه بالفقيه أبى عبدالله محمد بن أحمد الإدريسى أن بَنَى له مدرسة ليلقى فيها دروسه. ويشيد التنسى بأبى زيان محمدبن أبى حمو (٧٩٦-٨٠١هـ) قائلا إنه « كلف بالعلم حتى صار منهج لسانه وروضة أجفانه، فلم تَخْلُ حضرته من مناظرة ولا عمرت إلابمذاكرة ومحاضرة، وكتب بيده نسخًا من القرآن الكريم ونسخة من صحيح البخارى ونسخًا من كتاب الشـــفا بتعريف حقـــوق المصطفى للقاضى عياض ، ووقفها جميعا بخزانته فى مقدم الجامع الأعظم أو الكبير بتلمسان ، وألف كتابا نحا فيه نحو التصوف ، سماه « كتاب الإشارة فى حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة » ووجه هدية إلى برقوق سلطان مصر ومعها قصيدة بديعة . وينوه التنسى بأبى مالك عبد الواحد (٨١٤-٨٣٣هـ) قائلا: «فى أيامه نفق (راج) سوق الأدب ، وجاء بنوه إلى بابه ينسلون (يسرعون) من كل حَدَب (موضع) فينقلبون بُجُرَ (مملوئى) الحقائب ظافرين بجزيل الرغائب (بوافر العطايا). ونرى يحيى بن خلدون فى كتابه «بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبدالواد يعدِّد من أنجبته تلمسان أو استقر بها من العلماء ا لصالحين ويبلغ بهم مائة وتسعة وجمهورهم من العلماء الذين دوّى صيتهم، وإذا كان عددهم قد بلغ ذلك فى عهد يحيى بن خلدون المتوفى فى أواسط عصر الدولة الزيانية حول سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م فإن عددهم - لاشـــك - تضاعف بعده ، وبلغ بعددهم بعده ابن مريم فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى فى كتابه : « البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان » مائة واثنين وخمسين عالما . وأخذت تلمسان - كما أخذت بجاية - تتراجع علميا وثقافيا فى العهد العثمانى ، إذ أصبحت مدينة الجزائر العاصمة ، وأخذت تجذب إليها العلماء والأدباء وإن ظلوا مبثوثين فى عاصمتى بنى حماد وبنى زيان وبونة وبسكره وغيرها ، وخاصة قسنطينية إذ ظل بها فى العهد العثمانى نشاط علمى غزير .

ولم أتحدث – حتى الآن – عن هجرات الأندلسيين إلى الجزائر منذ هزيمة دولة الموحدين فى واقعة العقاب بالأندلس سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م فقد بدا لكثيرين منهم أن المستقبل ينذر برجحان كفة الإسبان وقرب استيلائهم على البلدان الأندلسية ، وأخذ نفر منهم غير قليل يهاجر إلى البلاد المغربية باحثا له عن وطن جديد يلتجىء إليه ، وأخذت مدنهم تتساقط فى حجر الإسبان منذ العقد الرابع من القرن السابع الهجرى ، وسقطت جوهرتهم الكبرى قرطبة ، وتبعتها فى السقوط دانية وشاطبة وإشبيلية عروس الأندلس وبلنسية ثم مرسية . وكانت كل مدينة أندلسية تسقط ينزح منها إلى مدن الجزائر وغيرها من المدن المغربية أندلسيون كثيرون ، وكان الأثرياء منهم والعلماء ينزلون مدن الساحل الشمالى فى الجزائر وينزل معهم بعض أصحاب الحرف والصناعات . أما أهل القرى الأندلسية فكانوا ينزلون فى السهول والوديان – وربما نزلوا فى سفوح الجبال كما كانوا ينزلون فى الأندلس – وكانوا يعنون بالزراعة وغرس الأشجار وإنشاء الحدائق والبساتين . وأخذت تكتظ بهم المدن الشمالية مثل وهران ومستغانم وبونة (عنابة) وبجاية ، ومن يرجع إلى كتاب عنوان الدراية فى علماء بجاية بالقرن السابع الهجرى سيجد من بينهم أكثر من عشرين عالما وأديبا نزحوا من الأندلس إلى بجاية حينذاك وملئوها علما وأدبًا ، وكانوا من العوامل الفعالة فى نهضتها العلمية والأدبية . وتهبط إلى الجزائر من الأندلس موجة ثانية كبيرة بعد سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ويستوطنون المدن الساحلية المذكورة آنفا وأخواتها على الساحل الشمالى مثل شرشال ويقول الحسن الوزان « إن كثيرًا من الغرناطيين قصدوها وأعادوا بناء قسم كبير من منازلها وكذلك قلعتها وزرعوا أراضيها ، وزاولوا فيها أعمال صناعة الحرير لأنهم وجدوا بها كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود وتحسنت أحوالهم يومًا بعد يوم حتى أصبحوا يسكنون ألفا ومائتين من البيوت وتوطّنوها مثل إخوانهم فى المدن الجزائرية الأخرى ، وبنوا كثيرا من سفن الملاحة لمطاردة السفن الإسبانية فى البحر المتوسط والاستيلاء على ما فيها من غنائم انتقامًا من فرديناند واستيلائه على غرناطة . ويدور الزمن دورة حتى سنتى ١٠١٦ – ١٠١٧هـ/١٦٠٨ – ١٦٠٩م فينفى ملك إسبانيا كل من بقى فى إسبانيا من المسلمين ، وتتجه أفواج كبيرة منهم إلى المدن الجزائرية ، ويتخذوها وطنا ثانيا لهم ، وقد نقلوا معهم كل حضارتهم ومدنيتهم مما كان له تأثير واسع فى الجزائر أثناء العهد العثمانى . وقد بعثوا فيها حركة تعليمية واسعة منذ جاءت أعدادهم الكبيرة بعد سقوط غرناطة ، وكانوا يؤسسون جمعيات خيرية للإنفاق على فقرائهم ولإنشاء المدارس كمدرسة مازونة ومدرسة الأندلسيين فى مدينة الجزائر ، ولابد أن كانت لهم مدارس فى المدن الأخرى ، وكانوا يحبسون عليها أموالا أو عقارات للإنفاق منها على الأساتذة والطلاب . وتنبه العثمانيون لقدرة الأندلسيين التعليمية ، فكانوا يعينون منهم كبار المعلمين فى المدارس ويفرضون لهم رواتب مجزية .

٢

علوم[١] الأوائل

اهتمت الجزائر – كما اهتمت البلدان العربية المختلفة – بمدارسة علوم الأوائل من فلسفة وطب وغير طب، وانصبت عناية علمائها خاصة على ما سموه علوم التعاليم ، يقصدون بها علوم الرياضيات ومايتصل بها من حساب وجبر وهندسة وفلك . ولم يحدث بين الفقهاء وهذه العلوم وما يتصل بها من الفلسفة والطب أى تخاصم أو تقاطع طوال هذا العصر ، بل إن من يرجع إلى تراجمهم سيجد كثيرين من كبارهم ينعتون بأنهم سادوا أهل عصرهم فى العلوم العقلية أويقال إن فلانا بذَّ فقهاء عصره فى علوم التعاليم أو كان مستبحرا فى فنونها إلى غير ذلك من نعوت تدل على أخذهم منها بحظ وافر، وكثيرا مايجمع الفقيه المشهور بين الفقه والطب.

وأول رياضى فلكى نلتقى به فى الجزائر على بن أبى الرجال التاهرتى الذى هاجر من بلدته تاهرت إلى القيروان وأصبح معلما ومربيا لحاكمها الصنهاجى المعز بن باديس ثم وزيرا له ورئيسًا لديوان الإنشاء حتى وفاته سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م وباسمه ألف ابن رشيق بعض مؤلفاته الأدبية مثل كتاب « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » . وهو أول مغربى تعمق علم الفلك والتنجيم وألف فيه كتابه : البارع فى علم الفلك الذى ترجمه قسطنطين الإفريقى إلى اللاتينية فى القرن الحادى عشر الميلادى وتناقلته اللغات الأوربية المختلفة وانتفع به العلماء الغربيون الفلكيون أيما نفع . وظل الجزائريون يعنون بعلم الفلك وغيره من العلوم الرياضية مثل محمد بن يحيى النجار التلمسانى المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م وكان إماما فى النجوم وأحكامها ، وكان يعاصره محمد بن إبراهيم الآبلى المتوفى سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م الذى فاق أهل زمانه فى جميع العلوم العقلية ، وهو شيخ ابن خلدون وأحد معلميه . وكتب عالم قسنطينة المشهور ابن قنفذ المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٨م شرحًا على أرجوزة فلكية لابن أبى الرجال ضمنه جداول فلكية . ومن أهم الفلكيين فى القرن التاسع بعده الحباك محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٣م وله منظومة فى الإسطرلاب الفلكى عُدَّت – منذ زمنه – ألفيَّة لعلم الإسطرلاب كألفية ابن مالك فى النحو . وقد شرحت مرارًا وممن شرحها الفقيه الكبير محمد السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م وظلت تتدارس حتى نهاية هذا العصر . ومن الأعمال الفلكية بعده

(١) انظر فى ابن أبى الرجال دائرة المعارف الإسلامية وراجع فى غيره عنوان الدراية للغبرينى وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوى ومقدمة عبد الرحمن بن خلدون فى علمى الهيئة والعدد وبغية الرواد لأخيه يحيى وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ووفيات ابن قنفذ والبستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وتاريخ الجزائر الثقافى من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر لأبى القاسم سعد الله ومعجم الأعلام الجزائريين لعادل نويهض .

منظومة السراج لعبد الرحمن الأخضرى التى الفها سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٢م وقد شرحت مرارًا وطبعت فى مصر مع شرح لها من تأليف سحنون الراشدى . وفى العهد العثمانى ألف محمد الصخرى الجزائرى سنة ١٠٤٣هـ/١٦٣٣م كتابًا فى علم الإسطرلاب سماه : « القلادة الجوهرية فى العمل بالصفيحة العجمية» جعله فى مقدمة وخمسة عشر بابا وخاتمة ، ولعبدالرزاق بن حمادوش المتوفى حوالى سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م مؤلف فى علم الفلك وآخر فى علم الإسطرلاب .

ومنذ نظم عبد الله بن الحجاج بن الياسمين المغربى المتوفى سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م منظومة الياسمينية فى الجبر والمقابلة وكذلك منذ ألف أبو العباس بن البناء المراكشى المتوفى سنة ٧٢١هـ/١٣٢٦م كتابه : « تلخيص أعمال الحساب » وعلماء الجزائر يتدارسون العملين للطلاب ويشرحونهما ، وللفقيه سعيد العقبانى التلمسانى المتوفى سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م شرح على كل منهما ، ولمعاصره ابن قنفذ القسنطينى شرحان على تلخيص ابن البناء سمى أحدهما شرح التلخيص ويقال « التمحيص فى شرح التلخيص » وسمىَّ الثانى : « حطّ النقاب عن وجوه أعمال الحساب ». وممن شرح التلخيص معاصرهما على بن موسى البجائى المتوفى سنة ٨١٦هـ/١٤١٤م ونظم ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م كتاب التلخيص شعرا . ونزل البلاد المغربية القَلصَادى على بن محمد القرشى الغرناطى المتوفى ببجاية سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م وكان رياضيا كبيرًا وظل المغاربة يتداولون كتبه وخاصة كتابه : « كشف الجلباب عن علم الحساب » . وفى أواخر النصف الأول من القرن العاشر الهجرى عُنى عبدالرحمن الأخضرى القسنطينى بعلمى الحساب والفرائض وألف فيهما منظومة سماها «الدرة البيضاء » طبعت مع شرحها بمصر .

ويبدو أنه كان للهندسة حظ غير قليل من الجزائريين . وقد مر بنا فى الفصل الماضى كيف أن عالما تلمسانيا رياضيا ومهندسًا كبيرا فى زمن أبى حمو موسى الثانى (٧٦٠ - ٧٩١هـ) هو أبو الحسن على المعروف بابن الفحام اخترع ساعة دقاقة عجيبة فى أعلاها أيكة تحمل طائرا معه فرخاه احتضنهما تحت جناحية وثعبان خارج من كوة يخاتله فيهما ، وقمر تكتمل دورته كل تمام ساعة أمام باب مغلق فيفتح وينقضُّ منه عقابان وينهش الثعبان أحد الفرخين فيصفر الطائر أبوه . ويفتح باب الساعة الذهبية ، وتتراءى جارية جميلة بيدها صحيفة تعلن رقم الساعة ، والساعة تدق. ومن المهندسين المهمين فى القرن التاسع الهجرى الفلكى المار ذكره الحباك ، وله كتاب فى شكل من الأشكال الهندسية هو الربع المجيب يقول فى مقدمته : « لما كان الربع المجيب أحسن الآلات شكلا وأحقها عملا وأخفها حملا ، مع استخراج الأعمال منه لجميع العروض للوقت المفروض هجس فى خاطرى أن أقيد عليه رسالة تذكرة لنفسى ولمن شاء الله من جنسى » وقد جعله - كما يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله - فى مقدمة وعشرة أبواب تناول فيها الجيب وجيب التمام والسهم والقوس والقطر والدائرة والارتفاع

الذى لاسمت له إلى غير ذلك من مباحث هندسية مع بيان حركات الشمس والقمر ومعرفة مواقيت الصلاة .

ورأينا فى القسم الخاص بتونس أنه كان بها نهضة كبيرة فى دراسة الطب منذ أواخر القرن الثالث الهجرى وامتدت إلى القرن العاشر ، وكان القسم الشرقى من الجزائر حتى قسنطينة وبجاية مندمجا فى الإقليم التونسى إلى نهاية القرن الرابع ، وقامت فيه دولة بنى حماد ، وتكاد تستولى على أكثر الجزائر ، وعنيت بتشجيع العلوم والآداب ، فكان طبيعيا أن تعنى بالطب ، ويلقانا من أطبائها فى القرن الخامس الهجرى ابن النباش محمد بن عبدالله البجائى، وكان يعنى بعلم الطب وعلاج مرضاه عناية شديدة ، ومن أطباء هذه الدولة فى القرن السادس ابن أبى المليح ويقول العماد الأصبهانى فى الخريدة إنه كان طبيبا ماهرا وشاعرا مجيدا ، غير أن اشتهاره إنما هو فى الطب. ونلتقى فى قلعة بنى حماد بصيدلى هو أبوجعفر القلعى عمر بن اليدوخ وكان خبيرا بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة، ومن مؤلفاته حواشٍ على كتاب القانون فى الطب لابن سينا. ومن أطباء بجاية فى القرن السابع ابن أندراس محمد بن أحمد الأموى أندلسى من مدينة مرسية هاجر منها إلى بجاية فى عشر الستين وستمائة مستوطنا وكان يدرس للطلاب الطب ويقرئهم كتبه ويقول الغيرينى إنه قرأ عليه أرجوزة ابن سينا فى الطب وجملة من كليات القانون، وكان يحضر دروسه نبهاء الطلبة ويثير فيها من الأبحاث الطبية ماتعجز الكتب عن بيانه، وكان متوليًا لطب الولاة ببجاية مع بعض خواص الأطباء بها ، وله رجز نظم فيه بعض الأدواء، واستدعاه المستنصر الحفصى إلى تونس ولم يلبث أن توفى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م . وكان يعاصره محمد بن يحيى بن عبد السلام وكان له حظ من الطب علمى وعملى ، وكان مزاولا له يعالج المرضى . وننتقل إلى تلمسان فى عهد الدولة الزيانية ، ومن أطبائها المهمين محمد بن أبى جمعة التلاسى أحد أطباء أبى حمو موسى الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) وكان شاعرا مجيدا. ويذكر عبدالباسط بن خليل المصرى الذى زار تلمسان فى أواخر القرن الثامن الهجرى وسجل زيارته لها فى رحلته أنه رأى فيها طبيبين :طبيبًا مسلمًا هو محمد بن على بن فشوش وهو أحد أطبائها فى تدريس الطب ومزاولة المهنة، وطبيبًا يهوديا وفد على تلمسان من الأندلس يسمى موسى بن صمويل ويعرف بابن الأشقر اليهودى ويقول إنه كان ملازمًا لسلطان تلمسان محمد بن أبى ثابت (٧٩٦-٨٠١هـ) . ومن تلاميذ ابن فشوش فى القرن التاسع الهجرى أبو الفضل محمد المشدالى، وكان يعاصره إبراهيم بن أحمد الثغرى وله معجم صغير فى الطب. ونلتقى فى العهد العثمانى بعبد الرزاق بن حمادوش المتوفى حوالى سنة ١١٧٠هـ/١٧٦٥م وله كتاب الجوهر المكنون من بحر القانون فى الطب وفروعه ، وقد طبع منه قسم خاص بالصيدلة يسمى كشف الرموز.

وإذا تركنا العلوم الطبية والرياضية إلى الفلسفة وبدأنا ببجاية التى كانت عاصمة للدولة الحمادية التقينا فيها بنزيلها الأندلسى الحرالى على بن أحمد من قرية من قرى مدينة مُرْسية المتوفى

سنة ٦٣٨هـ/١٢٤١م ويقول الغبرينى إنه كان أعلم الناس بالطبيعيات والإلهيات ، وإنه كان يقرأ عليه مع بعض الطلاب كتاب النجاة لابن سينا فيوضح منه ما يليق ويقرره بأحسن طريق ثم ينقضه ويوهنه . ونزل بجاية بعده من مالقة أحمد بن خالد المتوفى حوالى سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م وكانت له مشاركة فى الفلسفة فى الطبيعيات والإلهيات ، وكان طلاب بجاية يقرءون عليه كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا من فاتحته إلى خاتمته . وكان يعاصره ابن أساطير على بن عمران الملياني المتوفى سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م وهو من تلامذة الحرالى ومن خواصهم ، وكان الطلاب يقرءون عليه أيضًا كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا . ونمضى إلى تلمسان فنلتقى بالشريف الحسنى التلمسانى المتوفى سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م والذى انتهت إليه إمامة المالكية بالمغرب ، ويقول يحيى بن خلدون إنه لم يكن يعزب عن علمه فن عقلى ولا نقلى ، وكانت تقرأ عليه كتب ابن سينا من مثل الإشارات والتنبيهات وكتاب الشفاء كما كانت تُقْرَأ عليه تلاخيص ابن رشد لفلسفة أرسطو وبعض كتب التعاليم الرياضية فضلا عما كان يُقْرأ عليه من كتب الدراسات الدينية وما كان يلقيه من محاضرات فى تفسير الذكر الحكيم .

ومنذ القرن التاسع الهجرى يقل القول بأن هذا الفقيه أوذاك درس الحكمة أو درس معقولات الحكماء أو له مشاركة فى الحكمة أو كان حاذقا فى الطبيعيات والإلهيات أو كان يقرأ عليه كتاب النجاة أو كتاب الشفاء لابن سينا فقد أخذ يحل محل ذلك أنه من أهل الورع والنسك أو من أهل التصوف أو أنه من المتصوفة أو الأولياء الكبار مكاشف يتبَّرك به أو أنه متصوف من أهل العرفان أو أنه من العلماء الصالحين الأولياء أو زاهد ورع ذو كرامات أو من أهل الخلوة ترك الدنيا وما فيها أو سالك طرق المتصوفة أو سنن الفضلاء الصلحاء الأمجاد إلى غير ذلك من نعوت تدل على انغماس الفقهاء مع الشعب فى التصوف وطرقه الكثيرة التى عمت الجزائر وخاصة الطريقة الشاذلية وفروعها المتعدده ، وكلما قطعنا شوطًا أو شطرًا من الزمن فى العهد العثمانى ازدادت موجة التصوف – كما مر بنا فى الفصل الماضى – حدة ، وازدادت المؤلفات فيه وفى شيوخه وأقطابه وفرة .

على أن فرعًا من فروع الفلسفة ظل مزدهرًا فى حلقات الشيوخ بالجزائر حتى نهاية هذا العصر ونقصد علم المنطق ، وقد ألف فيه الحرالى المار ذكره كتابًا سماه « المعقولات الأُوَل » . وألف الْخَونجى المتوفى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م كتابًا فى المنطق سماه : « الجمل فى المنطق » تداوله علماء الجزائر سريعا يدرسونه للطلاب ويشرحونه . ويقال إنه لم يكن يوجد ببجاية فى القرن السابع الهجرى أعلم بكتاب الجمل للخونجى من عبد الوهاب بن يوسف المتوفى سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م . وللشريف الحسنى التلمسانى المار آنفا شرح للجمل ، يقول ابن مريم فى كتابه البستان إن العلماء انتفعوا به وأكبّوا عليه قراءة ونسخا . ولابن قنفذ القسنطينى شرح

له ، ولسعيد العقبانى معاصره شرح له كان يتداوله العلماء والطلاب ، وشرحه محمد بن مرزوق الحفيد المار ذكره وسمى شرحه : « نهاية الأمل فى شرح الجمل للخونجى . ولمحمد بن يوسف السنوسى المحدث المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٨٩م ثلاثة أعمال فى المنطق : مختصر له فيه شُرح مرارا ، وشرح على الجمل للخُوَنجى ، وحاشية على شرح إيساغوجى فى المنطق للبقاعى . وللفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلى التلمسانى المتوفى سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م ثلاثة أعمال أيضا فى المنطق : مختصر فيه وشرح الجمل للخونجى ومنظومة فيه سماها فتح « الوهاب » وكتب لها ثلاثة شروح . وكان عبد الرحمن السيوطى المصرى المشهور معاصره كتب كتابا نهى فيه عن الاشتغال بعلم المنطق وذكر فيه بعض ما قاله العلماء فى ذمه ، فكتب إليه قصيدة بديعة يدافع فيها عن علم المنطق وأنه الحق أو يهدى إلى الحق بدلالاته وأشكاله المنطقية السديدة . وقد ظل علم المنطق يدرس فى الأزهر كما يدرس فى الجزائر وشُغف الأزهريون والجزائريون بمنظومة فيه لعبد الرحمن الأخضرى القسنطينى الجزائرى المتوفى سنة ٩٥٣هـ/١٥٤٦م وسماها السلَّم وشرحها وهى فى مائة وثلاثة وأربعين بيتا ، ويقال إنه نظمها فى الحادية والعشرين من عمره ، ووضعت عليها شروح كثيرة لجزائريين ومصريين كما وضعت حواش كثيرة من أهمها حاشية الفقيه الكبير سعيد قدورة المتوفى سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م ويقول فى مقدمته لها إنها « إضافة لشرح الأخضرى على منظومته كالتذييل لما أغفله فى شرحه ، مظهرًا لمقاصده ومستخرجًا بعض فوائده » . وظلّ يدرس مع السلم فى الجزائر مختصر السنوسى فى المنطق وتوضع له بعض الشروح مثل شرح عبد الرزاق بن حمادوش ، المار ذكره سماه « الدرر على المختصر » . وظلت لسلم الأخضرى وشروحه وحواشيه الشهرة المدوية .

٣

علوم[1] اللغة والنحو والعروض والبلاغة والنقد

أخذت الجزائر تعنى بعلم اللغة منذ ألمَّ بها أبو على القالى فى طريقه إلى الأندلس زمن عبد الرحمن الناصر ، ونرى بين تلاميذه تلميذا جزائريا هو إبراهيم بن عبد الرحمن التنسى وقد حمل عنه كتابه الأمالى ومحاضراته فى اللغة ، ونجد مدينة طبنة عاصمة الزاب تعنى بمادة اللغة ومدارستها ، وينبغ فيها زيادة الله بن على الطبنى نزيل قرطبة فى عهد المنصور بن أبى عامر وزير

(١) انظر فى علماء اللغة والنحو والعروض والبلاغة إنباه الرواة للقفطى وبغية الوعاة للسيوطى وعنوان الدراية للغبرينى وبغية الرواد ليحيى بن خلدون والبستان لابن مريم ومعجم الأعلام الجزائريين لعادل نويهض ، وتاريخ الجزائر الثقافى لأبى القاسم سعد الله ، وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوى . وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى وراجع فى النهضة الأنموذج لابن رشيق ص ١٧٠ وكتابه العمدة فى مواضع متعددة . ونشر الدكتور المنجى الكعبى كتابه الممتع .

الخليفة المؤيد منذ سنة ٣٦٦ إلى ٣٩٢ فاحتفى به . يقول ابن بسام فى الذخيرة إنه اتخذه نديمه إذكان من أمتع الناس حديثا وأنصعهم ظرفا ، وأحذقهم بالملاطفة وآخذهم بالقلوب ، وكان عالما لغويا يقول القفطى : « كان من أهل العلم بالآداب واللغات والأشعار ، روى الناس عنه علما كثيرا ، وكان كثير الإغراب » توفى سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م ونشأ ابنه عبد الملك – وكان محدثا – تنشئة لغوية جيدة حتى ليقول السيوطى فى البغية إنه كان إماما فى اللغة له رواية وسماع . وتنهض الدولة الحمادية بالقلعة عاصمتها الأولى وبجاية عاصمتها الثانية نهضة علمية خصبة حتى نهاية مدتها سنة ٥٤٧ وتظل النهضة مطردة فى العاصمتين وتجتذبان كثيرا من علماء الأندلس ، كما مر بنا ، فضلا عن علماء المدن والأصقاع الجزائرية . وينزل بجاية المحدث الأندلسى الكبير عبد الحق الإشبيلى المتوفى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ويتولى بجامعها الأعظم الخطبة وصلاة الجمعة كما يتولى بها القضاء ، ويؤلف فى غريب القرآن الكريم والحديث النبوى كتابا ضخما فى ثمانية عشر مجلدا سماه الحاوى ضاهى به كتاب الغريبين فى القرآن والحديث للهروى . وللفقيه التلمسانى محمد بن عبد الحق المتوفى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م كتاب فى غريب الموطأ للإمام مالك . وكان يعاصره يحيى بن عبد المعطى الزواوى المتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م من كبار علماء العربية ، وكان قد أخذ يكثر فى الجزائر نظم العلوم والمعارف ، وقد نظم معجم الجمهرة فى اللغة لابن دريد ، وحاول نظم معجم الصحاح للجوهرى ولم يكتب له أن يتمه .

وكان محمد بن الحسن بن ميمون القلعى المتوفى سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م يقرأ للطلاب ببجاية كتاب الأمالى للقالى وكتاب زهر الآداب للحصرى ومقامات الحريرى ومنتخبات من شعر أبى تمام والمتنبى ، وكان شاعرا ونحويا كبيرا مثل ابن عبد المعطى . وكان يعاصره أحمد بن يوسف اللَّبْلى نزيل بجاية المتوفى بها سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م وله شرح على كتاب الفصيح لثعلب وكتاب فى التصريف ضاهى به كتاب الممتع لابن عصفور . ومن لغويى القرن السابع الهجرى ونحاته الكبار يوسف بن يخلف الجزائرى وكان يدرس لطلابه فى بجاية شعر أبى تمام والمتنبى والأشعار الستة برواية الشنتمرى المسندة إلى الأصمعى ، وهى دواوين امرىء القيس وزهير والنابغة وطرفة وعنترة وعلقمة ودواوين أبى العلاء : سقط الزند واللزوميات والحماسة للتبريزى والمرزوقى وإصلاح المنطق لابن السكيت والأمالى لأبى على القالى والمقامات وغير ذلك من الكتب الأدبية .

ولعل فى عمل ابن يخلف اللغوى ببجاية ما يدل بوضوح على مدى العناية الواسعة فيها بمدارسة كتب اللغة والأدب ودواوين الشعر الجاهلية وغير الجاهلية . ولابن مالك كتاب لامية الأفعال عُنى به غير جزائرى ، ولابن العباس محمد التلمسانى المتوفى سنة ٨٧١هـ/١٤٦٧م شرح عليها نوَّه به معاصروه . وتكثر الشروح للأشعار وخاصة قصيدة البردة النبوية للبوصيرى ، ومن أهم شروحها شرح سعيد العقبانى المتوفى سنة ٨١١ وشرح ابن مرزوق الحفيد

المتوفى سنة ٨٤٢ وشرح القلصادى المتوفى سنة ٨٩١ . وتتكاثر الشروح اللغوية فى العهد العثمانى ومن أهمها شَرْح عبد الكريم الفكون على أرجوزة المكودى الفاسى فى التصريف ألفه سنة ١٠٤٨ للهجرة ، وكتب محمد بن بدوى الجزائرى سنة ١١٢٧ رسالة الارتضاء فى الفرق بين الضاد والظاء . وبأخرة من العصر كتب محمد بن أحمد الجليلى الملقب بأبى راس المتوفى سنة ١٢٣٨هـ / ١٨٢٣م كتابا لغويا فى نقد القاموس المحيط سماه : إضاءة القابوس على كتاب القاموس .

وعلى شاكلة ازدهار الدراسات اللغوية فى الجزائر منذ القرن السابع الهجرى تزدهر الدراسات النحوية وحامل لوائها فى هذا القرن يحيى بن عبد المعطى الزواوى المار ذكره بين اللغويين والمتوفى بالقاهرة بعد أن تصدَّر لتدريس النحو واللغة بها فى الجامع العتيق : جامع عمرو ، وله فى النحو ألفية على غرارها نظم ابن مالك ألفيته ، ومن مؤلفاته النحوية شرح لكتاب الجمل للزجاجى وحواشٍ على كتاب أصول النحو لابن السراج ، وكتاب فى النحو سماه العقود والقوانين ، وله كتاب فى شرح أبيات سيبويه . ولعبيد الله النفزى الشاطبى نزيل بجاية المتوفى بها سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م شرح على كتاب المفصل للزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ للهجرة وكان يتقن شرحه ودرسه للطلاب .

ومن كبار نحاة بجاية فى القرن السابع لغويها المار ذكره يوسف بن يخلف الجزائرى وكان يشرح لطلابه الكتب التالية : كتاب الجمل للزجاجى وكتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب المفصل للزمخشرى ومقدمة ابن بابشاذ النحوى المصرى وقانون أبى موسى الجزولى المتوفى سنة ٦٠٧هـ/١٢١١م أو متنه النحوى المقتضب الذى أخذه عن ابن بُرى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م . وكان يعاصره محمد بن الحسن بن ميمون القلعى المار ذكره آنفا بين اللغويين وهو من قلعة بنى حماد ، وكان لغويا ونحويا كبيرا مثل ابن يخلف ، استوطن بجاية ، وعاش يدرس لطلابها ويقول تلميذه الغبرينى فى ترجمته : « كان له درس يحضره من الطلبة فضلاؤهم ونبهاؤهم ، وتجرى فيه المذاكرات المختلفة فى التفسير والحديث وأبيات الغريب من الأشعار ، ويعرض من المعانى والأفكار ما لا يكاد يوجد مثله فى نوادر الكتب ، وكان قويا فى علم التصريف ومحبا للتعليل ، جاريا فى ذلك على سنن أبى الفتح بن جنى ، وكان كثير التلامذة والأصحاب ، وتُقْرَأ عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والأدبية ، ويقوم على جميعها أحسن قيام ، وهو أفضل من لقيت فى علم العربية » . ويذكر الغبرينى من كتب النحو التى كان يدرسها ابن ميمون القلعى للطلاب كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وكتاب سيبويه والمفصل للزمخشرى وقانون أبى موسى الجزولى المسمى بالجزولية . ومن نحاة بجاية فى القرن السابع عبد الله بن محمد الأغماتى نزيل بجاية ، وكان فى علم العربية بارعا ، وكان يفقه كتاب سيبويه فقها حسنا ، إذ كان من أعلم الناس به ، وكان يقرن مسائله بعضها إلى بعض ويدرك مقاصده

إدراكا دقيقا ، ويقول عنه الغبرينى ناقلا عن بعض تلاميذه : « أما كتاب مفصل الزمخشرى وقانون أبى موسى الجزولى فكانا عنده من المبادىء دالا بذلك على تعمقه لكتب النحو ومسائله وقواعده » . ولمحمد بن عبد الرحمن الخزرجى قاضى بجاية المتوفى سنة ٦٩١هـ/١٢٩٢م شرح محكم على الجزولية ، وكان يدرسها للطلاب دراسة جيدة . وللفقيه الكبير ابن قنفذ أحمد بن حسن القسنطينى المتوفى سنة ٨١١هـ/١٤٠٩م الإبراهيمية فى مبادىء علم العربية ، وله على ألفيه ابن مالك شرح سماه « آية السالك إلى ألفية ابن مالك » . وكان ابن مرزوق الحفيد يقرأ لطلابه – أو يُقْرأ عليه – كتاب سيبويه وكتاب الإيضاح لأبى على الفارسى والألفية وكتاب التسهيل لابن مالك والكافية لابن الحاجب وكتاب المغنى وأوضح المسالك لابن هشام . ولمعاصره إبراهيم بن فائد القسنطينى المتوفى سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م شرح على ألفية ابن مالك ، ومنذ ألَّف ابن آجُرُّوم الصنهاجى الفاسى المتوفى سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م متنه البديع فى النحو المسمَّى الآجُرُّومية . والعلماء فى الجزائر وغير الجزائر يتناولونه بالدرس والشرح ؛ ومن شروحه فى الجزائر شرح المحدث الكبير محمد السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م وشرح معاصره القلصادى الأندلسى نزيل تلسمان وبجاية المتوفى سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م .

ويظل علماء النحو فى العهد العثمانى يعنون بشرح متن الأجرومية وألفية ابن مالك ، ومن شروح الأجرومية حينئذ شرح محمد بن محمد الصباغ القلعى من نحاة القرن العاشر الهجرى ، ونظمها فى القرن الثانى عشر خليفة بن حسن القمارى فى أرجوزة قيل إنه « يرقص لها المبتدى لسلاسة نظمها وعذوبة موسيقاها » . ومن نحاة الجزائر المهمين فى القرن الحادى عشر يحيى الشاوى المتوفى سنة ١٠٩٦هـ/١٦٨٥م ومن مصنفاته حاشية على شرح المرادى لألفية ابن مالك ، وله شرح على كتاب التسهيل لابن مالك ، ومختصر فى أصول النحو استضاء فيه بكتاب الاقتراح للسيوطى . ويكثر الشارحون لشواهد كتب النحو ، ولأبى القاسم بن محمد البجائى من نحاة القرن الحادى عشر الهجرى شروح لشواهد ثلاثة من كتب ابن هشام ، هى القطر وشذور الذهب والقواعد الصغرى .

وبعض النحاة كان يدرس العروض لطلابه ، ولذلك يُنْعَتُ بالعروضى مثل عبد الله بن محمد القسنطينى المتوفى بأخرة من القرن السادس الهجرى ، وليحيى بن عبد المعطى المذكور بين النحاة واللغويين منظومة فى العروض بجانب ألفيته فى النحو ونظمه اللغوى لمعجم الجمهرة . وينظم ضياء الدين الخزرجى السبتى فى عصر الموحدين قصيدة فى العروض فى نحو مائة بيت ضمَّنها قواعد علم العروض والقوافى ، وطارت شهرتها وسميت الخزرجية نسبة إليه ، وينسبها بعض الباحثين المعاصرين خطأ لابن أبى الجيش وليس هو صاحب الخزرجية . وشغف بها الجزائريون وتناولها كثير من أعلامهم بالشرح مثل ابن قنفذ المذكور بين النحاة وسمى شرحه :

« بسط الرموز الخفية فى شرح عروض الخزرجية » وشرحها ابن مرزوق الحفيد وسمى شرحه : « المفاتيح المرزوقية فى استخراج رموز الخزرجية » وشرحها القلصادى ، وله بجانب شرحها مختصر فى العروض . ومن شروح العهد العثمانى على الخزرجية شرح لسعيد قدورة الحفيد المتوفى سنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م وشرح ثان لبركات بن باديس المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى .

وكانت الجزائر – فيما يبدو – تعتمد فى دراسة البلاغة على ما كتبه ابن رشيق المتوفى سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م فى كتابه « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » وكان قد طار صيته لا فى القيروان وحدها بل فى جميع البلدان المغربية والمشرقية . وأخذت تشيع شرقا وغربا دراسة المتون البلاغية وشروحها فى القرن السابع وما بعده منذ وضع السكاكى مصنّفه أو كتابه المفتاح وعرض فيه علمى المعانى والبيان ، وألحق بهما دراسة للمحسنات اللفظية والمعنوية ، وخلفه الخطيب القزوينى وصنع لعَرْض السكاكى هذه العلوم فى القسم الثالث من كتابه المفتاح تلخيصا ، ولم يلبث أن بسط قضاياه فى كتاب ثان سماه الإيضاح ، منذ ذلك ودارسو البلاغة العربية فى الجزائر وغير الجزائر يُعْنَوْنَ عناية واسعة بكتابيه المذكورين ، وخاصة بالتلخيص إذ أخذ يتجرد غير عالم فى كثير من البلدان العربية لشرحه . وكان الفقيهان الكبيران التلمسانيان ابنا الإمام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الشريف التلمسانى وأخوه أبو موسى عيسى رحلا إلى المشرق فى شبابهما لأوائل القرن الثامن الهجرى للتزود من حلقات علمائه ولقيا فى رحلتهما بدمشق أو فى القاهرة الخطيب القزوينى قاضى القضاة بهما فى عهد الناصر بن قلاوون ، فحضرا دروسه وحملا عنه مصنفيه البلاغيين : متن التلخيص وكتاب الإيضاح ، وأذاعاهما فى موطنهما ، وكأن الجزائر اشتغلت بهما عقب تأليفهما سريعا مثل مصر والبلدان المشرقية ، ونرى الشريف الحسنى التلمسانى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٧٧١ كما مر بنا يعنى بالتلخيص والإيضاح جميعا ويأخذهما عنه الطلاب ، وبالمثل كان يدرسهما للطلاب بتلمسان الحافظ الكبير ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢ وضم إليهما كتاب المصباح فى علوم المعانى والبيان والبديع لبدر الدين ابن النحوى الكبير ابن مالك المتوفى سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م . ولمعاصره إبراهيم بن فائد شرح وضعه على متن التلخيص ، وشرحه أيضا محمد بن عبد الكريم المغيلى . ويضع عبد الرحمن الأخضرى فى أوائل العهد العثمانى صاحب متن السلم فى المنطق كتابا مختصرا فى علوم البلاغة سماه : « الجوهر المكنون فى الثلاثة فنون : المعانى والبيان والبديع » وشُرح مرارا ، ومن شروحه شرح محمد بن يوسف الثغرى المتوفى سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣م سماه : « موضح السر المدفون فى الجوهر المكنون » ويضع على بن عبد القادر المشهور باسم ابن الأمين حاشية على شرح السعد التفتازانى لمتن التلخيص .

وتُهدى مدينة المسيلة (المحمدية) فى الجزائر إلى القيروان ناقدًا مبكرًا فى أواخر عهد المنصور بن بلكين (٣٦٨ – ٣٨٦ هـ) هو عبد الكريم النهشلى ، وكان شاعرا يحسن الكتابة كما كان شاعرًا مجيدًا فألحقته الدولة بدواوينها وظل بها إلى أن توفى سنة ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م . وله فى النقد كتاب يعد باكورة الكتابات النقدية فى البلاد المغربية هو كتاب الممتع فى علم الشعر وعمله . ونشر الدكتور منجى الكعبى اختيارا منه لأحد الأدباء السابقين يقع فى خمسمائة صفحة حققها تحقيقًا علميًا جيدا . ويدل هذا الاختيار على أن النهشلى بنى الكتاب على منتخبات شعرية ونثرية تتخللها نظرات نقدية ، ووزَّع المنتخبات على أبواب متعاقبة انتفع بها ابن رشيق فى تأليفه لكتابه : « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » كما أوضح ذلك الدكتور منجى فى هوامش التحقيق ببيان ما يلتقى فيه الكتابان من أبواب ونصوص مختلفة منذ الصفحة الثالثة من الممتع إذ نقل ابن رشيق عن عبد الكريم ما قاله من أن « أصل الكلام منثور ثم تعقبت العرب ذلك واحتاجت إلى الغناء بأفعالها وذكر سابقتها ووقائعها وتضمين مآثرها ، إذ كان المنطق هو المؤدى عن عقولهم ، وألسنتهم خدم أفئدتهم » وتبعه ابن رشيق فقال : « وكان الكلام كله منثورا ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة » . ويعقد عبد الكريم ص ٢٤ فصلا فى فضل الشعر ، ويتابعه ابن رشيق بفصل مماثل يردد فيه ما يقوله (انظر صفحتى ٢٤ و ٢٥) . ومن الحق أنه قد يصرح به ولكن فى مواطن معدودة من العمدة ، وقد يأخذ عنه أبوابا مثل باب ألقاب الشعراء ص ١٩٢ وهو فى العمدة (تحقيق محيى الدين عبد الحميد) ٣٣/١ وباب احتماء العرب بالشعر وذبهم به عن الأعراض ص ٢٢٠ وهو عند ابن رشيق فى ٤٩/١ وباب الأنفة من السؤال ص ٢٤٩ وهو عند ابن رشيق باب التكسب بالشعر والأنفة منه ص ٦٣ ويقول الدكتور منجى فى الهامش : « وتجد عند ابن رشيق فصولا كثيرة من هذا الباب ضمن أبواب أخرى لها علاقة به مثل باب الاقتضاء والاستنجاز فى الجزء الثانى من العمدة . ومن ذلك باب فيمن نوه به المدح وحطَّه الهجاء ص٢٤٣ وهو عند ابن رشيق ٢٩/١ . ومن ذلك باب فيه النهى عن تعرض الشعراء ص ٢٧٩ وهو عند ابن رشيق ٥٩/١ . والكتاب يحمل فى كل باب وفى كل موضوع نصوصا أدبية : شعرية ونثرية بديعة تدل – دلالة واضحة –على ما كان يمتلكه عبد الكريم النهشلى من ذوق أدبى مرهف مع حسن العرض . ويبدو أن أصل الكتاب كان يحمل بعض نظرات نقدية بارعة لم يعن صانع المختار من الكتاب بإثباتها ، بدليل ما سجل ابن رشيق منها ، إذ عقد فى الجزء الأول من العمدة فصلا للقدماء والمحدثين ذهب فيه مذهب ابن قتيبة فى أنه ينبغى أن لا يقدَّم فى الشعر القديم لقدمه ولا الحديث لحداثته ، إذ المعوَّل فى ذلك على جودة الشعر لا على قدمه أو حداثته ، ولا يلبث أن يقول : « ولم أر فى هذا النوع أحسن من فصل أتى به عبد الكريم (النهشلى) فإنه قال :

« قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر ، ويُسْتَحْسَنُ عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استُجيد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء وحدّ الاعتدال وجودة الصنعة ، وربما استعملت فى بلد ألفاظ لا تستعمل كثيرا فى غيره كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس فى أشعارهم ونوادر حكاياتهم . قال : والذى أختاره أنا التجويد والتحسين الذى يختاره علماء الناس بالشعر ، ويبقى غابره على الدهر ، ويبعد عن الوحشىّ المستكره ، ويرتفع عن المولد المنتحل ، ويتضمن المثل السائر والتشبيه المصيب والاستعارة الحسنة » .

فعيد الكريم يرى أن الجودة فى الشعر تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وأن المدار فيها ليس على القدم والحداثة ولا على بلد شرقا دون بلد غربا إنما المدار فيها على حسن النسق وجمال الصياغة بحيث لا يكون الكلام حوشيا جافيا ولا مولّدا سفسافا غثّا بل يكون رصينا جزلا أو رقيقا سلسا مع ما يحمل من تلاوين التشبيهات والاستعارات البارعة . ونمضى مع ابن رشيق فى الجزء الأول من كتابه العمدة فنجده يعقد بابا فى الشعراء والشعر يذكر فيه عن عبد الكريم قوله : « الشعر أصناف ، فشعر هو خير كله ، وذلك ما كان فى باب الزهد والمواعظ الحسنة والمثل العائد على من تمثّل به بالخير وما أشبه ذلك ، وشعر هو ظرف كله ، وذلك القول فى الأوصاف والنعوت والتشبيه وما يفتنّ به من المعانى والآداب ، وشعر هو شر كله ، وذلك الهجاء وما تسرّع به الشاعر إلى أعراض الناس ، وشعر يتكسّب به ، وذلك أن يحْمل إلى كل سوق ما يَنْفُقُ فيها ويخاطب كل إنسان من حيث هو ويأتى إليه من جهة فهمه » .

وهى أنواع تستقصى أغراض الشعر ، فمنه الخيِّر الذى يهدى إلى السَّنن القويم من الزهد والسلوك المستقيم إيثارا لما عند الله من الثواب على متاع الحياة الفانى، ومنه ما تستريح إليه النفس من وصف الطبيعة ومن الحكم والمعانى الطريفة، ومنه ماهو شر خالص وهو الهجاء المقذع الذى ينتهك الأعراض، ومنه ما يتكسب به ، وهو شعر المديح الذى يعود على صاحبه بالنفع فى كل سوق. ويعقد ابن رشيق عقب هذا الباب بابا لحد الشعر وبنيته، ويذكر فيه لعبدالكريم قوله :

« يجمع أصناف الشعر أربعة : المديح والهجاء والحكمة واللهو ، ثم يتفرَّع من كل صنف من ذلك فنون فيكون من المديح المراثى والافتخار والشكر ، ويكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء ، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، ويكون من اللهو الغزل والطرد والخمر والمخمور » . وفنون الشعر الأربعة التى ذكرها عبد الكريم نقلها عن ابن وهب فى كتابه نقد النثر ، وقد عرف كيف يرد إليها كل أغراض الشعر ، فالمديح منه الرثاء إذ هو مديح لميت ، ومنه الفخر إذ هو مديح للشاعر الذى نظمه ، مديح لنفسه ، وكذلك الشكر مديح لمن يقدم إليه وعرفان بفضله ، ومن السهل إدخال الذم فى الهجاء أما العقاب والاستبطاء فيدخلان فيه بشىء من التوسع إذ قد ينقلبان هجاء . وبحق تدخل الأمثال فى الحكمة كما يدخل فيها

التزهيد والوعظ لأنهما يقومان على ضرب الأمثال والتأمل فى مصير الإنسان وما ينتظر من السعادة أو الشقاء فى الآخرة ، ويدخل فى اللهو الانشغال عن الحياة الجادة بالغزل أو بالصيد أو بالخمر أسوأ صور اللهو الماجن » .

وواضح أننا عرفنا عن طريق الفِقَر الثلاث السالفة التى نقلها ابن رشيق عن كتاب الممتع فى علم الشعر وعمله لعبد الكريم النهشلى جانبا من نظراته النقدية التى ضمنها كتابه ، ونظن ظنا أنه كان فى الكتاب نظرات نقدية أخرى مماثلة أهملها – كما ذكرنا – صانع هذا الاختيار الذى حققه ونشره الدكتور منجى الكعبى . ولم يظهر بعد عبد الكريم فى الجزائر ناقد على شاكلته إلا ما كان من ظهور ابن رشيق الناقد الفذ مواطنه الذى ولد مثله بالمسيلة الجزائرية ونشأ بها وعلمه أبوه صنعته وهى الصياغة وهاجر فى سن السادسة عشرة إلى القيروان فتأدب بها ونضجت فيها موهبته الأدبية والنقدية وظل مستوطننا لها بقية حياته بحيث عُدَّ من أهلها وأدبائها ، ولذلك تحدثنا فى القسم الخاص بالإقليم التونسى عنه وعن كتابه العمدة فى صناعة الشعر ونقده الذى يُعَد بحق أروع عمل نقدى أنتجته البلدان المغربية طوال هذا العصر .

٤

علوم[1] القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

يعكف المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها على حفظ القرآن الكريم وتلاوته ، وحين نشأت فيه القراءات أخذ يحملها عن أئمتها فى المشرق مقرئون كثيرون فى المغرب ولا بدأن

(١) راجع فى القراء غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجرزى وعنوان الدراية فى علماء بجاية للغبرينى وبغية الرواد ليحيى بن خلدون والبستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وتعريف الخلف برجال السلف للحفناوى وتاريخ الجزائر الثقافى للدكتور سعد الله . وانظر فى المفسرين عنوان الدراية وبغية الرواد والبستان وتعريف الخلف برجال السلف وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى فى الحالة العلمية فى الجزائر وتاريخ الجزائر الثقافى من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر لسعد الله . وراجع فى المحدثين طبقات أبى العرب والديباج المذهب لابن فرحون والجزء الأول من الذخيرة لابن بسام فى أسرة بنى الطبنى وعنوان الدراية وبغية الرواد والوفيات لابن قنفذ والبستان وتعريف الخلف وكتاب الجزائر للمدنى وتاريخ الجزائر الثقافى لسعد الله . وانظر فى الفقهاء طبقات أبى العرب والخشنى والرياض للمالكى وما ذكر من مصادر الإباضية والديباج المذهب لابن فرحون وعنوان الدراية وما ذكر معه من المصادر فى المحدثين ، وعلم الفقه فى مقدمة ابن خلدون . وراجع فى المذاهب الكلامية وخاصة الاعتزال والأشعرى ما كتبناه عنهما فى العصرين العباسيين الأول والثانى وكذلك ما كتبناه فى تونس وانظر فى مبادىء الإباضية دبوز فى تاريخ المغرب الكبير ، وراجع فى الاعتزال ونشره فى المغرب والجزائر لعهد واصل مؤسسه كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة بتحقيق فؤاد سيد . وانظر فى المناظرة بين إباضية تاهرت والمعتزلة ونشوب الحرب بينهما أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير ، وانظر فى تأليف علم الكلام وكثرتها البستان وتعريف الخلف ، وتاريخ الجزائر الثقافى ، وراجع فى كتابات الإباضيين فى علم الكلام كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى .

كان للجزائر حظ كبير من هؤلاء المقرئين مثل بقية البلاد الإسلامية ، ويذكر ابن الجزرى من كبار قرائها فى القرن الرابع الهجرى عبد الحكم بن إبراهيم نزيل بجاية تلميذ ابن خيرون كبير القراء فى القيروان وقد حمل عنه قراءة ورش المصرى عن نافع وهى القراءة التى لا تزال فى البلاد المغربية إلى اليوم . ومن كبار القراء فى القرن الخامس الهجرى يوسف بن على بن جبارة من بسكرة عاصمة الزاب ، وله كتاب الكامل فى القراءات العشر ، ويقول ابن الجزرى إنه طاف البلاد فى طلب القراءات ، ويذكر فى كتابه الكامل إنه لقى ثلاثمائة وخمسة وستين مقرئا من شيوخ القراء وذكر منهم فى كتابه مائة واثنين وعشرين شيخا . ومن قراء القرن السادس ابن عفراء محمد بن عبد العزيز وعنه حمل القراءات محمد بن عبد الله القلعى المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٤م ويقول الغبرينى إنه جلس للأستاذية ببجاية وأقرأ الناس وانتفعوا به . وكان يعاصره ببجاية المقرىء أحمد بن محمد المعافرى قرأ عليه عالَمٌ واستفاد منه خلق كثير ، وله مختصر كتاب التيسير للدانى فى القراءات السبع ، وبالمثل أحمد بن محمد الصدفى المتوفى سنة ٦٧٤ وله كتابان فى قراءة ورش . ومن قراء القرن السابع الذين ذكرهم ابن الجزرى فى غاية النهاية سعيد بن على بن زاهر المتوفى سنة ٦٥٤ هـ/١٢٥٦م استوطن بجاية وأقرأ بها الطلاب ، ومثله محمد بن صالح الكنانى المتوفى سنة ٦٩٩ هـ/١٢٩٧م ولى إقامة الفريضة والخطبة بجامع بجاية الأعظم ما ينيف على ثلاثين عاما ، وكان مع إملائه القراءات يقرأ للطلاب مفصل الزمخشرى ودواوين الأشعار الستة وأبى تمام والمتنبى . ومن مقرئى القرن الثامن الهجرى محمد بن محمد بن غريون البجائى تلميذ محمد بن صالح الكنانى وأستاذ محمد بن محمد البلفيقى ببجاية ، وكان يقرىء القراءات الثمان . ومن المقرئين فى منتصف القرن الثامن أحمد بن محمد الزواوى مقرىء قسنطينة ، ومن مقرئى النصف الثانى من هذا القرن يحيى بن موسى الغمارى مقرىء بجاية . وكان يعاصره يعقوب بن على الصنهاجى شيخ أهل تلمسان فى القراءات .

ومن كبار القراء فى القرن التاسع ابن مرزوق الحفيد ، وله فى القراءات أرجوزة فى محاذاة الشاطبية المشهورة ، وتلاه فى العناية بالقراءات بأخرة من القرن محمد بن يوسف السنوسى وله شرح كبير على الشاطبية ومختصر فى القراءات السبع ، وكان يعاصره محمد بن أحمد المصمودى وله فى القراءات رجز باسم : « المنحة المحكية لمبتدىء القراءة المكية » عرض فيها الخلاف بين قراءة ابن كثير المكى ونافع المدنى ، ومن معاصريه محمد بن شقرون الوهرانى وله كتاب تقريب النافع فى الطرق العشر (طرق الروايات) لنافع ، وهى أكثر من ذلك فى حديث ابن مجاهد عن أسانيد قراءة نافع فى مقدمته لكتابه : « السبعة » . واشتهرت زواوة فى العهد العثمانى بكثرة المقرئين فيها ، ومن أشهرهم فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر محمد بن صولة وكان الطلاب يأخذون عنه القراءات السبع . ولابد أن كان بالجزائر مقرئون آخرون فى

زواوة وغيرها يتجاوزون القراءات السبع إلى ما بعدها من القراءات العشر ، وربما إلى ما وراءها من القراءات .

وللجزائر نشاط فى التفسير مماثل لنشاطها فى القراءات ، وخاصة منذ القرن السادس الهجرى ، وفيه نلتقى بيوسف بن إبراهيم الورجلانى الإباضى المتوفى ببلدته : ورجلان سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م ويذكر أحمد توفيق المدنى فى كتاب الجزائر أنه كان له فى التفسير كتاب كبير فى ٧٠ جزءًا . ويتكاثر المفسرون بالجزائر منذ القرن السابع ، ومنهم على بن أحمد الحرالى نزيل بجاية المار ذكره ، ويقول الغبرينى : « له تفسير على كتاب الله تعالى سلك فيه سبيل التحرير فتكلم عليه لفظة لفظة وحرفا حرفا » ومن مفسرى القرن السابع بتلمسان ابن أبى العيش الخزرجى محمد بن عبد الرحيم وفيه يقول يحيى بن خلدون فى كتابه بغية الرواد : له مشاركات فى فنون العلم وكان مؤلفا متقنا فسَّر الكتاب العزيز . ومن مفسرى القرن الثامن الهجرى الشريف الحسنى التلمسانى محمد بن أحمد إمام المغرب قاطبة ، وفيه يقول ابن مريم : « فسَّر القرآن فى خمس وعشرين سنة أتى فيه بالعجب العجاب ، وكان عالما بحروفه ونحوه وقراءاته وبيانه وبلاغته وأحكامه ومعانيه » . ومن مفسرى القرن التاسع سعيد العقبانى المتوفى سنة ٨١١ هـ/١٤٠٨ م وله تفسير لسورة الأنعام والفتح والفاتحة أتى فيه بفوائد جليلة ، ولإبراهيم بن فائد المتوفى سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣ م تفسير للقرآن الكريم . ونلتقى بالمفسر الكبير عبد الرحمن الثعالبى التلمسانى المتوفى سنة ٨٧٥ هـ/١٤٧٠ م وله تفسير دوَّت شهرته فى عصره والعصور التالية اختصر فيه تفسير عبد الحق بن عطيه الأندلسى ورجع فيه إلى عشرات من كتب التفسير ، يقول فى مقدمته : « ضمنته – بحمد الله – المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية ، وزدته فوائد جمة من غيره من كتب الأئمة وثقات أعلام هذه الأمة حسبما رأيته ورويته عن الأثبات ، وذلك قريب من مائة تأليف ، وما منها تأليف إلا وهو منسوب لإمام مشهور بالدين ومعدود فى المحققين ، وكل من نقلت عنه من المفسرين شيئا فمن تأليفه نقلت وعلى لفظ صاحبه عوَّلت ، ولم أنقل شيئا من ذلك بالمعنى خوف الوقوع فى الزلل » وقد سمى تفسيره : « الجواهر الحسان فى تفسير القرآن » . وقوله إنه رجع فى التأليف إلى مائة تفسير يدل – بوضوح – على أن المشرق لم يؤلف تفسيرا مهما إلا نقله الشيوخ إلى الجزائر . ولا يختص هذا العمل من نقل التراث العلمى المشرقى إلى الجزائر بالتفسير وحده ، فقد عم هذا التراث فى القراءات والحديث النبوى والفقه وعلم الكلام والتاريخ وكتب النحو ومعاجم اللغة ، بفضل طلاب العلم الجزائريين وشيوخه البررة الذين ظلوا يحملونه طوال القرون الماضية إلى بلدان الجزائر وغير الجزائر من الأقاليم المغربية . ولمحمد السنوسى مختصر حاشية التفتازانى على تفسير الزمخشرى المسمى بالكشاف . ومن تلاميذ الثعالبى محمد بن عبد الكريم المغيلى المار ذكره ، ومن مصنفاته : « البدر المنير فى علوم التفسير » . ونلتقى فى العهد العثمانى بيحيى الشاوى المار ذكره المتوفى سنة ١٠٩٦ هـ/١٦٨٥ م وله فى

التفسير كتاب فى أجوبته على اعتراضات أبى حيان الأندلسى فى تفسيره المحيط على عبد الحق بن عطية والزمخشرى . وبأخرة من هذا العصر نلتقى بمحمد بن أحمد بن عبد القادر الملقب بأبى راس ، وله تفسير فى ثلاثة مجلدات .

وزخرت الجزائر بالنشاط فى دراسات الحديث النبوى مثلها فى ذلك مثل بقية البلاد الإسلامية فكثر بها المحدثون من أبنائها والنازحين إليها من الأندلس والبلدان المغربية والمشرقية ، ومن أوائل الوافدين عليها من المحدثين أبو معمر عباد بن عبد الصمد التميمى من أهل البصرة كان قد لقى الصحابى أنس بن مالك وعليه معتمده وكذلك لقى الحسن البصرى وعطاء بن أبى رباح التابعيين وروى عنهم جميعا الحديث وقدم البلاد المغربية فأخذ الحديث عنه أناس كثيرون فى طرابلس والقيروان وقسنطينة وبها توفى ، ويقول أبو العرب فى طبقاته إنه روى مناكير فى الحديث عن أنس لم يروها غيره ولكنه مشهور بكثرة من أخذ الحديث عنه . وممن بكروا فى النزوح إليها من الأندلس سعيد بن فحلون نزيل بجاية المتوفى بها سنة ٣٤٦هـ/٩٥٨م عن ثلاث وتسعين سنة ، وكان قد رحل إلى المشرق وحمل عن النسائى كتابه السُّنن أحد كتب الصحاح الستة المشهورة ، وكانت إليه الرحلة للسماع من البلدان الأندلسية . وفى نفس هذا القرن الرابع استوطن أحمد بن نصر الداودى تلمسان حتى وفاته سنة ٤٠٢هـ/١٠١٢م ، وكان فقيها كبيرا وله شرح على صحيح البخارى سماه النصيحة . واشتهرت فى طبنة عاصمة الزاب فى القرون الأولى أسرة بنى الطبنى برواية الحديث النبوى ، ومنها عبد الملك بن زيادة الله الطبنى نزيل قرطبة المتوفى سنة ٤٥٧ . ومن محدثى القرن السادس بتلمسان يعقوب بن أحمد ، لقى بمرسية فى الأندلس أبا على الصدفى سنة ٥١١ وعاد إلى تلمسان فحدَّث الطلاب بها إلى وفاته . ومن كبار المحدثين فى نفس القرن عبد الحق الإشبيلى نزيل بجاية المتوفى بها المار ذكره ، وله الأحكام الكبرى فى الحديث ست مجلدات والأحكام الصغرى والأحكام الوسطى والجمع بين الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم . وكان يعاصره مواطنه أبو بكر بن سعادة الإشبيلى نزيل تلمسان المتوفى سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م ويقول ابن مريم : « كان ضابطا نقادا محدثا عالى الرواية » ومن تلاميذه ابن أبى العيش الخزرجى . ومن محدثى الإباضيين يوسف بن إبراهيم الورجلانى المار ذكره بين المفسرين وله ترتيب مسند الربيع بن حبيب الإباضى البصرى المتوفى سنة ١٧٠هـ/٧٨٧م . ومن محدثى القرن السابع أبو زكريا الزواوى استوطن بجاية وتوفى بها سنة ٦١١هـ/١٢١٤م وكان يُقْرأ عليه صحيح البخارى إلى وفاته عن سنٍّ عالية . ومن محدثى هذا القرن فى مدينة الجزائر محمد بن قاسم بن منداس المتوفى بها سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٦م وكان يعكف على تدريس علوم الحديث . وكان يعاصره فى بجاية على بن فتح بن عبد الله المتوفى بها سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٥م واشتهر بسنده العالى لصحيح البخارى الذى أخذه فى رحلته إلى المشرق ، إذ أخذه عن أبى محمد بن يونس عن أبى الوقت وروايته إحدى الروايات الأساسية

التى اعتمد عليها اليونينى فى إخراج صحيح البخارى وتحقيق نصوصه ، وسمع أبو الوقت روايته عن أبى الحسن الداودى عن ابن حموية عن محمد بن يوسف الفَرَبْرى عن الإمام محمد بن إسماعيل البخارى . وهو سند عال لصحيح البخارى ، تسامع به الأندلسيون فرحلوا إلى بجاية لأخذ رواية صحيح البخارى عنه لقصور سندهم له عن هذا السند . وكان يعاصره أحمد بن محمد بن السراج الإشبيلى نزيل بجاية المتوفى سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٨م وكانت له فى الحديث رواية عالية . وكان يعاصرهما حسن بن على بن قنفذ محدث بلده : قسنطينة المتوفى بها سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م . وتوفى بمطلع القرن الثامن المحدث الفقيه قاضى الجماعة ببجاية أحمد بن محمد الغبرينى صاحب كتاب عنوان الدراية فى علماء بجاية .

ومن محدثى القرن الثامن الهجرى محمد بن يحيى الباهلى البجائى المتوفى سنة ٧٤٤ ومحمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب التلمسانى المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م ويقول ابن قنفذ فى كتابه الوفيات : كان له طريق واضح فى الحديث وأَسْمَعَنَا حديث البخارى وغيره ، وله شرح جليل على كتاب عمدة الأحكام فى الحديث ، وأيضا شرح على كتاب الشفاء للقاضى عياض . وفى سنة ٧٨٤هـ توفى محدث قسنطينة وقاضيها حسن بن ميمون بن باديس . ومن كبار المحدثين فى القرن التاسع الهجرى محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن مرزوق الملقب بالحفيد إشارة إلى أنه حفيد ابن مرزوق الخطيب ، الحافظ المحدث الثقة جامع أشتات العلوم الشرعية والعقلية ، وكان لا يترك علما عقليا ولا نقليا إلا ألف فيه ، فهو يؤلف فى المنطق كما مر بنا وفى النحو وفى الفقه وينظم فى علوم الحديث أرجوزتين كبرى باسم الروضة وصغرى باسم الحديقة ويدرس للطلاب الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم وجامع الترمذى وسنن أبى داود وعمدة الأحكام فى الحديث سوى الأمهات فى الفقه المالكى والنحو والعربية والبلاغة . وكان يعاصره أحمد بن زاغو المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م وله شرح على صحيح البخارى وشرح على صحيح مسلم . ونلتقى بأخرة من هذا القرن بالإمام محمد السنوسى ، وله مختصر لشرح الأبى على مسلم ، وشرح خصه بمشكلات البخارى ومختصر لشرح الزركشى عليه . ونلتقى فى العهد العثمانى بأسماء علماء كثيرين يدرسون للطلاب بعض أمهات كتب الحديث وخاصة صحيح البخارى ، وكانت تقام المهرجانات لختمه فى رمضان . وكان ابن أبى جمرة قد عُنى بوضع مختصر لصحيح البخارى فشرحه عبد القادر المجاجى . ويضع بأخرة من العصر عبد العزيز الثمينى الإباضى مختصرا لحاشية مسند الربيع بن حبيب فى ثلاثة أجزاء ، ويضع معاصره أحمد بن عمار حاشية على صحيح البخارى .

ومنذ الفتح الإسلامى يتجرد كثيرون من الجيوش الفاتحة لنشر الإسلام فى الجزائر وغيرها من البلاد المغربية وتعليم أهلها الشريعة الإسلامية وتحفيظهم القرآن الكريم . ومرَّ بنا فى هذا

الفصل كيف أن موسى بن نصير (٨٦-٩٦هـ) ظل خلال مسيرة جيشه حتى المحيط يترك فى كل بلد مغربى فى الجزائر وغير الجزائر معلمين يحفظون أهله القرآن ويقفونهم على تعاليم الإسلام وعلى قواعد العربية . ويظل معلمون قائمين بذلك طوال القرن الأول الهجرى ، وكان عمر بن عبد العزيز فى آخر هذا القرن قد أرسل إلى القيروان عشرة من الفقهاء ليعلموا الناس فروض الشريعة ، ومنذ هذا الحين أخذت تزدهر فى القيروان – عاصمة المغرب جميعه حينذاك – الدراسات الفقهية ، وأخذ كثيرون من أهل الجزائر يؤمونها ليحسنوا معرفة الفقه ويبثوها فى بلدانهم ، وكان منهم – من يقتدى بشباب القيروان فيرحل إلى المشرق للنهل من حلقات فقهائه الكبار فى الحجاز والعراق وخاصة حلقة الإمام مالك بن أنس (٩٣-١٧٩هـ) . ومن أوائل الجزائريين الراحلين إلى المدينة للاستماع إليه والتلمذة عليه أبو القاسم عبد الله الزواوى . ونلتقى مع أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث للهجرة بفقيه جزائرى هو إبراهيم الطبنى الذى كان يشارك أسد بن الفرات فى القضاء .

وكانت الدولة الرستمية الإباضية قد نشأت منذ أواسط القرن الثانى وتولى أمورها الإمام عبد الوهاب ، وهو من أوائل الفقهاء الإباضيين إذ ينسب إليه الأستاذ دبوز فى تاريخ المغرب الكبير كتابًا يجمع فتاويه الشرعية لأتباعه يسمى نوازل نفوسة . واشتهر قضاة مالكية فى أواسط القرن الثالث ولأهم سحنون فى بعض مدن الجزائر حين أصبح قاضى القيروان : عاصمة الإقليم التونسى وشرقى الجزائر حينذاك منهم حمدون قاضى طبنة وعلى بن منصور قاضى ميلة ويحيى بن خالد السهمى قاضى الزاب ، وكانوا جميعا يعنون بنشر الفقه المالكى الذى درسوه على أستاذهم سحنون . ومن الفقهاء الجزائريين فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى عبد الملك بن سياخ أستاذ فضل بن سلمة البجائى المتوفى سنة ٣١٩هـ/٩٣٢م وكان من أعْرف الفقهاء باختلاف أصحاب مالك ، وكان يُرْحَلُ إليه للسَّماع منه ، أقرأ – ودرَّس – بالمسجد الجامع فى بجاية ، وله مختصر لمدوَّنة سحنون فقيه القيروان ومختصر ثان لكتاب الواضحة لعبد الملك بن حبيب فقيه قرطبة المعاصر لسحنون والمتوفى سنة ٢٣٨هـ/٨٥٢م وقد زاد فيه من فقهه كثيرا ، وله مختصر ثالث لكتاب الفقيه المالكى المصرى ابن المواز . ونلتقى فى القرن الخامس بمروان بن على نزيل بونة (عنابة) المتوفى قبل سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وله شرح على الموطأ لمالك نوَّه به ابن فرحون .

وفى نفس القرن الخامس يلمع بين الإباضيين فقيه يسمى أحمد بن محمد بن بكر ولد لأبيه القادم إلى وادى ميزاب من جبل نفوسة بليبيا . ويقال إن أباه هو الذى أسس هيئة العزابة فى بلدان قرى ومدن ميزاب ، ويقال بل مؤسسها هناك ابنه أحمد المذكور المتوفى سنة ٥٠٤هـ/١١١١م كما يذكر معمر فى كتابه الإباضية فى موكب التاريخ ، وهى هيئة دينية عليا تشرف على جميع شئون المجتمع الإباضى فى كل مدينة وقرية ومنها يختار شيخ البلد والمفتى

وناظر الأوقاف ومؤدّب الناشئة والمؤذن والإمام . وكان أحمد فقيها وله من المصنفات كتاب أحكام الحرب وكتاب القسمة وكتاب أصول الأرضين فى كل ما يتصل بها من شئون الملكية والاستثمار والضرائب وهو فى ستة أجزاء ، وله أيضا كتاب الألواح وكتاب تبين أفعال العباد .

ومن كبار فقهاء المالكية فى القرن السادس أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن أبى قنون المتوفى سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م وله المقتضب الأشفى فى اختصار المستصفى للغزالى . ومن فقهاء الظاهرية عبد الله بن جبل الوهرانى الظاهرى المذهب قاضى عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين . ومنهم ميمون بن جبارة المتوفى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٩م قاضى بجاية ، وكان الطلاب يقرءون عليه معيار المعالم والمقاصد للغزالى ، ومنهم محمد بن على بن مروان بن جبل قاضى الناصر الموحدى المتوفى سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م .

ومن فقهاء الإباضية فى هذا القرن يوسف بن إبراهيم الورجلانى المتوفى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ، وهو تلميذ أحمد بن محمد بن بكر السابق ذكره بين المفسرين – المحدثين ، وله كتاب العدل فى أصول الفقه فى ثلاثة أجزاء وكتاب مرج البحرين . ومن كبار فقهاء المالكية فى القرن السابع الهجرى أبو زكريا الزواوى البجائى المتوفى سنة ٦١١هـ/١٢١٥م ومنهم محمد بن عبد الحق التلمسانى المتوفى سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م وله فى الفقه : المختار فى الجمع بين المنتقى للباجى والاستذكار ، وكتاب غريب الموطأ ، ومنهم أبو الحسن على المشهور بابن الزيات مستوطن بجاية ، وكان الطلاب يقرءون عليه تهذيب مدوَّنة سحنون وكتاب التلقين لعبد الوهاب إمام المالكية وكتاب التفريع لابن الجلاب وكتاب الرسالة لابن أبى زيد . ومنهم إبراهيم بن أبى بكر التلمسانى المتوفى بأخرة من سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م وكان فقيها نابها ، وله فى الفرائض أرجوزة لُقّبت بلقب « التلمسانية » وهى ضابطة للفرائض محكمة عجيبة الوضع كما يقول ابن فرحون ، وشرحها غير فقيه جزائرى مثل ابن زاغو والحباك .

ومن فقهاء بجاية المهمين أبو على ناصر الدين الزواوى وهو الذى جلب إلى بجاية والمغرب مختصر ابن الحاجب فى الفقه المالكى آخر المائة السابعة ومن هذا التاريخ عكف عليه أهل بجاية والمغرب يدرسونه ويشرحونه . ومن كبار الفقهاء فى القرن الثامن الهجرى أبو زيد بن الإمام المتوفى سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٣م وأبو موسى بن الإمام المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م نزلا تلمسان أيام أبى حمو موسى الأول (٧٠١–٧١٨هـ) فبنى لهما المدرسة المعروفة باسم مدرسة أبناء الإمام كما مر ، وكان يعاصرهما عمران المشدالى المتوفى سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٥م ويقول يحيى بن خلدون : « لم يكن فى معاصريه أحد مثله علما بمذهب مالك وحفظا لأقوال الصحابة وعرفانا بنوازل الأحكام وصوابا فى الفتيا » وفى كتاب تعريف الخلف برجال السلف مناظرة بينه وبين أبى زيد الإمام موضوعها الفقيه المصرى عبد الرحمن بن القاسم الذى حمل عنه سحنون المدوَّنة المنسوبة إليه خطأ وهى من إملاء أستاذه عبد الرحمن .

وقد تناظر الفقيهان فى عبد الرحمن بن القاسم هل هو مقلد أو هو مجتهد . وقال عمران إنه مجتهد اجتهادا مطلقا بدليل مخالفته لمالك فى كثير من المسائل . ونلتقى فى القرن الثامن بالإمام العالم الفذ فارس المعقول والمنقول محمد بن أحمد الشريف الحسنى التلمسانى المتوفى سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م ومرَّ ذكره فى علوم الأوائل وبين المفسرين وإليه انتهت إمامة المذهب الفقهى المالكى فى عصره ، وكان مع علمه الواسع بالفقه عالما بأصوله ، ومن مصنفاته مفتاح الوصول فى بناء الفروع على الأصول طبَّق فيه الأصول على مسائل الفقه ، ويقول ابن خلدون إنه ملأ المغرب معارف وتلاميذ . ومن فقهاء هذا القرن عبد الرحمن الوغليسى المتوفى سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٥م شيخ العلماء فى بجاية وعالمها ومفتيها ، وله « الجامعة فى الأحكام الفقهية على مذهب الإمام مالك ، وتسمى : « الوغليسية » نسبة إليه .

ومن كبار فقهاء القرن التاسع الهجرى أحمد بن حسن المشهور باسم ابن قنفذ قاضى قسنطينة المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م ، وله شرح على رسالة ابن أبى زيد فى الفقه المالكى وشرح ثانٍ على كتاب التفريع لابن الجلاب المالكى وشرح ثالث على الأرجوزة التلمسانية باسم معونة الرائض فى مبادىء الفرائض . ومن فقهاء القرن الكبار محمد بن مرزوق الحفيد المار ذكره فى علوم الأوائل وبين العروضيين والبلاغيين والمحدثين ، وله : شرح على باب الطهارة بمختصر خليل بن إسحق الفقيه المصرى المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨ . ومنذ ألف خليل هذا الكتاب الموجز وشروحه تتكاثر فى الجزائر كما تتكاثر شروح مختصر ابن الحاجب الفقيه المصرى المالكى المتوفى قبله بنحو قرن . ومن الفقهاء أحمد بن زاغو التلمسانى المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م ، ومن تآليفه شرح التلمسانية فى الفرائض .

ونلتقى بعبد الرحمن الثعالبى كبير المفسرين فى العصر ، ومن مصنفاته الفقهية شرح ابن الحاجب الفرعى فى سفرين ، وجواهر المدوَّنة وعيون مسائلها فى سفرين ، وجامع الأمهات فى أحكام العبادات . ويلقانا بعده تلميذه وتلميذ ابن زاغو الفقيه يحيى المازونى المتوفى سنة ٨٨٣هـ/١٤٧٩م وله الدرر المكنونة فى نوازل مازونة ، جمع فيه فتاوى الفقهاء المتأخرين من أهل تونس وبجاية والجزائر وتلمسان وغيرهم فى سفرين . ونلتقى فى أواخر القرن التاسع الهجرى وأوائل العاشر بالفقيه أحمد بن يحيى الونشريسى المتوفى سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م حامل لواء المذهب المالكى فى أيامه ، وكان يدرس لطلابه مدونة ابن سحنون وابن الحاجب الفرعى ومن مؤلفاته : تعليق على ابن الحاجب الفرعى والقواعد فى الفقه والفروق ، وأهم مؤلفاته المعيار المعرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب فى ستة أسفار ، وهو موزع على أبواب الفقه فى العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية .

ونمضى إلى العهد العثمانى فى الجزائر وكان سلاطين آل عثمان يرسلون مع ولاتهم قضاة

أحنافا ، وعادة كانوا يعودون مع الولاة بعد حكمهم نحو سنتين ، ويأتى الوالى الذى خلفه ومعه قاض جديد ، وبعد عدة أجيال كان يدرس لهم الفقه الحنفى فى بعض المدارس والجوامع أخذ ينشأ فى الجزائر علماء أحناف من أبناء العثمانيين المولودين فيها . وأخذ الولاة يولون منهم القضاة دون حاجة إلى جلب قضاة من العاصمة : إستانبول ، وأول قاض حنفى جزائرى هو الحسين بن رجب الذى تولى القضاء سنة ١١٠٢هـ/١٦٩١م وكان القاضى الحنفى يسمى المفتى وشيخ الإسلام ودائما كان بجواره فى المدن قاض مالكى ، إذ كانت جماهير الشعب مالكية ، وله بدوره حق الفتوى ، وإذا اختلف مع القاضى الحنفى عُقد لهما مجلس من العلماء للمناظرة ومن انتصر منهما أُخِذَ بفتواه وقد يعزلان معا ويولَّى غيرهما .

وعلى الرغم من كثرة الدروس فى المذهب الحنفى لم ينشط أصحابه فى التأليف إذ ظلوا طويلا يمكثون سنتين فى الجزائر ويعودون إلى استانبول فلم تهيأ لهم الفرصة حينئذ للتأليف طوال القرن الحادى عشر الهجرى إنما تهيأ ذلك حين أصبح القضاة يختارون من أبناء العثمانيين الجزائريين ، ويوضح ثبت فى كتاب تعريف الخلف برجال السلف مدد توليهم فى القرن الثانى عشر الهجرى وكيف كانت تتوارث وظيفة القضاء الحنفى بعضُ الأسر مثل أسرة العنابى ولها نشاط محمود فى التأليف ، وعلى شاكلتهم عبد القادر الراشدى القاضى الحنفى فى أوائل القرن الثانى عشر ولكنه عُنى بمباحث علم الكلام . أما الفقه المالكى فظل التأليف بالعهد العثمانى متصلا فيه وخاصة فى وضع الشروح والحواشى ونظم المتون ، ولمصطفى الرماصى المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر حاشية على شرح لمختصر خليل بن إسحق ، ونظمه أحمد البونى المتوفى سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٧م تيسيرًا لحفظه على الناشئة ، ولعبد الرحمن الأخضرى صاحب متن السلم فى المنطق مختصر فى العبادات شرحه عبد الكريم الفكون (الحفيد) المتوفى سنة ١١٧٣هـ/١٧٦٠م ولعبد الرحمن البيدرى التلمسانى ياقوتة الحواشى على شرح الإمام الخراشى لمختصر خليل فى أربعة أسفار فرغ منه سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٦م ونظم المختصر خليفة بن حسن القمارى فقيه بسكرة وفرغ من نظمه سنة ١١٩٢هـ/١٧٧٩م .

ومن كبار فقهاء الإباضية فى العهد العثمانى عبد العزيز الثمينى المتوفى سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨م وله كتاب النيل فى ثلاثة أجزاء وهو مرجع أساسى فى الفقه الإباضى وفروعه فى العبادات والمعاملات ، وهو يقوم عند الإباضيين مقام مختصر خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى وشروحه وحواشيه . وأكمله بكتابه : الورد البسام فى رياض الأحكام ، وله مختصر المنهاج فى علوم الشريعة فى أربعة أجزاء وكتاب الألواح فى الفقه وكتاب التاج فى حقوق الأزواج وفيه يعرض الحقوق الزوجية وقضايا الأسرة إلى غير ذلك من كتب فى المنطق وعلم الكلام وأصول الدين .

ومرَّ بنا فى القسم الخاص بالإقليم التونسى وما كان يتبعه من شرقى الجزائر أن كل ما كان يتحاور فيه علماء الكلام من مرجئة وجبرية ومعتزلة انتقل هناك مبكرا ، وكان المعتزلة قد انضموا قديمًا فى البصرة إلى جيش إبراهيم بن عبد الله الحسنى فى حربه لأبى جعفر المنصور الخليفة العباسى سنة ١٤٥ ولم يكتب له الظفر بل دارت عليه وعلى أخيه محمد النفس الزكية فى المدينة الدوائر ، وأخذ المنصور يتعقب أبناء الأسرة هو وخلفاؤه ، فهرب إدريس أخوهما إلى المغرب ، وغلب على مدينة فاس وأنحائها وأسس هناك دولة الأدارسة . وكان دعاة واصل بن عطاء رأس المعتزلة وصلوا إلى هذه الأنحاء وأصبح لهم فى كورتى طنجة والبيضاء أتباع كثيرون ، فوضعوا أيديهم فى أيدى إدريس ، وأعانوه فى تأسيس دولته كما أعان – من قبل – معتزلة البصرة أخاه إبراهيم فى ثورته على المنصور ،ونراهم يتكاثرون فى شمال الجزائر الغربى لعهد عبد الوهاب أمير الدولة الرستمية (١٧١ – ٢١١هـ) ، وعقدت مناظرات طويلة بينهم وبين علماء دولته الإباضية ، وأعلن الحرب عليه منهم نحو ثلاثين ألفا ولم يقدَّر لهم النصر فهزموا ولم تقم لهم بعد ذلك فى الجزائر قائمة . وطبيعى أنهم كانوا يعتنقون مبادىء المعتزلة الخمسة المشهورة ، وهى التوحيد بمعنى تنزيه الله عن التشبيه بالمخلوقين فهو ليس جسمًا ولا ما يشبه الجسم ، والعدل مما يترتب عليه نفى سيطرة القدر على إرادة الإنسان حتى يكون مسئولا عن أعماله مما يستوجب له الثواب والعقاب ، وحتمية وعد الله – جَلَّ شأنه – بالثواب ووعيده بالعقاب فلا تبدل لهما ، مما يترتب عليه عقاب مرتكب الكبيرة إلا إذا تاب وأناب ، ونفذوا فى مناقشة الحكم عليه إلى مبدئهم الرابع وهو أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين الكفر والإيمان بينما قال أهل السنة إنه مؤمن فاسق ، وقالت الإباضية إنه كافر لكن لا كفر ملَّة بل كفر نعمة ، والمبدأ الخامس الذى اعتنقته المعتزلة هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ويبدو أن أبا عبيد الله الصنعانى الداعية الإسماعيلى العبيدى كما قضى على الدولة الرستمية فى تاهرت لأواخر القرن الثالث الهجرى قضى أيضا على الدعوة الاعتزالية ، فلم نعد نسمع عن جماهير تعتنقها فى الجزائر والمغرب ، إنما يلقانا من حين لآخر بعض أفراد من العلماء يعتنقونها .

وكان أبو الحسن القابسى المتوفى بالقيروان سنة ١٠١٢/٤٠٣ قد حمل مذهب أبى الحسن الأشعرى الكلامى إلى القيروان وأشاعه فيها وشاع فى الجزائر بعده إلى نهاية هذا العصر ، ومذهبه يقوم على التوفيق بين آراء المعتزلة وأهل السنة ، فإذا قال أهل السنة بالقضاء والقدر فى أفعال الإنسان وقال المعتزلة بل الإنسان هو الذى يخلق أفعاله قال إنها لله خلقا وتقديرا وللإنسان كسبًا وإرادة ، وإذا قال أهل السنة القرآن أزلى غير مخلوق وقال المعتزلة إنه محدث مخلوق قال إنه قديم وحادث فألفاظه دلالات على كلام الله الأزلى والدلالات مخلوقة محدثة والمدلولات قديمة أزلية ، إلى غير ذلك من آراء مثل تفضيل الأنبياء على الملائكة .

وكان يعاصر الأشعرى الماتريدى السمرقندى المتكلم ، ومذهبه مثل مذهب الأشعرى فى التوفيق بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، ولم يشع مذهبه فى العالم العربى إنما الذى شاع مذهب الأشعرى حتى فى بيئة الماتريدى فى خراسان ، ومن أكبر مؤيديه هناك إمام الحرمين الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م الذى رأس المدرسة النظامية فى نيسابور ، ويتردد اسم كتابيه البرهان والإرشاد فى أصول الدين فى تراجم عنوان الدراية للغبرينى فى القرنين السادس والسابع وتراجم الكتب التالية . وحاول جزائريون كثيرون أن يكتبوا فى علم الكلام – أو كما يسمى أحيانًا علم التوحيد – وخاصة منذ القرن التاسع الهجرى ، وكانت تكتب فيه قصائد وتشرح ، ولعل أحدا لم تنل أعماله من الشهرة فيه ما ناله الحافظ محمد بن يوسف السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٩٠م كما مر بنا فى علوم الأوائل وهو من كبار المفسرين والمحدثين ، ويعد كبير علماء الجزائر فى زمنه ، وقدم له أحمد بن عبد الله الجزائرى قصيدته فى علم التوحيد المسماة باسم « القصيد فى علم التوحيد » فشرحها وشاعت باسم الجزائرية وأيضا شرح لتلميذه أحمد بن عبد الرحمن الحوضى فى نفس الموضوع أرجوزته : « واسطة السلوك ، ثم رأى أن يؤلف فى نفس الموضوع فألف فيه ثلاثة أعمال : العقيدة الكبرى وشرحها ، والعقيدة الوسطى وشرحها ، ثم العقيدة الصغرى وشرحها .

وهذه الأعمال سيطرت فى مباحث علم الكلام على الدارسين منذ وَضْعِها وطوال العهد العثمانى لا فى الجزائر وحدها بل فى بلدان المغرب والعالم الإسلامى ، وقد وضعت على العقيدة الصغرى شروح لا تكاد تحصى ، يتقدمها شرح تلميذه محمد بن عمر الملالى وشرح عمر الوزان فى قسنطينة وتلميذه عبد الرحمن الأخضرى صاحب متن السلم فى المنطق وشرح ابن مريم صاحب كتاب البستان المتوفى سنة ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م وشرح سعيد قدورة المتوفى سنة ١٠٦٦هـ / ١٦٥٦م وشرح مصطفى الرماصى فى أوائل القرن الثانى عشر الهجرى وشرح خليفة القمارى بأخرة من هذا القرن إلى غير ذلك من شروح للعقيدة الصغرى ، سوى ما وراءها من شروح للعقيدتين الأخريين ومن كتب أخرى فى علم الكلام أو علم التوحيد .

وللإباضيين نشاط واضح فى هذا العلم من قديم ، على نحو ما نجد عند عبد الكافى الورجلانى فى القرن الخامس الهجرى ، إذ له « الموجز فى علم الكلام » كتاب فى جزءين ، ولتلميذه يوسف بن إبراهيم الورجلانى « الدليل والبرهان » فى علم الكلام ، ولعمرو بن جميع فيه مختصر باسم « متن عقيدة التوحيد » عُنى به علماء الإباضية وشرحوه مرارًا ، ولعبد العزيز الشمينى كتاب « معالم الدين » فى علم الكلام وأصول الدين .

٥

التاريخ[١]

نلتقى فى التاريخ بكتب مختلفة ومن أوائلها كتاب « أخبار الأئمة الرستميين » لابن الصغير ومعروف أنها دولة إباضية أقامها عبد الرحمن بن رستم وأبناؤه من سنة ١٦٠ للهجرة إلى سنة ٢٩٦ للهجرة ، وقد ألممنا بها فى حديثنا عن تاريخ الجزائر ، وكتاب ابن الصغير ينتهى حول سنة ٢٩٠ فى حكم أبى حاتم يوسف (٢٨١ – ٢٩٤هـ) . ولم يكن ابن الصغير إباضيا غير أنه يعرض أخبار الدولة وأئمتها عرضا حياديا ويصور ما كان يأخذ به أئمتها الرعية من العدل وما كانوا يحاولونه من ازدهار الأحوال الاقتصادية والفكرية ، كما يصور ما حدث من مناظرات بين المذهب الإباضى ومذهب المعتزلة مما عرضنا له فى غير هذا الموضع . وكان المظنون أن يعنى بعض الجزائريين بتاريخ دولة بنى حماد فى القلعة وبجاية ، فيكتب تاريخها مفصلا ، غير أنه تكفل بذلك البيان المغرب لابن عذارى وتاريخ ابن خلدون وأعمال الأعلام لابن الخطيب .

أما تاريخ دولة بنى عبد الواد أو بنى زيان فى تلمسان فقد عُنى بتاريخها وعرض حكّامها وأعمالهم مؤرخان : يحيى بن خلدون ومحمد بن عبد الله التنسى ويتوسط بينهما ابن قنفذ ولكن لا يكتب عن الدولة الزيانية وإنما يكتب عن الدولة الحفصية بتونس . أما يحيى بن خلدون المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٩م فيؤلف كتابا عن دولة بنى زيان باسم « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » حقّقه وقدم له وعلق عليه الدكتور عبد الحميد حاجيات ، والكتاب فى القسم الأول يتحدث عن أصل قبيلة بنى عبد الواد وماضيها والبلاد التى حكموها وعاصمتهم تلمسان ويستطرد إلى ذكر علمائها وصلحائها ويترجم لمائة وتسعة منهم ثم يتحدث عن الدول التى ملكت تلمسان قبل بنى عبد الواد واستقرارهم بنواحيها . وفى القسم الثانى يترجم لمؤسس الدولة يغمراسن وخلفائه حتى استيلاء أبى الحسن المرينى على تلمسان وعودة الحكم إلى بنى عبد الواد . ويخص القسم الثالث بالحديث عن عهد أبى حموالثانى حتى سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م .

وكتب ابن قنفذ القسنطينى المتوفى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٧م كتابا مجملا عن الدولة الحفصية فى تونس بعنوان : الفارسية فى مبادى الدولة الحفصية . ثم يكتب محمد بن عبد الله التنسى المتوفى سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٩م كتابا تاريخيا أدبيا بعنوان « نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان » وجعله فى خمسة أقسام كبيرة وزعها على أبواب ، والقسم الأول فى سبعة أبواب قدَّم فى ستة أبواب منها لتاريخهم بحديث طويل عن أسلافهم ونسبتهم إلى قريش وآل البيت وتاريخ الأدارسة فى المغرب . وهى أبواب تسبق الباب السابع الخاص بتاريخ بنى زيان ملوك

(١) انظر فى التاريخ الكتب المذكورة خلال هذا الحديث .

تلمسان ، وينتهى القسم الأول فى الكتاب ، ويتبعه بأربعة أقسام فى السياسة وفى طرف من الأخبار والنوادر من النثر والشعر . ونشر الباب السابع من القسم الأول الخاص بتاريخ ملوك بنى زيان حتى عصر المتوكل (٨٦٦-٨٧٣هـ) الدكتور محمود بوعياد محققًا له ومعلقا عليه ومقدما له .

ونمضى إلى العهد العثمانى فيكتب إبراهيم المرينى البجائى كتاب عنوان الأخيار فيما مر على بجاية من الأخبار فى القرن العاشر الهجرى مؤرخًا ما مرَّ بها من الأحداث فى استيلاء العثمانيين عليها بعد استيلاء الإسبان ، ويكتب معاصر له يسمى بركات الشريف كتابا يصور فيه هزيمة شارل الخامس أمام مدينة الجزائر واستيلاء خير الدين (بربا روس) عليها ويتحدث عنه وعمن خلفه من ولاة العثمانيين فى القرن العاشر الهجرى . والكتابان المذكوران لم ينشرا حتى الآن . ويستولى محمد بكداش على مدينة وهران من يد الإسبان سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٨ م فيكتب محمد ميمون عنه وعن هذا الفتح كتابا باسم : التحفة المرضية فى الدولة البكداشية ، ويستعيدها الإسبان سنة ١١٤٥هـ / ١٧٣٣ م ويستردها الباى محمد الكبير سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩١ وتُنظم فى فتحه لها قصائد كثيرة .

وتكتب فى السيرة النبوية مؤلفات كثيرة فى العصور المتأخرة وربما كان أهمها عنوان الأنوار فى آيات النبى المختار لعبد الرحمن الثعالبى المتوفى سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م وتنظم فى الرسول مدائح كثيرة تتناول سيرته وتشرح شروحا مطولة ، ولأحمد البونى فى العصر العثمانى سيرة نبوية بديعة باسم تنوير السريرة بذكر أعظم سيرة .

ومنذ القرن السابع الهجرى تتكاثر كتب التراجم عن العلماء فى البلدان الكبرى بالجزائر ، ومما نشر منها كتاب « عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية » لأحمد الغبرينى المتوفى سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٥م وبينهم كثيرون من علماء المائة السادسة .

ويكتب محمد بن مرزوق جد المرازقة المتوفى سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٩م كتابا عن السلطان أبى الحسن المرينى باسم « المسند الصحيح الحسن فى مآثر ومحاسن مولانا أبى الحسن » انتهى منه سنة ٧٧٢هـ/١٣٧١م لخص فيه تاريخ الدولة المرينية ثم أرَّخ لأبى الحسن تاريخا مفصلا . ولا نبالغ إذا قلنا إن أروع ما خلفه الجزائريون فى التراث العربى التاريخى والحضارى كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية لأبى الحسن على الخزاعى التلمسانى المتوفى سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٨م والكتاب نفيس إلى أبعد حد ، إذ يصور تاريخ الحضارة الإسلامية فى أقدم عهودها وما يتصل بها فى عهد الرسول وصدر الإسلام من الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والكتاب بحق مفخرة من مفاخر علماء الجزائر فى العصور الماضية .

ويؤلف ابن القنفذ المار ذكره كتاب الوفيات لأعلام الصحابة والعلماء والمحدثين والمؤلفين استهلّه بانتقال سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ثم رتبه على العقود أو على العشرات فى كل مائة يذكر أشهر من توفوا فيها حتى العشرة الأولى أو العقد الأول من المائة التاسعة أو بعبارة أدق إلى قبيل وفاته سنة ٨٠٩ وقيل بل سنة ٨١١ للهجرة وكان له كتاب فى طبقات علماء قسنطينة وهو مفقود ، وحقق له الأستاذ محمد الفاسى وأدولف فور كتابه أنس الفقير وعز الحقير فى رجال من أهل التصوف كأبى مدين شعيب وأصحابه . ومن حينئذ يتكاثر تأليف الجزائريين فى المتصوفة كثرة مفرطة ، من ذلك ترجمة ابن مرزوق الحفيد المتوفى سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٢م للشيخ إبراهيم بن موسى الصنهاجى . وكان الشيخ محمد السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م محدثا وفقيها كبيرا وكان فيه نزوع قوى إلى التصوف وترجم له غير واحد من تلاميذه وممن ترجم له منهم أحمد العبادى ومحمد بن عمر الملاتى وسمى ترجمته : « المواهب القدسية فى المناقب السنوسية » ولابن صعد المتوفى سنة ٩٠١هـ/١٤٩٥م كتاب النجم الثاقب فى الصلحاء والمتصوفة بعامة ، وله كتاب روضة النسرين فى مناقب الأربعة المتأخرين : محمد الهوارى وإبراهيم التازى والحسن أبركان وأحمد الغمارى .

ويكبُّ العلماء فى العهد العثمانى على الترجمة لمشايخ الطرق . ومن أهم كتب التراجم التى تجمع فى هذا العهد بين العلماء والمتصوفة كتاب البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم وهو كتاب نفيس انتهى من تأليفه ابن مريم سنة ١٠١١هـ/١٦٠٢م . وهناك كتابان لا يقلان نفاسة عن كتاب البستان بل يتفوقان عليه تفوقا واضحا ، هما أزهار الرياض فى أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتباض » وكتاب نفح الطيب فى أخبار الأندلس وابن الخطيب لأحمد بن محمد المقرى المتوفى سنة ١٠٤١هـ/١٦٣٢م وهو يترجم فى القسم الثانى من أزهار الرياض لحافظ سبتة وفقيهها : عياض كما يترجم فى القسم الثانى من نفح الطيب لابن الخطيب أما فى القسم الأول فى الكتابين فيفيض فى أخبار الأندلس وتراجمها بحيث يصبح الكتابان موسوعتين تاريخيتين حضاريتين للأندلس على مر التاريخ ، وقد نقل فيهما عن كتب فقدت أو فقد الكثير منها مع مر الزمن وقد أشرت فى سنة ١٩٥٣ حين نشرت ما بقى من أوراق كتاب المغرب فى حُلى المغرب من أخبار الأندلس لابن سعيد فى مجلدين أنه كاد ينقلهما إلى نفح الطيب ، ومع ذلك تظل له أهمية كبيرة فى التعريف بالأندلس وتاريخها الحضارى . ونلتقى بعده فى العهد العثمانى بكثيرين يترجمون لكبار المتصوفة وخاصة أصحاب الزوايا فى كتب وأراجيز على نحو ما يلقانا لأحمد بن قاسم البونى بأوائل القرن الثانى عشر الهجرى فى أرجوزته : الدرة المصونة فى علماء وصلحاء بونة (عنابة) وهى أرجوزة طويلة . وللبونى كتاب فى تراجم مشاهير النحاة سماه « فتح المستبين فى تراجم بعض مشاهير النحاة واللغويين » .

الفصل الرابع

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب[١] الجزائر

ذكرنا – فيما أسلفنا – أنه كان بالجزائر قبل الفتوح العربية الإسلامية عناصر جنسية مختلفة ، جمهورها من البربر ومن نزلوا بديارهم من الفينيقيين والقرطاجيين واليهود والرومان والوندال الألمان والإغريق البيزنطيين ، ثم نزلها العرب ومن انتظم فى جيوشهم من أهل البلاد الإسلامية : من إيران والعراق والشام ومصر ، وظلت جيوش متعاقبة تنزلها فى العهدين الأموى والعباسى ، كما ظلت جموع متفاوتة من هذه الجيوش تستقر فى البلاد المغربية من برقة إلى المحيط الأطلسى مختلطة بالسكان وناشرة للإسلام ولغته العربية . وعاملان أساسيان ساعدا بسرعة على نشر الإسلام ولغته هناك ، هما تعاليم الإسلام السمحة التى حررت البربر من ظلم الدول السابقة التى احتلت ديارهم قرونا متطاولة وأرهقتهم بضرائب باهظة مع العسف والبغى الشديد ، وليس ذلك فحسب ، فقد رأوه دينا قويما يسوِّى بين أتباعه فى جميع الحقوق ، والعامل الثانى سياسة ولاته وخاصة فى القرن الأول الهجرى وما كفلوا للبربر من العدل والمساواة بينهم وبين العرب فى جميع الحقوق : فى الجهاد وفى غنائم الحرب وفى الولاية على القبائل والمدن . وعُنى موسى بن نصير الوالى هناك (٨٦–٩٦هـ) بأن يعهد فى الأنحاء التى لم يتم إسلامها حتى عهده إلى فقهاء ومعلمين يعلمون أهلها فرائض الإسلام ويحفظونهم القرآن الكريم ، ودخلت جماعات بربرية كثيرة لعهده فى الدين الحنيف ، وانضم كثيرون من البربر إلى جيوشه فى فتوح المغرب ، وفُتح الأندلس بقيادة قائد منهم هو طارق بن زياد على نحو ما هو معروف . وعُنى عمر بن عبد العزيز بإرسال بعثة – كما مر بنا – لنشر الإسلام هناك بأخرة من القرن الأول الهجرى . وينحرف حكام بنى أمية – منذ أوائل القرن الثانى – عن جادة الإسلام الرشيدة فى حكم الشعوب التى اعتنقته ، ويثور البربر فى الجزائر وغير الجزائر ، وتَقْدُم إليهم جيوش مختلفة وتظل منها بقايا كثيرة فى ديارهم . ويحدث ذلك نفسه فى أوائل عهد العباسيين ، حتى إذا ولى يزيد بن حاتم المهلبى (١٥٤–١٧٠هـ) هدأت المغرب فى الجزائر وغير الجزائر وعمَّ الأمن والرخاء فى البلاد ، ويؤسس إبراهيم بن الأغلب الدولة الأغلبية منذ سنة ١٨٤

(١) راجع النصوص عن ابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه .

ويقول ابن خلدون : « في أيامه انخضدت شوكة البربر واستكانوا للغلب وأطاعوا الدين ، فضرب الإسلام بجرانه » أى ثبت واستقر نهائيا فى الديار المغربية .

ونمضى إلى القرن الخامس الهجرى ، ويحدث حدث كبير أتمَّ تعرب البربر فى الجزائر وغير الجزائر ، فإن المعز بن باديس الصنهاجى حاكم برقة وإفريقية التونسية وشرقى الجزائر للدولة العبيدية الفاطمية فى القاهرة نقض طاعته لتلك الدولة ، وحوَّل الدعوة فى ولايته إلى الخلافة العباسية وأرسل إلى الخليفة العباسى القائم أبى جعفر بن القادر ببيعته له ودعا له على منابر القيروان وغير القيروان سنة ٤٣٨ وأرسل إليه القائم بالتقليد وبالخِلَع ، وعرف ذلك الخليفة العبيدى الفاطمى المستنصر وصمم على الانتقام منه . وكان القرامطة قد اشتبكوا فى حرب سنة ٣٥٩ مع الخليفة الفاطمى العزيز نزار فى فلسطين ومدخل مصر ، وكانت توازرهم قبيلتا سليم وهلال اللتان كانتا تزعجان قوافل الحجاج حول المدينة ، فلما انتصر عليهم العزيز أنزل هاتين القبيلتين فى الصحراء الشرقية بالصعيد بين النيل والبحر الأحمر ، وكانتا تحدثان غير قليل من الإضرار بسكانه ، فأشار على الخليفة الفاطمى العزيز وزيره اليازورى أن يصطنع مشايخ هاتين القبيلتين وأن يغريهم بالهجرة إلى المغرب مع من يوالونهم من البدو وقال له إن ظفروا بالمعز بن باديس الصنهاجى صاروا أولياء للدولة وعمالا لها بتلك الأنحاء النائية ، وإلا دبرنا له ما يقضى عليه ، وأعجبت المستنصر الفاطمى تلك الفكرة ، فاستقدم شيوخ القبيلتين وعرضها عليهم سنة ٤٤١ للهجرة فقبلوها ، وفرض لكل بدوى مهاجر بعيرا ودينارا . وعبرت سيولهم النيل سنة ٤٤٢ واندفعت إلى برقة وما وراءها من البلاد المغربية كالجراد المنتشر لا يمرون بشىء إلا أتوا عليه كما يقول ابن خلدون ، واستولت سليم على برقة جميعها وبعض البلدان الشرقية لإفريقية التونسية ، واتجه بنو هلال إلى إفريقية ووصلوا القيروان سنة ٤٤٣ للهجرة ونازلوا المعز بن باديس ، وتمت لهم الغلبة واحتلوا القيروان وغيرها من البلدان التونسية وخرَّبوا المبانى وطمسوا معالم الحسن والرونق فيها ، وأهلكوا كثيرا من الزروع فى الريف ، حتى أصبحت يباب ومفاوز كما يقول ابن خلدون . ولما تمَّ استيلاؤهم على البلاد التونسية اكتسحت سيولهم الجزائر واقتسمتها القبائل الهلالية وبعض عشائر من سليم ، وظلت تتقاتل مع القبائل البربرية هناك فى السهول وخاصة زناتة وصنهاجة وعشائرهما حتى عجزوا عن مدافعتهم ، ونازلوا الناصر بن علناس الحمادى صاحب القلعة وخربوا جنباتها وجنبات طبنة والمسيلة (المحمدية) وغيرهما . ويقول ابن خلدون إنهم أزعجوا ساكنى هذه البلدان وكل ما يتصل بها من المنازل والقرى والضياع حتى أصبحت قاعا صفصفا ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى هجر الناصر بن علناس سكنى القلعة واختط بالساحل مدينة بجاية ونقل إليها ذخيرته وأعدَّها لسكنه ، ونزلها بعده ابنه المنصور فرارا من ضيم هؤلاء الأعراب ، واتخذ كثيرون من البربر الجبال والمرتفعات الوعرة حصونا منيعة لهم . أما هم فاقتسموا السهول الخصبة التى احتلوها واستقروا فيها شمالى

البلاد وأواسطها ، وبمرور الزمن اختلطوا بالبربر وصاهروهم . وتنبه عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين لهم فنازلهم فى الأربعينيات من القرن السادس حتى إذا تغلب عليهم أخذ يصانعهم هو وابنه يوسف وحفيده المنصور وجندوا منهم كثيرين أشركوهم فى حرب نصارى الأندلس وأبلوا فيها بلاء عظيما ، وأنزلوا عشائر كثيرة منهم فى الشمال الغربى لمراكش ، واستوطن كثيرون منهم إقليم وهران وكان لهم فيما بعد أثر عظيم فى مجاهدة الإسبان مع بنى زيان .

وهذه الهجرة الأعرابية الضخمة التى يقول المؤرخون إن عددها كان يزيد عن نصف مليون أعرابى والتى انتشرت فى الجزائر وغيرها من الأقاليم المغربية كان لها فضل عظيم فى إتمام تعرب المغرب واصطباغه بصبغة عربية كاملة ، ويصور ذلك ابن خلدون فى حديثه عن بعض القبائل البربرية مثل بنى يَفرن إذ يقول إنهم « نسوا رطانة الأعاجم وتكلموا بلغات العرب وتحلوا بشعائرهم فى جميع أحوالهم » ويقول عن قبيلة هوارة إنهم صاروا فى عداد الناجعة (طلاب المراعى) من عرب بنى سليم فى اللغة والزِّىّ وسُكنى الخيام وركوب الخيل والإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين فى الشتاء والصيف فى تلالهم قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها فصاحة العرب فلا يكاد يفرَّق بينهم » . وهو قول يعم جميع البربر فى سهول الجزائر ومدنها إلا من اعتصم بالجبال والأنجاد الوعرة ، أما عامة البربر فقد أصبحوا عربا فى اللغة والدين والزى والعادات وأساليب الحياة والخصال الكريمة من المروءة والفروسية ، أو بعبارة أخرى أصبح المغرب جميعه فى الجزائر وغير الجزائر شعبا عربيا عظيما وتغلغل الشعور بعروبته فى أعماقه ، مما جعل قبائل البربر فى جميع الأنحاء المغربية شرقا وغربا تصطنع لها أنسابا إلى القبائل اليمنية والمضرية وتتكلم العربية إلا فى أنحاء من الجبال لتوعر مسالكها وفى بعض جهات نائية اعتنقوا الإسلام وظلوا يتكلمون لغتهم البربرية مع غيرتهم وحميتهم للدين الحنيف .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الجزائر – منذ هذه الهجرة الأعرابية الكبرى – أخذت تصطنع العربية لغة هؤلاء الأعراب فى لسانها ، وعمت بين جماهيرها فى الزاب وقسنطينة وبونة (عنابة) والمدن الساحلية التى سكنها هؤلاء الأعراب . والمظنون أنها ظلت فصيحة سليمة طوال قرنين على الأقل ، ثم أخذت تتحول حتى فى ألسنة الأعراب أنفسهم إلى لغة عامية تفتقد الإعراب وكانت كثرتهم فى الجزائر من القبائل الهلالية ، ونزلت منها الأثبج فى الشمال ومنها دريد ، وقد نزلوا بين بونة (عنابة) وقسنطينة ، وانتشرت بطونهم غربى قسنطينة ونواحى جبال أوراس ، ونزلت زغبة فى القفار من نواحى تلمسان ، ونزل بنو رياح الهلاليون فى قسنطينة بينما نزل بنو عامر فى وهران وأنحائها . ويسهب ابن خلدون فى الجزء السادس من تاريخه فى توزيع القبائل الهلالية فى الجزائر من بونة إلى تلمسان ، وفى أثناء ذلك يقول : ولهؤلاء الهلاليين فى الحكاية عن دخولهم إلى إفريقية طرق فى الخبر يزعمون أن الشريف ابن هاشم

كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن أبى الفتوح أصهر إلى أحد رجالات وشيوخ بنى هلال الحسن بن سرحان فى أخته الجازية ، وولدت منه ولدا سمته محمدا . ثم حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة ، فأجمعوا على الرحلة من نجد إلى إفريقية ، واحتالوا عليه فى استرجاع الجازية ، وطالبته بزيارة أبويها ، فأزارها إياهم ، ولم يلبثوا أن ارتحلوا به وبها وكتموا عنه مقصودهم من رحلتهم مموِّهين عليه بأنهم يباكرون به للصيد والقنص ثم يعودون إلى منازلهم ، ورآهم يبعدون فى ارتحالهم ، ولما تبين له أنهم مكروا به فارقهم إلى دار ملكه فى مكة وبين جوانحه من حب الجازية داء دفين ، وكلفت بحبه على الرغم من اقترانها ببعض أبناء عمومتها فى مسيرتها معهم إلى إفريقية ، إذ ظلت تذكره إلى أن ماتت . يقول ابن خلدون إنهم يتناقلون من أخبارها فى ذلك ما يعفّى على أخبار قيس (صاحب ليلى) ويروون كثيرا من أشعار الحكاية محكمة المبانى متقنة الأطراف ، وفيها المطبوع والمنتحل والمصنوع ، لم يفقد فيها من البلاغة شىء ، وإنما أخلُّوا فيها بالإعراب فقط .. والخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون فى روايتها ويستنكفون عنها لما فيها من خلل الإعراب .. وفى هذه الأشعار كثير دخلته الصنعة وفُقدت فيه صحة الرواية ، ولذلك لا يوثق به ، ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بأيامهم ووقائعهم وحروبهم مع زناتة (فى المغرب) وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم ، لكنا لا نثق بروايتها . وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها ويتهمه ، وهذا قصارى الأمر فيه ، وهم متفقون على الخبر عن حال هذه الجازية والشريف خلفا عن سلف وجيلا عن جيل » . والحكاية التى يتحدث عنها ابن خلدون هى حكاية الهلالية المعروفة فى الملحمة المشهورة باسم « سيرة بنى هلال » وتعرف أيضا باسم قصة أبى زيد الهلالى ، وكانت إلى عهد قريب ينشدها شخص يسميه المصريون باسم الشاعر على ربابة فى مقاهى مصر وبلدانها المختلفة . والتاريخ الحقيقى للرحلة الهلالية إلى إفريقية وسببها ذكرناه فيما أسلفنا ، غير أن ما وضع للحكاية أو الملحمة من قصة زواج الجازية الهلالية بشكر بن أبى الفتوح أمير مكة الحسنى (٤٣٠-٤٥٣هـ) يبدو أنه صحيح وقد أنجب منها ابنه محمدًا الذى خلفه فى الحكم ، ويبدو أيضا أنها زارت أبويها وعشيرتها حين كانوا ينوون الرحلة مع القرامطة لحرب الفاطميين ، وارتحلت معهم . والحكاية أو القصة تجعلها بطلتها ، وتَرْوِى على لسانها أشعارًا بديعة ، من ذلك قولها لولدها أو غلامها الصغير ناصحة مُرْشدة :

ولا خير فى الطفل الصغير إذا نَشَا ... وكانَهُ رَقَّادًا كثير هَمائدُهْ
وإما يمت يرتاح من عيشة الرَّدَى ... وإلا يَعُدْ كالصَّقر مالى مخالبه

وهى تقول لطفلها لا خير ولا نفع فيمن ينشأ نواما كسولا ، يرضى بالجلوس ولا يخرج فى طلب الرزق ، وحرى بالشخص أن يمضى شرقا وغربا طالبا معاشه مقطعا فى ذلك أوعية زاده غير مبق منه شيئا . وإما أن يموت فيرتاح من المعيشة التعسة الضنك ، وإما أن يعود كالصقر

الجارح بصيده وقد ملأ مخالبه . وينشد ابن خلدون لبعض بنى دريد الهلاليين من عشيرة الجازية مفاخرًا بساداتها مع حنينه إلى القيروان حين نزلوا بها فى أول قدومهم إلى الإقليم رامزا لها بصبرة التى بناها فى جنوبيها المنصور العبيدى :

دريدٌ سَراةُ البـــدو للجـود مَنْقَعٌ ... كما كلُّ أرضٍ منقعُ المـا خِيارُهـا
وهم غَرَّبوا الأعـراب حتى تعرَّفتْ ... بطُرْقِ المعـالى مـا يوفّى قصارها
وطرُّوا طريـــق البـــارمين ثنيَّهُ ... وقد كان ما تقوى المطايا حِجارها

والشاعر يقول دريد الراحلة أشراف البدو ومنقع الجود ينهل منه كل ظامىء ، وهم أصحاب الفضل فى قيادة الهلاليين إلى ديار المغرب حتى تعرفوا طرق المعالى المفرطة الطول الشاقة وقد طرّوا أى مهّدوا طريق البارمين إلى الجزائر وأنحاء بونة وما بها من ثنيات وممرات فى الجبال وكانت المطايا والإبل لا تستطيع السير فيه لكثرة ما به من الحجارة والصخور ، فأصبح ممهدا ذَلولا . والأبيات فصيحة وتجرى على سنن العربية فى الإعراب ، ولا ندرى هل أشعار القصص فى الهلالية بدأت معربة ثم فقدت الإعراب مع الزمن أو أنها وُضعت غير معربة ، ومن المؤكد أنها لم توضع عقب الرحلة والاستقرار فى المغرب مباشرة ، بل وضعت بعد ذلك حين أخذت تسود العامية فى الأفواه بالقرن السادس وما بعده ، وبها كثير من الأشعار البليغة بما تحوى من العبارات الرصينة والمشاعر الرقيقة والصور البديعة . ومن هذا الميراث عن الأعراب ما دخل على اللغة البربرية من ألفاظ عربية سليمة اقترضوها من الفصحى وتبلغ فى بعض الأنحاء نحو ثلث اللغة البربرية المتداولة .

ويعقد ابن خلدون فى مقدمته فصلا فى أشعار العرب المستعجمة أو المستحدثة بالعامية لعهده فى القرن الثامن الهجرى فيقول : « فأما العرب أهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد فى سائر الأعاريض على ما كان عليه سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات مشتملة على مذاهب الشعر وأغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ، ويستطردون فى الخروج من فن إلى فن فى الكلام ، وربما هجموا على المقصود لأول كلامهم ، وأكثر ابتدائهم فى قصائدهم باسم الشاعر ؛ ثم بعد ذلك ينسبون ، وأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد باسم الأصمعيات نسبة إلى الأصمعى راوية العرب لأشعارهم . ولهم فن آخر فى كلامهم كثير التداول فى نظمهم يجيئون به معصَّبا على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة قبله فى رويه ويلتزمون القافية الرابعة فى كل بيت (دور) إلى آخر القصيدة شبيها بالمربعات والمخمسات التى أحدثها المتأخرون من المولدين . ولهؤلاء العرب (البدو) فى هذا الشعر بلاغة فائقة ، وفيهم الفحول والمتأخرون

(المتخلّفون) . والكثيرون من المنتحلين للعلوم لهذا العهد – وخصوصا علم اللسان – يستنكرون هذه الفنون التى لهم إذا سمعوها ، ويمجّون نظمهم إذا أُنشِد ، ونعتقد أن ذوقهم إنما نبا عنها واستهجنها لفقدان الإعراب منها .. وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب فى أواخر الكلم ، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر (ساكنة) ويتميز عندهم الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الإعراب » . وينشد ابن خلدون طائفة من أشعار الملحمة الهلالية على لسان الشريف ابن هاشم يبكى الجازية أخت الحسن بن سرحان ، ويذكر ارتحالها مع قومها إلى المغرب وعتابا منه لزوجها ماضى بن مقرب ورثاء بعض شعرائهم للزناتى خليفة ، ويسوق أشعارا أخرى لشعرائهم . ومن الصعب التمثل بأبيات منها لأنها غير مضبوطة بالشكل ، ولأن كثيرا من الكلم فيها أصابه غير قليل من التحريف ، بحيث يصعب فهمها ونطقها نطقا سليما . وكلما تقدمنا فى الزمن بعد عصر ابن خلدون فى القرن التاسع الهجرى يتكاثر هذا الشعر العامى أو الشعبى . ويزداد طغيانه على الشعر الفصيح فى العهد العثمانى ، وكان ينظم فى المولد النبوى وفى الجهاد الحربى للأجانب وفى الأزمات الاقتصادية والأحوال المعيشية . ولسعيد المنداسى مدحة نبوية عامية سماها « العقيقة » عُنى بها غير شارح ، وممن شرحها ابن سحنون . واشتهر بتلمسان فى القرن الثانى عشر الهجرى ثلاثة شعراء شعبيون هم : محمد بن مسائب وابن التريكى والزناقى ، ولهم أشعار دينية مختلفة ، سوى ما لكل منهم – كما فى كتاب تاريخ الجزائر الثقافى – من رحلة حجازية منظومة .

ومن الحق أن الشعر العامى الشعبى فى الجزائر سواء نظم على لسان البدو من الأعراب أو على لسان أهل الحضر والمدن لم ترجح يوما كفّته على كفّة الشعر الفصيح ، والجزائر فى ذلك مثل بقية البلاد المغربية والعربية عامة إنما كانت تُعْنَى الطبقات المثقفة فيها عناية أكبر وأوسع بالشعر الفصيح . ومن الحق أيضا أن الهجرة الأعرابية الكبرى إلى الجزائر استطاعت – منذ القرن الخامس الهجرى – أن تفرض لغتها العربية على سكان البوادى وسفوح الجبال والسهول والحواضر بفضل امتزاج هؤلاء الأعراب بالبربر فى المعاش وعن طريق المصاهرة ودَفْعهم إلى التخاطب بالعربية مما جعل اللغة البربرية تتقهقر وتتراجع أمامها إلى الجبال والمعاقل النائية المنيعة ، ومع ذلك لحقتها العربية هناك واستولت على ألسنة كثيرين من أهلها ، بل لقد استولت على اللغة البربرية هناك فأشاعت فيها كثيرا من ألفاظها ، مما جعل سكان الجزائر – منذ أواسط القرن الخامس الهجرى أو بعد ذلك بقليل – يعدون شعبا عربيا تاما فى دينه الحنيف ولغته وثقافته وآدابه وأشعاره ، مع ما اقتبسوه من معيشة هؤلاء الأعراب ومن تقاليدهم وعاداتهم فى حياتهم الاجتماعية ، وكل ذلك استقر وثبت ثبوت الراسيات .

٢

كثرة الشعراء

طبيعى أن لا نلتقى بشعراء كثيرين فى الجزائر طوال القرن الأول الهجرى وشطر غير قليل من القرن الثانى إلا ما كان يجرى على ألسنة بعض نزلائها من العرب ، حتى إذا تأسست الدولة الرستمية فى تاهرت (١٦٠-٢٩٦هـ) وأخذت تعنى بتعليم العربية ونشرها بين الجزائريين ، حينئذ أخذ جيل ناشىء يتقنها ويتقن نظم الشعر ، وكان من حكام هذه الدولة من أحسن نظمه ، مثل الإمام أفلح بن عبد الوهاب الرستمى (٢١١-٢٤٠هـ) وله قصيدة طويلة فى الدعوة إلى العلم والتعلم وبيان منزلة العلماء . وكانت الأسرة الرستمية جميعا تهتم بالحركتين العلمية والأدبية ، وأخذ الشعر يتدفق على بعض الألسنة ، وأنتجت الجزائر فى عهدها أكبر شاعر عرفته فى القرن الثالث الهجرى ، ونقصد بكر بن حماد المتوفى سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م وكان له ديوان شعر كبير ، وعاصره شاعر يسمى ابن حزاز التاهرتى .

وكان القسم الشرقى من الجزائر - حينئذ - تابعا للدولة الأغلبية فى القيروان ، ثم تبع الدولة العبيدية مع الجزائر جميعها ، ثم أصبح تابعا للدولة الصنهاجية وحكامها فى القيروان ، ولذلك كان شعراؤه يرحلون إلى العاصمة المذكورة حين تتفتح ملكاتهم الشعرية ، إذ كانت مركز الحركة الأدبية فى الدولة ، وقد يظلون بها ويتخذونها موطنا لهم ، كما حدث لابن رشيق ، وهو ما جعلنا نسلكه بين شعراء القيروان لأن مرباه الأدبى تكامل فيها . ومنهم من نظن أن مرباه الأدبى تكامل فى الجزائر ثم هاجر منها إلى القيروان أو غيرها ، مثل محمد بن الحسين الطبنى الذى هاجر بأسرته الطبنية إلى قرطبة فى الأندلس واستقر بها . وممن نزل القيروان بعد نضجه الأدبى فى موطنه بالجزائر عبد الكريم النهشلى المتوفى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م وهو من المسيلة (المحمدية) ومنهم ابن قاضى ميلة المعاصر للنهشلى ، والحسن بن محمد التميمى المعروف باسم ابن الربيب المتوفى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م وهو من تاهرت ومثله على بن أبى الرجال الفلكى المشهور المتوفى سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م فهو أيضا تاهرتى .

وكان حماد بن بلكين قد عقد له أخوه المنصور على مدينتى أشير والمسيلة (المحمدية) وضم إليهما أيام ابن أخيه باديس المغرب الأوسط وأخذ يفكر فى الاستقلال عن باديس والقيروان واختط مدينة القلعة سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م وتمَّ له استقلاله سنة ٤٠٨هـ/١٠١٧م كما مرَّ بنا فى الفصل الأول ، واستكثر حماد فى القلعة من المساجد والفنادق ، واتسعت فى التمدن ، وكان مثقفا قرأ الفقه بالقيروان ونظر فى كتب الجدل ، وعُنى فى قلعته بالحركة العلمية ، ورحل إليها من الثغور القاصية - كما يقول ابن خلدون - طلاب العلوم . وتبعه أبناؤه وأحفاده فى الدولة الحمادية بالقلعة ثم ببجاية منذ نقل إليها المنصور بن علناس (عَلاء الناس) عاصمة الدولة

سنة ٤٨٣ ومع ذلك ظل للقلعة نشاطها العلمى والأدبى حتى الحقب المتأخرة من هذا العصر ، كما ظل نفس النشاط لبجاية بعد قضاء دولة الموحدين على الدولة الحمادية سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م . ومن المؤكد أن القلعة وبجاية أنتجتا كثيرا من الشعراء والعلماء فى عهد الدولة الحمادية ، وذاعت للحركتين العلمية والأدبية شهرة غير قليلة مما جعل غير عالم وشاعر يرحل إليها مثل ابن حمديس الصقلى الذى أقام فى بجاية فترة لعهد المنصور الحمادى (٤٨١-٤٩٨هـ) وله فيه وفى وصف قصوره مدائح بديعة . وإلى المنصور التجأ عز الدولة بن صمادح بعد قضاء يوسف بن تاشفين المرابطى على دولة أسرته فى مدينة المرية ، فأكرمه وقلده ولاية دلس على البحر المتوسط غربى بجاية وظل بها إلى وفاته ، وكان شاعرا وله شعر يشكو فيه من الدهر وأحداثه . ومن كبار الشعراء الذين نزلوا بقلعة بنى حماد واستوطنوها أبو الفضل يوسف بن محمد التوزرى التونسى ، وبها تصدَّر للتدريس حتى وفاته سنة ٥١٣هـ/١١١٩م وهو صاحب قصيدة الاستغاثة المشهورة باسم المنفرجة الشائرة فى الآفاق . ومعروف أن العماد الأصبهانى ترجم فى كتابه « الخريدة » لشعراء العالم الإسلامى فى عصره بالقرن السادس الهجرى ، وممن ترجم له من شعراء الدولة الحمادية فى عهدها الأخير يوسف بن المبارك وله مدحة جيدة فى أمراء تلك الدولة ، وابن أبى المليح الطبيب شاعر الأمير الحمادى : العزيز (٤٩٨-٥١٥هـ) وطبيبه الخاص ، وعلى بن الزيتونى وأنشد له مقطوعة فى مديح قاض ، والفقيه عمر بن فلفول كاتب الأمير الحمادى يحيى بن عبد العزيز (٥١٨ - ٥٤٧هـ) وأنشد له مقطوعة غزلية .

وفى السنة المذكورة سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م قوَّضت دولة الموحدين بقيادة أميرها عبد المؤمن دولة بنى حماد نهائيا فى بجاية والقلعة وإقليمهما ، وظلت الحركتان الأدبية والعلمية مزدهرة بهما على الرغم مما أحدث على بن غانيَّة من اضطراب فى الجزائر ، إذ فاجأ أسطوله الذى جلبه معه من ميورقة سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م بقيادته مدينة بجاية واستولى عليها . وطوال النصف الثانى من القرن السادس أخذ بعض متصوفة الأندلس ينزلون مدن الجزائر ، وأخذت تشيع فيها منذ هذا التاريخ حركات صوفية واسعة ، ونمتها عند الجزائريين الطرق الصوفية السنية التى شاعت بديارهم : شاذلية وغير شاذلية ، ومن كبار نزلائها من صوفية الأندلس أبو مدين شعيب نزيل بجاية ، وسمع به المنصور أمير الموحدين أو خليفتهم ، فطلبه ، وفى طريقه إليه توفى بتلمسان سنة ٥٩٤ ومنهم أبو عبد الله الشوذى الصوفى نزيل تلمسان ، ومنهم أيضا محيى الدين بن عربى وقد قام بسياحات متعددة فى بلدان المغرب والجزائر ، ونزل بجاية ولزم أبا مدين شعيب الصوفى فترة معجبا به وبطريقته الصوفية ، ثم ولَّى وجهه نحو المشرق : مصر والحجاز والشام . ومن شعراء الجزائر فى عهد الموحدين الحسن بن الفكون القسنطينى الشاعر المبدع المتوفى بأوائل القرن السابع الهجرى ، ومعاصره محمد بن على بن جبل الوهرانى قاضى تلمسان ثم قاضى الجماعة بمراكش توفى سنة ٦٠١ وله مدائح فى الخليفة المنصور الموحدى ، ومنهم أبو عبد الله بن الحجام

التلمسانى المتصوف المتوفى سنة ٦١٤ ومحمد بن على بن حماد القلعى المشهور بمرائيه للدولة الحمادية المتوفى سنة ٦٢٨ .

وتتقاسم الجزائرَ – منذ العقد الثالث فى القرن السابع الهجرى – الدولة الحفصية فى الشرق : قسنطينة وبجاية وما إليهما ، ودولة بنى زيان أو بنى عبد الواد فى الغرب : تلمسان وما إليها . وينزلها من صوفية الأندلس ابن سبعين نزيل بجاية ، كما ينزلها أبو الحسن الششترى ، ويقال إنه تتلمذ لأصحاب أبى مدين شعيب ومريديه واعتنق طريقته الصوفية ، ولقى ببجاية ابن سبعين وأعجب به ولزمه فترة ، ورحلا إلى المشرق . وكان لهما ولمن سبقهما من صوفية الأندلس إلى النزول بالجزائر وكذلك لشيوع الطرق الصوفية وانتشارها بها أثر عميق فى موجات التصوف التى عمت فى البلاد المغربية جزائر وغير جزائر ، ونلتقى – منذ هذا القرن – بشعر صوفى كثير على ألسنة الجزائريين . وظلت الدولتان : الحفصية والزيانية تتقابلان فى الجزائر طوال ثلاثة قرون ، ومن الشعراء لعهدهما فى القرن السابع الهجرى عبد الله بن نعيم الشاعر الصوفى المتوفى سنة ٦٣٦ ومحمد بن أحمد الأريسى وله غزليات وخمريات ، وعبد الله بن محمد بن علوان وهو من شعراء المديح النبوى ومحمد بن يحيى بن عبد السلام وهو من شعراء المديح ، ومحمد بن الحسن القلعى المتوفى سنة ٦٧٣ وهو من شعراء الزهد والمديح النبوى وعبد الحق بن ربيع الصوفى المتوفى سنة ٦٧٥ . وكل هؤلاء الشعراء بجائيون ، ومثلهم عبد المنعم بن محمد الغسانى نزيل بجاية وهو من أهل مدينة الجزائر وله مشاركة فى المديح النبوى توفى سنة ٦٨٠ وإبراهيم بن أحمد بن الخطيب الشاعر الصوفى وعبد الرحمن بن أبى دلال وهو من شعراء المديح . ومن شعراء تلمسان عفيف الدين التلمسانى الصوفى المتوفى بدمشق سنة ٦٩١ وأبو العيش الخزرجى محمد بن عبد الرحيم وله فى التصوف شعر كثير .

ويفتتح القرن الثامن بمحمد بن محمد العطار ودواوينه النبوية المتوفى سنة ٧٠٧ وهو من مدينة الجزائر ، وكان يعاصره فى تلمسان ابن خميس المتوفى سنة ٧٠٨ وله شعر تصوف وزهد ومديح كثير ، وعاصره فى مليانة أحمد بن على المليانى المتوفى سنة ٧١٤ وله فخر بديع ، ومن شعراء هذا القرن محمد بن عمر المليكشى من مدينة الجزائر المتوفى سنة ٧٤٠ وله غزليات متنوعة ، وابن مرزوق الخطيب المتوفى سنة ٧٧٠ وله مدائح نبوية وغير نبوية وابن أبى حجلة التلمسانى نزيل القاهرة المتوفى سنة ٧٨٠ ومعاصره يحيى بن خلدون شاعر أبى حمو موسى الثانى ومؤرخ الدولة الزيانية المتوفى فى نفس السنة . ويزدهر شعر المولديات الذى ينشد فى مولد الرسول ﷺ ومن كبار ناظميه شاعرا الدولة محمد بن يوسف الثغرى ومحمد بن أبى جمعة التلالسى . ومن شعراء القرن أيضا الأمير الزيانى أبو حمو موسى الثانى (٧٦٠–٧٩١هـ) وله شعر فخر كثير وكان ابنه أبو زيان محمد شاعرا ، توفى سنة ٨٠١ . ونلتقى فى القرن التاسع

وبعده حتى العهد العثمانى بشعراء كثيرين ، ومن كبارهم ابن قنفذ القسنطينى المتوفى سنة ٨٠٩ وله أشعار دينية ، وابن مرزوق الحفيد التلمسانى المتوفى سنة ٨٤٢ وله منظومات تعليمية كثيرة ، والصوفى الكبير إبراهيم التازى المتوفى سنة ٨٦٦ وله أشعار صوفية بديعة ، والرياضى المشهور محمد بن أحمد الحباك المتوفى سنة ٨٦٧ وله منظومة فلكية فى الإسطرلاب ، وأبو عبد الله بن البنا وله غزل بديع . وأحمد بن عبد الله الجزائرى المتوفى سنة ٨٨٤ وله منظومة فى علم التوحيد ومرثية بديعة لأستاذه عبد الرحمن الثعالبى ، ومحمد بن يوسف السنوسى المتوفى سنة ٨٩٥ وله منظومتان فى علم التوحيد باسم السنوسية الكبرى والسنوسية الصغرى ، ومحمد بن عبد الجليل التنسى مؤرخ دولة بنى زيان المتوفى سنة ٨٩٩ وله مدحة طويلة فى الأمير الزيانى المتوكل وأبنائه ختم بها تاريخه ، وكان يعاصره الشهاب بن الخلوف القسنطينى المتوفى أيضا سنة ٨٩٩ شاعر السلطان الحفصى أبى عمرو عثمان ، وعاصرهما محمد بن عبد الرحمن الحوضى المتوفى سنة ٩٠٠ ويشتهر بمرثية له فى أستاذه السنوسى ، وله غزل ومديح نبوى وغير نبوى ، وكان يعاصره محمد بن عبد الكريم المغيلى المتوفى سنة ٩٠٩ وله – كما أسلفنا – قصيدة مشهورة أرسل بها إلى السيوطى فى الدفاع عن علم المنطق وضرورة تعلمه . ومن معاصريه إبراهيم بن أحمد الفجيجى صاحب قصيدة فى الصيد مشهورة ، وعنى ابن أخيه بشرحها سنة ٩٨٦ وسمى شرحه : « الفريد فى تقييد الشريد » وسنعرض للقصيدة وشرحها فى غير هذا الموضع . ونمضى إلى العهد العثمانى ونلتقى فى القرن العاشر الهجرى بمحمد بن على بهلول المجاجى المتوفى سنة ١٠٠٢ وله شعر صوفى كثير ومنظومات علمية ، ولتلميذه أحمد المانجلاتى مرثية بديعة فيه وتنسب خطأ إلى سعيد قدورة ، وللمانجلاتى مديح نبوى كثير وديوانان وموشحات . ونلتقى بعبد الرحمن بن موسى المتوفى سنة ١٠١١ وله قصائد متوسطة فى الحث على الجهاد وفى الاستغاثة بالله ورسوله . وكان يعاصره محمد بن عبد الرحمن البونى المتوفى سنة ١٠١٨ وله شعر كثير فى الخمر ، وتلاهم أحمد المقرى صاحب نفح الطيب المتوفى سنة ١٠٤١ وكان يعاصره يحيى بن أبى راشد وله أشعار فى الجهاد وفى وصف مدينة تلمسان ، ومحمد بن رأس العين المتوفى حوالى سنة ١٠٦٠ وهو من شعراء الموشحات والهزل والمجون . وجاء فى إثره عبد الكريم الفكون صاحب منشور الهداية فى نقد المتصوفة المتوفى سنة ١٠٧٣ وله ديوان فى المديح النبوى . وكان يعاصره محمد القوجيلى المتوفى سنة ١٠٨٠ وله مديح ورثاء وغزل . ويلقانا فى القرن الثانى عشر الهجرى محمد بن أحمد البونى المتوفى سنة ١١١٦ وله منظومات علمية كثيرة كثرة مفرطة ، ومحمد بن محمد بن على مفتى الجزائر الحنفى وله شعر كثير فى جهاد الإسبان وانتصار بكداش عليهم وفتحه لوهران سنة ١١١٩هـ/١٧٠٨م وقد قيلت فيه وفى هذا الفتح مدائح لشعراء جزائريين كثيرين سجلها ابن ميمون فى كتاب له سماه « التحفة المرضية » . ومن شعراء هذا القرن أيضا أحمد بن عمار المفتى المالكى المتوفى فى أوائل

القرن الثالث عشر الهجرى ، وله موشحات نبوية بديعة ، ومنهم أحمد بن سحنون شاعر الباى محمد الكبير صاحب الفتح الثانى لوهران بعد أن استردّها الإسبان سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م وتغنى بهذا الفتح النهائى لوهران كثير من الشعراء الجزائريين وسجل أشعارهم ابن سحنون فى كتابه « الثغر الجمانى » .

٣

شعراء المديح

يُعَدّ المديح أهم موضوع استغرق صفحات الشعر العربى على مر العصور ، وقد نشأ أول ما نشأ عند العرب حول التغنى ببطولات فرسانهم وشجعانهم فى الحروب ومكارم سادتهم وخصالهم الحميدة فى السلم والحرب ، وظل لكل عصر أبطاله وسادته وأمراؤه وحكامه ، وتفنن الشعراء فى وصف البطولات الحربية والخصال الكريمة وحكم الخلفاء والحكام العادل الرشيد على مدى العصور الإسلامية المتعاقبة . وطبيعى أن يكون للجزائر حظ فى هذا الوصف منذ تكونت فى تاهرت الدولة الرستمية الإباضية ، وكان من أمرائها مَنْ يجرى الشعر على ألسنتهم مثل أفلح بن عبد الوهاب (٢١١ – ٢٤٠هـ) وله قصيدة – كما مرَّ بنا – فى العلم والتعليم والترغيب فيهما ، وهى رمز لعناية تلك الدولة بالحركتين العلمية والأدبية فى تاهرت ، ويلقانا من مبكرى شعرائها أحمد بن فتح التاهرتى وابن حزاز ، وأهم شعرائها – حينئذ – بكر بن حماد ، وتصبح تاهرت – ومثلها الجزائر جميعها – تابعة للدولة العبيدية فى المهدية ، ويأمر المهدى العبيدى قائده على بن حمدون الزناتى بتأسيس مدينة المسيلة (المحمدية) واتخاذها عاصمة لإقليم الزاب فى الجزائر بدلا من طبنة سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م . وكان قد نشأ تنافس بين عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى فى الأندلس وبين المهدى العبيدى وخلفائه العبيديين فى البلدان المغربية . ونرى أسرة طبنية تهاجر من موطنها إلى قرطبة سنة ٣٣١ بزعامة مؤسسها بالأندلس محمد بن الحسين الطبنى ويرحِّب عبد الرحمن الناصر به وبمن قدم معه من أهله ، ويصبح من شعرائه وبطانته ، ويكثر من مديحه ، حتى ليقول ابن حيان إن مدائحه فيه تملأ ديوانا كاملا ، ويقرِّبه بعده ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ – ٣٦٥هـ) حين استولى على صولجان الخلافة بعد أبيه ، وكان كلما قدم على المستنصر عيد مدحه بقصيدة طويلة ، ونراه فى عيد الفطر لسنة ٣٦١ ينشده قصيدة جيمية مهيئا الناس لما كان يريده المستنصر من تولية ابنه هشام – وكان لا يزال طفلا – ولاية العهد قائلا له[1] :

(١) نظر المقتبس لابن حيان (تحقيق د . عبد الرحمن الحجى) ص ٨٣ .

حَصَّنْ بـــه ديـــنَ النبيِّ محمـــدٍ وأَقِمْ بـه أَوَدَ الزمـــانِ الأعـــوجِ
لحجتْ ببيعته النفـــوسُ فأخـذُهـا من واجـــب الأشياء لـو لم تَلْهَج
عـــودُ النبوَّة والخـــلافـة أصلهُ والفَرْع من تلك العروق الوُشَّجِ[1]
وارْمِ المشـــارق باســـمه فَلَيَفْتَحنْ مـا بين مصرَ إلى بـــلاد الرُّخَجِ[2]

وواضح أنه كان يضع نفسه فى خدمة الخلافة الأموية بالأندلس ومناصرتها والاحتطاب فى حبلها إلى أن توفى سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م . وكان قد هاجر معه إلى قرطبة أخوه على وأنجب ابنا له هو أبو مضر زيادة الله ، وعُنى بتربيته وأصبح - فيما بعد - نديما للمنصور بن أبى عامر حاجب هشام المؤيد ثم لولديه من بعده عبد الملك المظفر وأخيه عبد الرحمن الملقب بشنجول ، وحين قام بالحجابة بعد وفاة أخيه أرغم الخليفة هشاما المؤيد على أن يعهد إليه بولاية العهد ، ولما دخلت الوفود عليه للتهنئة كان مما هنَّاه به[3] :

تخيَّر الله والسلطـان للأمم ولىَّ عَهْدٍ بَراه الله من كرمِ
اختاره الله للإسلام يحفظه وخصَّه بعلوِّ القـدر والهمم

وكان صنيع شنجول المذكور سببا فى القضاء عليه وفى فتنة قضت على الدولة الأموية فى الأندلس، وكان حريا بالشاعر أن يتريث وأن لايكيل الثناء لشنجول، إذ مضى يمدحه بقصائد أخرى. وكان لزيادة الله ابن يسمى عبد الملك عنى بتأديبه ويقول ابن سعيد بترجمته له فى كتابه المغرب إنه كان إمامًا فى علم الحديث وكان شاعرًا وأشعر منه ابن أخيه على بن عبدالعزيز، وفيه يقول الحجارى إنه أشعر بنى الطبنى وأنشد له ابن سعيد أشعارا فى الخمر والغزل.

وإذا كانت طبنة عاصمة الزاب القديمة أهدت إلى قرطبة أسرة بنى الطبنى فى القرن الرابع الهجرى وكل ما نظمه أفرادها من الشعر فإن قرطبة بدورها لم تلبث بعد نزول تلك الأسرة فيها بقليل أن أهدت إلى المسيلة عاصمة الزاب الحديثة ووالياها من قبل العبيديين منذ سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م جعفر بن على بن حمدون وكان قد خلف فيها أباه الذى أسسها - كما مرَّ بنا - وكانا قد اتسعا فيها بالعمران وأصبحت مدينة شامخة وقصدها الشعراء والعلماء ، وممن اختارته قرطبة لقصد جعفر فيها شاعرها القذ ابن هانىء ، وله فيه مدائح رائعة خلدت اسمه ، ومن قوله فيه[4] :

المشرقـاتُ النيرَّات ثـلاثـةٌ الشمسُ والقمرُ المنيرُ وجَعْفَرُ

(١) الوشج : الملتفة المتشابكة .
(٢) بلاد الرخج : بلاد بالقرب من مدينة كابل فى أفغانستان .
(٣) انظر البيتين التاليين وأبياتًا أخرى فى تهنئة شنجول بولاية العهد فى أعمال الأعلام لابن الخطيب ٩٤/٢ وما بعدها ولقب الشاعر محرف .
(٤) راجع أشعار ابن هانىء فى ديوانه المطبوع بالهند .

ويقول مخاطبًا له فى إحدى مدائحه :

لـم تُدْنِنى أرضٌ إليـك وإنمـا ... جِئْتُ السمـاء ففتِّحَتْ أبوابـا
ورأيت حـولى وفـدَ كلِّ قبيلةٍ ... حتى توهمتُ العـراقَ الزَّابـا[1]
أرضٌ وطئتُ الدرَّ من حَصْبائها ... والمسكَ تُربًا والرِّيـاضَ جنابـا

وسمع بالشاعر ومدائحه فى جعفر الخليفةُ المعز العبيدى الفاطمى فطلبه منه ، ولم يستطع مخالفته فجهزه إليه ، وأحسَّ حينما بعد عن المسيلة والزاب كأنما فارق فردوسه ، وصوَّر ذلك فى إحدى قصائده منشدا :

خليـلىّ أيـن الزَّابُ منى وجعفرٌ ... وجنَّاتُ عَدْنٍ بِنْتُ عنهـا وكَوْثَرُ
وقبلى نَـأى عن جَنَّـة الخلـد آدمٌ ... فما راقه من جانب الأرض مَنْظر

وهو يتحسَّر على فراقه للزاب وجعفر ، فقد فارق جنَّة الخلد ونهرها « الكوثر » كما فارقهما أبوه آدم قبله ، ولم ينفعه ندمه ولا أسفه ولا تحسره ، ولا راقه بعدهما مشهد فى الأرض ولا منظر .

وإذا كانت الجزائر أهدت إلى الشعر العربى شاعرا كبيرا فى القرن الثالث الهجرى هو بكر بن حماد فإنها أهدت إليه فى النصف الثانى من القرن الرابع شاعرين كبيرين هما عبد الله بن محمد التنوخى المعروف باسم ابن قاضى مدينة ميلة الواقعة إلى الشمال الغربى من مدينة قسنطينة ، واشتهر بمدحةٍ فائية مدح بها والى صقلية يوسف ثقة الدولة وسنخصه بترجمة . والثانى عبد الكريم النهشلى المسيلى شاعر المنصور الصنهاجى وابنه باديس ، وسنفرد له ترجمة . وقادت الدولة الحمادية فى القلعة وبجاية طوال القرن الخامس الهجرى حركة أدبية وعلمية نشيطة ، وارتحل إلى أمرائها الشعراء ليمنحوهم الجوائز والصلات من أمثال ابن الفكاه أبى القاسم عبد الخالق القرشى القيروانى مادح الناصر بن علناس (٤٥٤ – ٤٨١هـ) وفيه أنشد[2] :

قالـت سـعاد وقـد زُمَّتْ ركائبُنا ... مهـلا عليـك فأنت الرائحُ الغـادى
فقلـتُ تاللهِ لا أنفـكُّ ذا سفـرٍ ... تجرى بىَ الفُلْكُ أو يحدو بىَ الحادى
حـتى أقبِّـل تُرْب العـزِّ منتصـرًا ... بالناصر بن علنَّـاسِ بن حمَّـاد

وكان ابنه المنصور (٤٨١ – ٤٩٨هـ) كاتبا شاعرا وفيه يقول ابن خلدون : « هو الذى حضَّر ملك بنى حماد وصيَّر بجاية دار المملكة وجدَّد قصورها وشيَّد جامعها وتأنق فى اختطاط المبانى وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه فى الرياض والبساتين ، فبنى فى القلعة قصر المنار والملك والكوكب وقصر السلام وبنى فى بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميمون » . ونزل به عبد الجبار بن حمديس شاعر صقلية الفذ فقلده صلات سنية وقلده ابن حمديس قصائد باهرة ،

(١) الزاب : أرض سهول فى وسط الجزائر وراء جبال الأوراس شرقا .

(٢) أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع الدار البيضاء) ٩٦/٣ زمت ركائبنا : شدت بالزمام استعدادًا للرحيل .

منها رائية بديعة يصف فيها أحد قصوره وما امتد أمامه من بهو يتوسطه حوض كبير به نافورة تحملها مجموعة من الأسْد المذهبة تمج المياه البلورية من أفواهها إلى بركة محيطة بها ، وفوقها شجرة ذهبية ترصَّع أغصانها طيور بمناقيرها مياه كمتناثر اللآلىء الصافية ، يقول[1] :

قصرٌ لو انَّك قد كحلتَ بنـــورهِ ... أعمى لعـــاد إلى المقـــام بصيرا
أذكرْتنـــا الفـــردوسَ حين أريتنا ... غرفا رفعتَ بناءهـــا وقصـــورا
فلكٌ مـــن الأفـــلاك إلا أنـــه ... حقَر البـدورَ فأطلـــع المنصـــورا
وضراغـمٍ سكنتْ عَرينَ رئاســـةٍ ... تركتْ خريرَ المـاء فيـه زئيرا[2]
وكأنما غَشيَ النضارُ جسـومَهـا ... وأذاب فى أفواهها البلّـورا[3]
وبديعـــة الثمرات تعبر نحوهـــا ... عيناىَ بحرَ عجـــائبٍ مَسْجورا[4]
قد صوفحتْ أغصانُها فكأنمـــا ... قبضَتْ بهنَّ من الفضـــاء طيورا
خُرْسٌ تُعَدُّ من الصُّفاح فإنْ شَدَتْ ... جعلتْ تغـرِّدُ بالميـــاهِ صَفِيرا

وأبيات القصيدة جميعها درر نفيسة على هذه الشاكلة ، حتى ليقول المقَّرى بعد إنشاده لها فى كتابه « نفح الطيب » : « لم أر لهذه القصيدة فى لفظها ومعناها من نظير » . ومعروف أن العماد الأصبهانى ترجم فى كتابه الخريدة لشعراء العالم العربى فى القرن السادس الهجرى ، وقد ترجم لنفر[5] من شعراء الدولة الحمادية نقل ترجماتهم عن كتاب المختار من النظم والنثر لابن بشرون المهدوى القيروانى مع نعته لهم بأنهم من المقلين ، وهم ثلاثة : على بن الزيتونى الشاعر ويوسف بن المبارك وابن أبى المليح الطبيب ، وقال عن على بن الزيتونى إنه شاعر المغرب الأوسط (الجزائر) وأديبه ، وألمعيُّه وأريبه ، وهو صاحب توشيح وتوشيع وتقصيد وتقطيع ، وأنشد له قطعة من قصيدة فى مديح قاض ، وفيها يقول :

نَهـــاهُ عـنْ محارمِـــه نُهاهُ ... وقرَّبه لخالقـــــه تُقـــاهُ[6]
وشدَّ به عُرَى الإســـلام حتى ... رأينا النُّجْحَ وانعقدتْ عُراه[7]
أمـــينٌ عـدلُـــه غَمَرَ البَرايَـــا ... فما يُخْشَى على أحـدٍ قضاه
لقـــد ظفرتْ يـدٌ عَلِقَتْ نَداه ... ومـن نـاواه قد تَبَّتْ يداه[8]

(١) ديوان ابن حمديس (تحقيق د. إحسان عباس) .
(٢) عرين الأسد : مأواه .
(٣) النضار : الذهب
(٤) مسجورا : مملوءا .
(٥) انظر فيهم وفى الأشعار التالية الخريدة (قسم المغرب) طبع تونس ١/١٨٠ وما بعدها .
(٦) النهى : العقل .
(٧) عرى الإسلام : مواثيقة التى لا تنفصل عنه .
(٨) تبَّت : خسرت خسرانا كبيرا .

وكان يوسف بن المبارك من موالى بنى حماد ، وله فيهم مدائح مختلفة ، من ذلك قوله فى بعض قصائده يخاطب الأسرة :

ما منكمُ إلا همـامٌ حَـوَى ... مناقبًـا جُلَّى ومجـدا صُرَاحْ[1]
وتبذلـون الرِّفْـدَ يـوم النَّـدى ... وتَسْعرون الحرب يوم الكفـاح[2]
وترفعـون الجـار فـوق السُّـهَا ... وتكرمون الضيف مهما استماح[3]
لا زلتـمُ تجنـون زهـرَ العُـلا ... فى معـرضِ العزِّ بحـدِّ الصِّفاح[4]

أما ابن أبى المليح فكان اشتهاره بالطب أكثر من اشتهاره بالشعر إذ كان طبيبا ماهرا ، ويقول العماد إن له مقطعات فى الغزل جالبة للحب سالبة للبُّ ولم يرو منها شيئا له، إنما روى قطعة من قصيدة يهنىء بها الأمير عبدالله بن العزيز الحمادى فى أحد الأعياد واصفا فيها خيله، يقول:

وجالتْ به جُرْدُ المَذاكى كأنهـا ... عذارَى ولكنْ نُطْقهنَّ تَحَمْحُمُ[5]
وصفـراءَ كالتِّبْرِ العتيقِ صقيلـةٍ ... ودهمـاءَ يتلوهـا كُمَيْتٌ وأدْهَمُ[6]
وأشـقرَ لو يجْرِى مع البَرْق جُهْدَه ... لكان له يوم الرِّهـان التقـدم
وحـامَ لـواءُ النَّصْر يتبع رايـةً ... بها العِزُّ معقـودٌ عليهـا متمِّم[7]

ويترجم العماد فى نفس الجزء السالف من خريدته لشاعرين من شعراء القلعة الحمادية قدما إلى مصر فى أواخر عهد تلك الدولة هما محمد بن عبدالله بن زكريا القلعى الأصم وعلى بن إسماعيل القلعى، أما محمد فينقل عن كتاب جِنان الجنان ورياض الأذهان للرشيد بن الزبير المؤلف حول منتصف القرن السادس الهجرى أنه قال عنه: «كان جيد الشعر، وارىَ[8] زناد الفكر» وأنشد له قطعة فى وصف فوارة من قصيدة فى مديح كرامة بن المنصور بن الناصر بن علناس وفيها يقول:

وحـاكيـةٍ بالمـاءِ لـونَ اضطرابـهِ ... قوامًـا وحُسْنا حين يبدو ويُوبِص[9]
قضيـبَ لُجَيْنٍ ألمـع الصَّقْلُ مَتْنـه ... وأخلصه فى السَّبْكِ من قبلُ مخْلِص[10]
تسـامى قليـلا ثم عـاد كأنـه ... جمانٌ حواليها على المـاء يَرْقُص[11]
كأنَّ نـوالا من يمـين « كرامـةٍ » ... يمـدُّ بـهِ إذ لا تـرى المـاء يَنْقص

(١) جلى : عظيمة ، صراح : خالصا .
(٢) الرفد : العطاء . تسعرون : توقدون .
(٣) السها : كوكب صغير خفى الضوء . استماح : اتسع فى الطلب .
(٤) الصفاح : السيوف .
(٥) المذاكى : الخيل المدرَّبة . التحمحم : صوت الخيل دون العالى .
(٦) التبر : الذهب . صقيلة : مدربة . دهماء : سوداء . كميت : أحمر ضارب إلى السواد .
(٧) حام : دار .
(٨) وارى : متقد .
(٩) يوبص : يبرق ويلمع
(١٠) لجين : فضة .
(١١) جمان : لؤلؤ .

وينقل العماد عن ابن الزبير أنه كان مبخوس الجَدّ[1] وأنه ورد إلى الإسكندرية ومصر (الفسطاط) وأقام بهما زمانا لا يجد من يَرْوِى ظَمْأته ويسدّ خلّته[2] ، وعاد إلى المغرب ونزل ببنى الأشقر فى طرابلس الغرب ، وامتدحهم بقصيدة ميمية فأحسنوا صلته وعظموا جائزته ، ومن قوله فى مديحهم :

وفى ذا الحِمَى المأمـول يأمـنُ خائـفٌ ... وفى ذا النَّدى المعسول يَنْقَعُ حائـمُ[3]
عَضَدْتـم على أحسابكـم بفعالكـم ... كما عضدتْ أُسَّ البنـاء الدعائـمُ[4]
على كلِّ أرْضٍ من نَـدَاكم ميـاسـمٌ ... وفى كل نـادٍ من ثَنـاكم مواسـمُ[5]

وأما على بن إسماعيل القلعى فينقل العماد عن الرشيد بن الزبير أنه كان من الواردين أيضا على مصر وأن الخليفة الفاطمى الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) استوزر أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى ، وكان هو وأبوه وجده سنين ، ويبدو أنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر ، فأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا فى خطب يوم الجمعة للحافظ وأن يسقطوا من أذانهم للصلاة : « حَيَّ على خير العمل » شعار الفاطميين ، وتنبه أنصار الفاطميين وشيعتهم فقتلوه ، ويقول ابن الزبير إن على بن إسماعيل القلعى نظم فى هذا الحادث قصيدة مدح بها الحافظ ومن قوله فيها :

وليـلٍ صحبتُ السـيف يَرْعَد حَدّهُ ... وقد شابَ فيه مفرقُ الصَّعْدَة السَّمْرَا[6]
إلى أن بـدا وجـه الصَّبـاح كأنـه ... لحافـظِ ديـن اللّـهِ آيتُـهُ الكـبرى

ويعلق العماد على وصف الخليفة الحافظ بأنه حافظ لدين الله قائلا : « أستغفر الله من ذلك فإنه لم يكن حافظا وإنما كان مضيِّعا » .

وتقضى دولة الموحدين وزعيمها عبد المؤمن على الدولة الحمادية فى بجاية وتصبح الجزائر تابعة لها ، ويشتهر بها حينئذ شاعران : الحسن بن على بن عمر القسنطينى المعروف باسم ابن الفكون وسنخصه بترجمة ، ومحمد[7] « بن على بن مروان بن جبل الهمدانى الوهرانى الأصل الناشىء بتلمسان ، وكان فقيها نابها تولى قضاء تلمسان ثم استقدمه المنصور الموحدى (٥٨٠-٥٩٥ هـ) لقضاء الجماعة بمراكش وظل حميد السيرة مشهورا بالعدل فى أحكامه ، وعزله المنصور بعد فترة ، وأعاده ابنه الناصر إلى أن توفى سنة ٦٠١ هـ/١٢٠٤ م ومن مدائحه للمنصور قوله :

---

(١) الجد : الحظ .
(٢) خلته : حاجته .
(٣) ينقع حائم : يروى ظامىء .
(٤) عضدتم : أعنتم .
(٥) مياسم : جمع ميسم : علامة وأثر .
(٦) الصعدة : القناة .
(٧) انظره فى بغية الرواد ليحيى بن خلدون ١١٣/١ والمعجب للمراكشى ص ٢٦٤ و٣١٢ والتكملة لابن الأبار رقم ١٠٦٣ .

أســـيِّدَنَا يا بن الإمامين أمـــرُكم منـــوطٌ بأمر الله ما عنـــه معـــدلُ
نُصِرتـم لأن الحـقَّ آن ظهـــورُه وناصره فى الله ما كـان يُخْـــذَل
ملأتم بِســـاط الأرض عدلا وما بَقِى فأخباركم فيـه تســـيرُ وتُنْقَـــل

ويؤسس أبو زكريا منذ سنة ٦٢٥ بتونس الدولة الحفصية وتتبعها بجاية وقسنطينة وشرقى الجزائر إلى ما بعد مليانة ، بل حتى أحيانا إلى مدينة الجزائر شمالا وحتى مدينة ورقلة جنوبا ، وكانوا يتخذون للمدن الكبرى : قسنطينة وبجاية وبونة ولاة حفصيين . وظلت لبجاية أهمية كبيرة طوال القرن السابع الهجرى ثم خلفتها قسنطينة أو بعبارة أدق نازعتها الأهمية ، فقد ظلت فى كليهما حركة أدبية وعلمية نشيطة ، على الرغم من أنه لم تنشأ فيهما ولا فى شرقى الجزائر عامة دولة كبيرة كدولة بنى حماد فى بجاية التى قضى عليها عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين ولا كدولة الزيانيين فى تلمسان التى سنلم بها بعد قليل ، ولا يلقانا فى بجاية وقسنطينة وشرقى الجزائر شعر مديح فى حاكم كبير ، وحقا يلقانا شعر مديح يتعلق بصداقات مثل قول محمد بن يحيى بن عبد السلام فى صديقه على بن سيد الناس وعشيرته[1] :

شمسُ السعادة لاسَنَـــا النِّبراسِ حلَّتْ بأُفْقِ عَلِى بن سيد النَّاسِ
من معشرٍ بذلُ النوالِ شِعارهم وهم الأسود لدى احتدام الباس
فالبَسْ رداء الفخـــر جـرَّرْ ذيلَهُ وانعم بطيب العيش والإينـــاسِ

وأهم شاعر مديح أنتجه شرقى الجزائر فى عهد الدولة الحفصية شهاب الدين بن الخلوف القسنطينى شاعر السلطان أبى عمرو عثمان ، وسنخصه بترجمة عما قليل .

وتؤسَّس بتلمسان الدولة الزيانية منذ سنة ٦٣٣ ويقود يَغُمْراسن مؤسسها وأبناؤه وأحفاده نهضة علمية وأدبية عظيمة فينشئون المدارس ويكثرون فى مجالسهم من مناظرات العلماء بين أيديهم ، ويتخذون المفتين من كبار الفقهاء كما يتخذون الأطباء ويتغنى بمديحهم الشعراء ويجزلون لهم فى العطاء ، ومن أول ما يلقانا من ذلك قصيدة لشاعر يَغُمْراسَن حين هاجمه السعيد الموحدى صاحب مراكش سنة ٦٤٦ وانتصر عليه يغمراسن ، وفيها يقول مهنئا له بالانتصار[2] :

بُشْرَى بعاجل فتح أوجـب العُرُســـا وأسفر الدَّهْرُ عنه بعد ما عَبَسَا[3]
فتـحٌ تبجَّست الأَنـــواءُ صـــادقـــةً بِوَدْقه ومحـــتْ أنوارُه الغَلسا[4]
فتـح تفتَّح بـابُ الســـعد عـــن كَثَبٍ عنه وأنجز فيه اليُمْنُ ما التمسا[5]
فتحٌ جَرَى فى الوَرَى مجرى الحياة فقد سَرَى فمـازج منَّا النَّفْسَ والنَّفَسا

(١) عنوان الدراية ص ٣٤٣ .
(٢) انظر تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان للتنسى (تحقيق محمود بوعياد) ص ١١٩ .
(٣) أسفر : انكشف . عبس : قطّب وجهه وتجهّم
(٤) تبحست : تفجرت . الأنواء : الأمطار ، ودق المطر : شديده . الغلس : ظلمة آخر الليل .
(٥) كثب : قرب .

والقصيدة جيدة وفيها يشير الشاعر إلى تطور الأحداث فى الحرب ومقتل السعيد الموحدى ويشيد بشجاعة الجيش التلمسانى وبأس فرسانه ، وكان من جملة الذخائر التى استولى عليها يَغْمَراسن من محلة الأمير الموحدى السعيد والتى بعد بها صيته وضخم ملكه كما يقول التنسى العقدُ اليتيم المشتمل على عشرات من خرزات الياقوت والدرر الثمينة بل على مئات كما يقول ابن خلدون فى تاريخه، وعضاد[1] الزمرد ، وأنفس من ذلك وأعظم مصحف عثمان بن عفان الذى خطَّه بيمينه ، وكان قد صار إلى بنى أمية ، ونقل إلى عبد الرحمن الداخل فى قرطبة فوقفه بجامعها وغشاه بصفائح الذهب ونظم فى مواضع منها لآلىء نفيسة وأحجار ياقوت وزمرد . وكان أبناؤه يقدمونه أمامهم فى أسفارهم قائمين بحقه إلى أن كان من نعم الله على يغمراسن أن حظى به ، إن صحَّ ما قاله يحيى بن خلدون وغيره من المؤرخين . ولا تلبث تلمسان أن تنجب الشاعر البارع ابن خميس كاتب أبى سعيد عثمان الأول ابن يغمراسن (٦٨١– ٧٠٣ هـ) وشاعره ، وسنفرد له ترجمة . وكان يعاصره ابن أبى حجلة الذى ترجمنا له فى الجزء الخاص بمصر من هذه السلسلة ، وكان قد رحل فى بواكير حياته إلى الحج واستوطن مصر وولى إحدى مشيخات الصوفية وكان يزرى على أصحاب الوحدة من الصوفية ، وله مدائح نبوية متعددة وكتب أدبية متنوعة ، منها سكردان السلطان أى إناء السكر ، وديوان الصبابة أهداهما للسلطان حسن المملوكى ، مضمنا فيهما بعض مدائحه فيه من مثل قوله فى الكتاب الأخير :

مليكٌ أسودُ الغاب تحذر بأسَهُ ... لأن ملوك الأرض طُرًّا تحاذرُهْ
وأىُّ كماةٍ لم يرعْهم نزالُهُ ... وأى مكانٍ ما علتْه منابره

ولعل حاكما من حكام الدولة الزيانية لم يمدح كما مدح أبو حمو موسى الثانى (٧٦٠ – ٧٩١ هـ) الذى خلَّص تلمسان من حكم المرينيين واستعادها لأسرته ، وكان أديبًا فذًّا وشاعرًا ماهرًا ونهضت تلمسان فى عهده نهضة علمية وأدبية عظيمة وأحاطت به كوكبة من الشعراء ألم بها وبمدائحها فيه التنسى فى كتابه : « راح الأرواح فيما قاله أبو حمو وقيل فيه من الأمداح » وسنخصه بترجمة بين شعراء الفخر ، ومن مداحه وكتَّابه محمد بن صالح شقرون وأبو الفضل العصامى ومحمد بن قاسم ، ومن مداحه أيضا محمد بن أبى جمعة التلالسى أحد أطبائه ، وفيه يقول فى قصيدة[2] :

مطاعٌ شجاعٌ فى الوَغى ذو مهابةٍ ... حسامٌ على الباغين فى الأرض قد سُلاَّ
له راحةٌ كالغيث ينهلُّ وَدْقُها ... وصارمُ نَصْرٍ مرهفُ الحَدِّ لافُلاَّ
إمامٌ حَباهُ اللَّهُ ملكا مؤزَّرًا ... فلا مَلِكٌ إلا لعزَّته ذَلاَّ
من الزَّاب وافانا عزيزا مظفَّرا ... يجرُّ من النَّصْر المنوط به ذَيْلاَّ

(١) العضاد : الحلية توضع فى العضد .

(٢) بغية الرواد ١/ ٩٠ .

لطاعتـــه كلُّ الأنـــام تبـادرتْ فياسَـــعْد من وافى وياوَيْحَ مَنْ ولَّى
لقـــد جـــبر اللّـــهُ البلادَ بملكـــه به مُلئتْ أمْنًا بـه ملئـتْ عَـــدْلا

والقصيدة بديعة وقد استهلها التلالسى بوصف طبيعة تلمسان الجميلة ، ونوه بوجود قبر الصوفى الكبير أبى مدين شعيب فيها ، وعاد إلى الإشادة بحسنها وأنها جنة الدنيا ثم أخذ فى مديح أبى حمو واستيلائه على تلمسان من يد الدولة المرينية قهرا ومبادرتها إلى عقد الصلح . وله موشحة أنشدها المقرى فى أزهار الرياض يجمع فيها بين مديحه ومديح الرسول الكريم ، ومن مديحه له فيها[1] :

مَنْ لم يـزل يسـمو إلى المعالى كلَّ حينْ
ذاك أبـوحَمُّـــو المولى أميرُ المسلمين
طاعتـــهُ غُنْـــمُ نِلْنا بها دنيا وديـن

وكان أبو حموّ استنّ فى تلمسان الاحتفال بليلة مولد سيد المرسلين ، وكان المنشد يستهلّ الحفل بإنشاد مدحته النبوية ، ثم يظل ينشد طويلا ما رُفع إليه من مدائح شعراء البلاط فى أبى حمو وفى الرسول الكريم ، وتسمى تلك القصائد باسم المولديات ، وظل ذلك تقليدا بعده ، وسنترجم لشاعرين من شعرائه عما قليل ، هما يحيى بن خلدون ومحمد بن يوسف الثغرى . وممن تولى مقاليد الحكم بعده ابنه أبو زيان محمد الثانى (٧٩٦ – ٨٠١ هـ) وكان كلفا بالعلم والأدب – كما مر بنا فى غير هذا الموضع – وراجت سوقهما فى عهده ، وكان شاعرا كما كان عالما ، وتهادى مع السلطان المملوكى برقوق (٧٨٤ – ٨٠١ هـ) والطريف أنه وجّه إلى برقوق مع هديته قصيدة من نظمه استهلّها بتصوير أشواقه وحنينه إلى زيارة المصطفى والبقاع المقدسة ، ومن قوله بها فى مديح السلطان برقوق[2] :

مـلكٌ بـه نـام الأنـــامُ وأُمِّنَتْ سُبُلُ المخـاوف، لا يُخَـافُ سبيلُ
والملك ضَخْـمٌ والجنـــاب مؤمَّلٌ والفضـــل جَمٌّ والعطـــاء جزيلُ
والصُّنْعُ أجمـلُ والفخـــار موثَّلٌ والمجـــد أكملُ والوفـاء أصيلُ[3]
ياخـادمَ الحرمين حـــقٌ لك الهنَا وحَبَـاك من روح الإلـــه قَبول

وممن انتعش الأدب فى أيامه بعده أبو مالك عبد الواحد الزيانى (٨١٤ – ٨٢٧ هـ) ويقول التنسى إن الأدباء جاءوا إلى بابه يَنْسلون من كل حَدَبٍ[4] فيتقلبون بُجْر[5] الحقائب ، ظافرين

(١) أزهار الرياض ٢٤٧/١ .
(٢) تاريخ بنى زيان للتنسى ص ٢٢٥ .
(٣) موثل : أصيل .
(٤) ينسلون من كل حدب : يسرعون من كل طريق .
(٥) بجر الحقائب : مملوئى الحقائب ، كناية عن كثرة العطاء .

بجزيل الرغائب ، ويضرب مثلا لمادحيه من غير التلمسانيين قصيدة لشاعر فاسيّ يسمى على العَشَّاب يهنئه فيها ببعض فتوحه قائلا[1] :

ملكٌ تجلَّل بالمهابة وارتدى ... وسما فدانَ له الزمانُ الأَسْعَدُ
كم بيَّنتْ آراؤه من مشكلٍ ... واللّهُ يكفلُ ملكه ويؤيِّد
ملك أبى الرحمنُ إلا نَصْرَه ... فمن الذى يُخفى سَناهُ ويخمد

وربما كان أهم حاكم زيانى بتلمسان بعده المتوكل (٨٦٦ – ٨ هـ) ويعنى الفقيه التنسى بوضع كتاب أرَّخ فيه له ولأسرته – كما مرَّ بنا – سماه نظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان ، وأنهى حديثه فيه عنه بقصيدة فى مديحه ومديح أبنائه الستة ، وفيه يقول[2] :

حَوَى فى صباه من وثاقة رأيه ... مع الحزم ما لم تحوه اللِّمَمُ الشُّمْطُ[3]
هو البحر جودًا من جميع جهاته ... فمعروفه لُجٌّ وإحسانه الشَّطُّ
وكلُّ بَنى الآمال ساعون نحوه ... كذا كلُّ من أضناه من دهره قَسْطُ[4]
وبرَّز من بين الملوك مجليا ... وأعطاه ربُّ العرش فوق الذى أُعْطوا

وتضعف الدولتان الزيانية والحفصية مع أوائل القرن العاشر الهجرى ويستولى فرديناند ملك إسبانيا من الدولتين على الثغور الشمالية المهمة للجزائر . ويتصدى له خير الدين (بربروس) وعروج ويستخلصان منه مدينة الجزائر سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م وما يزال خير الدين ينازله مستوليا منه على الثغور الشمالية ما عدا المرسى الكبير ووهران ، ويضيف إقليم الجزائر إلى الدولة العثمانية ، ويخلفه عليه ابنه حسن ، ولا يزال الجزائريون يستحثونه على منازلة الإسبان ، ويسترجع منهم فى سنة ٩٤٨ هـ/١٥٤١ م المرسى الكبير والجزء الأعلى من وهران ، ويهنئه الشاعر عبد الرحمن بن موسى بمثل قوله[5] :

هنيئا لكم باشا الجزائر والغربِ ... بفتحٍ أساس الكفر مرسى قُرَى الكلبِ
وأبقاك ربى فاتحا لحصونهم ... وكهفا منيعا ذا عتوٍّ وذا ضَرْب

ويريد بالكلب شارل الخامس ملك إسبانيا وكان قد ساق إلى الجزائر حملة كبيرة ، فسحقها البايلاريك حسن . وتظل وهران مع الإسبان ، وما يزال الشعراء يستحثون الولاة العثمانيين فى فتحها من مثل محمد بن عبد المؤمن الذى يستحث الداى « باب حسن » على فتحها فى حماسية طويلة منشدا :

---

(١) التنسى ص ٢٣٨ .
(٢) التنسى ص ٢٦٥ .
(٣) اللمم الشمط : المختلط فيها سواد الشعر بياضه .
(٤) قسط : جور وظلم ، وهى من ألفاظ الأضداد .
(٥) البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم ص ١٣٢ .

نادتك وهـرانٌ فَلـبٌ نِداهـا وانزلْ بها لا تقصدنّ سـواها
واسـتدع طائفةَ العساكر نحوها يغزونهـا ولينزلـوا بفِناهـا
أضحى الصَّليب مؤيدا والدينُ قد درستْ معالمهُ فلست تراهـا
فادْعُ الغـزاةَ لغزوهـا مستنجدا وانهض إليها وانزلنْ مرسـاها

وعلى شاكلته محمد القوجيلي .. وسنخصه بكلمة . ويتولى محمد بكداش مقاليد الولاية سنة ١١١٨ هـ/١٧٠٦ م فيعظم الأمل فى نفوس الجزائريين أن يحقق لهم أمنيتهم فى فتح وهران ، ويهنئه يحيى بن أبى راشد مشيدا به فى مثل قوله :

ملك تفرَّد بالكمـال ولم يكن لكماله فى السـالفين مثـالُ
دانتْ له الأيَّـام طرًّا مثلمـا دانتْ لليثِ الغابة الأشِـبالُ
خضعتْ لسطوته الملوكُ وسلَّمت لجلاله الأمـراء والأقْيـال[1]

ويكثر الشعراء من استثارة بكداش . ويدور العام الأول من حكمه ، ويفتتح وهران عنوة سنة ١١١٩ هـ/١٧٠٧ م وكان أديبا يجمع النثر والخطابة والشعر ، وتبارى شعراء الجزائر والمغرب فى تهنئته بهذا النصر العظيم ، وجمع محمد بن ميمون ما نظم فيه من شعر منذ ولايته فى كتابه « التحفة المرضية فى الدولة البكداشية » وجعله فى ست عشرة مقامة . ومن شعرائه أحمد بن قاسم اليونى ومحمد القوجيلي والمستغانمى وابن على الذى هنَّأه تهنئه حارة مصورا كيف يسحقهم سحقا لا يبقى ولا يذر بمثل قوله :

إمـامٌ سقى الكفـار كأس منيَّةٍ لهم شبَهٌ بالنَّمْل والسيفُ حاطمُ
ومزَّقهـم فى الأرض كلَّ ممـزَّقٍ فَربْعهمُ–بعد العمارة–طاسِـمُ[2]
وعـاد لوهـران السنيَّةِ فخرُهـا وعـاد إليها عهدُهـا المتقـادم

ويتوفى بكداش سريعا سنة ١١٢٢ هـ/١٧١٠ م . ويسترد الإسبان وهران وتظل فى حوزتهم حتى سنة ١٢٠٥ هـ/١٧٩٠ لعهد الباى محمد الكبير ، فيفتتحها نهائيا ، وكانت الحياة الأدبية نشطت لعهده والتف حوله غير شاعر مثل أحمد القرومى ومحمد بن الطيب المازرى وأحمد بن عمار ، ومن أهمهم أحمد بن سحنون كاتبه ، وله فى فتحه لوهران أرجوزة طويلة افتتحها بقوله :

حمـدًا لمن آزر نصرَ الدِّين ودان ناصريه أسنى الدَّين
وفتَّح الأقطار بالجهـاد حتى غـدت ليِّنة المهـادِ

وشرح الأرجوزة شرحًا أدبيًا تاريخيًا سماه : « الثغر الجُمانى فى ابتسام الثغر الوهرانى » وصف فيه الفتح وسيرة الباى والشعراء الذين مجَّدوه وبعض أشعارهم فى تهنئته بالفتح ،

(١) الأقيال : جمع قيل : ملوك اليمن .
(٢) طاسـم : دارس .

ووصف منشئاته العمرانية وخاصة الجامع الكبير الذى شاده والمدرسة الملحقة به وفيها يقول[1] أحمد القرومى :

وترى المدرِّسَ قد علا كرسيَّه يُلْقى على العلماء حبَّ الجوهرِ
تَحْويه مدرسةٌ غدتْ آثارُها تُحْيِيه بالعلم الشريف الأشعرى

وكانت عقيدة الأشعرى قد شاعت فى البلدان المغربية – مثل العراق والشام ومصر – منذ القرن الخامس الهجرى . ويعترف ابن سحنون فى « الثغر الجمانى » بضعف الشعر فى زمنه لغلبة العجمة على الألسنة ، فصار الناس يتغنّون بالملحون (العامى) وبه يهجون ويمدحون » ويضيف أن الشعر الفصيح شاع فيه الكسر فى الأوزان والاختلال فى المبانى والمعانى .

ويكثر فى العهد العثمانى مديح التلامذة لشيوخهم على نحو ما يلقانا عند محمد القوجيلى فى مديحه لأستاذه على بن عبد الواحد الأنصارى ، وسنفرد له ترجمة عما قليل . ويكثر الشعر المتبادل بين العلماء فى الجزائر وبينهم وبين علماء تونس والمغرب الأقصى ، وحرى أن نتوقف لنترجم لبعض شعراء المديح .

عبد[2] الكريم النهشلى

ولد ونشأ فى مدينة المسيلة (المحمدية) بالجزائر الشرقية فى أرض الزاب ، وفيها كان مرباه وتلمذته لشيوخها فى الأدب وتفتحت ملكته الشعرية مبكرة ، مما جعله يترك بلدته إلى القيروان العاصمة ، ولا يلبث أن ينتظم فى دواوين الدولة الصنهاجية ، ويقال إنه كتب لتميم بن باديس بن المنصور ، غير أنه كتب للمنصور بن بلكين من قبله ثم لباديس من بعده وأصبح شاعرهما . ومر بنا أن له فى الشعر والنقد كتابا سماه الممتع وأن ابن رشيق نقل عنه فى كتاب العمدة فى « صناعة الشعر ونقده » وذكره مرارا وترجم له فى كتابه الأنموذج ومما قاله عنه أنه : « كان شاعرا مقدما عارفا باللغة خبيرا بأيام العرب وأشعارها بصيرا بوقائعها وآثارها » ويدل كتابه الممتع على ثقافة واسعة بالشعر سعة لا حدود لها كما يدل على ذوق أدبى مرهف مع البصر بنقد الشعر وأحكام النقاد عليه . ويقول ابن رشيق إنه توفى بالقيروان أو مدينة المهدية سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م وأنشد له أبياتا من قصيدة فى مديح المنصور بن بلكين وما ذكر فيها من هدية أرسلت إليه من الخليفة الفاطمى العزيز نزار سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م وكان بها طائفة من

(١) انظر تاريخ الجزائر الثقافى للدكتور أبى القاسم سعد الله ٢/٢٧١ .

(٢) انظر فى ترجمة عبد الكريم النهشلى المراجع التى سبق ذكرها فى هامش ص ٨٩ .

الخيل الكريمة والإبل البخاتىّ النجيبة وحمارا مخططا من حمر الوحش وفيلا ضخما ، ووصفها النهشلى جميعا وصفا بارعا ، استهله بقوله :

هنَتْك أميرَ الجود خيرُ هديَّةٍ تقدَّمها الإيمانُ واليُمْنُ والفَخْرُ

ومضى يصف الهدية ، وكان حريا بابن رشيق أن ينشد شيئا من مديحه الذى كان يبرع فيه براعة فائقة كما تشهد بذلك بائية له فى المنصور بن بلكين أنشد منها طائفة كبيرة فى كتابه الممتع ، وفيها يصور هيبة مجلسه منشدا :

ومجلسِ موقورِ الجلالة تَنْثنى عيونُ الورى عنه وينبو خِطابُها
ترى فيه رفع الطَّرْف خَفْضًا كأنما لحاظ الرجال ريبةً تستريبُها
إذا حُكْتُها ظلَّتْ نواسجُ عبقرٍ حواسدَ مدسوسا إلىَّ عتابُها
على ملكٍ تُهْدَى إلى مَكْرُماتِهِ عقائلُ أشعارٍ يرفُّ شبابُها
همامٌ دعت كفَّاه قاصيةَ العُلا فلبَّاه منها صَفْوها ولُبابُها

فهو مجلس محفوف بالجلال حتى لتنثنى عنه العيون مهابة ويتعثر الكلام فى الأفواه وينخفض الطرف ريبة يستشعرها . وإذا حاك قصيدته الرائعة فيه ظلت نواسج عبقر تحسده على إحسانه فيها إحسانا يفوق كل وصف ، وما تزال نفائس الأشعار تزفّ إليه ، وإنه لهمام تستجيب إليه ذروة العلا فينال منها صفوها ولبابها الخالص ويقول :

إذا ورد المنصورَ أرضًا تهلَّلتْ وجوه رُباها واستهلَّ رَبابُها[1]
إذا اغبرَّت الآفاقُ بلَّتْ سماؤُهُ ثَراها بأيدٍ ما يجفُّ رَغابُها[2]
كأن العوالى الزُّرْق عنه مَضاؤُها وخُضْر السحاب من نداه عُبابُها[3]
فمن يُولِهِ سعدا يَنَلْه ومَنْ يُرِد يه شِقْوةً تُخْلَعْ عليه ثيابُها
يحلُّ بنا – ما حلَّها – البِرُّ والتُّقَى ويخضرُّ من بعد اصفرارٍ جنابُها

فما ينزل المنصور أرضا حتى تمتلىء رباها بشرا ويسقط بها الغيث مدرارا ، وما إن تغبرّ الآفاق وتجف الديار حتى يهطل عليها من سمائه ما يرويها ويحيلها أرضا سهلة خصبة . ويقول كأن أسنة العوالى أو الرماح الزرق من مضائه وعزمه ، وكأن غيث السحاب المنهمر من نداه وكرمه الفياض ، وإن من يمنحه سعدا ينله ومن ينزل به شقاء يصبه ، وإن أى أرض يحلّ بها يحلّ فيها التقى والرحمة والربيع الزاهى ، ويمضى قائلا :

وما بلدٌ لم يؤتك الطَّوْعَ أهلُها بآمنةٍ أن لاتُدَكَّ هضابُها
تحطُّ بها الأُسْدُ الضوارى خواضِعًا لديك ولو أن الكواكب غابُها

(١) الرباب : السحاب .
(٢) الرَّغاب بفتح الراء : الأرض اللينة السهلة .
(٣) العوالى : الرماح . عباب السحاب : الأمطار المنهمرة .

ولو أنهـا عاصتْكَ غـير مجيبـةٍ أجابتْك من تحت السيوف رقابُها
تهابُك آفـاتُ الخطـوب فتنتهى ولاتنتهـى عـن خُطَّـةٍ فتهابُهـا
رماحُك أحنـاءُ الضلـوع نِقافها وخيلك تامورُ النفوسِ شرابُها[1]

وهو يقول للمنصور إن بلدا لم تستسلم لك ولم تأتك طاعة أهلها لا تأمن أن تدكّ هضابها دكًّا كأن لم تكن شيئا مذكورا ، وإن الأسد الضارية المفترسة بها لتحطّ لديك خواضع مهما كان غابها وغيلها بعيدا ولو أنها أعلنت عصيانك لأجابتك رقابها من تحت السيوف ذليلة خانعة ، وإن الخطوب – مهما عظمت – لتهابك ، بينما أنت لا تهاب خطة ، إذ لا تزال تبرم الخطط ، وتلك رماحك لا تزال تضرب فى أحناء الضلوع ، ولا يزال شراب خيلك دم الأعداء . والقصيدة مكتوبة بلغة جزلة رصينة وكأنها تقرع الآذان قرعا بموسيقاها اللجبة ، وكأنما تمتلىء برعد قاصف . وبدون ريب كان عبد الكريم النهشلى شاعرا مبدعا .

عبد[2] الله بن محمد التنوخى (ابن قاضى ميلة)

تقع ميلة فى الشمال الغربى لقسنطينة والجنوب الشرقى من بجاية ، وبها نشأ عبد الله بن محمد التنوخى فى بيت علم إذ كان أبوه قاضيها ، ولذلك اشتهر باسم ابن قاضى ميلة ، ويقول ابن رشيق إنه صحب أباه إلى جزيرة صقلية ، فاتصل عن طريقه بواليها ثقة الدولة (٣٧٩–٣٨٨هـ) وكان حسن السيرة ، ضبط صقلية وساس رعيتها سياسة عادلة حببته إليها ، ودوَّخ الروم واستقامت له فيها الأمور ، وكان كريما كرما فياضا فقصده كثيرون من كل فَجٍّ ، فأكرمهم وفى مقدمتهم قاضى ميلة . وكان ابنه عبد الله شاعرا محسنا ، فمدحه بقصيدة فائية بارعة ، فقرب منزلته ومنزلة أبيه وأجزل صلته ، ويبدو أنهما لم يمكثا طويلا بصقلية . وأشاد بابن قاضى ميلة من ترجموا له ، فابن رشيق يقول فيه : « شاعر لَسِنٌ مقتدر يؤثر الاستعارة ويسلك طريق ابن أبى ربيعة وأصحابه فى نظم الأقوال والحكايات ، وله فى الشعر قدم سابقة ومجال متسع ، وربما بلغ فى الإغراق والتعمق إلى فوق الواجب ، وهو لمجٌّ بذلك طالبٌ له » . ويقول ابن بسام فيه : « ضرب فى الأدب بأعلى قِدْح وافترَّ عنه على أوضح صبح » . ونوه ابن خلكان بفائيته فى ثقة الدولة ، ويقول أحببت إثباتها لحسنها وغرابتها ، وأنشدها . وهو يستهلها بغزل حوارى لصاحبة له التقى بها محرمين فى الحج ، وهو غزل بديع سنذكر طرفا منه فى غير هذا الموضع ، وخرج منه إلى مديح ثقة الدولة والى صقلية فى يوم عيد من أعيادهم ، وفيه يقول :

---

(١) النقاف : مضرب الرماح . تامور : دم .
(٢) انظر فى ابن قاضى ميلة أنموذج الزمان لابن رشيق ص٢٠٩ وابن خلكان ١٥٩/٦ وراجع ٨٤٣/٥ والذخيرة لابن بسام ٥٢٩/٤ .

أغـرُّ قُضـاعيٌّ يـكاد نَوالُـهُ لكثرة مايدعو إلى الشُّكْر يجحفُ[1]
سَعَى وسَعَى الأملاكُ فى طلب العُلا ففـاز وأكْدَوا إذ أخفَّ وأقْطفوا[2]
ويقظـان شـاب البطـش بالبِرِّ والتُّقَى بكفَّيْـه ما يُرْجَى وما يُتخَـوَّف
حسـامٌ على من ناصب الدين مصلتٌ وسـترٌ على من راقب الله مُغْدِفُ[3]
يسـايـرُه جيشـان : رأىٌ وفَيْلقٌ ويصحبـه سـيفان: عـزمٌ ومُرْهَفُ
مطـلٌّ عـلى مـن شـاءَه فكأنمـا على حكمـه صَرْفُ الرَّدى يتصرَّفُ

وهو يقول إن كثرة نواله وعطائه تُكلِّف من الشكر ما لا يكاد يطاق لعظم ما ينثر من أمواله على الناس ، وقد سعى وسعى الملوك من حوله فى طلب العلا ففاز وخابوا إذ أسرع فسبقهم وأبطئوا فتخلفوا ، وإنه ليقظان دائما يجمع بين البر والتقوى والبطش الشديد ، ففى كفيه ما يرجى من الجود ويخشى من البأس العنيف ، وإنه لحسام مسلول على أعداء الدين وستر مسبل على أوليائه ، يرافقه جيشان من حزمه وجنده ، وسيفان : سيف مرهف وسيف من عزمه ، وكأنما ينزل صرف الهلاك على رأيه ويتصرف على حكمه ، ويدعو له الله أن يرعاه :

رَعَى اللَّـه مَنْ تَرْعى حِمَى الدين عَيْنُه ويحمى حِمى الإسلام والليلُ أغْضَفُ[4]
ومَنْ وَعْدُهُ فى مسـرح الحمـد مطلقٌ وإيعـاده فى ذمَّـة الحِلْـم موقَـفُ
ومـن يضـربُ الأعـداء هَـبْرًا فتنثنى صناديدُهم والبِيضُ بالهـام تقذفُ[5]
رماهـم بِمَجْرٍ ضَعْضَـعَ الأرضَ رَزُّهُ كأن الروابى منه بالنَّبْـل تَدْلُـفُ[6]
كأن الرُّدَينيَّـات فى رونـق الضُّحَى أراقمُ فى طـامٍ من الآل تزحـفُ[7]
يعـود الدُّجَى من بِيضـه وهْو أبيـضٌ ويبدو الضحى من نَقْعه وهْو أكْلَفُ[8]

وهو يدعو الله أن يحمى حامى الدين والإسلام والليل أشد ما يكون ظلاما ، الوافى بوعده والممسك بوعيده يمسك به حلمه ، وإنه ليضرب الأعداء ضربات متوالية والسيوف تقذف بالرءوس إذ رماهم بجيش كثيف تهتز الأرض تحت أقدام خيله حتى لكأن الروابى تقدم إليها ، وكأن الرماح أراقم تزحف فى أمواج من السراب ، وشاب الدجى ، وبدا الضحى كلفا مغبرا فى احمرار لكثرة النقع وغبار الحرب ، ويقول :

---

(١) أى يكلفهم ما لا يطيقون .
(٢) أكدوا : خابوا . أخف : أسرع . أقطفوا : أبطئوا
(٣) مصلت : مسلول . مغدف : مسبل .
(٤) أغضف : مظلم شديد الإظلام .
(٥) هبرا : ضربا . البيض : السيوف .
(٦) مجر : جيش كثيف . رزه : أصواته . تدلف : تسير مبطئة .
(٧) الردينيات : الرماح . أراقم : حيات . الآل : السراب .
(٨) النقع : غبار الحرب . أكلف : كدر .

فيا ثقةَ الملك الذى الملك سَهْمُه ... يُراشُ لأكباد الأعادى ويُرْصَف[1]
هنيئًا لك العيدُ الذى منك حُسْنُه ... يروقُ ومن أوصافك الغُرِّ يوصف
بدا مُعْلَمَ الأرجاء يُزْهى كأنما ... على عِطْفه وَشْيُ العراق المشفَّف[2]
أتى بعد حول زائرا عن تشوّفٍ ... وقد كان ذا طَرْفٍ للقياك يَطْرف
فطوَّقتَه عِزًّا وشنَّفتَه به ... فلاحَ لنا وهْو المحلَّى المشنَّف[3]
ولا زلت تُسْتَجْدَى فتُولى وتُرْتَجَى ... فتكفى وتُسْتَدْعَى لخطْبٍ فتكشف

وهو يقول له يا ثقة الملك لا زال سهم ملكك يُسَدَّدُ إلى أكباد الأعادى فينفذ فيها ويُصميها وهنيئا لك العيد الذى يستمد منك حسنه وأوصافه البديعة ، وإنه ليمتلىء زهوا بما على جوانبه من وشى العراق الشفاف الرقيق ، وقد ظل حولا يتطلع إليك ويتمنى زيارتك ، فحليته بطوق رائع وقُرْطٍ بديع ، فلا زلت تستحدَى فتنعم وترتجَى فتُلبَّى وتستدعى لخطب فتكشف نوازله .
وأنشد ابن رشيق من مديحه قوله :

طَبٌّ بأدواء الجهاد إذا ... صدَم العَجاجُ قوادمَ النَّسْرِ
وإذا احْتَبى فى شَمْلَةٍ ضربتْ ... بِيضُ النَّوال جماجمَ الفَقْرِ
يَنْدَى وأيدى المُزْنِ جامدةٌ ... ويلينُ عند قساوة الدهْر

فصاحبه يعرف كيف يشفى أدواء الجهاد حين تشتد الحرب وتحتدم ويصدم عجاجها وغبارها الكثيف قوادم النسور وأجنحتها المحلقة . هذا شأنه فى الحرب أما فى السلم فلا تزال سيوف نواله وعطائه تضرب جماجم الفقر ، وإن يديه لتجودان جودا متصلا حين تشح أيدى السحاب ، وإن جانبه ليلين لوارديه عند قساوة الدهر وشدته . وواضح ما يتميز به ابن قاضى ميلة من التعمق والبعد فى التصاوير .

ابن[1] خميس

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن خميس الحميرى الحَجْرى الرُّعينى التلمسانى ، ويتضح من نسبه أنه ينمى إلى حمير من عرب اليمن فى الجنوب ، وبالذات من حَجْر ذى رُعَين ، وذكر ذلك فى شعره مفاخرا به قائلا :

---

(١) يراش ويرصف : يسدَّد .
(٢) المشفّف : الرقيق .
(٣) شنفته به : زينته بقرط .
(٤) انظر فى شعر ابن خميس وترجمته ديوانه باسم المنتخب النفيس من شعر أبى عبد الله بن خميس من عمل الأستاذ عبد الوهاب بن منصور وتقديمه له عن حياته وشعره . وراجع ما ذكره من مصادر بحثه وخاصة الإحاطة للسان الدين بن الخطيب ونفح الطيب وأزهار الرياض للمقرى ٣٠١/٢ وما بعدها .

وإن انتسبتُ فإنّني مـن دوحـةٍ تَتَفيَّأ الأنســابُ بَرْدَ ظلالهــا
من حِمْيَرٍ من ذى رُعَيْنٍ من ذُرَا حجْرٍ من العظماء من أقْيالها[1]

ولد بتلمسان سنة ٦٥٠هـ/١٣٥٣م أو قبلها بقليل ، وبها كان منشؤه ومرباه ، ولا نعلم شيئا عن أسرته وأكبر الظن أنه كان من أسرة متواضعة ، وقد أقبل على حلقات العلماء ينهل منها ، وسرعان ما عُرف بين أقرانه بذكائه . وتتفتح موهبته الأدبية ، ويصبح من كتاب ديوان الإنشاء فى عهد السلطان التلمسانى يَغْمْراسَن ثم فى عهد ابنه أبى سعيد عثمان (٦٨١-٧٠٣هـ) وقد التقى بالعبدرى الرحالة وأكثر العبدرى من مجالسته ورواية أشعاره فى رحلته وأثنى عليه . وحدث فى أواخر عهد هذا السلطان سنة ٦٩٨ أن حاصر السلطان يوسف بن عبد الحق المرينى تلمسان ومات سلطانها أبو سعيد فى أثناء الحصار كمدا سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٤م . ونجد ابن خميس يغادر تلمسان فى نفس السنة إلى سبتة على مضيق جبل طارق ، ويستظهر ناشر الديوان ومحققه المقدم له الأستاذ عبد الوهاب بن منصور أن يكون ذلك بسبب نصيحة قدمها ابن خميس إلى أولى الأمر التلمسانيين بالدخول فى طاعة المرينيين مما أوغر صدورهم عليه وجعلهم يفكرون فى قتله ، وأحس بذلك ففر عن تلمسان ، وهو ينشد :

وأغــروا بنفسىَ طَلاَّبَهــا سِرارًا فجاءوا لقتلى صُراحا
فشــاورتُ نفسىَ فى ذا فمــا رأتْ لـى بغير الفَلاةِ فلاحا

وقد فَرَّ ابن خميس إلى الفلاة ثم إلى سبتة وأمرائها من أسرة بنى العَزَفى فرحبوا به وأغدقوا عليه من نوالهم وأغدق عليهم من مدائحه ، وكان قد عزم على الإقامة بها وإقراء طلابها ، غير أن بعض الماكرين من شيوخها دسُّوا عليه أسئلة نحوية على لسان الطلاب فلم يعجبه المقام بها ، وجَاز الزقاق إلى مالقة بالأندلس فغرناطة أواخر سنة ٧٠٣ وكان يحكمها حينئذ الأمير محمد الثالث (٧٠١ - ٧٠٨هـ) ووزيره أبو عبدالله بن الحكيم وكان أديبا وراعيا للأدباء من أمثال عبد المهيمن الحضرمى وأبى العباس العزفى فما إن وفد عليه ابن خميس حتى ألحقه بمجلسه وأسبغ عليه عطاياه ، وأخذ ابن خميس يضفى عليه مدائحه ،وجال فى المرية وغير المرية بعض جولات غير أن استقراره كان فى غرناطه بجوار راعيه ابن الحكيم ، ويقال إنه كان يقرىء فيها العربية مع ملازمته لمجالس ابن الحكيم ، وحين دبَّر خصوم الوزير لمقتله وقتلوه قتلوا معه شاعره ابن خميس يوم عيد الفطر مستهل شوال سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٩م .

ويعد ابن خميس أهم شعراء المائة السابعة فى الجزائر بل فى المغرب عامة ، وفيه يقول لسان الدين بن الخطيب إنه « فحل الأوان فى المطول وأقدر الناس على اجتلاب الغريب » ويقول ابن خاتمة : « كان - رحمه الله - من فحول الشعراء وأعلام البلغاء ، يصرِّف العويص ،

(١) حجر ذى رعين : قبيلة يمنية . أقيالها : أمراؤها وملوكها .

ويرتكب مستصعبات القوافى ، ويطير فى القريض مطارَ ذوى القوادم الباسقة والخوافى » ولقبه يحيى بن خلدون بشاعر المائة السابعة الدَّباج الذى لانظير له، ويقول محققه إنه « يمتاز فى شعره على الخصوص بظاهرتين : الجانب القصصى وغرابة الألفاظ ، وقلَّ من شعراء القرن السابع من يضارعه فى قوة العارضة وخصب القريحة وفيض الخاطر وطول النفس ، وندر من يماثله فى سلاسة المبانى وسلاسة المعانى». والقصص عنده قصص تاريخى ولذلك يحتاج قارؤه فى فهم بعض اشعاره إلى الرجوع للمصادر التاريخية ، وكان يكلف بالغريب قائلا فى بعض شعره :

ما ذاق طعمَ بلاغةٍ من ليس للوحشىِّ ماضغْ

ولم يكن يعممه فى أشعاره ، وكأنما كان يريد باستظهاره أحيانا العودة إلى الصياغة الشعرية القديمة إمعانًا فى العروبة . ولم يكن يفزع إلى الغريب دائما إنما كان يفزع إليه فى مخاطبة بنى العزفى وابن الحكيم لما عرفوا به هم ومجالسوهم من اتساع الثقافة اللغوية . ومن أشعاره فى بنى العزفى خائية طنانة استهلها برثاء تلمسان وما أصابها من حصار السلطان يوسف المرينى منذ سنة ٦٩٨ وتعطل معاهد أنسه بها ، ويلوم بنى زيان لتشتيتهم له ولأمثاله ممن نصحوهم بالدخول فى طاعة المرينيين حتى يفكوا عنهم هذا الحصار الذى طال أمده ، ويخرج إلى مدح سبتة وبنى العَزَفى منشدا :

تركتُ لِمينا سَبْتَةٍ كلَّ نُجْعَةٍ كما تُرِكَتْ للعزِّ أَهْضابُها الشُّمْخُ[1]
وآليت أن لا أرْتَوِى غيرَ مائها ولو حلَّ لى فى غيْره المَنُّ والمَذْخُ[2]
فأملاكها الصِّيدُ المقاولةُ الأُلَى لعزِّهمُ تَعْنُو الطَّراخمةُ البُلْخُ[3]
كواكب هَدْىٍ فى سماء رياسةٍ تضىء فما يَدْجُو ضلالٌ ولا يَطْخو[4]
بنو العَزَفِيِّين الأُلَى من صدورهمْ وأيديهمُ تُمْلا القراطيسُ والطُّرْخ[5]
رياسةُ أخيارٍ وملكُ أفاضلٍ كرامٍ لهم فى كلِّ صالحةٍ رَضْخُ[6]

وهو يقول إنه ترك لميناء سبتة كل ما يرجى من نجعة ومعروف ، كما تُركتْ للعز وديانها الشامخة ، وآلى أن لا يرتوى بغير مائها حتى لو عرض له فى غيرها عسل المن المذكور فى القرآن وعسل الرمان ، فحسبه أن ينعم بلقاء ملوكها العظام الذين يخضع لهم الأشراف المزهوون ، وإنهم لكواكب هدى فما يظلم ضلال ولا يعتم ، علماء أجلاء تمتلىء القراطيس والطوامير

(١) النجعة: المعروف والكلأ . أهضابها : هضباتها . الشمخ : العالية .
(٢) المن والمذخ : نوعان من العسل .
(٣) الصيد المقاولة : السادة العظام . تعنو : تذل . الطراخمة البلخ : الأشراف المتكبرون .
(٤) يطخو : يظلم .
(٥) الطرخ : القطعة من الخوص ، ويريد الطوامير لأنها كانت تصنع من ورق البردى .
(٦) رَضْخ : عطاء .

بعلمهم ، أخيار أفاضل كرام ، لهم فى كل صالحة من عمل رضخ أو عطاء جليل ، ويقول لهم :

بَنِى العَرَفِيِّين ابْلُغُوا ما أردتمُ ... فمادون ما تبغون وَحْلٌ ولازَلَخُ[1]
ولا تقعدوا عمن أراد سِجالكم ... فما غَرْبُكم جُفٌّ ولا غَرْفكم وَضْخ[2]
وخلّوا وراءً كلَّ طالب غاية ... وتيهوا على من رام شأوكُمُ وانخُوا[3]
ولا تذروا الجَوْزاءَ تَعْلُو عليكمُ ... ففى رأسِها من وَطْءِ أسلافكم شَدْخ[4]

وهو يقول لهم إن الدنيا تبلغكم كل ما أردتم من منى وآمال فخذوا منها ما تشاءون فما عائق يحول بينكم وبين ما تتمنون وتأملون ولا تلتفتوا إلى من ابتعى مفاخرتكم بأعماله ،فما دَلْوكم خال ولا غَرْفكم قليل ، وخلّوا وراءكم كل طالب غاية وتيهوا وامتلئوا افتخارًا على من يروم أن يبلغ شأوكم من المجد والفخار ، ولا تدعوا الجوزاء تشعر بأنها تعلو عليكم ففى رأسها من وطء أسلافكم شدوخ وشروخ . ويمدح ابن الحكيم الوزير الغرناطى فى شعبان سنة ٧٠٦ للهجرة بقصيدة همزية يستهلها بحنين وشوق ظامىء إلى تلمسان ويخلص إلى مديح الوزير منشدا :

ولولا جِوارُ ابنِ الحكيم محمدٍ ... لمافات نفسى من بنى الدهر إقماءُ[5]
حمانى فلم تَنْشَبْ محلّى نوائبٌ ... بسوءٍ ولم تَرْزَأْ فؤادىَ أَرْزَاءُ[6]
دعانى إلى المجد الذى كنت آملا ... فلم يَكُ لى عن دعوة المجد إبطاءُ
وبوّأنى من هَضْبة المجد تَلْعَةً ... يناجى السُّهَا منها صُعودٌ وطُأطَاءُ[7]
يشيِّعنى منها إذا سرتُ حافظٌ ... وبَكْلؤنى فيها إذا نمتُ كلاَّءُ[8]
ولا مثل نومى فى كفالة غيره ... وللذئب إلمامٌ وللصِّل إلماءُ[9]
إذا كان لى من نائب المُلْكِ كافلٌ ... ففى حيثما هوَّمْتُ كِنٌّ وإدْفاءُ

وهو يعترف بما للوزير ابن الحكيم الغرناطى عليه من منة مشكورة، فلولاه لساق إليه الناس ما يشعره بالذل فقد حماه منهم ومن نوائب الدهر ومحنه ، بل لقد دعاه إلى ما كان يتمنى من مجد وأنزله من هضبته مكانا عليا يناجى منه نجم السُّها صعودا وهبوطا ، وحافظ يشيِّعه إذا سار وحافظ يكلؤه ويسهر عليه إذا نام ، لا كمثل من لا يرعون من يحمونهم من الذئاب والأفاعى ، بل رعاية وكفالة تامة وكِنّ مريح يرد البرد ودفء ما بعده دفء . وله وراء ذلك فى ابن الحكيم مدائح تموج بالغريب وبالصور البديعة ، فقد كان مصورا بارعا ، وكان يخف عليه الجناس

---

(١) زلخ : تزحلق .
(٢) السجال : المفاخرة . الغرب : الدلو الكبير . جف : خال . وَضْخ : قليل .
(٣) شأوكم : مداكم وغايتكم . انخوا : تيهوا وتكبروا .
(٤) الجوزاء: كوكب معروف. شدخ : شرخ وجرح .
(٥) إقماء : إذلال .
(٦) لم ترزأه أرزاء : لم تصبه مصائب .
(٧) تلعة : ربوة . طأطاء : هبوط .
(٨) يكلؤنى : يرعانى ويحفظنى . كلاّء : حافظ .
(٩) إلماء : انقضاض .

والطباق حين يريدهما ، وهو يعد فى الذروة من شعراء المغرب عامة والجزائر خاصة وسننشد له أشعارا فى الطبيعة وفى النزعة الصوفية إذ كان فنانا كبيرا فى كل ما ألم به من موضوعات .

محمد[1] بن يوسف القيسى الثغرى التلمسانى

أهم شعراء الجزائر فى المائة الثامنة لعهد أبى حمو موسى الثانى، وكان يعاصر كوكبة من الشعراء المبدعين أمثال ابن أبى جمعة التلالسى وعبد المؤمن بن يوسف المديونى ومحمد بن صالح الشقرونى وابن ميمون السنوسى ومحمد بن على العصامى ويحيى بن خلدون وغيرهم كثير. وليس بين أيدينا ما يشير إلى التكوين الأدبى للثغرى ، غير أن بيئته كانت تكتظ بالعلماء والأدباء ، وكان من ترى فيه مخايل النبوغ الأدبى يختار للعمل فى دواوين الدولة ، واختير الثغرى وأصبح كاتب الإنشاء لأبى حمو الثانى، كما أصبح شاعره الفذ الأول، وكان أبو حمو الثانى (٧٦٠-٧٩١هـ) يرعى الأدباء ويجزل لهم العطاء ، وكان أديبا كما كان شاعرا كبيرا فطبيعى أن يعنى بالأدباء والشعراء لعهده وأن يكون لشاعره محمد بن يوسف الثغرى حظ كبير من هذه العناية . وكان قد استنَّ الاحتفال بالمولد النبوى منذ استولى على صولجان الحكم فكان ينظم فيه مدحة مولدية وكذلك شعراؤه وفى مقدمتهم الثغرى ، وكانوا يستطردون فيها من مديح الرسول ﷺ إلى مديحه ، وسنلم بذلك فى حديثنا عن المديح النبوى إنما تهمنا الآن مدائح الثغرى فى أبى حمو موسى الثانى وابنيه أبى ناشفين وأبى زيان، ومن قصيدة يمدح فيها أبا حمو :

ياإمـامَ الهدى وشمسَ المعالى	وغمـام النَّدَى وبدرَ النَّوَادِى
لـك بين الملـوك سِـرٌّ خَفِيٌّ	ليس معنـاه للعقـول ببادِى
وكأنّ البـلادَ كفُّك مهمـا	كان فيهـامن ينتمى لعِنـادِ
لم تـزل دائمـا تحنُّ إليكـم	كحنـين السَّقيم للعُـوَّادِ
قـد أطاعتكـمُ البلادُ جميعًا	طاعةً أرغمتْ أنوفَ الأعادى
فأرِيحُوا الجيـادَ أتعبتموهـا	وأقِرُّوا السُّيُوفَ فى الأغْمـادِ

وهو يشيد به ، فيجعله إمام الهدى وشمس المعالى وسحاب الكرم والبدر المضيء الهادى ويقول إن له سر اخفيا بين الملوك جعله محبوبا من شعبه ، وكأنما يقبض على البلاد بكفه ، بل هى كفه ، حتى لو كان فيها خارج عليكم ،وإنها لاتزال تحن إليكم حنين السقيم للعواد ،

(١) انظر فى محمد بن يوسف الثغرى التلمسانى كتاب نيل الابتهاج لأحمد بابا ص٢٩٤ وبغية الرواد ليحيى بن خلدون وتاريخ بنى زيان لمحمد بن عبد الله التنسى (انظر فهارسهما) وكذلك فهارس الجزء الثامن من نفح الطيب وأزهار الرياض ٣٢٩/٢ وما بعدها .

فأنت بلسمها المداوى الشافى . ويقول إن البلاد جميعا تطيعك فأرح الجياد التى طالما أتعبتها وأقِرَّ السيوف فى أغمادها وعش قرير العين مطمئن البال . وله فيه من أخرى أشاد فيها بتلمسان ومشاهدها إشادة بديعة ، وفيه وفى قبيلته بنى عبد الواد يقول :

فُرْسانُ عبدالوادِ آسادُ الوَغَى ... حاموا الذِّمارِ أولو الفَخار الأطولِ
وإذا أمير المؤمنين رأيته ... فالثَمْ ثَرى ذاك البِساط وقبِّل
بُشرَى لعبدالوادِ بالملك الذى ... خلصوا به من كل خطبٍ مُعْضلِ
وكفاهمُ سعدًا أبوحمّو الذى ... يحمى حِماهم بالحسام الفَيْصَلِ
وبحسن نِيَّته لهم وبجدِّه ... وبسعده وبسعْيه المتقبَّل
ذُو الهمَّة العَلْيا التى آثارها ... حلَّت به فوق السِّماك الأعْزلِ

وهو يشيد بفرسان قبيلة عبد الواد أسد الحروب أصحاب الفخار العظيم الذين يحمون الحمى ، وإذا رأيت أمير المؤمنين فقدم له كل ما يمكن من تجلة ، وبشرى لعبد الواد ملكهم الذى خلصهم من كل ما ألم بهم من خطوب خطيرة ، ويكفيهم سعدا أنه أبو حمو حامى حماهم بشجاعته الباسلة وهمته القعساء التى حلَّت به فوق نجم السماك المصعد فى السماء . وكان مايزال ينظم مولديات فى احتفال أبى حمو بليلة المولد النبوى وكان يستطرد فيها إلى مديحه دائما بمثل قوله فى إحداها :

ظفر التُّقَى والعَدْلُ من موسى الرِّضا ... بالجوهر الفرد الذى لا يُتْأمُ
يأأيها الملك التقىّ ومن له ... شرفٌ على سَمْك السِّماك مخيِّم
أعطيتَ بالعدل الخلافة حقَّها ... فملوكها فى حقها لك سلَّموا
جودٌ وإحسانٌ وقصدٌ فى الهدى ... حسنٌ و عقد فى التقى مستحكم
وتواضعٌ يعلى وقدرٌ يعتلى ... وندَى يدٍ تَهْمى وبشرٌ يبسم
والحلمُ أوسع والجناب مؤمَّلٌ ... والعزُّ أمنع والسجيَّة أكرم

وهو يقول إن التقى والعدل جميعا ظفرا من أبى حمو بالجوهر الفرد الذى لا نظير له ، وإن تقاه ليخلع عليه شرفا يسمو به فوق نجم السماك الأعلى ، وبالمثل عدله الذى يسبغ على الخلافة جميع حقوقها مما جعل ملوكها يسلِّمون لك عن يد ، وهذا أنت جود وإحسان وهدى وتقى وتواضع ومكانة كبيرة وكرم يهمى ويهطل وبشر يبسم وحلم أوسع وكنف مؤمَّل وعز منيع وسجايا كريمة . ويظل يرصف له فضائل كريمة كثيرة . ويتحول الثغرى بعد أبى حمو الثانى شاعرًا لابنه أبى تاشفين (٧٩١-٧٩٥هـ) وينشده مولديات يستطرد فيها إلى مديحه من مثل قوله فى الاحتفال بليلة سابقة لليلة المولد الشريف :

إمـامٌ تولَّـى اللّـهُ تشييدَ فخـرِهِ ... فمـا شئت من مجدٍ ومن كـرمٍ عِدّ
يعـدُّ إلى الأعـداء كلَّ كتيبـةٍ ... بهـا الجُرْدُ تَرْدِى والقـوارسُ كالأُسْدِ
يُهـاب ويُرْجَى فى جـلال جمالـهِ ... كليثٍ وغيـثٍ فى وعيـدٍ وفى وَعْدِ
فيا مالـكا يحمى الرعيَّـة رَعْيُـهُ ... ويحييهمُ بالبـذل والعيشة الرَّغْـد
ويكفلهم بالعـدل والفضـل والنَّـدَى ... ويشملهم بالجـود والرفق والرِّفْدِ

وهو يمدح أبا تاشفين بما أسبغ الله عليه من مجد ومن كرم فياض ، ويقول إنه يعد إلى الأعداء كتائب تضرب خيلها الأرض بحوافرها الصلبة ويضرب فرسانها الأعداء ضربات مصمية ، وإنه ليهاب كليث فى وعيده ويرجى كغيث فى وعده ، ودائما يحمى الرعية برعايته ويحييهم بما يسبغ عليهم من عطاء ورخاء مع ما يكلفهم به من العدل والفضل ويشملهم به من الرفق والجود والكرم المدرار . ويلحق الشاعر عصر أبى زيان (٧٩٦ – ٨٠١هـ) وفيه يقول من ميلادية طويلة :

لئن كان بحـرا فى العلـوم فإن فى ... بَنـان يديـه للنَّدَى أبحـرا عَشْـرا
ومـاهُمُّـه إلاكتـابٌ وسـنّةٌ ... بنسخهما قد أحرز الفخر والأجْرا
فنَسْخُ كتـاب الله جَـلَّ جـلالهُ ... ونَسْخُ البخـارى ضامنان له النَّصْرَا
ومَنْ كان يعتـدّ الشفـاءَ شفاءَهُ ... فمـن عـلل الأوزار فى نَسْخه يَبْرا
ولم أدر والأوراقُ راقـتْ بخطِّـه ... أمسـكا على الـكافور يُنْثَرُ أم حِبْرا
ألاهـكذا فَلْيَسْمُ للمجد مَنْ سَمَا ... ويُجْرِىْ لآمـاد الفضائل من أجْرَى

وكان أبو زيان كلفا بالعلم كما وصفه التنسى ولم يخل مجلسا له من مناظرة أو مذاكرة ومحاضرة ، وكان غيثا مدرارا فى الجود والكرم ، وجعل همه – كما يقول الثغرى والتنسى – كتابة نسخ من المصحف الشريف ، وتحتفظ الخزانة العامة للرباط بإحدى هذه النسخ النفيسة ، وهى على رق غزال ومحلاة بالذهب وجميع ما فيها من أسماء الله الحسنى مكتوب بالذهب .وكتب نسخة من صحيح البخارى ونسخا من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للقاضى عياض . وبحق ما يقوله الثغرى من أن من يعتد شفاء القاضى عياض شفاء له يبرأ به من جميع الأوزار فما بالك بمن يعتد بالبخارى وأهم من ذلك وأعظم بالقرآن الكريم . ويقول الثغرى إن من يرى المداد على تلك الأوراق إنما يرى مسكا منثورًا على الكافور ، وما أعظمه من مجد حققه لنفسه أبو زيان ، وهو مجد خليق بأن يتسابق إليه المتسابقون ويتنافس فيه المتنافسون . ولم تذكر المراجع متى توفى الثغرى ، وأكبر الظن أنه توفى فى آخر القرن الثامن أو فى أوائل التاسع الهجرى .

الشهاب[1] بن الخلوف

هو شهاب الدين أحمد بن أبى القاسم بن عبد الرحمن بن الخلوف لقبا الحميرى نسبا ، ولد لأبيه فى قسنطينة سنة ٨٢٩ هـ/١٤٢٥ م وقصد بابنه بعد ولادته توًّا لأداء فريضة الحج ، وظل مجاورا بمكة أربع سنوات ، وبارحها إلى مدينة بيت المقدس واستقر بها حتى توفى سنة ٨٥٩ هـ/١٤٥٥ م . وفيها نشأ ابنه الشهاب ، فحفظ القرآن واختلف – بعد حفظه – إلى حلقات الفقهاء واللغويين والقراء وغيرهم من العلماء ، واستوعب كثيرا مما عندهم ، وشُغف – منذ صباه – بالأدب شعرا ونثرا كما يحكى الدكتور هشام بوقمرة محقق ديوانه فى مقدمته له ، إذ ذكر أن الشاعر قال فى إحدى مخطوطات ديوانه : « كنت ممن ولع بعصفورى النظم والنثر فى الصبا ، مستوهبا من دوحتيهما نسمتي القبول والصِّبا ، مقتطفا لزهرتيهما من رياض الآداب ، ملتقطا لدرتيهما من أصداف الطِّلاب[2] ، لا أسلك واديا لم يترنم فيه حمامهما ، ولا أعكف على حديقة لم يمطر فيها غمامهما ، ولا أرقب سماء لم تلح فيها زواهرهما[3] ولا أخوض بحرا لم تتكون فيه جواهرهما إلى أن ظفرت من المطلوب بأوفى نصيب ، واحتويت من كنانتيهما[4] على كل سهم مصيب » . وسرعان ما تفتحت موهبته الشعرية ، وأعجب بشعره أبوه ، فأمَّل أن يكون له شأن بين شعراء تونس ، فنصحه بالهجرة إليها فى تاريخ غير معروف ، ويظن أنه هاجر إليها فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، وأخذ يظفر بغير قليل من إعجاب الأدباء ، مما أتاح له وهو فى السادسة والعشرين أن يكون فى مقدمة المهنئين لسلطان تونس عثمان الحفصى (٨٣٨ – ٨٩٣ هـ) باقتران ابنه وولى عهده المسعود من ابنة عمه سنة ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م وأعجب به السلطان وابنه المسعود فعاش فى حاشيتهما واتخذه المسعود كاتبا له ، وكان يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، ولذلك كان يلقب فى حياته بصاحب الصناعتين . ويشكو مرارا وتكرارا فى مدائحه للسلطان عثمان وابنه المسعود من حساده ومنافسيه ، ومن أهمهم زميله فى الكتابة بديوان المسعود الشاعر محمد الخيِّر المالقى الذى كان يكثر من معارضة أشعاره . وظل ابن مخلوف يلازم المسعود حتى سنة ٨٧٧ هـ/١٤٧٣ م إذ يعزم فيها على أداء فريضة الحج ، ويؤديها ويظل فى القاهرة نحو أربع سنوات تنعقد فيها الصداقة بينه وبين مؤرخ مصر الكبير السخاوى صاحب كتاب الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، وقد ترجم له فيه ، ويقول عنه إنه : « حسن الشكل والأبهة ظاهر النعمة طلق العبارة بليغ بارع فى الأدب ومتعلقاته »

---

(١) انظر فى ترجمة الشهاب بن الخلوف رحلة عبد الباسط بن خليل المصرى إلى المغرب ودرة الحجال لابن القاضى والضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى وشذرات الذهب لابن العماد ونيل الابتهاج للتنبكتى وإتحاف أهل الزمان لابن أبى الضياف وتاريخ الأدب التونسى لحسن حسنى عبد الوهاب ومقدمة محقق الديوان الدكتور هشام بوقمرة (طبع تونس) وله طبعة قديمة فى القرن الماضى غير محققة .

(٢) الطلاب : المطلوب .

(٣) زواهر : جمع زاهر : النجم المضيء .

(٤) الكنانة : جعبة السهام .

ويصفه بالظرف وحسن الهيئة . وعاد إلى تونس سنة ٨٨١ هـ/١٤٧٧ م ويعود إلى الكتابة عند المسعود ، ويقول الدكتور هشام بوقرة إن المسعود جفاه سنة ٨٨٨ هـ/١٤٨٤ م ولم يلبث أن رضى عنه سنة ٨٩٠ هـ/١٤٨٦ م وظل كاتبا له حتى وفاته سنة ٨٩٣ هـ/١٤٨٨ م وفى نفس السنة توفى السلطان عثمان الحفصى ، وخلفه حفيده يحيى بن المسعود بوصية منه ، ولم يدر العام حتى قتل فى معركة مع ابن عمه عبد المؤمن والى بجاية ، واستولى عبد المؤمن على صولجان الحكم فى تونس ، ولم يهنأ به طويلا فقد ثأر منه زكريا بن السلطان يحيى المقتول فى أوائل خريف العام التالى سنة ٨٩٥ هـ/١٤٩٠ م واستولى على أزمة الحكم ، وصوَّر ذلك ابن الخلوف فى رائية له يمدحه بها قائلا :

حُزْتَ الخلافة عاصبا لا غاصبا والحق ورَّثَك النفيسَ المدَّخَرْ

وهو يقول له إنك حزت الخلافة أو السلطنة عاصبا أى عن طريق الإرث عن الآباء لا غاصبا عن طريق الظلم والعدوان ، واجتاح تونس سنة ٨٩٩ هـ/١٤٩٤ م طاعون توفى فيه السلطان زكريا وأيضا توفى فيه الشهاب بن الخلوف ، وربما توفى قبله بقليل . ونجده لا يكتفى بما ينظم من الشعر فى أغراضه المعروفة من المديح والرثاء والغزل والخمريات والوصف وغير ذلك من الأغراض التى رتَّب عليها الدكتور هشام بوقرة ديوانه ، إذ نظم كثيرا من الشعر التعليمى وله فيه منظومات كثيرة ، فقد نظم كتاب المغنى لابن هشام كما يقول مترجموه وله فى النحو أيضا منظومة فى صيغ الأفعال ، ونظم كتاب التلخيص فى علوم البلاغة للقزوينى ، وله بديعية صوَّر فيها ألوان البديع ومحسناته لعصره ، وله أرجوزة فى علم الفرائض ، وله فى العروض تحرير الميزان لتصحيح الأوزان . وله بجانب ديوانه المذكور آنفا ديوان فى المدائح النبوية سماه « جَنا الجنتين » ويشيد مترجموه به إشادة رائعة . ونراه يستهل ديوانه العام قبل أغراضه المختلفة ببعض قصائد وأزجال وموشح فى المديح النبوى ، ويبدو أن له كثيرا من الأزجال فى أغراض مختلفة ، وبالمثل له موشحات متعددة . وهو مداح كبير ، وقد ظل طوال أربعين عاما يمدح السلطان عثمان الحفصى وابنه المسعود فى الأعياد والمناسبات المختلفة ، ويلزمهما ملازمة المتنبى لسيف الدولة ، ومن قوله فى السلطان عثمان :

إمـامٌ بَـراه اللّهُ أولى عبـاده بحـقٍّ وأهداهم لأوضح حُجَّةِ
تؤمَّل نُعمـاه ويُخْشَى انتقامُه لطالـب سِلْمٍ أولطالـب فتنـةِ
يصـولُ ويحمى شِرْعـةً نبويَّةً بِسُمْرٍ رِشاقٍ أو بِبيضٍ جَلِيَّةِ[1]
له دولةٌ أربَـتْ على كل دولـةٍ بتأييـد آراءٍ وتأيـد نُصْرَةِ
يحنُّ إلى المعـروف حتى يُنيلـه كما حنَّ مشتاقٌ لوصل الأحبَّةِ

(١) السمر : الرماح . البيض : السيوف .

وهو يقول إنه إمام اختاره الله لرعيته لأنه أولاهم بحق الخلافة وأهداهم لأوضح حجة دامغة ، وإنه ليوزع نعماه وعطاياه على طلاب السلم المطيعين بينما ينزل نقمه على طلاب الفتن العاصين ، وإنه ليحمى الشريعة النبوية ويذود عنها بالرماح والسيوف المصمية ، وإن دولته لتسمو على كل الدول بالآراء الصائبة والانتصار الساحق ، وإنه يصبو دائما إلى بذل المعروف والأعمال الخيِّرة كما يصبو المحب إلى وصل محبوبته ، ويقول فيه من أخرى :

تملَّك رِقَّ الجـود واسـتخدم الغِنَى ... فلـم يبـق عـانٍ يشتكى ألمَ الفَقْرِ[1]
إذا مـادعـاه العُسْرُ يـا محيِيَ الوَفـا ... بـدا فدعـاه اليُسْرُ يا قاتـل العُسْرِ
رَوَى الفَضْلُ أخبـارَ التُّقَى عن كمالِـه ... كما نمَّ عن طِيب الرُّبى طيِّبُ النَّشْرِ[2]
لقـد ذُكـرتْ للأوَّلـين فضـائلٌ ... ولكنَّ هذا الفضـل لم يَجْرِ فى ذِكْرِ
سخـاءُ يدٍ تَرْوِى الجـداولُ ماءهـا ... عن السَّيْل عن قَطْر الغمام عن البَحْر
ومجـدٌ كما تـرْوِى الأشـعَّةُ نـورها ... عن البَرْق عن زهر النجوم عن البَدْر
وحَسْبُك يافَـرْعَ المـكارم والعُـلا ... أصولٌ زكتْ فى رَوْضة المجد والفَخْرِ

وهو يصفه بأنه استرقَّ الجود وامتلكه وأصبح الغنى أو الثراء له خادما يرسله ويوزعه كيف شاء حتى لم يبق بائس يشتكى ألم البؤس والفقر ، ويتخيل أن العسر ناداه يا محيى الوفاء ، ولم يكد يبدو ويظهر حتى ناداه اليسر يا قاتل العسر : كناية عن كرمه الفياض ، ويقول إن الفضل والتقوى ينمان عن كماله ونبل خلقه وشمائله كما ينم الشَّذَى العطر عن طيب الرُّبى وأزهارها الأرجة ، وينوه بفضله ويقول إنه يفوق فضائل الأولين ، فلم تنطق الألسنة بفضل يمائله ، ويشيد بسخائه وكرمه ، ويقول إن مياهه لتغمر أنحاء تونس وكأنما تفيض عن سيل ، عن غمام منهمر ، عن بحر تتدفق أمواجه ، وهى مبالغة شديدة . ومثل ذلك قوله إن مجده كما تروى الأشعة نورها الساطع عن البرق عن النجوم المضيئة عن البدر ، ويقول له حسبك الأصول التى نمت فى روضة المجد والفخر الذى ليس مثلهما فخر ولا مجد . وله ينشد فى إحدى مدائحه :

ملكٌ إذا هـزَّ الحسـامَ بكفِّـهِ ... خَرَّتْ لبارق رَعْده الخُرْصانُ[3]
لو فُرِّقـتْ عزماتـه وهباتُـه ... فى الناس لم يك باخلٌ وجبـانُ
ويرى العواقبَ فى صحيفة فكره ... فكأنمـا أفكـاره كُهَّـانُ
تُعْزَى إلى الغيـثِ السَّكوبِ هباتُه ... هيهـات أين الغيث والطوفانُ
يُصْغى الزمـانُ لأمـرهِ ولنَهْيـه ... وتطيع الانْسُ لحكمه والجـان

(١) عان : بائس فقير .
(٢) النشر : الرائحة الذكية الساطعة .
(٣) الخرصان : السيوف يريد سيوف الأعداء .

وتراه ما بين الأسنّة سافرا كالبدر دارتْ حوله الشُّهْبانُ[1]
أنتَ الإمام ومَنْ عداك رعيَّةٌ أنت المقدَّم والوَرَى أعوانُ

وهو يقول له إنه مفرط الشجاعة حتى إذا صال فى ميادين الحروب وهزّ حسامه سقطت السيوف من أيدى أعدائه هيبة ورهبة ، ويمضى الشاعر فى مبالغاته فلو وزعت هباته وعزماته فى الناس لم يبق بخيل ولا جبان ، ويبلغ من نفاذ بصيرته أن يتنبأ بعواقب الأمور وأن تحدث طبق تنبؤه ، حتى لكأن تنبؤاته أفكار كهان يبصرون الغيب ويخبرون به ، وإن هباته لتعزى إلى الغيث المنهمر ، بل أين الغيث منها والطوفان ، وقد بلغ من عظم السلطان أن أصبح الزمان يصدر عن أمره ونهيه وأصبحت الإنس تطيع حكمه والجان ، وإنه ليخوض الحروب بين السيوف والرماح بوجه مشرق كالبدر تحفّ به النجوم الساطعة ، ويقول له إنك الإمام والرعية من حولك أعوان ونصراء . وله فى مديحه موشحة بديعة ، يقول فى تضاعيفها :

قابل النورُ ظلمة الحَلَكِ بِمصباحٍ منيرٍ[2]
ورقا النجمُ ذروةَ الفلَكِ خائفًا مستجيرْ
بأبى عمرو الرضا الملكِ من سَعير الهجيرِ[3]
مَنْ رَوَى المجد عن علا عُمرٍ بِطريق الصِّحاحْ
وسَرَى فى النُّهَى على قدرٍ بمَطايا الفلاح
لو رأى البدر وجهه الطَّلْقا لاعتراه السجودْ
لو رأى الغيث جوده الغَدْقا لاسْتَحَى أن يجود
فاق خَلْقًا وقد حوى خُلُقا قارنتْه السعود
بَوَّأ الملكَ رتبة الظَّفَرِ بعوالى الرِّماحْ
ومَحى عَزْمُه دُجَى الغِيَرِ بِصباحِ الصِّفاحْ[4]

والموشحة طريفة ، وهو يستهلها بوصف الطبيعة وصفا بديعا ويخرج منه إلى مديح أبى عمرو عثمان الحفصى وكأنما يتخذ من نور الفجر رمزا لحكمه الرشيد ، وكان الوقت صيفا والقيظ شديد الحرارة ، فقال إن النجم علا ذروة الفلك مستجيرا بالسلطان أبى عمرو المحبوب من نار الهجير ، ويقول إنه روى مجده عن آبائه المنتسبين إلى عمر بن الخطاب نسبة صحيحة أو بطريق الآثار الصحاح كما يقول ، ويمضى فى مبالغاته فلو رأى البدر وجهه المستبشر لخرّ ساجدا ولو رأى الغيث جوده المدرار لعلاه الخجل والاستحياء ونوّه به خَلْقًا وخُلُقا ، ويدعو

(١) الشهبان جمع شهاب : النجم المضيء والشعلة الساطعة .
(٢) الحلك : سواد الليل
(٣) الهجير : نصف النهار فى القيظ .
(٤) الصفاح : السيوف . الغير : الأحداث .

له أن يقترن هو وحكمه بالسعود . ولعل صوت الشهاب بن الخلوف اتضح لنا اتضاحا تاما ، وهو صوت يكتظ بالعذوبة والسلاسة وصفاء التعبير ويجمع بين الرقة والمتانة ، وكأنما يستمد من معين لا ينضب ، معين زلال ممتع دون أن يكلفك أى عناء فى فهم لفظة أو عبارة ، إذ كان يشغف بالوضوح التام كل الوضوح .

محمد[1] القوجيلى

من كبار شعراء مدينة الجزائر فى القرن الحادى عشر الهجرى لعهدها العثمانى ، ولا نعرف شيئا واضحا عن نشأته ، غير أن من المؤكد أنه عكف على حفظ القرآن الكريم فى صباه مثل لداته ، حتى إذا أتقن حفظه وجوّده على قرائه أخذ يختلف إلى حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الفقه والحديث النبوى والعربية والأصول والتوحيد والبيان والبلاغة ، وتميز فى علمه بالفقه والشريعة ، مما أعدَّه ليصبح قاضيا من قضاة الدولة . وشغف مبكرا بالشعر ، وأخذ ينهل من دواوينه حتى استقامت له ملكته الشعرية . وسرعان ما أصبحت ملكته خصبة ، واتجه بها أول ما اتجه إلى المشاركة فى الشئون السياسية والتعبير عن أمانى أمته الجزائرية ، وكان من أهم آمالها فى بواكير شبابه تخليص وهران من أيدى الإسبان الذين طال احتلالهم لها منذ أوائل القرن العاشر الهجرى ، ونراه حين ولى الجزائر أحمد باشا سنة ١٠٠٧هـ/١٥٩٩م يهنئه بولايته ويحضه على الجهاد ضد الإسبان حتى ينهزم جمعهم فى وهران ويولون عنها فرارا ، بل حتى يسحقهم سحقا لا يبقى منهم باقية ، يقول :

فرحتْ جزائرُنا بكم وتأنَّستْ ... بمقامكم فيها بحال حُبورِ[2]
فَلْتَلْتفتْ نحو الجهاد بقوةٍ ... والكفرِ فاقطعْ أصله بذكور[3]
وبِغَرْبِنا وهرانُ ضِرْسٌ مؤلمٌ ... سهلُ اقتلاعٍ فى اعتناءٍ يسيرِ
فانهضْ بعزمك نحوها مستنصرا ... باللّه فى جِدٍّ وفى تَشْمير
بعساكرٍ مثل السيول تزاحمتْ ... للسبق تحت لوائك المنصورِ

ونرى القوجيلى يتحول من دعوة الوالى لجهاد الإسبان وفتح وهران إلى نصحه بأن يصرف للعلماء والأدباء شعراءَ وكتابا إعانات تعينهم على العيش الكريم ، إذ كان ولاة العثمانيين على الجزائر لا يفهمون العربية ، فكانوا لا يعنون برجال الدين فضلا عن الشعراء والكتاب وساعد على ذلك أن ديوانهم – حينئذ – كان تركيا خالصا ، فلم يعد للأدب ولا للعلم سوق رائجة فى عهدهم ، مما جعل القوجيلى يدعو الوالى الجديد إلى تلافى ذلك حتى لا تنتكس الحركة العلمية والأدبية ، وإنه ليهتف بالوالى العثمانى :

---

(١) انظر فى ترجمة محمد القوجيلى كتاب أشعار جزائرية تحقيق د . أبو القاسم سعد الله وما ذكره عنه فى كتابه تاريخ الجزائر الثقافى (انظر الفهرس) .

(٢) حبور : سرور .

(٣) الذكور جمع ذكر : السيف الصلب القاطع .

العلـــمُ مـيراث النبـــوَّة ناله ... قومٌ لهم حـظٌّ من التنويـــرِ
كم في بلادك من نجيبٍ حافظٍ ... ومشـــاركٍ فى النظم والمنثور
ومحقـقٍ ومـدقق ومناظـــر ... من كل درَّاك الحِجَى نِحْريـر
لكنهم فقـدوا الإعانة واغتدوا ... ما إن يراعيهـم ذوو التأمـيرِ
ضاعوا وجاعوا لا محالة وابتُلوا ... فى ذا الزمـان الصعب بالتقتير

وهو يقول له إن العلماء ورثة الأنبياء ، وكم فى البلاد من حافظ محدث وشاعر وكاتب وفقيه محقق وعالم مدقق ومناظر يدرك براهين الحجى والعقل نحرير حاذق فى عمله كل الحذق ، غير أنهم فقدوا ما يسد رمقهم ، وابتلوا فى العصر بالتقتير والتضييق عليهم فى النفقة ، إذ لا يراعيهم أمراؤهم أو ذوو التأمير .

ويصبح القوجيلى قاضيا فى تاريخ غير معروف ، وتدل تلك الوظيفة على ما حاز لنفسه من الدراسات الدينية وخاصة الفقه وما عرف به من القدرة على الفتوى السديدة ، وأكبَّ على دراسة الحديث مما جعله ينظم عملا شعريا حول الجامع الصحيح للبخارى سماه : « عقد الجمان اللامع المنتقى من قعر بحر الجامع » وهو منظومة فى مخرجى أحاديث البخارى وعدد الأحاديث التى لكل منهم مع بيان المكثر منهم والمقل فى السند على ما أورده ابن حجر المصرى وزاد عليه تراجم الرواة . ويبدو أنه كان يضيف إلى اشتغاله بالقضاء اشتغاله بتدريس الفقه والحديث للطلاب . ويتولى صديق له الفتيا يسمى أبا عبد الله محمد بن قرواش ، ويتصادف حدوث زلزال عند توليه ، فيتطير من ذلك ، فيمدحه بقصيدة محاولا فيها أن يجعل الزلزال بشرى لفرح الأرض بتوليه هذا المنصب الدينى الجليل قائلا :

اِهْنَـأْ أبـا عـبد الإلـــــه بخِطَّةٍ ... جاءتْك وهْى لدى الزمان جمالُ[1]
والأرض قـد فرحـتْ بمـــا خُوِّلْتمُ ... مرحتْ بسائطُها ومـــال جبـال[2]
وتحـرَّكتْ أرْجـاؤهـا طربًا بكـــم ... مـا مسَّهـا رَجْفٌ ولا زلْـــــزالُ
بل إنمـــا ماستْ لذلك نخـــوةً ... حتى لقد رقصتْ بنـــا الأطلالُ[3]

والأبيات تدل على أن ملكته الخيالية كانت خصبة ، وأنه كان يعرف بها كيف يجعل ما قد يظن أنه نحس أو شؤم فألا حسنا لفرح وسرور وحياة هنيئة طيبة . وانعقدت صداقة متينة بينه وبين الفقيه الحافظ على بن عبد الواحد الأنصارى السجلماسى الذى هاجر بأسرته من مدينته سجلماسة بالمغرب الأقصى إلى مدينة الجزائر حوالى سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣١م واتخذها وطنا ثانيا له حتى وفاته سنة ١٠٥٧هـ/١٦٤٨م وكان عالما متبحرا فى جميع العلوم الدينية

(١) يريد بالخطة منصب الفتوى .
(٢) خولتم : أعطيتم . ويريد بسائطها : المنبسط من الأرض .
(٣) ماست : اختالت .

واللغوية والبلاغية ، وطارت شهرته فى إقليم الجزائر والمغرب الأقصى وقصده الطلاب من كل فج ، ونرى القوجيلى يمدحه بقصائد متعددة . وهى ظاهرة كبرى فى العهد العثمانى بالجزائر أن نرى الشعراء منصرفين بمدائحهم عن الولاة العثمانيين إلا قليلا ، لأنهم كانوا تركا ولم تكن كثرتهم تفهم العربية فضلا عن إحسانها ، فقلَّ منهم من فتح أبوابه للشعراء إلا نفرا محدودا لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، ولذلك انحاز الشعراء الجزائريون بمدائحهم عن الولاة العثمانيين وأخذوا يسبغونها على الشيوخ من العلماء الأجلاء ، على نحو ما نرى عند القوجيلى فى إكثاره من مديح الحافظ الفقيه على بن عبد الواحد الأنصارى ، يمدحه – كما يمدح أمثاله من الشيوخ – لا طلبا لنوال أو عطاء ، وإنما تجلَّة وعرفانا لهم بالفضل وما أوتوا من العلم النافع . ومن مديح القوجيلى للشيخ الأنصارى قوله فى إحدى مدائحه :

أبو الصلاح علىٌّ فى الكرام عَلا ... من لا يماثلـه فى الناس من أحَدِ
بحـرٌ طَمَى فرمى دُرًّا لملتقـطٍ ... غيثٌ هَمَى فنَما نفعًا لمجتهـد[1]
أكرمْ بمجلسه السامى فقد ظهرتْ ... لنا به نفحاتُ العَوْن والمددِ
تلاطمتْ فيه أنواع العلوم كما ... تلاطم البحر بالأمواج والزَّبَدِ
من يُحْرم الرِّىَّ من صافى مشاربه ... يعضُّ من ندمٍ فى شفةٍ ويدِ

وهو ينعت الشيخ الأنصارى بالصلاح حتى ليجعله أياه ويرفعه درجات فوق الناس قائلا إنه لا يماثله أحد من العلماء ، يريد من نظرائه الفقهاء ، ويشيد بمجلسه العلمى وما يعرض فيه من نفحات العلوم ، بل يقول إنه تتلاطم فيه تلاطم الأمواج والزبد فى البحر المتوسط ، ويقول إن من لا ينهل من صافى علومه يندم ندما شديدا . وله يقول فى مدحة ثانية :

علاَّمةٌ أحيا العلوم وقد ... خفيتْ معانيها على الكُثْرِ
يا طالبًا للعلم هل لك فى ... رُشْدٍ وفى الإكثار من خَيْر
اقصد لمجلسه تَنَلْ شرفًا ... وتحوز فخرًا أيَّما فَخْر[2]
إن جئت مجلسَه تجدْ عجبا ... منه العلوم تفيض كالبحر
بدرايةٍ وروايةٍ ثبتتْ ... بصحيح إسنادٍ عن الغُرِّ[3]

وهو يشيد بعلمه وتناهيه فيه أو بلوغه منتهاه ، حتى ليعدّه محييا له ، وينصح طالب العلم أن يقصد إلى مجلسه لينال شرف العلم وفخره ، إذ سيجده يفيض على طلابه بسيول من علومه وسيجده يجمع بين الدراية والرواية ، وبعبارة أخرى بين المعقول والمنقول ، فهو من أهل الاجتهاد والرواية الوثيقة بأسانيد صحيحة عن رواة أعلام . وكانت قد حدثت اضطرابات فى

(١) طما : امتلأ . همى : سال .
(٢) رفع تحوز ولم يجزمها عطفا على فعل تنل فى جواب الأمر لضرورة الشعر .
(٣) الغر : الثقات .

العقد الحادى عشر الهجرى وظُنَّ أن الباب العالى فى إسطانبول سيعيِّن على الجزائر واليا جديدا ، ونرى القوجيلى يذهب إلى إسطانبول على رأس وفد جزائرى سنة ١٠٦٥هـ/١٦٥٥م ملتمسا من السلطان –وكان حينئذ محمد خان الرابع– موافقته على إصدار فرمان بتولية يوسف باشا، وما إن يضع القوجيلى قدمه فى تلك المدينة حتى يتجه بقصيدة إلى مفتى إسطانبول أبى سعيد ، يمدحه بها ويسأله أن يكون شفيع وفدهم لدى الخليفة العثمانى فى قبول ملتمسهم، ومن قوله فيها :

سعدتَ فدُمْ فى العزِّ واستكمل العَلْيا ... ودُم فى اقتناء المعلوات مدى المَحْيا[1]
وكُنْ ملجـأً للوافديـن فمـن يُعِنْ ... أخًا فهْوَ فىعَـوْن الذىكوَّن الأشـيا
شـكايتنـا مـا دهانـا بقُطْرنـا ... توالـتْ علينا أعصرٌ أورَثَتْ غَيَّا[2]
وكم من أميرٍ ظُـنَّ يكشـف ضُرَّه ... فلم يُلْف ما قد ظُنَّبل قد وَهَىوَهْيا[3]
وأولاهمُ فى العـزم والحزم والوفـا ... سمىُّ الذى فى السجن قد عبَّر الرُّؤيا
فكـن عَوْنَنـا عنـد الخليفة وامْضِيَنْ ... بنـا بين أيدينـا لحضرتـه العليـا

وهو يدعو للمفتى أبى سعيد بدوام العز واقتناء الرفعة والشرف ويرجوه أن يكون ملجأ للوفد الجزائرى وعونا فى إنجاز مهمته عند الخليفة مشيرا إلى الحديث النبوى : « إن الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » ويقول إن شكايتنا مما نزل بقطرنا الجزائرى مشيرا إلى المنازعات فى السلطة وصراع الإنكشارية العثمانية ، وكل وال يظن أنه سيتلافى الاضطرابات بها حتى إذا تولاها عجز عن إصلاحها . وقال إن أصلح أمير لحكمها سمىّ الذى أول الرؤيا فى السجن لصاحبيه أى أنه يوسف باشا سمى يوسف الصديق عليه السلام . ويطلب إلى المفتى أن يتقدم وفدهم لدى الخليفة شافعا لهم عنده فى تحقيق ما يأملون . ولا نعرف شيئا عن القوجيلى بعد هذه الوفادة ، وقد نجح فى مهمته ، وتولى يوسف باشا أمر الجزائر . وعاد إلى موطنه ، وظل به حتى وفاته سنة ١٠٨٠هـ/١٦٧٠م وهو يعد من أنبه شعراء العهد العثمانى .

٤

شعراء الفخر والهجاء

(أ) شعراء الفخر

الفخر غرض قديم من أغراض الشعر العربى فمنذ الجاهلية يتغنى به الشعراء طوال العصور التالية إلى اليوم مثاليتهم وأخلاقهم الرفيعة من مثل المروءة والكرامة والجود والشجاعة إلى غير ذلك من شيمهم وخصالهم الحميدة ، كما يتغنون عصبياتهم ومشاعرهم القومية ، ومن طريف

(١) المعلوات جمع معلوة : الرفعة والشرف .
(٢) الغى : الضلال .
(٣) يلفى من ألفى : وجد . وهى : ضعف .

ها يلقانا فى الجزائر من فخر قول شاعرها ابن أبى الرجال الشيبانى وزير المعز بن باديس مفتخرًا بقومه[1] :

يا آل شيبانَ لا غـارتْ نجومكـمُ ... ولا خَبَتْ نـارُكم مـن بعد توقيدِ
أنتم دعـائمُ هذا الملك مذ ركضتْ ... قَبْلُ الخيـولُ لإبـرامٍ وتوكيـد
المنعمـون إذا ما أزمـةٌ أزمـتْ ... والواهبـون عتيقات المزاويـد[2]
سيوفُكم أفقدتْ كسـرى مرازبَه ... فيوم ذى قارَ إذ جـاءوا لموعود

وهو يفتخر بقومه من آل شيبان ويدعو أن تظل نجومهم مضيئة فى سماء العروبة وأن تظل نيرانهم متقدة لا تنطفىء أبدا ، إذهم دعائم الملك العربى منذ نشبت الحروب وصهلت فيها خيول الفرسان لفرض المعاهدات وعقد المواثيق ، وقد اشتهروا بما ينعمون فى الأزمات ويهبون من العطايا الجزيلة ، ويرفع أمام الأعين بطولتهم العظيمة يوم ذى قار الذى نكَّلوا فيه بالفرس تنكيلا شديدا : منقبة عظيمة لقبيلته شيبان فى الجاهلية لا ينساها العرب ولا ينساها التاريخ . ونرى الحسن بن الفكون القسنطينى المتوفى بأوائل القرن السابع الهجرى يفتخر ببلدته « بجاية » ومسقط رأسه قائلا[3] :

دَعِ العـراق وبغـدادًا وشامَهمُ ... فالناصريَّـةُ ما من مثْلِهـا بلَـدُ
بَرٌّ وبَحْرٌ ومَـرْجٌ للعيـون بـه ... مسـارحٌ بان عنهـا الهمُّ والنكَدُ
حيث الهوى والهواءُ الطلقُ مجتمعٌ ... حيث الغِنى والمُنَى والعيشة الرَّغَدُ
والنَّهْرُ كالصِّلِّ والجنَّـاتُ مشرفةٌ ... والنهـر والبحـر كالمرآة وهْوَ يَدُ
إن تنظـر البَرَّ فالأزهـارُ يانعـةٌ ... أو تنظر البحـر فالأمـواجُ تطَّردُ
يا طالبا وَصْفَها إن كنت ذا نَصَفٍ ... قُلْ جنَّةُ الخُلْد فيها الأهـلُ والولد

وهو يفضل الناصرية أو بجاية على بغداد ودمشق ، ويقول إنه ليس مثلها بلد جمعت بين البر والبحر ومشاهد مَرْج بأشجاره ونباتاته البديعة التى تزيل الهم والنكد حيث مجتمع الحب والهواء الطلق الذى يستروحه المحبون ، وحيث الثراء والمنى والعيشة الطيبة ، والنهر يجرى كصلٍّ أو أفعوان ، والجنات تحفةٌ من كل جانب ، وكأنما البحر مرآة والنهر يدها الثابتة . إن تنظر إلى البر راعتك أزهاره ، وإن نظرت إلى البحر راعتك أمواجه المطردة ، وهى – بإنصاف – جنة الخلد ، وفيها الأهل وفلذات الكبد من الولد أو الأولاد . ويقول أحمد[4] بن على المليانى المتوفى سنة ٧١٥ هـ/١٣١٦ م :

(١) المنتخبات لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٧٦ .
(٢) المزاويد جمع مزود : وعاء الزاد .
(٣) تعريف الخلف ١٣٥/٢ .
(٤) تعريف الخلف ٦٨/٢ .

العـزُّ ما ضُرِبَتْ عليـه قبـابى ... والفضلُ ما اشتملتْ عليه ثيابى
والزهـرُ ما أهـداه غُصْنُ يراعتى ... والمسكُ ما أبـداهُ نَقْشُ كتابى
فالمجـد يمنع أن يزاحَـمَ مَوْردى ... والعَزْم يأبى أن يُسـامَ جنابى
وإذا بلـوتُ صنيعـةً جازيتهـا ... بجزيل شكرى أوجزيـل ثوابى
وإذا عقـدتُ مـودَّةً أجريتهـا ... مجرى طعامى من دمى وشرابى

وهو يفخر فخرا مسرفا ، فالعز ما ضُربت عليه خيامه ، والفضل ما اشتملت عليه ثيابه ، والزهر كلماته مماكتبه قلمه ، والمسك نقش كتابته ، وبلغ من المجد أن لا يزاحمه أحد فى مورده كما بلغ من العزم أن لا يُرْعى جنابه ، فحماه لا يسام ولا يضام ، وإذا اختبر صنيعة أو معروفا بادر بالشكر وجزيل الثواب ، وإذا عقد مع شخص مودة كانت غذاء لروحه وجرت مجرى الطعام من دمه وشرابه . ويفتخر ابن خميس شاعر تلمسان بعروبته ودينه الحنيف ، منشدا :

إنا – بنى قحطانَ – لم نُخْلَقْ لغـ ... ـيرْ غياثِ ملهوفٍ ومَنْعة لاجى
بسيوفنـا البيض اليمانيَّـة التى ... طُبعتْ لحـزِّ غلاصـمٍ ووِداجِ[1]
تأبى لنا الإحجـامَ عن أعدائنـا ... يوم اللقـاء طهـارةُ الأمْشاجِ[2]
أنصـارُ دين الهـاشمىِّ وحزبُه ... وحُماتُـه فى الجَحْفل الرَّجْراجِ[3]
وحُماتـه بنفوسهـم ونفيسهـم ... من غـدر مغتالٍ وسَوْرة هـاجِ[4]
منـا التبابعـةُ الذين ببابهـم ... كانت تُنيـخ جُبـاةُ كلِّ خراجِ[5]
ولأمرهـم كانت تدينُ ممـالك الـ ... ـدُّنْيـا بلا جَـبْرٍ ولا إحْـراجِ
أبوابهـم مفتوحـةٌ لضيوفهـم ... أبدا بلا قُفْـلٍ ولا مِـزْلاجِ

وهو يفخر بأصوله من بنى قحطان اليمنيين الذين إنما خلقوا لغياث الملهوف وحماية اللاجىء لهم بسيوفهم اليمانية التى صيغت لقطع الرقاب ، وإن أنسابهم لتأبى لهم الإحجام عن لقاء أعدائهم وسحقهم ، ومعروف أن أنصار الرسول ﷺ من أهل المدينة كانوا يمنيين أو من أصول يمنية ، وهو لذلك يفخر بنصرتهم للرسول وأنهم كانوا حماته حين تنشب الحروب حموه بنفوسهم وبكل ما يملكون من غدر مغتال ومن حدة هاج إذ كان منهم حسان بن ثابت وغيره من شعرائهم الذين كانوا يذودون عن الرسول وصحبه ضد شعراء قريش وأهاجيهم . ويفخر بأن منهم قديما التبابعة ملوك اليمن وأمراؤها فى الجاهلية الذين كان يُجبَى لهم الخراج من أنحاء دولتهم ، وكانت ممالك الدنيا تدين لهم طوعا لا قسرا ، وبلغوا من جودهم أن كانت

(١) طبعت: صيغت. الغلاصم جمع غلصمة : الحلق . الوداج : عرق فى العنق إذا قطع انتهت حياة المذبوح .
(٢) الأمشاج جمع مشج : النطفة .
(٣) الجحفل الرجراج : الجيش الذى لا يكاد يسير لكثرته
(٤) سورة : حدَّة
(٥) تنيخ : تنزل .

أبوابهم مفتوحة لضيوفهم دائما لا تغلق أبدا . ويعتلى عرش دولة بنى عبد الواد أو الدولة الزيانية أكبر شعراء الفخر فى الجزائر على مر العصور ، وأقصد أبا حمو موسى الثانى ، وحرى أن أقف قليلا لأترجم له وأعرض أطرافا من فخره .

أبو حمو[1] موسى الثانى

ولد أبو حمو موسى لأبيه يوسف بن عبد الرحمن بن يغمراسن فى أواخر مقامه بغرناطة فى بلاط سلطانها أبى الوليد بن فرج سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م وفى تلك السنة استدعى يوسف وإخوته إلى تلمسان سلطانها أبو تاشفين الأول (٧١٨ - ٧٣٧ هـ) ولبَّوه وأكرمهم وأعلى مكانتهم بين أمراء الأسرة ، وبذلك كان منشأ أبى حمو موسى ومرباه الأول فى تلمسان حتى إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره استولى السلطان أبو الحسن المرينى على تلمسان وأرغم أباه وبعض أمراء الأسرة على الاستقرار بفاس ، وعلى شيوخها أتم أبو حمو موسى تعلمه ، وظل بها مع أبيه إلى بداية إمارة عميه أبى سعيد وأبى ثابت سنة ٧٤٩ هـ/١٣٤٩ م حتى إذا فتك بهما السلطان أبو عنان المرينى سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٣ م رأينا أبا حمو موسى يقصد تونس وسلطانها أبا إسحق فأكرمه غاية الإكرام ، حتى إذا كانت سنة ٧٥٨ هـ/١٣٥٧ م واستولى فيها السلطان المرينى أبو عنان على تونس ارتحل أبو حمو مع السلطان الحفصى إلى إقليم الجريد جنوبى الإقليم التونسى ، واضطرت الظروف أبا عنان بالعودة إلى فاس مع جيشه فى السنة التالية ، وعاد السلطان الحفصى وأبو حمو موسى إلى تونس ، والتف حوله عرب الدواودة وأخذ يستعين بهم فى مطاردة المرينيين ، وسارعت إليه قبيلة بنى عامر شيعة أسرته ووطنه وتوجه بهم إلى الزاب ثم ورقلة ، ونازل أولاد عريف من قبيلة سويد الهلالية وهزمهم هزيمة ساحقة ، وجاءه عقبها نبأ وفاة السلطان أبى عنان المرينى فى أواخر ذى الحجة سنة ٧٥٩ هـ/١٣٥٨ م فصمم على أخذ تلمسان ، وبايعه جميع من كان معه فى الخامس من محرم سنة ٧٦٠ هـ/١٣٥٩ م وجدَّ فى السير مع جموعه من العرب وغيرهم ، وتسامع به كل من كان فى طريقه إلى تلمسان ، وكان أبو عنان ولَّى عليها ابنه محمدًا وترك معه حامية ، فحاصره أبو حمو مدة كانت فيها مناوشات ، وتيقن المرينيون أنه لا طاقة لهم بمنازلة أبى حمو ، فطلبوا الأمان ، وأسلموا تلمسان إليه وبايعه أهلها حين دخلها فى غرة شهر ربيع الأول ، ويقول التنسى إنه « ساس أهل مملكته بالسيرة الحسنى وغمر الرعية قسطاسُ عدله الأسنى ، وقسم أوقاته بين حكم يقضيه وحق يمضيه ، وعاقٌ يرضيه ، وسيف لحماية الدين يُنْضيه ، وسبيل إلى رضاء الله تعالى ورسوله يفضيه » . وقد غيَّر اسم الدولة ، إذ

(١) انظر فى ترجمة أبى حمو موسى الثانى تاريخ ابن خلدون والجزء الثانى من بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ليحيى بن خلدون وتاريخ بنى زيان ملوك تلمسان لمحمد بن عبد الله التنسى ص١٥٧ وما بعدها وكتاب أبو حمو موسى الزيانى : حياته وآثاره للدكتور عبد الحميد حاجيات .

كان اسمها بنى عبد الواد نسبة إلى قبيلتهم ، فرأى أن تسمى باسم الدولة الزيانية نسبة إلى زيان والديغمراسن مؤسس الدولة . وقد أعاد لها عزّها وسلطانها واستردّ لها بلدانها فى الجزائر : وهران والجزائر وتدلس ، وكثرت الحروب فى أيامه بينه وبين بعض القبائل العربية والدولة المرينية . وثار عليه ابن عمه أبو زيان بن السلطان أبى سعيد وانصاعت له قبيلة عامر واستولى على مدينتى المدية وملیانة ، ونشبت بينه وبين أبى حمو وقائع ، واستطاع أبو حمو القضاء على ثورته فى أواخر سنة ٧٦٩ هـ/١٣٦٨ م وانتهز السلطان عبد العزيز المرينى فرصة تضعضع جيشه من كثرة الحروب واستولى على تلمسان سنة ٧٧٢ هـ/١٣٧١ م وظل أبو حمو يتنقل فى الصحراء حتى علم بوفاة السلطان المرينى سنة ٧٧٤ هـ/١٣٧٣ م فعاد إلى عاصمته تلمسان ، وتبدأ منافسات بين ابنه وولى عهده أبى تاشفين وإخوته ويُغْتال يحيى بن خلدون كاتب أبى حمو ومؤرخه فى مؤامرة دبَّرها ولى العهد سنة ٧٨٠ هـ/١٣٧٩ م حتى إذا كانت سنة ٧٨٦ هـ/١٣٨٥ م أغار السلطان أبو العباس المرينى – واستولى – على تلمسان ، غير أن الأحداث فى عاصمته فاس اضطرته إلى العودة إليها سريعا ، وعاد أبو حمو إلى تلمسان . وتسوء العلاقات سوءا شديدًا بين ولى العهد أبى تاشفين وإخوته ، مما جعل أبو حمو يخلع نفسه إرضاء لأبى تاشفين سنة ٧٩١ هـ/١٣٨٩ م ويتجه إلى الحج . وما إن نزل بجاية حتى غيَّر رأيه ، واتَّجه إلى تلمسان ، واستثار كل من كان فى طريقه وأقبل إليها بجموعه ، وعلم ابنه أبو تاشفين ، فلحق بفاس واستعان بسلطانها المرينى ، وأعانه بجيش كثيف والتقى مع أبيه وجموعه واقتتلوا قتالا شديدا وكبا الفرس بأبى حمو وتوفىً . وهو من خيرة سلاطين الأسرة الزيانية وقد نهض بالعلم فى دولته واشتهر بها كثير من العلماء فى مقدمتهم أبو عبد الله الشريف الذى بنى له مدرسة كبيرة أكثر عليها من الأوقاف ورتب فيها الجرايات للشيوخ والطلاب. وكما نهض بالعلم نهض بالأدب ، ومن كتَّابه وشعرائه محمد بن يوسف الثغرى الذى مرت ترجمته ، ومنهم محمد بن على العصامى ومحمد بن صالح شقرون ، ومن مآثره احتفاله بالمولد النبوى احتفالا عظيما ، كان يُبْدأ فيه بمدحة نبوية له ثم تتوالى مدائح نبوية أخرى شطرا كبيرا من الليل وكان يُدْعَى إليه الناس من العامة والخاصة ، وتقام قبيل الصباح مأدبة ضخمة ، وسنعرض لذلك فى حديثنا عن شعراء المدائح النبوية . وكان أديبًا بارعًا وله كتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك ، وسنلم به فى حديثنا عن النثر فى الجزائر . وكان يحسن نظم الشعر ، واحتفظ يحيى بن خلدون بكثير منه فى الجزء الثانى من كتابه بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ، وجمع منه كثيرًا الدكتور عبد الحميد حاجيات فى كتابه عن أبى حمو موسى ، وهو موزع بين فخر ونبويات مع مرثيتين لأبيه . ونراه عقب استقراره فى تلمسان وتمام الملك له ينظم ميمية طويلة يصور فيها حركته من تونس إلى تلمسان لاسترداد ملك آبائه وكيف أخذ يعد جيشا لمنازلة المرينيين من قبيلة عامر واقتحامه للزاب وريغ وورقلة والحمادى

والتقائه بالجنود المرينيين وبطشه بهم وتقدمه إلى وادى يسر ودخوله تلمسان عنوة ، وينهى القصيدة منشدا :

نظمنـا شَتِيتَ الملك بعد افتراقـهِ ... وكم بـات نهبـا شمله دون ناظمِ
شَـدَدْنا له أزرا وشِـدْنا بنـاءه ... بأوثـق أركانٍ وأقـوى دعائـم
فصارتْ ملوكُ الأرض تأتى مطيعة ... إلى بابنـا تَبْغى التمـاس المكارم
وجاءت لنـا من كُلِّ أوبٍ ووجهةٍ ... تبايعنـا طوعـا وفـودُ العمـائم
وقمنـا بأمـر الله فى نَصْرِ دينـهِ ... وفى كفِّ ماقد أُحْدِثَتْ من مظالم

وهو يفتخر بأنه أعاد للملك الزيانى المنهوب نظامه وسلطانه ، وشدَّ أزره وقوته وشاد بناءه وأعلاه أقوى ما يكون الإعلاء بأركان وثيقة ودعائم متينة ، مما جعل ملوك الأرض يقصدون بابه معلنين طاعتهم زلفى إليه والتماسا لمكارمه ، وإن قبائل العرب ليفدون عليه من كل ناحية وجهة تبايعه طوعا ، وإنه ليقوم بنصر دين الله ونشر العدل فى ربوع بلاده والقضاء على ما أحدث المرينيُّون من مظالم ، ويفتخر فى قصيدة ثانية من وزن المتدارك بسياسته الرشيدة فى الحكم قائلا :

أنزلتُ النـاس منازلهـم ... وتركت الظـالم فى وَجلِ
أحمى المظلـوم وأنصـرُه ... وأقيم الحـق على عجـلِ
وأنا للحـرب كَعَنْترهـا ... وأنا فى السلـم أخو جَذَلِ
وأنا موسـى وأبو حمـو ... أصلحُ للملك ويصلح لى
سـيفى إن صُلْت بقائمِـه ... أدْنـى المُرَّاقَ إلى الأجـل
وكذا كفَّاىَ إذا انبسطتْ ... من كـان مقلاً عادَ مَلِى

فهو يسوس رعيته سياسة حميدة ينزل الناس فيها منازلهم دون خفض أو رفع ، وهى سياسة تقوم على العدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، وإنه ليحمى المظلوم من ظالمه وينصره عليه ، ويقيم الحق سريعا لا يخشى فيه ملامة لائم ، وإنه شجاع شجاعة عنتر بن شداد فى الحرب ، أما فى السلم فإنه صاحب دعة وحياة آمنة رافهة ، ويقول أنا أبو حمو موسى أصلح للملك بعدلى وحكمى القويم ويصلح لى ، وإنه لبطل فى الحرب يقطع رقاب المارقين والثائرين ، أما فى السلم فغيث مِدْرار وإن كفيه لتنثران الأموال نثرا ، حتى ليصبح المقل الفقير مليئا ثريا ، ويقول مفاخرا :

وما بِسوى العَلْياء هِمْنا جلالـةً ... إذا هـام قومٌ بالحسـان النَّواعمِ
بروقُ السيـوف المشرفيَّـاتِ والقَنا ... أحبُّ إلينـا من بروق المباسـمِ

وأحسنُ من قَدِّ الفتـــاة وخَدِّها قدودُ العوالى أوخدود الصوارمِ[1]
وأما صَهيل السابحات لدى الوَغَى فأشْجَى لدينا من غِنـــاء الحمائمِ
إذا نحن جرَّدنـــا الصـــوارم لم تَعُدْ لأغمادهـــا إلا بحزِّ الغـــلاصم[2]

وهو يقول عن نفسه وقومه إذا كان الناس يهيمون بالحسان الجميلات فإننا لا نهيم إلا بالعلياء والمجد والشرف ، وإن بروق السيوف المشرفيات والرماح لأحب إلينا من بروق المباسم الفاتنة ، وأحسنُ عندنا من قَدِّ الفتاة وقوامها وخدها الجميل قدود الرماح وخدود السيوف الصوارم القاطعة ، وإن صهيل الخيل فى الحرب لأشجى عندنا من غناء الحمائم الذى طالما تغنى به الشعراء ، وترانا فى الحرب إن نحن شهرنا السيوف لم تعد لأغمادها إلا بحزِّ الغلاصم والرقاب ، ويمضى فى القصيدة قائلا :

ألا أيهـــا الآتى لظِـــلِّ جَنابنـــا نزلتَ برَحْبٍ فى عِراص المكارمِ[3]
وقوبلـــتَ منـــا بالذى أنت أهلُـــهُ وفـاض عليك الجود فيضَ الغمائمِ
بهمَّتنا العليـــا سمونا إلى العُـــلا وكم دون إدراك العلا من ملاحـــم

وهو يبشر من ينزل بجنابهم وفى كنفهم أنه ينزل برحب أو واسع فى عرصات أو ساحات المكارم ويقابَلُ بما يليق به ، ويفيض عليه الجود فيض السحاب الحاطل . ويقول إنهم لذوو همم عالية سمت بهم إلى العلا وكم دون إدراكها والحصول عليها من ملاحم وحروب طاحنة ، ويقول مفاخرا فى انتصار له على الدولة المرينية :

لقـد نهضـتُ بعـون الله متَّـكلا على الإلـــه ومن يرجمـوه لم يَخبِ
بعسكرٍ لَجِبٍ ضـــاق الفضـــاء به كالبحر أعظمْ به من عسـكرٍ لجِبِ
مـن كل لَيْثٍ شجاعٍ فـارسٍ بطـلٍ حامى الذِّمار من الأعجام والعَرب[4]
عـــلى ســـوابق خَيْلٍ ضُمَّرٍ عُـــرُبٍ تُزْهَى بحليتها كالخـــرَّد العُرُبِ[5]
بهـــا وَطِئْنا بـــلادًا لاسبيـــل لهـــا وما أردنـــا تناولنـــاهُ من كَثَبِ[6]

وهو يقول إنه نهض لحرب المرينيين مستعينا بربه متكلا عليه راجيا النصر منه ، ومن يرجوه لا يخيب رجاؤه ، وقد نازلهم بعسكر كثير ضاق الفضاء به ، وكأنه بحر زاخر بالليوث الشجعان والفرسان الأبطال حماة الذمار من العجم والعرب ، يركبون إلى الحرب خيولا ضامرة نجيبة

(١) العوالى : الرماح . الصوارم : السيوف .
(٢) الغلاصم جمع غلصمة : ملتقى اللهاة والمرىء . وهى تقطع مع الرقبة .
(٣) عراص جمع عرصة : الساحة .
(٤) الذمار : الحمى وما يحميه الإنسان من الأهل والولد .
(٥) الخرد جمع خريدة: الجميلة.عرب: معجبة بنفسها.
(٦) كثب : قريب .

تزهى بجمالها زهو الجميلات المعجبات بحسنهن. ويقول إنهم يطئون بحوافرها بلادا بعيدة يذلّلونها تذليلا ، ولا بلدا ولا ناحية أردناها إلا انتصرنا فيها وانقادت إلينا انقيادا . وجمع الحافظ التنسى فيه كتابا سماه: «راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وما قيل فيه من الأمداح».

(ب) شعراء الهجاء

الهجاء قديم فى الشعر العربى ، وكان فى الأصل لعنات يصبها الشاعر على القبيلة المعادية أو على سيدها راجيا أن تنزل بهم المقادير هزائم متوالية ، وتحول من هذه اللعنات إلى ذم شديد على لسان الشاعر الجاهلى ، فما يرجعون من حروبهم حتى يسلّ شعراؤهم على أعدائهم ألسنتهم ملحقين بهم مثالب شتى . ومعروف ما كان بين مكة والمدينة لعهد الرسول ﷺ من أهاج ينظمها شعراؤهما عقب كل معركة . واستحال الهجاء فى العصر الأموى على لسان الفرزدق وجرير إلى ما يشبه مناظرة حادة فى بيان فضائل ومساوىء عشيرتيهما وقبيلة تميم التى كان يدافع عنها الفرزدق وقيس التى كان يدافع عنها جرير . وظل الشعراء لعصرهما يكثرون هم وشعراء العصر العباسى الأول من الهجاء ، وتحول عند الأخيرين إلى بيان المساوىء الفردية والاجتماعية فى المهجو مع التهوين منه والإيلام إيلاما شديدا ، وطار شرر كثير من هذا الهجاء إلى الأقاليم العربية . وكان قد بارح المغرب إلى بغداد الشاعر الجزائرى بكر بن حماد التاهرتى وهو أول شاعر جزائرى له أهاج مختلفة ، وسنترجم له عما قليل ، وكان يعاصره ابن خزاز التاهرتى فى القرن الثالث الهجرى ، وكان قد نزل مدينة تنس شمالى تاهرت على البحر المتوسط ، فقال يأسى على بعده عن مسقط رأسه هاجيا تنس ومقامه فيها[1] :

نأى النوم عنّى واضمحلّت عُرَى الصَّبرِ ... وأصبحتُ عن دار الأحبَّةِ فى أَسْرِ
وأصبحت عن تاهرتَ فى دار غُرْبَةٍ ... وأسلمنى مرُّ القضاء من العُذْرِ
إلى تنسٍ ذات النحوس فإنها ... يُساقُ إليها كلُّ منتقص العُمْرِ
بلادٌ بها البرغوثُ يحمل راجلا ... ويأوى إليها الذئب فى زمن الحرِّ
ترى أهلها صَرْعى ومن أمِّ مِلْدَمٍ ... يروحون فى سكرٍ ويغدون فى سكرِ

فالنوم بَعُد عن عينه لا يلم بها وفرغ منه الصبر ، حتى ليشعر كأنه فى أسر بعيد عن دار الأحبة : تاهرت ، إذ أسلمه مر القضاء إلى دار غربة إلى تنس ذات النحوس التى لا يدفع إليها إلا منتقص العمر ليشقى بما فيها من براغيث ، وإن الذئاب لتملأ عرصاتها صيفا ، أما أم مِلْدم أى الحمى ، فكل أهلها من صرعاها ، وإنها لتخدر عقولهم وكأنهم فى سكر دائم . ولمحمد بن الحسينى الطبنى فى أحد خصومه[2] :

(١) الأزهار الرياضية للبارونى ص ٤٧ .
(٢) الجذوة للحميدى ص ٥٠ .

ووغْـدٍ إن أردت لـه عقابًـا عَفى عن ذَنْبِه حَسَبى ودينى
يؤنِّبنى بغيبـةِ مستطيـلٍ ويلقـانى بصفحـةِ مستكينِ
وقالوا قد هجاك فقلت كلبٌ عَوَى جَهْلا إلى لَيْثِ العَرينِ

وهو يقول عن خصمه إنه رَذْل دنىء إن فكرت فى عقابه عفا عن ذنبه شرفى ودينى ، يأكل لحمه غائبا ويلقاه خاضعا ذليلا ، وما مثله إلا مثل كلب يعوى إلى أسد فى عرينه ومأواه . وكانت أسرة هذا الشاعر قد هاجرت إلى قرطبة فى أوائل القرن الرابع ، ومنها عبد الملك الطبنى المحدث جليس المنصور بن أبى عامر ، ويروى أن المنصور عدا على شخص يسمى الحَذْلَمىّ فى مجلسه وضربه ضربا موجعا ، فقال عبد الملك متشفيا فيه وهاجيا[1] :

شـكرتُ للعامـرىِّ ما صنعـا ولم أقـل للحُذَيْلَمِىّ لَعَـا
ليـثُ عَـرينٍ عـدا لعزَّتـه مفترسًـا فى وجـارِه ضبُعا
وَدِدتُ لو كنت شـاهدًا لهمـا حتى ترى العين ذُلَّ مَنْ خضعا
إن طـال منه سجودُه فلقـد طـال لغير السجـود ماركعا

وهو يشكر العامرى ولا يقول للحذلمى : لعا أى أقال الله عثرتك ، ويصور العامرى ليث عرين افترس ضبعا فى وجاره أو بيته ومأواه ، ويقول ليته كان حاضرا ليرى ما ركب الحذلمى من الذل والهوان ، ويرميه بأنه كثيرا ما ركع فى غير الصلاة ، يريد أنه عاهر الخلوة ، وهو هجاء مقذع . وكانت الجزائر وغير الجزائر من البلاد المغربية تعتنق مذهب الأشعرى غالبا ، وبلغ من تغلغل عقيدته فى نفوسهم أن نرى ابن مرزوق الخطيب الجزائرى المتوفى سنة ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م يغضب حين سمع قول الزمخشرى فى كشَّافة معرضا بأهل السنة بل هاجيا هجاء قبيحا قائلا :

وجماعـةٍ سمـوا هواهـم سنَّةً وأراهـمُ حُمُرًا لعمرى موكَفَهْ
قـد شبَّهوه بخَلْقِه وتخوَّفـوا شُنَـع الـوَرَى فتستَّروا بالبَلْكفه

وهو يقول إن جماعة سمت هواها الذى تعتنقه سنة ، وهم حُمر ، عليها وُكُفُها أو براذعها ، إذ شبهوا الله بخلقه ، فقالوا إنه يُرَى متسترين بالبلكفة أو بقولهم إنه يرى بلاكيفية حتى ينفوا عنه التشبيه بالآدميين ، وردَّ على الزمخشرى كثيرون من أهل الجزائر وغيرهم ، وردَّ ابن مرزوقِ الخطيب معنِّفًا له ولأصحابه من المعتزلة جميعا قائلا :

(١) الذخيرة لابن بسام تحقيق د.إحسان عباس ٥٤٣/١ .

وجمـــاعةٍ عُرِفَتْ لعمـرى بالسَّفَه وتمسَّكتْ بضـــلال أهل الفلسفه
عدَلتْ عن النهج القويـــم فلُقِّبَتْ عَدْلِيَّةً وعـــدولُها عن معرفـــه
ضَلَّتْ وقـالت لن يُرَى ربُّ الوَرَى يوم الجـزاء وألزمتْ نَفْى الصِّفه
وكذاك أسْلمت الأمـــورَ لنفسها هيهـــات تنقذ نفسهـــا من مَتْلفه
كيف السبيـــلُ لصرفها عن غَيِّها والعـــدلُ يمنع صَرْفها والمعرفـه

وابن مرزوق الخطيب يرمى المعتزلة بالسفه ، وأنهم ضلوا ضلال الفلاسفة الملحدين إذ عدلوا عن النهج القويم وسموا أنفسهم عدلية ، لأن من مبادئهم وجوب العدل على الله جَلَّ شأنه ، ويقول إنهم ضلوا حين نفوا رؤية الله يوم القيامة بينما أثبتها أهل السنة وقالوا إنها رؤية بلا كيفية . وينعى على المعتزلة قولهم بنفى الصفة عن الله وقولهم إن صفته هى عين ذاته . ويستبعد أن يستطيع المعتزلة إنقاذ أنفسهم من تلف العقيدة ويتمنى لو وجد سبيلا أو طريقا لهداهم ، ولكن كيف ذلك وهم يؤمنون بالعدل على الله وغير ذلك من مبادئهم المخالفة لمبادىء أهل السنة . ونمضى إلى العهد العثمانى ونلتقى فيه بابن على المفتى الحنفى فى القرن الثانى عشر الهجرى ، وكان شاعرا بارعا ونراه يهجو خصومه وحساده قائلا :

نَصبوا حبـائلَ مكرهم وتعرَّضوا بسهامهـــم للنَّجْم فى كيوانِـــهْ
من كل أهوجَ أرْعَنٍ الأخلاق قد أرْبَى على فرعـــون معْ هامانه
أجلافُ هذا العصر حقـا لو رأوا حسَّانَ ما جنحـــوا إلى إحسانه
إن أنكروا فضلى لخُبْـثِ طباعهم فالدرُّ ليس يعـــزُّ فى أوطانـــه

وهو يقول إنهم نصبوا حبالات مكرهم وأرسلوا علىَّ سهام هجائهم ولكن أنَّى لهم ، إنهم يحاولون أن يصيبوا نجما لا يستطيعون الوصول إليه ، نجما شديد البعد هو كيوان أو زحل وهل منهم إلا أهوج أو أحمق قد زاد على فرعون ووزيره هامان فى بهتانه ، إنهم أجلاف لا يقدرون الشعر ولا الشاعر حتى لو كان حسان بن ثابت شاعر الرسول فى روعة بيانه ، ويقول إنهم إن أنكروا فضلى لخبث طباعهم وضمائرهم ، فالدر لا يُعْرف فضله فى وطنه . وكان ولاة العثمانيين يبطشون أحيانا بالجزائريين ، وكان الشعراء يوجهون إليهم سهام هجاء كثيرة من شعرهم الفصيح والشعبى على نحو ما كان يصنع سعيد المنداسى ، وهو حرى بالترجمة له مع بكر بن حماد التاهرتى الذى مر بنا ذكره .

بكر[1] بن حماد التاهرتى

تقع تاهرت مسقط رأس حماد فى الجنوب الغربى من مدينة الجزائر ، ومرَّ بنا فى غير هذا

(١) انظر فى ترجمة بكر رياض النفوس للمالكى ومعالم الإيمان للدباغ ٢/٩٢ والأزهار الرياضية لسليمان البارونى ٢/٧١ وما بعدها وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث لمبارك الميلى ٢/٤٥٣ . وقد جمع ديوانه وشرحه وقدَّم له محمد بن رمضان شاوش باسم الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتى .

الموضع أن عبد الرحمن بن رستم أقام بها الدولة الرستمية ، وكان يعتنق مذهب الخوارج الإباضية ، وأتته جموع الخوارج من كل مكان فى المغرب . وكان أئمة هذه الدولة – على شاكلته – يفسحون لأهل السنة والمعتزلة فى مدينتهم ، وفيها ولد بكر بن حماد سنة مائتين للهجرة ، وكان من قبيلة زناتة البربرية الضخمة ، ولا نعرف شيئا عن أسرته . ويبدو أن أباه لم يكن إباضيا ، وكانت بتاهرت حركة علمية خصبة بثّتها فيها الدولة الرستمية ، ووجهه أبوه إلى العلم ، فحفظ القرآن ، وأخذ يختلف إلى حلقات العلماء وشُغف بالشعر وتفتحت ملكته مبكرة ، كما شغف بحلقات المحدثين ، ونراه يرحل فى سن السابعة عشرة إلى القيروان فالبلاد المشرقية ، يأخذ الحديث واللغة ، وأوغل فى رحلته حتى البصرة وفيها تتلمذ على مسدَّد بن مسرهد وأخذ عنه مسنده فى الحديث النبوى ، وسيعنى فيما بعد بإذاعته فى الديار المغربية . وتتلمذ على شيوخ البصرة فى اللغة حينذاك من أمثال ابن الأعرابى ، ودفعه طموحه إلى أن يذهب إلى بغداد ، وفيها لفت أبا تمام وغيره من شعرائها الكبار بمهارته فى الشعر ، ففسحوا له فى مجالسهم ، وتعرَّف على دعبل هجَّاء الخلفاء : المعتصم العباسى وغيره ، ويبدو أن الفتى الجزائرى مدح المعتصم وأجزل له فى العطاء مما جعله يخاصم دعبلا ، وربما خاصمه غضبا لخليفة المسلمين ، ونراه يحرِّضه على عقابه والقصاص منه قائلا :

أيهجـو أمـير المؤمنـين وَرْهطَهُ ... ويَمْشى على الأرض العريضة دِعْبِلُ
أمـا والذى أرسى ثَبيرا مـكانه ... لقد كادت الدنيـا لذاك تُزلْزلُ
ولكـنْ أمـيرُ المؤمنـين بفضله ... يهمُّ فيعفـو أويقـول فيفعـل

وكأنه فى الكلمة الأخيرة من أبياته يحرِّض المعتصم على الفتك بدعبل ، ويقال إن أبا تمام حين سمع منه هذه الأبيات قال له : لقد قتلته يا بكر ، وكأنما أعجبته كلمة أبى تمام – حبيب بن أوس – فألحق بالأبيات بيتين إشارة إلى كلمة أبى تمام قائلا :

وعـاتبنى فيـه حبيـبٌ وقـال لى ... لسـانك محـذور وسِلْك يقتـلُ
وإنى – وإن صرَّفت فى الشعر منطقى – ... لأنْصف فيما قلتُ فيـه وأعـدل

ولم يطل ببكر المقام فى بغداد ، فقد عاد إلى الديار المغربية سريعا واستقر فى القيروان عاصمة المغرب الأدنى (الإقليم التونسى) واختلف إلى حلقات شيخين كبيرين فيها هما سحنون صاحب المدونة فى فقه مالك الذى كانت شهرته تدوى فى المغرب ، والثانى محدث كبير هو عون بن يوسف الخزاعى وكان قد تتلمذ لعبدالله بن وهب المحدث المصرى صاحب كتاب الجامع فى الحديث ، وعنه أخذه بكر بن حماد ، كما أخذ فى البصرة مسند مسدَّد بن مسرهد . ويبدو أنه أخذ يعنى بعد وفاة شيخيه الكبيرين : عون وسحنون برواية مسند مسدَّد وجامع ابن وهب وإملائهما على الطلاب فى القيروان ، وقد نال فى دراسته للحديث النبوى شيئا من

الشهرة فى زمنه ، إذ يقال إنَّ الحافظ الأندلسى الكبير قاسم بن أصبغ (٢٤٤ - ٣٤٠هـ) حضر دروسه وأخذ عنه أحد الكتابين المذكورين آنفا أو هما معا .

وكان بكر مع تدريسه الحديث النبوى يمدح أمراء الأغالبة حكام القيروان ، ويسبغون عليه بعض عطائهم ، ويروى أنه قصد يوما الأمير الأغلبى إبراهيم بن أحمد (٢٦١ - ٢٩٠هـ) فى قصره حاملا إليه بعض مديحه حسب عادته ، فمنعه الحاجب وقال إن الأمير مشغول الآن بجواريه ، وأمر أن لا يصل إليه أحد ، فكتب بكر أبياتا فى رقعة ، وتلطف إلى الحاجب فى إيصالها إليه ، وفيها :

خُلقن الغـوانى للرجـال بَلِيَّةً ... فهـنَّ موالينـا ونحـن عبيدُها
إذا ما أردنا الوِرْدَ فى غير حِينه ... أتتنا به فى كل حينٍ خدودُها

وبمجرد أن قرأ الأمير الرقعة أرسل إليه بصُرَّة بها مائة دينار ، وإنما روينا هذا الخبر لندل به على أن بكرا كان دائم الصلة بأمراء الأغالبة بمدحهم ويثيبونه على مديحه . وكان يزور تاهرت أحيانا للقاء أهله ومعارفه فيها ونراه بها فى عهد أميرها الرستمى الإباضى أبى حاتم يوسف بن محمد بن الأفلح (٢٨١-- ٢٩٤هـ) ويبدو أنه عاتبه على مديحه للأغالبة دون حكام بلده ، فقال له فى مدحه :

أبا حاتمٍ مـا كان ما كان بِغْضةً ... ولكنْ أتتْ بعد الأمـور أمورُ
فأكرهنى قومٌ خشيتُ عقابهم ... فداريتهم والدائـراتُ تـدور

وكان يزور بعض الأمراء الأدارسة فى المغرب الأقصى وينال جوائزهم، والمظنون أنه بأخرة من أيامه اختار المقام بتاهرت إلى أن لبىَّ نداء ربه سنة ٢٩٦للهجرة .

وديوان بكر بن حماد سقط من يد الزمن غير أن الأستاذ محمد بن رمضان شاوش استطاع أن يجمع طائفة كبيرة من أشعاره تتناول من أغراض الشعر العربى الهجاء والوصف والمدح والزهد مع الوعظ والاعتذار والرثاء ، وذكر فى الهجاء المقطوعة السالفة فى دعبل التى يحرض فيها الخليفة المعتصم على الفتك به. ويبدو أنه لم يكن يسلم من لسانه أحد، حتى المحدِّثون، إذ نراه يسلق شيخا جليلا من شيوخهم وحفاظهم هو يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م قائلا :

لقـد جفَّت الأقلامُ بالخلق كلهم ... فمنهـم شقىٌّ خـائبٌ وسعيدُ
أرى الخيرَ فى الدنيـا يقلّ كثيرهُ ... وينقص نقصا والحـديثُ يزيد
ولابنِ معينٍ فى الرجـال مقـالةٌ ... سيُسْأَل عنهـا والمليكُ شهيـد
فإن يك حقـا قولُـه فَهْو غَيْبَةٌ ... وإن يك زورا فالقِصاص شديد
وكل شياطـين العبـاد ضعيفةٌ ... وشيطانُ أصحاب الحديث مَرِيدُ

وهو يقول إن أقلام القضاء أحاطت بالخلق فمنهم شقى خاسر وسعيد فائز ، وإن الخير فى الدنيا آخذ فى القلة والنقص ، والحديث فى ذلك يطول . ويتعرض ليحيى بن معين مؤسس نقد رجال الحديث مما هيأ بقوة لنشوء علم الرجال أو علم الجرح والتعديل ، وهو علم مخصص رواية الحديث النبوى الشريف ، ونفى عنها الزيف والكذب والتدليس ، وهل من يوثق راويا للحديث يكون مغتابا له أو يكون قد أولاه شرفا رفيعا ؟ ومعاذ الله أن يكون يحيى بن معين قد زوّر على راو صدوق للحديث تجريحا أو اتهاما بسوء ، ومعاذ الله ثانية أن يذكر بكر الشياطين وأن يلقب يحيى بأنه شيطان مريد أو خبيث للمحدثين ، نضّر الله وجه يحيى بن معين وجزاه الجزاء الأوفى عن الحديث النبوى والمحدثين . وكان عمران بن حِطّان الخارجى قد أشاد بشقى الخوارج عبد الرحمن بن ملجم المرادى قاتل على بن أبى طالب ، وفى طعنته له يقول[1] :

يا ضربةً من تَقِيٍّ ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذى العَرْش رضوانا
إنى لأذكره حينًا فأحسبُه ... أوْفَى البريَّة عند الله ميزانا

وسمع -أو قرأ- البيتين بكر بن حماد السُّنِّىّ فاستشاط غضبا وحمية للإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه، وعارض البيتين بقصيدة هجا فيها ابن ملجم هجاء مريرا مع بيان ما للإمام على من فضل عظيم فى الإسلام ليبين مدى جناية ابن ملجم وما ارتكب من إثم شنيع ، وفيها يقول:

قل لابن ملجمَ والأقدارُ غالبةٌ ... هدمتَ - ويلك- للإسلام أركانا
قتلتَ أفضلَ من يمشى على قَدمٍ ... وأوّلَ الناسِ إيمانا وإسلامـا
وأعلمَ الناس بالقرآن ثم بما ... سَنَّ الرسول لنا شرعا وتبيانا
صهرُ النبىِّ ومولاه وناصرُه ... أضحتْ مناقبه نورا وبرهانا
وكان منه -على رغم الحسود له- ... مكانَ هرون من موسى بن عِمْرانا
ذكرتُ قاتله والدمع منحدرٌ ... فقلت سبحان ربِّ الناس سبحانا
أشقى مُرادٍ إذا عُدَّت عشائرها ... وأخسرُ الناس عند الله ميزانا
يا ضَرْبةً من شقىٍّ أورثته لظىً ... مخلَّدا وأتى الرحمن غضبانا

وبكر يصوّر فضائل الإمام على ليجسد جريمة ابن ملجم وفداحة ما اقترفه إذ هدم ركنا ضخما من أركان الإسلام ، وكان على أول الناس إيمانا وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وكان صهره وسيفه المسلول على أعدائه وأعداء الدين فى جميع غزواته . ويشير إلى الحديث النبوى : « على منى بمنزلة هرون من موسى » . وإنه ليذرف عليه الدمع مدرارًا ، ويقول إن ابن ملجم أشقى قبيلته مراد وأخسر البرية ميزانا عند ربه ، ويالها ضربة أو طعنة ستصليه نار جهنم خالدا فيها مع غضب الله عليه غضبا شديدا . وواضح أنها أهجية مريرة لُسنِّى ضد قاتل

(١) انظر كتابنا : العصر الإسلامى فى ترجمة ابن حطان ص ٣٠٧ .

الإمام على . ولعل فى كل ما أسلفت ما يصور شعر بكر بن حماد ، وهو استهلال مبكر فى القرن الثالث الهجرى لما ينتظر الجزائر فى الشعر من مستقبل خصب .

سعيد[1] المنداسى

هو سعيد بن عبد الله المنداسى الأصل التلمسانى موطنا ومنشأ ، عاش فى القرن الحادى عشَر الهجرى ، ولا يعرف تاريخ مولده كما لا يعرف شىء عن أسرته ونشأته ، ولابد أن نشأ مثل لداته يعنى بحفظ القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه أخذ ينهل من حلقات علماء اللغة والبلاغة والأدب والعلوم الدينية . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة واستطاع أن يجمع بين الشعر الشعبى والشعر الفصيح ، ونظم كثيرا من النوع الأول وشهره فيه قصيدة نبوية سماها « العقيقة » فى نحو ثلاثمائة بيت . وكانت تلمسان فى شبابه تغلى دائما بفتن واضطرابات ضد العثمانيين وظلمهم ، وكان أهلها يثورون ضدهم ويثور معهم الشاب سعيد المنداسى ، وكثيرا ما كان يذكى ثورة التلمسانيين بشظايا من شعره الشعبى ، وأحيانا يفزع إلى سهام من الشعر الفصيح ، وخوّفه كثيرون مغبة ذلك . وحدث أن أغار على تلمسان صاحب سجلماسة محمد بن الشريف رأس الدولة العلوية بالمغرب الأقصى فى الخمسينيات من القرن الحادى عشر الهجرى ، وأقام بها فترة قصيرة التحق فيها سعيد المنداسى بحاشيته ، وعاد معه إلى عاصمته ، ويقول صاحب الاستقصا إن المنداسى مدحه بقصائد شعبية كثيرة وإنه أغدق عليه كثيرا من نواله ، وخلفه أخوه الرشيد، وظل سعيد يقدم إليه مدائحه الشعبية ، والرشيد يقرّبه ويجزل له فى العطاء حتى قال صاحب الاستقصا إنه منحه خمسة وعشرين رطلا من الذهب جائزة على بعض مدائحه فيه ، وتوفى وخلفه أخوه السلطان إسماعيل العلوى سنة ١٠٧٩هـ/١٦٦٨م واتسع فى الاستيلاء على بلدان المغرب الأقصى وخلّص كثيرا مما كان منها شمالا بيد الإسبان . وكان عهده عهد عدل وأمن ورخاء ، وشيد كثيرا من الآثار ، مما جعل سعيدًا المنداسى يتغنى طويلا بمديحه فى شعره الشعبى ، وكان السلطان إسماعيل بدوره يسبغ عليه كثيرا من عطاياه ، حتى ليقال إنه أعطاه خمسة وعشرين رطلا من الذهب الخالص جائزة على بعض مدائحه فيه . وقد توفى الشاعر فى عهده بسجلماسة ، ويقال بل إنه عاد إلى بلده وتوفى فيها ولا يعرف تاريخ وفاته ، واستظهر بعض الباحثين أنها كانت سنة ١٠٨٨هـ/ وربما كانت بعد ذلك بسنوات معدودة .

وشعر سعيد المنداسى سواء الشعر الشعبى والشعر الفصيح يتناول المديح كما أسلفنا والغزل

(١) انظر فى ترجمة سعيد المنداسى وشعره ديوانه تحقيق وتقديم الأستاذ رابح بونار (طبع الجزائر) . وراجع ديوان المنداسى فى الأدب الشعبى لمحمد بخوشة . وانظر فى الدولة العلوية وعلاقة المنداسى بها الاستقصا فى مواضع مختلفة .

والمدائح النبوية والموعظة والوصف ، وكان يكثر من الهجاء – قبل مبارحته تلمسان – للعثمانيين ، ومن قوله فى وصف أهاجيه :

كأن قــوافى الشعر منّى جنادلٌ وكفُّ الزمان منجنيقٌ بها يرمى

وهو يقول إنه كان يرسلها جنادل على العثمانيين وغيرهم ، واضطرته إلى مبارحة تلمسان خشية أن ينزل به العثمانيون عقابا أليما ، ومن أشد أهاجيه فيهم أهجية طويلة سماها : « الإعلام فيما وقع للإسلام » نظمها عقب مذبحة لحاكم تلمسان العثمانى ، إذ سلط جنده على بعض أعلامها وعلمائها ، فسفكوا دماءهم بغيا وظلما وهدموا مبانيهم وسبوا نساءهم وذراريهم . وكان أحد الفقهاء المسمى ابن زاغو سوَّغ لهم ذلك فى فتوى جائرة ، فصبَّ عليه وعلى العثمانيين فى أهجيته سياط هجائه غاضبا غضبا شديدا ، وهو يستهلها بهجائهم بمثل قوله :

وأكــبرُ شىءٍ أفسدْتــه أكفُّهــم تلمسانُ عَيْنُ الغرب علما وإيمانا
وكانت لهــم لما أرادوا فسادهــا أراذلُ منهم كالبطــارق أعوانــا

وهو يقول إن أكبر شىء أو مدينة أفسدوها تلمسان حاضرة الدولة الزيانية أم مدائن الجزائر علما ودراسات دينية ، أفسدها منهم أراذل كبطارقة النصارى العتاة ، ويلتفت للفقيه ابن زاغو الذى قدم لهم فتوى سوَّلت للحاكم العثمانى جريمته الآثمة فيقول :

فقــل لابن زاغــو للضلال أئمــةٌ تدَّبرْ – لحاك الله – ما قال مولانا
ولاتركنوا – والرَّكْنُ منك سجيَّةٌ – كأنــك لم تسمــع من الله قرآنــا
قتلتَ فُحــولَ العلم صَبْرًا ولم تزل على عهدك المعلوم فى الزَّيْغ هَيْمانا
فأيَّمتَ بالفتــوى نســاءً كريمةً ويتَّمتَ بالقــول المضلِّل ولدانــا

وهو يقول إن ابن زاغو الفقيه إمام لا من أئمة التقوى بل من أئمة الضلال والفساد فى الأرض ، ويتجه إليه قائلا : تدبَّر – قبَّحك الله – ما قال الله فى كتابه : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾ أى لا تميلوا ، ويقول إنه دائما من المائلين إلى العثمانيين الظالمين ، وبئس الميل لقد أفتيتهم بقتل العلماء العظام وما زلت على عهدك غارقا فى الزيغ والضلال ، لقد أيمت نساء وجعلتهن ثكلى فاقدات لأزواجهن الذين يعولونهن باكيات عليهم نادبات ويتمت أطفالا صغارا لا تخاف الله ولا تخشاه . ويصور بعد ذلك فى الأهجية سفك العثمانيين لدماء العلماء وما حملوا من رءوس كم باتت ساجدة لله وكم ظلت تدرس الدين وكتب التوحيد من مثل السنوسية الكبرى سوى من قيدوهم بالأغلال وزجوا بهم فى السجون ، ويعود إلى تصوير فتوى ابن زاغو ويكويه بمثل قوله :

وقال اقتلوا فالقتلُ يَرْدَعُ غيرهم ... ولا رَقَّ ذاك القلبُ منه ولا لانا
تعالوا تروا ضِلِّيلَ فى زىٍّ ناسكٍ ... يطوِّل من ثوب الضلالة أرْدانا
وقد قُدَّ ذاك الثوبُ من كل موضعٍ ... ومرَّ بأبصار الخلائق عُرْيانا
إذا شِيم منه الخيرُ فالبرق كاذبٌ ... وإن صال منه الرعدُ يهلك بُلْدانا

ويقول إنه أفتى بقتل من سفكت دماؤهم لزجر غيرهم وردعهم لا يرعى فيهم عهدا ولا ذمة ، وكأنما قسا قلبه وخلا منه كل شعور حتى غدا كالحجر الصلد أو أشد قسوة ، ويعجب أن يتظاهر بالنسك وعبادة ربه وهو يطوِّل من ثوب الضلالة أردانه أو أكمامه ، ويقول إن هذا الثوب قُدَّ وشقّق ومزّق حتى أصبح – رغم لبسه له – عريانا ، وحتى لو رُؤى منه برق خير فالبرق كاذب ، أما إذا أرعد فهلاك للبلاد والعباد . ويهيب الشاعر بأهل تلمسان أن يثوروا بالعثمانيين ثورة عنيفة ، ويتوعد ابن زاغو بما سيلقى عند ربه قائلا :

أيا آلَ دين اللّه مالى أراكمُ ... نيامًا وكان الطَّرْفُ من قبلُ يقظانا
أما تذكرون الأهل والزمن الذى ... عهدتم فذاك الوصلُ قد صار هجرانا
وهلا سألتم عن يتامى تفرَّقتْ ... أيادى سَبًا فى الغَرْب أنثى وذُكرانا
فقُل لابن زاغو رأس كلّ خطيئةٍ ... قِلًى تحسبون الفتك بالأهل سُلْوانا
ألا إنك الدَّجَّال للناس فتنةٌ ... تأهَّبْ لرَوْحِ الله فالحَيْنُ قد حانا

وهو يستصرخ أهل تلمسان ليهبوا من نومهم الطويل ويذودوا عن أهلهم وحريمهم الذين قتل العثمانيون أزواجهن ويتّموا أبناءهن وتفرقوا فى البلدان مِزَقا أناثا وذكورا ، ويقول لابن زاغو رأس هذه الخطيئة قِلًى وبغضا لك حين تتخذ الفتك بالأهل سلوانا ، إلا إنك الدجال الذى يموه الحق ويزين الباطل ويوقد الفتن ، فتأهب واستعد لإزاحة الله لك من على وجه الأرض ، فقد آن موتك ولم يعد لك مفر منه . وواضح أن سعيدًا المنداسى كان شاعرا بارعا ، ولم يكن يعيش بمعزل عن قومه ، فقد كان يشاركهم فى ثوراتهم على ظلم الحكام العثمانيين فى أيام شبابه ، وإن فاته أن يحمل السلاح فى وجوههم فإنه لم يفته أن يجعل من أبيات شعره الفصيح والعامى سهاما يسلطها على جباه العثمانيين ويقذفها على رءوسهم وصدورهم محاولا – بكل جهده – أن يستثير مواطنيه من أهل تلمسان ضدهم حتى يذيقوهم نكالا ووبالا .

٥

الشعراء والشعر التعليمى

مرَّ بنا فى الجزء الخاص بالعصر العباسى الأول أن رقى الحياة العقلية فيه هيأ لاستحداث الشعر التعليمى الذى يعنى بنظم التاريخ والعلوم والقصص التعليمية ، وكان من السابقين إلى

ذلك أبان بن عبد الحميد ناظم قصص كليلة ودمنة شعرا ، وله منظومات سقطت من يد الزمن فى تاريخ ملوك الفرس وأيضا له منظومة فى الفقه وأحكام الصلاة ، ونظم فى هذا الفن التعليمى الأصمعى فى الملوك والأمم البائدة كما نظم إبراهيم الفزارى منظومة طويلة فى الفلك يقال إنها استوعبت عشر مجلدات .

ومنذ العصر العباسى الأول رسخ هذا الفن فى الشعر العربى وأصبح أحد موضوعاته ، وقد اصطلح أبان وأصحابه فى العصر المذكور على أن يُنْظَمَ من وزن الرجز ، لأنه من أوفر أوزان الشعر العربى أنغاما ومن أكثرها قبولا للتغير فى تفاعيله ، وهو بذلك أكثرها مرونة لحمل المعارف العلمية. وأخذت الأقاليم العربية تسهم فى هذا الفن كلما اتسعت فيها الحركات العلمية وكثر علماؤها ، إذ يرون أن يضعوا فى علومهم منظومات لمساعدة الناشئة على حفظ قواعدها .

وأقاليم عربية تسرع فى هذا الصنيع ، وأقاليم أخرى تتأخر قليلا أو كثيرا ، ونلتقى فى القرن الخامس الهجرى بابن أبى الرجال المتوفى سنة ٤٢٦ هـ/١٠٣٤ م وله أرجوزة فى الفلك والتنجيم ، ويلقانا فى القرن السابع يحيى[١] بن عبد المعطى المولود سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٩ م وهو من قبيلة زواوة البجائية ، وقد نشأ فى بجاية ، وأتقن فيها علم النحو كما أتقن نظم الشعر ، غير أنه اتجه به نحو التمرن على نظم بعض المعارف ، ورحل إلى دمشق وسكنها وانتفع به خلق كثير ، ورغبَّه السلطان الكامل الأيوبى فى الانتقال إلى مصر وانتقل إليها وتصدَّر لإقراء الطلاب فى الجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) وكان يقرأ لهم ألفيته التى نظمها فى النحو ويفسر أبياتها لهم ، ولا يعرف متى نظمها ؟ هل نظمها قبل رحيله إلى دمشق أو بعد ذلك ومازال يقرئها الطلاب المصريين حتى توفى سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣١ م وعلى غرارها نظم ابن مالك ألفيته المشهورة فى النحو . ونمضى فى القرن السابع ونلتقى بأبى إسحق[٢] إبراهيم بن أبى بكر الأنصارى التلمسانى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ/١٢٩٨ م وقد نظم فى الفرائض (علم الميراث) وهو ابن عشرين سنة أرجوزة اشتهرت باسم التلمسانية ، وهى أرجوزة محكمة ضابطة لعلم الميراث عجيبة الوضع لم يصنَّف فى فنها مثلها وقد طارت شهرتها فى الجزائر وغير الجزائر وشرحت مرارا . وممن كثر نظمهم فى الشعر التعليمى ابن[٣] مرزوق الحفيد وله ألفية فى القراءات فى محاذاة ألفية الشاطبى : حرز الأمانى ، وأرجوزتان فى علم الحديث : كبرى باسم الروضة وصغرى باسم الحديقة ، وأرجوزة فى تلخيص كتاب المفتاح فى علوم البلاغة للقزوينى ، وأرجوزة فى الميقات أو الفلك

(١) انظر ترجمته فى معجم الأدباء ٣٥/٢٠ وابن خلكان ١٩٣/٦ .

(٢) راجع ترجمته فى الديباج المذهب لابن فرحون (طبع القاهرة) بتحقيق د. محمد الأحمدى أبو النور ٢٧٤/١ وبغية الرواد ليحيى بن خلدون ١٠٩/١ .

(٣) انظر ترجمته فى البستان ٢٠١ - ٢١٤ وراجع تعريف الخلف برجال السلف للحفناوى ١٢٨/١ ونيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا ص ٣٠٥ .

فى ألف وسبعمائة بيت سماها المقنع الشافى ، وله أرجوزة فى تلخيص أعمال الحساب لابن البناء ، وأرجوزة فى نظم كتاب الجمل فى المنطق للخونجى . ومن ناظمى الشعر التعليمى فى القرن التاسع بين أصحاب علوم الأوائل الحباك[1] محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٣ م وله أرجوزة فى الإسطرلاب كانت ألفية هذا العلم فى العهد العثمانى ، ومن أجل ذلك كثرت شروحها وقد سماها : « بغية الطلاب فى علم الإسطرلاب » وفيها تحدث عن رسوم الإسطرلاب وأجزائه ومطالع البروج والجهات الأربع إلى غير ذلك من موضوعات علم الفلك . ومن ناظمى هذا القرن أحمد[2] بن عبد الله الجزائرى المتوفى سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩ م وله منظومة فى علم التوحيد أو علم الكلام استهلَّها بقوله :

الحمد لله وهْو الواحـــدُ الأزلى سبحانه جلَّ عن شبْهٍ وعن مَثَلِ

نظمها فى مقتبل عمره وسماها الجزائرية وأرسلها إلى العلامة محمد السنوسى فأعجب بها وشرحها ، وقد دوَّت شهرتها فى الجزائر وغير الجزائر ، وبالمثل شرح السنوسى أرجوزة فى نفس العلم لتلميذه محمد[3] بن عبد الرحمن الحوضى، سماها واسطة السلوك افتتحها بقوله :

الحمـــدُ لله الذى دَلَّ عليـــه إيجادُنا ثـم افتقارُنـا إليـــه
وبعد فالتوحيدُ أشرفُ العلومْ وهْو أساسها الذى بـه تقومْ

ولابن[4] زكرى معاصرهما المتوفى سنة ٩٠٠ هـ/١٤٩٤ م أرجوزة فى نفس الموضوع شرحها الورتلانى . وحرى بنا أن نعرف أن الجزائر وكل بلاد المغرب – كما قلنا فى غير هذا الموضع – كانت تعتنق مذهب الأشعرى فى قضايا العقيدة وعلم التوحيد . ونمضى فى القرن العاشر الهجرى ونلتقى بالفقيه أحمد[5] بن الحاج البجائى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ/١٥٢٤ م وقد رأى للشيخ السنوسى كتابين فى علم التوحيد باسم العقيدة الكبرى والعقيدة الصغرى ، فنظم الصغرى فى أرجوزة له ابتدأها بقوله :

الحمـــد لله الـــذى عرَّفنـــا بنفسيـــه وبالهـــدى شَرَّفَنـا
وبعد فالمقصود من هـذا النظامْ نظمُ عقيدة السَّنوسىّ الإمـــامْ
من غَـــيْرِ تبديـــلٍ ولا تغـــييرِ سوى اختلاف اللفظ والتعبيرِ

وله منظومات فى مسائل فقهية متعددة . ولكثيرين منظومات أو أراجيز فى علوم مختلفة ، على نحو ما نرى عند عبد الرحمن الأخضرى وسنخصه بكلمة أو ترجمة ، وكثيرا ما كانوا

(١) انظره فى البستان ص ٢١٩ وتاريخ الجزائر الثقافى لسعد الله ١٠٩/١ وما بعدها .
(٢) راجع تعريف الخلف ٣٨/١ وسعد الله ٨٤/١ .
(٣) انظره فى البستان ص ٢٥٢ وعند سعد الله ٩٠/١ .
(٤) انظر فى ابن زكرى البستان ص ٣٨ وعند سعد الله ٨٥/١ .
(٥) راجع ابن الحاج فى البستان ص ٨ – ٢٤ .

ينظمون فى بعض مسائل العلوم الدينية واللغوية ، ولمحمد بن على بهلول المجاجى فى ألقاب الإعراب والبناء[1] :

مَـنْ يَبْتَـغ العِـزَّ يرفعـنَّ هِمَّتَـهُ ... بالضـمِّ عـن كل مَخْلوقٍ يَرَى عَجبا
وبـين عينيـه يَنصِبَنْ منيَّتَـه ... بفتـح بابٍ للَيْثِ الموتِ قد نُصبا
ويَخْفض النَّفْسَ لا يَبْغي لهـا شَرفًـا ... بكـسرِ شهوتهـا ينـالُ مـا طلَبا
بـذا يجـرُّ لهـا النَّفْعَ مجاهدُهـا ... فإن عصتْـه رمى بسهمـه عَطَبا
واجْزم على اللَّهْو نَفْسًا طالما اضطربتْ ... وبالسكـون يكـون الجَـزْمُ خُذْ أدبا

وواضح أن ألقاب الإعراب تتوالى فى الأبيات ، وهى الرفع والنصب والجر والجزم ، وبالمثل تتوالى ألقاب البناء ، وهى الضم والفتح والكسر والسكون . ونظم خليفة بن حسن القمارى الأجرومية فى قصيدة تسمى اللامية فى نظم الأجرومية فى النحو لابن آجروم الصنهاجى. ونلتقى بأحمد[2] البونى المولود سنة ١٠٦٣ هـ/١٦٥٣ م والمتوفى سنة ١١٤٠ هـ/١٧٢٨ م وذكر له الحفناوى فى تعريف الخلف برجال السلف نحو ستين منظومة نقلها عن رسالته : « التعريف بما للفقير من التأليف » منها نظم السيرة المحمدية ، ومما يتعلق بالقرآن الكريم نَظَم غريب القرآن فى تفسير ابن عباس ، ونظم غريب العزيزى للقرآن العظيم المسمى تحفة الأريب بأشرف غريب ، ونظم الخصائص الكبرى للسيوطى وأكبر الظن أنها شمائل رسول الله ، ونظم تحفة الفكر لابن حجر ، ونظم الفرائض (علم الميراث) فى رسالة ابن أبى زيد القيروانى ، ونظم الوغليسية فى الفقه لعبد الرحمن الوغليسى المتوفى ببجاية سنة ٧٨٦ هـ/١٣٨٥ م ونظم مختصر الشيخ خليل بن إسحق المصرى حامل لواء المذهب المالكى المتوفى سنة ٧٦٩ هـ/١٣٦٨ م فى عشرة آلاف بيت ، ونظم كتابه الجامع فى ألف بيت ونظم الأجرومية فى تسعين بيتا ، أما علم الكلام أو كما يسمى علم العقيدة فى الجزائر فكاد لا يترك فيه كلاما لإمام مشرقى أو مغربى إلا نظمه ، فله نظم فى عقيدة الماتريدى والطحاوى والغزالى وعبد القادر الجيلانى وابن عربى وأبى الحسن الشاذلى والعز بن عبد السلام والتفتازانى والنسفى وابن الحاجب وعبد الكريم الفكون ، ونظم العقيدة الوسطى والصغرى للسنوسى وعقيدة أبى مدين ، وكاد لا يترك كلاما لإمام من الأئمة الماضين سنيين أو صوفيين إلا وضع فيه منظومة . وحرى بنا الآن أن نخص عبد الرحمن الأخضرى أحد أصحاب هذا الشعر التعليمى بكلمة .

عبد[3] الرحمن الأخضرى

ولد عبد الرحمن الأخضرى فى بنطيوس من قرى بسكرة فى الزاب حوالى سنة

(١) تعريف الخلف ٤٤٨/٢ .
(٢) انظر فى ترجمته تعريف الخلف برجال السلف ٥٢٢/٢ .
(٣) راجع ترجمته عند سعد الله ٥٠٧/١ وما بعدها و ١٥٩/٢ ، ٤١٧ وما بعدها .

١٠٢٠ هـ/١٦١١ م وبها حفظ القرآن الكريم ، وبعد حفظه تتلمذ لشيوخها ولأبيه محمد وله حاشية على مختصر الشيخ خليل بن إسحق المصرى فى الفقه المالكى . وبعد أن أخذ كل ما عند أبيه وأقرانه من فقه ولغة ارتحل إلى قسنطينة ، فأكبَّ على حلقات شيوخها ، واستوعب كل ما أخذه عنهم من علوم أوائل وآداب تصوف وعلوم بلاغة ومنطق ، وعاد إلى موطنه يدرس لطلابه كل ما فقهه وتمثله من علوم مختلفة ، ويشيد مترجموه برسوخه فى المعقول والمنقول ، وظل يرعى طلابه إلى أن توفى سنة ١٠٥٣ هـ/١٦٤٣ م . وشغف بنظم العلوم ، فألَّف مجموعة من المتون يتدارسها الطلاب والعلماء شرقا وغربا ، منها فى الفلك منظومة السراج وقد شرحها سحنون بن عثمان معاصره ، ومنها الدرة البيضاء فى الحساب وعلم الفرائض وجعلها فى ثلاثة أقسام : قسم خاص بالحساب ، وقسم خاص بالفرائض (علم الميراث) وقسم خاص بقسمة التركات . وطبعت مع شرحها فى القاهرة ونُصَّ فى الطبعة على أن شرح قسم الفرائض من عمل المؤلف الأخضرى . وله فى التصوف منظومة سماها القدسية ، وهى فى آداب السلوك ونكران البدع ، وشرحها حسين الورتلانى المتوفى سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م وسمى شرحه الكواكب العرفانية والشوارق الإنسية فى شرح ألفاظ القدسية ، ونظم الأخضرى تلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للقزوينى وسمى منظومته الجوهر المكنون فى الثلاثة فنون : المعانى والبيان والبديع ، وشرحها فى القاهرة الشيخ أحمد الدمنهورى فى القرن الماضى .

وأهم منظومات الأخضرى فى العلوم منظومته فى علم المنطق ، وقد سماها : « السلم المرونق فى علم المنطق » وهى أرجوزة فى مائة وثلاثة وأربعين بيتا ، ويقول فى آخرها أنه نظمها وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، وشرحها ، وطارت شهرتها ووُضعت عليها شروح كثيرة ، ويستهلها بقوله :

الحمد لله الذى قد أخرجا ... نتائجَ الفكر لأرباب الحِجا
وحطَّ عنهم من سماء العَقْلِ ... كلَّ حجابٍ من سحاب الجهلِ
حتى بدتْ لهم شموس المعرفه ... رأوا مخدَّراتها منكشفه
نحمده جلَّ على الإنعامِ ... بنعمة الإيمان والإسلامِ
من خَصَّنا بخيرِ من قد أرسلا ... وخيرِ من حاز المقامات العُلا
محمدٌ سيِّدُ كل مقتفَى ... العربى الهاشمى المصطفى

وقد بدأ أرجوزته بالحمد لله والثناء عليه . والحجا : العقل ، وفى البيت الأول براعة استهلال إذ أشار بنتائج الفكر لأرباب العقل إلى موضوع الأرجوزة وهو علم المنطق ، ومضى فى البيتين الثانى والثالث يكمل معنى البيت الأول بما رفع الله من الحجاب عن قلوب أولى الألباب حتى ظهرت لهم شموس المعرفة ورأوا مخدراتها وعرائسها المستورة منكشفة . ويحمد الله

على إنعامه بنعمة الإيمان والإسلام ، وأن جعله من أمة محمد سيد المرسلين العربى القرشى المصطفى من بنى هاشم لرسالته العظمى . ويمضى فى هذه المقدمة قائلا إن المنطق زمام للعقل كما أن النحو زمام للسان ، ويوزع الأرجوزة على فصول متوالية ، وأولها فصل عن جواز الاشتغال بالمنطق كما قال الغزالى خلافا لابن الصلاح والنواوى ، إذ به تصحَّح الأفكار ويُهْتَدى فيها إلى الصواب . ويضع عنوانا : أنواع العلم الحادث أى العلم الإنسانى لا العلم الربانى وينشد :

إدراكُ مفـــردٍ تصـــورا عُلِمْ ... وَدَرْكُ نسبةٍ بتصديـــقٍ وُسِمْ
وقدِّمِ الأول عـند الوضـــع ... لأنـــه مقـــدَّم بالطَّبْـــعِ
والنظرى مـــا احتـــاج للتأمل ... وعكسُه هـو الضرورىّ الجَلِى

وهو يقول إن العلم قسمان : إدراك مفرد ويسمى تصورا كإدراكنا معنى الحيوان أو الإنسان أو الإخلاص ، وإدراك نسبة ويسمى تصديقا مثل « العالم حادث » فنسبة الحدوث إلى العالم تصديق وإدراك العالم فى نفسه وكذلك الحدوث تصور ، فالتصور يسبق دائما التصديق على وجه الإثبات كما فى المثال السالف أو على وجه النفى كقولنا : « العالم غير حادث » . والتصديق إما جازم وهو التصديق اليقينى مثل « الشمس تطلع كل يوم » وهو حكم لا يتغير ، وإما غير جازم مثل : « السماء تمطر غَدًا » وهو حكم يقارنه احتمال : ظن أووهم . والعلم الحادث قسمان : ضرورى ونظرى ، والضرورى ما يدرك بداهة بلا تأمل كقولنا : « الكل أعظم من الجزء » و « الواحد نصف الاثنين » والنظرى ما يحتاج إلى نظر واستدلال كقولنا : « الأرض كروية » و « الصبر مفتاح الفرج » . ويجمل الأخضرى الدلالة الوضعية أو اللفظية بقوله :

دلالةُ اللفظ على ما وافقـه ... يدعونها دلالـةَ المطابقـه
وجزئـهِ تضمنا وما لـــزمْ ... فَهْو التزامٌ إن بعقلٍ التزمْ

وهو يقول إن الدلالة إما دلالة مطابقة كدلالة الحيوان المفترس على الأسد . وإما دلالة جزئية أى دلالة الجزء فى ضمن الكل كدلالة الأسد على الحيوان لأنه من أفراده . وإما دلالة التزام كدلالة العمى على البصر ودلالة الدخان على النار . ويوجز بيان الكل والكلية والجزء والجزئية فى فصل على هذا النمط :

الكلُّ حكمُنا على المجمـوعِ ... ككل ذاك ليس ذا وقـوعِ
وحيثما لكل فـــردٍ حُكِمـــا ... فإنه كليَّـــةٌ قـد عُلمـــا
والحكم للبعض هـو الجزئيه ... والجـــزء معرفتـــه جَلِيَّه

وهو يذكر أن الكل هو المجموع المحكوم عليه كقولك « طلاب الجامعة مجتهدون ،

ففيهم من ليس مجتهدا ، والكلية الحكم الشامل لكل فرد فى المجموع كقولك : « كل إنسان قابل للعمل » . والجزئية الحكم على بعض الأفراد كقولك : « بعض طلاب الجامعة مجتهدون » والجزء ما تركب منه ومن غيره كالسمار والخيط للحصير والمبتدأ والخبر للجملة الاسمية . ويعقد فصلا للتعريفات والحدود قائلا :

معـــرَّفٌ إلى ثلاثـــةِ قُسِـــمْ حـــدٌّ ورسميٌّ ولفظيٌّ عُلِـــمْ
فالحدُّ بالجنس وفَصْلٍ وقعـــا والرسم بالجنس وخاصَّةٍ معا
وناقص الحـــدِّ بفصلٍ أو معًا جنسٌ بعيـــد لاقريبٌ وقعـــا
وناقص الرســـم بخاصة فقط أو مع جنسٍ أُبْعِدَنْ قد ارتبط
وما بلفظيٌّ لديهـــم شُهِـــرا تبديل لفـــظ برديفٍ أشْهَـرا

والأخضرى يقول إن التعريفات خمسة أقسام : حدٌّ تام وهو التعريف بالجنس والفصل وهو الصفة الملازمة التى لا يشترك فيها أحد مع المعرف مثل : « الإنسان حيوان ناطق » أى ذو عقل مفكر . والحد الناقص هو التعريف بالفصل وحده مثل ناطق أو بالفصل مع الجنس البعيد مثل : « الإنسان جسم ناطق » . والرسم التام التعريف بالجنس القريب والخاصة وهى صفة غالبة غير ملازمة وقد تكون مشتركة كتعريف الإنسان بأنه حيوان ضاحك لأن من النسانيس والقردة ما قد يضحك . والرسم الناقص إما بالخاصة فقط مثل ضاحك أو مع جنس بعيد مثل الإنسان جسم ضاحك . والتعريف اللفظى أو باللفظ التعريف بالمرادف الأشهر مثل تعريف الغضنفر بأنه الأسد . وواضح مدى إحكام عبد الرحمن الأخضرى للتعبير عن مسائل علم المنطق وقواعده بمنتهى الوضوح ومنتهى الدقة فى الإيجاز والاختصار . وهو – بحق – يعد فى طليعة المجيدين لنظم العلوم لا فى الجزائر وحدها بل فى العالم العربى جميعه . وقد أكب كثيرون على شرح هذا المتن البديع فى علم المنطق فشرحه سعيد قدورة فى الجزائر وشرحه فى مصر الملوى شرحين كبيرًا وصغيرًا ووضع عليه حاشية الشيخ إبراهيم الباجورى سنة ١٢٢٦ هـ/١٨١٦ م وطبعت مع تقرير عليها للشيخ محمد الإنبابى سنة ١٢٩٧ هـ/١٨٨٠م . وشرحه الشيخ أحمد الدمنهورى وطبع شرحه مع شرح الناظم الأخضرى سنة ١٣١٤ هـ/١٨٩٧ م وهى صورة من التواصل العلمى بين مصر والجزائر . ومرَّ بنا أن الجزائر ظلت تعنى طويلا بكتابات ابن الحاجب وخليل بن إسحاق المصريين فى الفقه المالكى .

الفصل الخامس
طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

يُعَدُّ الغزل من أهم الموضوعات التى شغلت شعراء العرب من الجاهلية إلى العصر الحديث ، فمن قديم يتغنون بعاطفة الحب الخالدة ، ويصورون مشاعرهم وأحاسيسهم إزاء المرأة وما يكون بينهم وبينها من لقاء ووداع ووصال وهجران ، وهم تارة سعداء بوصالها وتارة أشقياء يشكون الهجران والحرمان ، ويتمنون ولو نظرة من بعيد ، وكأنها الفردوس الذى حرموا منه ، وهم يألمون لذلك أشد الألم مع الإكثار من الاستعطاف . والغزل من قديم نوعان : نوع مادى يعنى فيه الشاعر بتصوير المرأة تصويرا حسيا صادرا فيه عن الغريزة النوعية وما تتطلب من المتاع المادى ، ونوع عذرى طاهر يتسامى فيه الشاعر إلى بث الوجد الذى يَصْلى بناره فى دخائله وبلوعاته لوعات لا تنتهى ، وهو يتغنى فيه بمحبوبته ظامئا إلى رؤيتها ظمأ متصلا متضرعا ، وكأنها ملاك من عالم غير عالمه ، ودائما يبكى بدموع غزار . وهذا النوع الثانى من الغزل القائم على الحرمان وعلى السمو فى الحب هو الغالب على غزل شعراء الجزائر ، وما من شاعر جزائرى مشهور إلا نجد عنده من هذا الغزل إشعاعات كقول عبد الكريم النهشلى[1] :

يشكو هواك إلى الدموع متيَّمٌ ... لم يبق فيه للعزاء نَسِيسُ
لولا الدموع تحرَّقتْ من شوقه ... يوم الوداع قِبابكم والعيسُ

وهو يقول إنه ودَّع صاحبته ولم يعد يستطيع أن يقدم شكواه إلا دموعه ، وقد أضناه الحب ، ولم يعد فيه إلا نسيس أو بقية من الروح ، ولولا الدموع وطوفانها لتحرقت بنار حبه قبابُها وخيامها وهوادجها والعيس أو الإبل الظاعنة عليها . والتفت ذات يوم إلى شجرة فرأى عليها حمائم وسمعها تترنم وتنوح ، فتأثر وأنشد[2] :

(١) أنموذج الزمان لابن رشيق ص ١٧٦ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .

أواجـدةٌ وجـدى حمـائمُ أيْكةٍ تميـل بها مَيْلَ النَّزيف غصونُها
نشـاوَى وما مالـتْ بخمرٍ رقابُها بـواكٍ وما فاضتْ بدمعٍ عيونُها
أعيـدى حمامـاتِ اللِّوَى إن عندنا لشَجْوك أمثالا يعـود حنينُها[1]

ويتساءل النهشلى أهذه الحمائم تداخلها مواجد مثل مواجده ، وإن غصون الأيكة لتتمايل بها ميل النزيف أو السكران المنتشى ، وإن الحمائم نفسها لنشاوى سكارى وما شربت خمرا ، وإنها لبواك تثير الشجون وما بكت عيونها ، وإنه ليلتمس منها أن تعيد بكاءها ونواحها فإنها تثير فيه نفس الشجْو وما يعتاده من الحنين والشوق . ونلتقى بابن قاضى ميلة وقصيدته الغائية التى نوه بها ابن خلكان والتى مدح بها ثقة الدولة أمير صقيلة ، وقد استهلها بغزل حِوارى على طريقة عمر بن أبى ربيعة أبدع فيه كل الإبداع ، ونقتطف منه الأبيات التالية[2] :

ولمـا التقينـا محرمـين وسَيْرُنـا بلبَّيْك ربَّـا والركائـبُ تَعْسِف[3]
نظـرتُ إليهـا والمطىُّ كأنمـا غواربُها منهـا معاطِسُ رُعَّـف[4]
فقالـتْ أما منكـنَّ مَنْ يَعْرِفُ الفَتَى فقـد رابنى من طـول ما يتشوَّفُ[5]
أراه إذا سِـرْنا يسـيرُ حِـذاءَنا ونوقفُ أخفـاف المَطِىِّ فيوقـف[6]
فقلـت لتِربَيْهـا ابلغاهـا بأنَّنى بهـا مستهـامٌ قالتـا نتلطَّـف[7]
وقـولا لهـا يا أمَّ عمرو أليـس ذا مِنًى والمُنَى فى خَيْفه ليس تُخْلَف[8]
وفى عَرَفـاتٍ ما يخـبِّر أننى بعارفةٍ من عطـف قلبك أسْعَف[9]
فأوصَلتـا ما قلتـه فتبسَّمـتْ وقالت: أحاديث العِيافة زُخْرف[10]
وقد أنذر الإحـرامُ أنَّ وِصالنـا حرامٌ وإنا عن مزارك نَصْدِفُ[11]

وابن قاضى ميلة يذكر التقاءه بصاحبته وهما محرمان يلبيان ربهما قائلين لبيك اللهم لبيك ، وكل منهما يركب مطية مجهدة كبقية مطايا الحج والعرق يسيل منها مدرارا ، وهو ما يزال ينظر إلى صاحبته ، سائرا بجوارها ، وكلما توقفت مطاياها وصحبها توقَّف ، فقال لصاحبتيها وقد دنا منهما أبلغاها بأننى هائم بها ، وقولا لها إننا سننزل منى ، وينبغى أن تحقق لى فى خيف

(١) اللوى : ما التوى من الرمل أو منقطعه .
(٢) انظر فى القصيدة ابن خلكان ١٥٩/٦ والأنموذج ص ٢١١ والذخيرة ، القسم الرابع ص٥٣٣ .
(٣) الركائب جمع ركوبة من الدواب والإبل . تعسف : تسير فى الطريق على غير هدى .
(٤) معاطس جمع معطس : الأنف . رُعَّف جمع راعف : تسيل . الغارب فى البعير : ما بين السنام والعنق .
(٥) يتشوف : يشرف وينظر .
(٦) أخفاف : جمع خف وهو للبعير كالحافر للفرس .
(٧) لتربيها : المماثلتين لها فى السن . مستهام : هائم أى مشغوف حبا .
(٨) منى بكسر الميم : ينزل بها الحجاج فى أيام التشريق . خيف منى : منحدرها .
(٩) عارفة : الجميل والإحسان . عرفات : جبل به موضع وقوف الحجاج .
(١٠) العيافة هنا : التفاؤل .
(١١) نصدف : نعرض ونميل .

منى اللقاء ، وسنقف بعدها فى عرفات ، فهل تجود على بملاقاة ، وحدَّثاها عنه فابتسمت وقالت تلك أحاديث عيافة وكهانة وتفاؤل مزخرف . وإننا محرمان والإحرام يحرم وصالنا ، وإنى لصادقة عنه مزورة ، ولن ألقاه ، وتمضى قائلة إن قذفنا للجمرات ليخبرك بأن كلامنا سيقذفه البعد والنوى إلى ديار متباعدة . ويسوق الغبرينى فى كتابه « عنوان الدراية » غزليات طريفة لشعراء بجاية ، منها قول[1] محمد بن يحيى بن عبد السلام :

ألا بأبى من لا أرى فى الهـوى سوى ... محيـَّاه شمسًا أو سَنَا ثَغْـره بَرْقَـا
ولا خمـرَ إلا مِنْ لَمـاه ولحظـهِ ... ولا غُصْنَ إلا القـدُّ لا ما ارتقتْ وَرْقا
لئن لدغـتْ قلبى عقـاربُ صُدْغهِ ... فريقتـه التِّرْيـاقُ لى وبهـا أُرْقَـى
تعلَّمت مـن عينيـه عشقى لحسنـهِ ... فَلِلَّهِ ألحـاظٌ تعلَّمنى العِشْقـا
ولو أن هاروتـا رأى سـحْرَ طَرْفـهِ ... أقـرَّ بأن السحـر من لحظه اشْتُقَّا
فيـا طامعًـا فى الوَصْلِ منـه تسلَّ هَلْ ... سمعتَ بأشراكٍ تُصـاد بهـا العَنْقا

وهو ينوه فى أول الأبيات بجمال صاحبته التى يرى وجهها شمسا وضوء ثغرها برقا ، ولا خمر مسكرة إلا من سمرة شفتيها ولحظ عينيها . ولاحسن غصن إلارشاقةُ قدِّها لا ما ارتقت الوَرْقاء من قدود الأغصان الجميلة . ويقول لئن لدغت عقارب شعرها الملتوى على صدغها فإن ريقتها الترياق والبلسم الذى يُرْقَى به لشفائه ، ويذكر أن جمال عينيها هو الذى ألقى فى فؤاده عشقها ، وما أبدعه ، فلو أن هاروت الساحر المذكور فى القرآن الكريم رأى سحر عينيها لأقرَّ بأن السحر مشتق منه . ثم يُلْقى اليأس فى قلوب من يطمعون فى وصلها ، فيقول هل يمكن لأحد أن يصيد العنقاء الطائر الخرافى بشباكه وأشراكه . وكان يعاصر هذا الشاعر فى بجاية محمد بن أحمد الأريسى وله غزليات رقيقة ، وسنترجم له عما قليل .

ونهضت الدولة الزيانية : دولة بنى عبد الواد بالأدب شعرا ونثرا وسرعان ما أنتجت النهضة الأدبية فى زمنها شاعرا كبيرا هو ابن خميس وله غزليات رقيقة بديعة كثيرة ، من ذلك قوله[2] :

نظـرتْ إليـك بمثـل عَيْنَىْ جُؤْذَرِ ... وتبسَّمتْ عن مثل سِمْطَىْ جَوْهَرِ[3]
عن ناصـعٍ كالـدرِّ أو كالـبرق أو ... كالطَّلْع أو كالأُقْحـوان مُؤَشَّـر[4]
تجـرى عليـهِ من لَماهَـا نُطْفَةٌ ... بـل خمـرةٌ لكنهـا لم تُعْصَرِ[5]

(١) عنوان الدراية للغبرينى ص ٣٤٢ .
(٢) الديوان ص ١١٠ وانظر بغية الرواد ليحيى بن خلدون ص ١١١ .
(٣) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية . السمط : العقد والقلادة .
(٤) مؤشر : مفلج .
(٥) اللمى : الشفتان . نطفة : ماء صاف .

لو لم يكـــن خمـــرا سُلافًـا رِيقُها تُـزرى وتلعب بالنُّهَى لم تُحْظَرِ[1]
وكـذاك سـاجى جَفْنها لو لم يكـن فيـــه مهنَّـــدُ لَحْظِها لم يُحْذَرِ[2]
لو عُجْتَ طَرْفك فى حديقـة خَدِّهـا وأَمِنْتَ سطـوة صُدْغهـا المُتَنَمِّرِ[3]
لرتَعْـتَ من ذاك الحِمَى فى جنَّـــةٍ وكرعـتَ من ذاك اللَّما فى كَوْثَرِ[4]

وابن خميس يشبِّه عينى صاحبته بعينى جؤذر وأسنانها فى ثغرها بعقدى جوهر ويقول إنه ثغر ناصع البياض كالدرِّ أى اللؤلؤ أو كضوء البرق أو كطلع النخل أو كزهر الأقحوان الأبيض المفلَّج الأوراق كأسنان هذا الثغر المفلَّجة ، وهو ثغر يجرى عليه من شفتى صاحبته نطفة (قطرات) سائغة من الريق بل خمر ، وإن لم يعصرها خمار ، خمرة تلعب بالعقول ، غير محرمة ، ولو لم يكن فى فاتر جَفْنها سيف لحظها يحميها ما حُذِرت ، ولو أُتيح لك أن تعطف طرفك فى خدها وجماله المتنوع ، وكأنه حديقة باهرة ، وأمنت بطش عقرب صدغها المتنمر لنعمتَ بجنَّة رائعة ، ونهلت من لماها أو شفتيها من الكوثر نهر الفردوس . ويمضى ابن خميس فى هذا الغزل قائلا :

طرقتْك وَهْنًا والنجـــومُ كأنهـــا حَصْبـاءُ دُرٍّ فى بســاطٍ أَخْضَرِ[5]
بَيْضا إذا اعتكرتْ ذوائبُ شعرهـا سَفَرَتْ فأَزْرَتْ بالصباح المسفرِ[6]
طرحـت غِلالتهـا فقلـت سبيكةٌ من فضـةٍ أو دميـــةٌ من مَرْمَرِ[7]
منَحتْـك ما منَعتْك يقظانًـا فلـــم تُخلـف مواعدَهـــا ولم تتغـــيَّرِ
هاجـــتْ بلابـلُ نـازحٍ عـن إلْفِهِ متشوِّقٍ ذاكى الحشـــا متسعِّرِ[8]

وهو يقول إن صاحبته طرقته أو زارته فى منتصف الليل والسماء تنتثر لآلىء نجومها فى بساطها الأخضر ، ويقول إنها إذا أحسَّتْ بكثافة شعرها وكشفت عن وجهها أزرتْ بالصباح المضيىء الجميل ، أما إذا خلعتْ غلالتها فإنها تبدو كأنها سبيكة من فضَّة أو دمية من مرمر ، ويقول إنه لم ير شيئا منها يقظان وإنما ذلك حلم رآه فهاج شجون مغترب عن إلفه متشوق تتقد أحشاؤه وتشتعل حبا وهياما . ولابن خميس غزل كثير فى مطالع مدائحه يصف فيه لوعات حبه وما تكنُّ ضلوعه من مواجعه ، وقد يحيله غزلا صوفيا بديعا . ولمحمد[9] بن عمر المليكشى البجائى المنتسب إلى مدينة الجزائر والمتولى خطة الإنشاء بتونس والمتوفى بها سنة ٧٤٠ للهجرة قوله :

---

(١) سلافا : خمرا خالصة . تحظر : تحرم .
(٢) ساجى : فاتر . المهند : السيف .
(٣) عجت : عطفت .
(٤) رتعت : نعمت . كرعت : نهلت .
(٥) وهنا : نحو نصف الليل .
(٦) اعتكرت : تكاثرت . ذوائب : ضفائر . سفرت : كشفت وجهها .
(٧) الغلالة : ثوب رقيق .
(٨) بلابل : هموم وشجون . متسعر : متقد .
(٩) تعريف الخلف برجال السلف ١٧٦/١ .

رِضًا نلتِ ما تَرْضَيْنَ من كل ما يُهْوَى ... فلا توقفيني موقف الذلِّ والشكوى
وصفحًا عن الجانى المسيء لنفسهِ ... كفاه الذى يلقاه من شدة البَلْوَى
قفى أتشكَّى لوعةَ البَيْنِ ساعةً ... ولا يك هذا آخرَ العهد بالنَّجْوَى
قفى ساعةً فى عَرْصة الدار وانظرى ... إلى عاشقٍ ما يستفيق من البَلْوَى[1]
وكم قد سألتُ الرِّيح شوقا إليكمُ ... فما حنَّ مَسْراها علىَّ ولا ألْوى[2]
فيا ريحُ حتى أنتِ ممن يغارُ بى ... ويانَجْدُ حتى أنت تَهْوَى الذى أهْوَى
خلقتُ ولى قلب جليدٌ على النَّوَى ... ولكن على فقد الأحبَّة لا يَقْوَى

وهو يلتمس رضا صاحبته وأن لا تقفه شاكيا من حبه متذللا ، وأن تصفح عما قد تظن من تجنِّيه فكفاه ما يلقى من محنة الحب ، ويسألها أن تقف ليشكو لها لوعة البين والبعد ساعة أو بعض ساعة آملا أن لا يكون هذا آخر العهد بلقائها ونجواها ، بل إنه يسألها أن تقف لحظة فى ساحة الدار وتنظر إلى ما اعتراه فى محنة الحب وبلواه ، ويقول إنه ليسأل الريح المقبل من دارها عنها فلا تحن عليه ولا تعطف ، فحتى الريح تغار منه ، ويخال كأنها أخت ليلى معشوقة المجنون ساكنة نجد ، وحتى نجد تهواها وتهيم بها ، ويقول إن قلبه يتحمل النوى والفراق ، ولكنه لا يتحمل فقد الأحبة . وكان يعاصره بتلمسان أبو عبد الله محمد بن البناء ويقول يحيى بن خلدون عنه إنه « كاتب شاعر متخلق ظريف » وينشد من غزله[3] :

عِيدٌ وغِيدٌ وعودٌ وابنةُ العودِ ... ياليلةً جمعتْ شَمْلِى بها عودى[4]
وشادنٍ خنِثِ الأعطاف من ترفٍ ... عُلِّقْتُهُ بَدْرَتِمٌّ فوق أُمْلودِ[5]
يَجْنِى فتمحو جناياه محاسنُهُ ... وللجمال شفيعٌ غيرُ مردود
لما سألناه عن خمرٍ بريقتهِ ... يحميه بالبِيض من أجفانه السود[6]
وسَالِفَيْه وصُدغَيْه فقال لنا ... هذى المدامةُ من تلك العناقيد[7]

وهو يذكر ليلة عيد اجتمع له فيها فتيات حسان والعود يترنم وابنة العود يريد الخمر بنت شجرة العنب وفتاة جميلة ناعمة الأعطاف تعيش فى ترف ونعيم شغف بها وبقدها الرشيق وكأنها بدر فوق غصن ناعم ، وكم جنت عليه ومحاسنها تشفع لجناياتها شفاعة لا ترد ، ويتمنى لو ارتشف من خمر ريقها ولا يستطيع إذ تحميه سيوف مسلولة من أجفانها السود وعقربى

(١) عرصة الدار : ساحتها .
(٢) ألوى : عطف .
(٣) بغية الرواد ليحيى بن خلدون ص ١٢٤ .
(٤) غيد جمع غادة : الفتاة الناعمة .
(٥) شادن: ولد الظبية. خنث: لين وناعم. الأعطاف: الجوانب. بدرتم: بدر كامل. أملود: غصن ناعم لين .
(٦) البيض : السيوف .
(٧) السالف والسالفة : صفحة الجيد وجانبه .

صدغيها وصفحتى جيدها الجميلتين ، ويقول إنهم لما سألوها عن خمر ريقها قالت لهم مدلة إن هذى المدامة من تلك العناقيد . وينشد يحيى بن خلدون للشاعر موشحة محكمة الصنعة مثل مقطوعته السالفة وفيها يقول :

بدرٌ أزراره تبـدَّت فلـكا ... قلبى ملـكا
عيناه مع الهوى دمى سفكا ... فيه اشتركا
قد أشبهت المها لحظا فتكا ... والخال حكى
مسكًا مستمسكا على سُوسان ... غَضٌّ عَبِقِ[1]
يُهْدَى كنسيم جنَّة الرضوان ... للْمُنْتَشِقِ

هو يقول كأنها بدر وأزرارها الفلك ملكت قلبه واشتركت عيناها مع الهوى فى سفك دمه وقد أشبه لحظها الفاتك لحظ البقر الوحشى حسنا وجمالا ، وحكى الخال مسكا على سوسان أبيض غضٌّ عَطِرٍ ، يُهْدَى كنسيم الفردوس الذكىٌ للمنتشق . وللشهاب بن الخلوف غزليات كثيرة وهى تشغل فى ديوانه نحو مائة وعشرين صفحة سوى ما يودعه مقدمات مدائحه من غزل رقيق ، ومن طريف غزله قوله[2] :

إذا القُمْرِىُّ غـرَّد فى الغصـونِ ... أعـانَ المستهـامَ على الشُّجون
وإن نـاحَ الحمـامُ بكيتُ وجدًا ... بُمزْنِ سحائبِ الدَّمـع الهَتُونِ[3]
وقـاك اللَّهُ هـل أبصـرتَ صَبًّا ... حزينَ القلب مقـروح الجفـون
تطارحـه الصبابةُ بالتَّصـابى ... وتُسْلمه الأمـانى للمَنـونِ[4]
ينـوحُ على الديـار وساكنيهـا ... إذا مـا النُّوقُ سـارتْ بالظُّعونِ
ويكتـم فى حَشاه الوَجْدَ سِرًّا ... فتظهرُه المدامعُ فـى العيـون

وهو يقول إن قمرىٌّ الحمام يترنم فى الغصون بتغاريده يثير الشجون فى قلوب المحبين ، وحين ينوح الحمام يبكى وجدا ويذرف الدموع مدرارا . ويدعو لمخاطبه أن يقيه الله من الحب وأوصابه ، ويسأله أرأيت مغرما حزين القلب قريح الجفون من كثرة البكاء ، يمنيه الشوق أن سيُصْبى صاحبته ، وما يزال يتمنى ذلك حتى الموت . وترحل صاحبته مع أهلها وتسير النوق بالظعون أو الهوادج ، ويكتم نار وجده وحبه فى صدره وأحشائه ، وتعلن سره دموعه المنهلَّة الغزيرة. ونمضى إلى العهد العثمانى وممن نقرأ له غزلا طريفا فيه محمد القوجيلى من مثل قوله[5] :

---

(١) غض : حديث . عبق : عطر .
(٢) الديوان ص ٣٥٧ .
(٣) مزن جمع مزنة : مطرة . الهتون : الغزير .
(٤) الصبابة : الحب والشوق .
(٥) أشعار جزائرية ص ١٣٠ .

الحبُّ صعبٌ والرقيبُ أعانَهْ والدمعُ باحَ بِذَا الهوى وأبانَه
والحبُّ يستدعى القلوبَ إلى الهَوَى فتجيبُه منقادةً وَلْهانَهْ
وبجسمىَ المُضْنَى فتاةٌ غازلتْ قلبَ الكئيب بأعينٍ فتَّانَه
خرجتْ مع الأتراب بين أزاهرٍ فكأنها بدرٌ تكلَّل بانَه[1]

وهو يقول إن الحب صعب والرقيب يعين جذوته اشتعالا ، وهو لا يخفى فالدمع دائما يبوح به ويعلنه إعلانا ، ويذكر أن الحب يستدعى القلوب إلى العشق فتلبيه خاضعة ولهانة وقد غازلته فتاة جميلة أضنته وشغفته حبا بسحر عيونها حين رآها مع أترابها الفاتنات وكأنما وجهها بدر يتوّج قامتها الرشيقة . ولسعيد المنداسى معاصره قصيدة نبوية يستهلها بغزل ويطيل فيه طولا شديدا . وهى منسوبة فى كتاب تعريف الخلف برجال السلف لمحمد بن عبد الرحمن الحوضى وبالمثل فى تاريخ الجزائر الثقافى والغالب أنها للمنداسى لوجودها فى ديوانه، وفيها يقول[2]:

أرَذاذُ المُزْنِ من عيني نزلْ أم دموعُ الشوق إذ رَقَّ الغزل[3]
أبعيني ديمةٌ وَكَّافَةٌ أم شَعِيبٌ للنَّوَى منها انْبَزل[4]
دَعْ- عَذولى- اللومَ إنى شائقٌ رقَّ طبعى حين صُنعى فى الأزل[5]
ما الهوى إلا عذابٌ للفتى أو يَخْفى إنْ بقلب المرء حَلّ
لا تلمنى دون علمٍ- عاذلى- فبِسَمْعى صمَمٌ عمن عَذَل
كم دموعٍ من عيونى انهمرتْ لعيونٍ من عذاب لا تملّ
مذ دعانى البينُ والدمعُ على صَحْن خَدِّى وابلٌ يَهْمِى وَطَلّ

ويستمر هذا الغزل إلى نحو ستين بيتا كلها بهذه الموسيقى العذبة وهذه اللغة المنتخبة الصافية ، والشاعر يتساءل عن الدموع المنهمرة من عينيه أهى قطرات سحاب هاطل أم دموع شوقه تتقاطر متوالية ، وهل حقا بعينه سحابة سائلة أو مسيل للنوى انشقّ ، ويقول لعاذله لا تلمنى فإنى رقيق الطبع منذ صُنْعى فى الأزل ، وهل الهوى والحب إلا ألم للفتى وعذاب متصل إن حل بقلب لا يخفى ، فلا تكرر علىّ لومك دون علم بحقيقة الحب ، فبأذنى وَقْرٌ لا أسمعك ، وكأنما تخاطب حجرا أصم ، وكم أسراب دموع سالت من عيونى وصاحبتى لا تمل هذا

(١) البانة : مفرد البان وهو شجر لين القوام كالصفصاف تشبّه به الجميلات فى الطول واللين .
(٢) الديوان الشعبى للمنداسى نشر محمد نجوشه ص٨٣ . ردديوانه الفصيح تحقيق رابح بونار ص ٣١ .
(٣) رذاذ : قطرات .
(٤) ديمة : مطر . وكافة : سائلة . شعيب : مسيل . انبزل : انشق .
(٥) الأزل : القدم ، أول الزمان .

العذاب . ومذ دعاه الفراق والدمع يجرى على خدَّيه وكأنه مطر منصبٌّ وطلّ ماينى يتقاطر ويتساقط . ومن أهم شعراء الغزل فى الجزائر الأريسى وابن على وحرى أن نخصّ كلا منهما بترجمة مفردة .

محمد[1] بن أحمد الأريسى

من شعراء بجاية فى القرن السابع الهجرى ، ولا نعرف شيئًا عن تاريخ مولده ولا عن نشأته وتعلمه ، غير أنه من بيت علم وفقه فقد كان جده الأريسى فقيها ببجاية وكان اعتماد قاضيها أبى محمد بن حجاج المتوفى بعد سنة ٦٤٠ للهجرة عليه وعلى الفقيه أبى على بن عزون وبينهما كان جلوسه إذ كانا المشاورين له . وعكف الحفيد فى كتّاب على حفظ القرآن ثم أخذ ينهل من حلقات الشيوخ فى موطنه دارسًا عليهم الفقه حتى برع فيه ، وبالمثل درس عليهم الأدب . وتفتحت موهبته مبكرة فى الشعر والنثر ، مما سلكه بين الكتّاب ، ولمع اسمه بينهم حتى أصبح رئيس كتبة الديوان ببجاية ، وكما كان يتقن الكتابة والنثر كان يتقن الشعر ، وكان يسلك فيه طريقة المتنبى بينما كان صاحبه أبو عبدالله محمد بن الحسن التميمى القلعى يسلك طريقة أبى تمام ، كما يقول الغبرينى ، وكانا يتراسلان بالأشعار وكل منهما يجاوب صاحبه على طريقته ، ويقول الغبرينى عن الأريسى : « كان سهل الشعر كثير التجنيس يأتيه من غير تكلف .. وله شعر كثير فى كل فن من فنون الشعر » وأنشد له الغبرينى مطلع مدحة وقصيدتين غزليتين ، وفى المطلع يقول :

ونادى خطيبُ الوُرْق يدعو هَديله ... وغنّى فأغنى عن ضروب التَّلاحين[2]
وذكّر أيام الصبَّابة والصِّبا ... ولذّةَ عيشٍ كان لى غير مَمْنُون[3]
فيا ساكنى نَجْدٍ أُطرقُ حيَّكم ... وأرجعَ مغلوبا بصَفْقة مغبون
ويا ساكنى الجَرْعاء إنْ كان عندكم ... نصيبٌ من الصبر الجميل فواسونى[4]
تركتُ فؤادى عند خَيْمة زَيْنَب ... وما سحرُ عينيها علىَّ بمأمونِ
أغارتْ عليه حين لم يُلفِ ناصرًا ... وأغرتْه بى حتى تعلَّم يجفونى

فخطيب الحمام دعا الهديل ليتغنى بصوته الجميل فتأثر به الشاعر وذكّره أيام الصبا والحب ولذة عيش هنئ متصل ، وثار منه كمين الوجد ، فنادى أهل صاحبته من ساكنى نجد متذللا ، أيطرق حيهم ويرجع مغلوبا مغبونا ، وبالمثل نادى ساكنى حيّها فى الجرعاء بنجد هل عندهم

(١) انظر فى محمد الأريسى ترجمته فى عنوان الدراية ص ٣٣٧ وترجمة جده ص ٢٤٩ وترجمة أبى عبدالله محمد بن الحسن التميمى فى ص ٧٢ وراجع فى الشاعر تعريف الخلف ٣٥٦/٢ .

(٢) الورق جمع أورق وورقاء : الحمام . هديله : قرينه من الحمام .

(٣) ممنون : منقطع .

(٤) الجرعاء : من مواضع نجد .

له نصيب من الصبر يواسونه به ، ويقول إن فؤاده تخلف عنه عند خيمة زينب الساحرة العينين ، وقد أغارت عليه ولا ناصر له ، وأغرته به حتى جفاه وأبى الرحيل معه . ويقول الأريسى فى قصيدته الغزلية الأولى :

لعلك بعد الهجرِ تسمحُ يا بدرُ ... بوصلٍ فقد أُوْدَى بمهجتىَ الهَجْرُ[1]
أبيتُ كما ترضى الكآبةُ والأسى ... وأُضْحى كما تهوى الصبابةُ والفكرُ
إذا قنطتْ نفسى ينادى بها الرَّجا ... رويدكِ كم عُسْرٍ على إثْره يُسْرُ[2]
ولا أنسَ يومًا للسرور وبَيْننا ... عتابٌ كبَرْد الماء لكنه الجَمْرُ
ووالله ما أدرى لطيبِ حديثها ... أضُمِّن سحرًا لفظُها أم هو السحرُ
خليلىَّ قولا إنْ بدا لكما الحِمَى ... أُهَيْلَ الحِمىَ مشغوفكم مسَّه الضُّرُّ
على مَ تناسيتم حديث عهودكم ... وليس له ذنبٌ وليس لكم عُذْرُ

والأريسى يتذلل لمحبوبته أن تسمح له بالوصل فقد كادت مهجته أو روحه أن تزهق وإنه ليبيت كئيبا محزونا ويضحى مفكرا مهموما ، وينادى الرجاء عليه لابد بعد العسر من اليسر . ولا ينسى يوم لقاء مع صاحبته كان يوم سرور لا حد له ، مع ما شابه من شظايا عتاب كالجمر أو أشد ، ومع ذلك لا يدرى لجمال حديثها أضُمِّن سحرا أو هو السحر نفسه ، وينادى صاحبيه إن ألمَّا بالحمى أن يقولا لأهلها إن المشغوف بفتاتكم مسَّه الضر وأصابه الضَّنا ، وقد نسيتم عهودكم دون عذر لكم ودون ذنب جناه . ويستهل قصيدته الغزلية الثانية بقوله :

أهلَ الحمى هل لكم عن قصتى خَبَرُ ... وإنَّ لَيْلى بِلَيْلَى كلّه سَهرُ
وفى ضلوعىَ نيرانٌ يضرِّمها ... دَمْعٌ على صفحات الخدِّ يَنْهَمِرُ
لما رأيت بدورَ الحىِّ سافرةً ... عن النِّقاب بدا لى أنه السَّفَرُ
ولا عوامل إلا من قُدودِهم ... ولا صوارم إلا ما انتضىَ الحَوَرُ[3]
سألتك الله يا حادىَ المطىِّ بهم ... رِفقا علىَّ لعل الصَّدْعَ يَنْجَبِرُ
عَرِّجْ علىَّ فلى قلبٌ يميلُ إلى ... حديثٍ من قتلوا منا ومن أسروا
وأنت – يا سعد – إنْ غنَّتْ ظِباؤهمُ ... فقِفْ تعاينْ فؤادى كيف يَنْفطر[4]

والشاعر يعرض قصته على أهل الحمى وأن حبه لليلى يشغف قلبه حتى ليبيت مسهَّدا ، وفى ضلوعه نار ما تزال توقد جذوتها دموعه المنهمرة على صفحات خده . ورأى بدور الحى سافرة فعرف أنها تستعد للسفر ، وتراءت له قدودهن كأنها أسنَّة رماح تصيب قلوب الرجال ،

(١) أودى به : أهلكه وذهب به .
(٢) قنطت : يئست .
(٣) العوامل : أسنة الرماح . انتضى الصارم : سلَّ السيف .
(٤) ينفطر : يتشقق .

وكأنما حَوَرُ عيونهن يسلّ سيوف مصمية ، ويسأل حادى المطى يرفق به لعل الصَّدْع الذى أحدثته صاحبته فى فؤاده ينجبر ، كما يسأله أن يميل بالركب عليه فقلبه يتمنى لو سمع حديث من قتلن منهم ومن أسرن ، وإن تغنين فقف ليرى فؤاده كيف ينفطر ويتصدّع ألما . ويعرض حوارا لصاحبته معه منشدا :

تقول والحسنُ يُطغيها فتظلمنى ... ولا مؤازرَ إلا صارمٌ ذَكرُ[1]
دَع الحسامَ وضَعْ حمل السلاح فما ... فى كل وقتٍ يفيد الحزم والحذَرُ
ما للمهنَّد حكمٌ فى محلّتنا ... بل للمنهَّد فيها الحكمُ والنَّظَرُ[2]
فإنْ طمعتَ بلين فى لواحظنا ... فنحن أهلُ قلوبٍ مثلها الحجر
وإن حلتْ لك ألفاظٌ نردِّدها ... ما بيننا فهناك الصَّابُ والصَّبِرُ[3]
فارْحَمْ شبابك وارحَلْ دون مَغْلبةٍ ... واقْبَلْ من الحسن ما أعطاكه النظر

حدَّثته صاحبته كما يقول وهى شاعرة بحسنها حتى ليجعلها طاغية ، وكان يحمل سيفا فقالت له ليس للسيف حكم فى منازلنا وإنما الحكم والرأى القاطع للفتاة ، وإن أطمعك لين فى نواظرنا فنحن أهل قلوبٍ كالحجارة أو أشد صلادة وصلابة ، وإن أطمعتك ألفاظ حلوة نرددها بيننا فوراءها الصَّاب والصبر شديدا المرارة مرارة لا تطاق ، فارْحَمْ شبابك وارحل دون قهر ، واكتف من الحسن بالنظر إليه . وهذه الأبيات التى أجراها الأريسى على لسان صاحبته لتملأ نفس قارئه إعجابا بخصب شاعريته .

ابن[4] على

هو محمد بن محمد بن محمد المهدى بن رمضان بن يوسف العلج ، وذكرُ العلج فى آبائه يدل على أن أسرته عثمانية وأن جده يوسف العلج من أوائل العثمانيين النازلين بالجزائر حين أصبحت ولاية عثمانية . وغلب عليه اسم ابن على مما يدل على أن أحد آبائه كان يسمى عليا ، ويؤكد ذلك أن شاعرا هو محمد الشباح سمى أباه فى مدحة له كما جاء فى مجموعة أشعار جزائرية محمد بن على قائلا :

وسمىّ غوث الغَرْب من مجّاجةٍ ... وافاك من ربٍّ العُلا إقبالُ

ويريد الشباح بسمىٍّ غوث الغرب من مجّاجة محمد بن على المجّاجى ، فاسمه إذن بشهادة هذا الشاعر ابن على ، وإما أن يكون على أباه أو أحد أجداده ، وسقط من سلسلة نسب الشاعر .

---

(١) الصارم الذكر : السيف الشديد .
(٢) المهند : السيف . المنهد :الناهد : الفتاة .
(٣) الصاب : شجر شديد المرارة . الصبر : عصارة شجر مر .
(٤) انظر فى ترجمة ابن على ما كتبه د . أبو القاسم سعد الله فى مجموعة أشعار جزائرية ص ٢١ وما بعدها وكتابه تاريخ الجزائر الثقافى ٣١١/٢ وفى مواضع متفرقة . وقد حقق ونشر مجموعة كبيرة من أشعاره فى مجموعة أشعار جزائرية .

واشتهرت هذه الأسرة بنظمها للشعر منذ رمضان بن يوسف ففى مجموعة أشعار جزائرية أبيات له فى الحث على طلب العلم، وكذلك لمحمد المهدى قصيدة ضمنها شكوى إلى علماء إسطانبول وأبيات لوالد الشاعر، فهو من بيت شعر وأدب، وأيضا فإن بيته كان بيت فقه حنفى وقضاء وفتوى، يدل على ذلك بوضوح أن جده محمد المهدى عُيِّن مفتيا للحنفية سنة ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م ولقّب بشيخ الإسلام وهو لقب كان يتلقب به المفتى الحنفى فى الجزائر طوال العهد العثمانى وظل فى هذا المنصب حتى وفاته فى أواخر العقد السابع من القرن الحادى عشر الهجرى. وطبيعى أن يكون والد الشاعر فقيها على غرار أبيه، إذ نرى الشباح ينوه فى مدحته له بقوله:

العالم العلامة القطب الذى ضُربت بحسن صنيعهِ الأمثالُ

ولا نعرف متى ولد الشاعر ، ويبدو أنه ولد فى أواخر القرن الحادى عشر ، كما قال الدكتور أبو القاسم سعدالله ، مستدلا على ذلك بأنه كان أحد من هنأوا محمد بكداش والى الجزائر بفتحه لوهران وانتصاره فيه على الإسبان سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧م ومن قوله فى قصيدته :

وعهدى بحور الشعر عنى أذودُها زمانا وفكرى مَوْجُه متلاطمُ

وكأنه قد عالج الشعر قبل عام فتح وهران مما يدل على أن سنه كانت حينئذ فى نحو العشرين من عمره على الأقل . وكان يكبُّ على حلقات فقهاء المذهب الحنفى والحديث النبوى وتفسير الذكر الحكيم مما أهَّله فيما بعد ليدرس للطلاب التفسير والحديث والفقه الحنفى ، وليصبح خطيب المسجد الكبير يعظ الناس كل جمعة مواعظ مؤثرة ، ويختار سنة ١١٥٠هـ/١٧٣٨م مفتيا حنفيا للجزائر ويلقب بشيخ الإسلام ، ويظل شاغلا هذا المنصب حتى وفاته سنة ١١٦٩هـ/١٧٥٦م . ويعد ابن على فى الذروة من شعراء الجزائر فى القرن الثانى عشر الهجرى ، وكان ينظم فى المديح والمنشئات ووصف الطبيعة والرثاء ، وأكثر من شعر الغزل إكثارًا يسبق فيه شعراء عصره ، وجمع لنفسه ديوانا ضم أشعاره وأشعار بعض معاصريه وأشعار آبائه ومعاصريهم فى القرن الحادى عشر الهجرى . وسقط هذا الديوان من يد الزمن غير أن أكثره – أو كثيرا منه – مبثوث فى المجموعة التى أشرنا إليها المنشورة باسم أشعار جزائرية . ويبدو أنه أخذ ينصرف عن نظم الغزل حين وُلِّى الخطابة والتدريس فى المسجد الكبير ، ووُلِّى منصب الإفتاء الجليل ، ويصرح بذلك قائلا :

لولا – وحقِّك – خطَّةٌ قَلَّدْتُها زهرتْ بها فى الخافقين شموعى
ومنابرٌ فيها رقيتُ إلى العُلا وقد استدار بها كثيفُ جُموعِ
لنحوتُ منْحَى العامرىِّ صبابةً ولكان من حُرَق الجَوَى مشفوعى

وهو يقول لولا خطَّة الفتوى – على المذهب الحنفى – التى تقلدتها وتلألأت وتألقت بها شموعى فى الجزائر ، ولولا منابرُ فيها صعدت بها إلى العلا بوعظى الجموع الكثيفة من أهل

الجزائر لظللتُ أنظم غزلا عذريا عفيفا مثل غزل قيس العامرى مجنون ليلى كله صبابة وهيام وحرق من الحب والوجد تضطرم اضطراما ، وله يتغزل :

يمينًا لقد عزَّتْ علىَّ المطالبُ ... ولى أبدا من سحر عينيكِ طالبُ
فسبحان من سَوَّاكِ فى الحسن صورةً ... لها اعترفتْ بالحسن حورٌ كواعبُ[1]
مراشفُ من شكل العقيقِ مصوغة ... ومبسم درٌّ للعقيق مناسب[2]
وصدرٌ بدت رمَّانتاه كحقَّتَىْ ... لُجَيْنٍ ونحرٌ مشرقٌ وترائب[3]
تحوم عليها الشمس غَيْرَى كئيبة ... تجاذب ثوبًا للسَّنا وتجانب[4]
وقد حاولوا منى التسلِّى بغيرها ... لقد أخفقتْ تلك الظنون الكواذبُ
وهل يستوى المصباح والشمسُ فى السَّنا ... وهل يستوى بدرُ السما والكواكب

وهو يعجب بسحر عينى صاحبته فى البيت الأول وبجمالها فى البيت الثانى الذى تعترف به الحور الجميلات الشابات ، وكأن مراشفها مصوغة من فصوص العقيق ، ويلتئم بها مبسم اللآلىء البديعة ، وينوه بجمال صدرها ونحرها وترائبها ، ويقول إن الشمس تغار من جمالها وتشعر بغير قليل من الحزن حين تراها وتجاذبها ثوب ضوئها ، وتحاول تجنبها شعورا منها بأنها أروع وأبهج . ويظن غير واحد أننى أستطيع التسلِّى عنها بغيرها وخابت ظنونهم جميعا ، وهل يمكن أن يتساوى المصباح والشمس أو يمكن أن يتساوى البدر فى تمِّه وكماله بالكواكب والنجوم ؟ ! . ومن غزلياته قوله :

أغصونٌ تأوَّدتْ أم قدودُ ... أم ورودٌ تفتَّحتْ أم خدودُ[5]
أم وجوه بدتْ لنا أم بدورٌ ... طالعاتٌ يحفُّهُنَّ السُّعُودُ
فى سماء الجمال تَسْطَعُ نورًا ... وبقلبى منها – الزمانَ – وَقود
كم لها فى الأسود من فتكاتٍ ... وبروقٌ – مِن صدِّها – ورعودُ
سحرُ تلك العيون فيه تناهتْ ... وتفانت زيانبٌ وهنودُ
جَنَّتًا وَجْنَتيه عذَّ بَتانى ... وجَنَا الجنَّتين عنى بعيدُ[6]

وهو لا يدرى أيرى قدودا وقامات لهؤلاء الحسان أم يرى غصونا تتثنى دلالا ، وهل يرى خدودا فاتنة بحمرتها أم ورودا تتفتح جمالا ، وهل يرى وجوها فاتنة أم بدورًا يحفها السعد بل سعد السعود ، وكأنها كواكب تسطع فى سماء الجمال نورا ، ولقلبه منها وقود ماينى مشتعلا ، وكم لها فى الأُسْد من فتكات وكم لها بروق ورعود ، وإن سحر عيونها ما بعده سحر ، ذاب

(١) كواعب ، جمع كاعب : الفتاة الشابة .
(٢) العقيق : حجر كريم أحمر تتخذ منه الفصوص .
(٣) لجين : فضة .
(٤) السنا : الضوء .
(٥) تأودت : تثنت .
(٦) الجنا : كل ما يجنى من الشجر .

فيه سحر العيون جميعا وسحر كل زينب وهند ، ويقول إنه لا يستطيع الدنوَّ أو القرب من وجنيتها فضلا عن أن يقتطف منهما شيئا ، وهو لذلك يتعذب عذابا شديدا ، وربما كان أهم الغزلين فى عصره .

٢

شعراء وصف الطبيعة

وصف الطبيعة غرض مهم من أغراض الشعر العربى فى كل عصر وفى كل إقليم ، فدائما الشعراء يتغنون بماتقع عليه أبصارهم من مشاهد الطبيعة الصامتة: من الرياض والأزهار والحدائق والجبال والأنهار والبحار ، وما يروعهم من مشاهدها الحية المتحركة فى الطير والحيوان الوحشى والأليف . ونلتقى ببكر بن حماد المتوفى سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨م ومقطوعة له فى الطبيعة الصامتة إذ يصف البرد فى بلدته تاهرت عاصمة الدولة الرستمية قائلا[١] :

ما أخشنَ البردَ ورَيعانَهُ ... وأطرفَ الشمسَ بتاهِرْتِ
تبدو من الغَيْم إذا ما بدتْ ... كأنما تُنْشَرُ من تَخْتِ
فنحن فى بحرٍ بلا لُجَّةٍ ... تجرى بنا الرِّيحُ على السَّمْتِ
نفرح بالشمس إذا ما بدتْ ... كفرحة الذمىِّ بالسَّبْت

وهو يقول ما أشد خشونة البرد وصعوبته فى تاهرت وما أطرف طلوع الشمس بها إذ تبدو محجبة دائما من وراء الغيم وكأنما تنشر من وراء تخت أو ستر صفيق ، وإنا لنشعر لشدة البرد كأننا فى بحر بلا لجة ، وما أشد فرحتنا بالشمس حين تبدو كفرحة اليهودى بيوم السبت يوم عيده الأسبوعى . ولبكر مقطوعة حزينة يبكى بها بلدته تاهرت حين خرَّبها فى سنة ٢٩٦ أبا عبيد الله داعية العبيديين وقضى على الدولة الرستمية بها ، وفيها يقول[٢] :

زُرْنا منازلَ قومٍ لم يزورونا ... إنا لفى غفلةٍ عما يقاسونا
لو ينطقون لقالوا الزادُ ويحكمُ ... حلَّ الرحيلُ فما يرجو المقيمونا
الموتُ أجحفَ بالدنيا فخرَّبها ... وفعْلُنا فعلُ قومٍ لا يموتونا
فالآن فابكوا فقد حقَّ البكاء لكم ... فالحاملون لعرش الله يبكونا
ماذا عسى تنفع الدنيا بأجمعها ... لو كان جُمِّعَ فيها كنزُ قارونا

وهو يقول إننا زرنا منازل قوم فى قبورهم قضى عليهم أباعبيدالله ولانعرف مايقاسون ولو نطقوا لقالوا لنا تزودوا للآخرة فقد حلَّ بالمقيمين الرحيل عماقليل، وقد استأصل الموت أهل

(١) ديوان بكر بن حماد : نسخة مصورة طبع الجزائر ص ٦١ .
(٢) الديوان ص ٩٠ .

تاهرت وخربها، ونحن لانتعظ كأننا لن نموت، والآن فابكوا فالحاملون لعرش الله يكون عليكم ومن أجلكم، وماذا ينفع الدنيا لو أن حكام تاهرت جمعوا فيها كنز قارون فكل شيء فيها صار إلى فناء. ولابن قاضى ميلة المترجم له بين شعراء المديح فى وصف عود وماصار إليه من التغنى عليه[1]:

جـاءتْ بعودٍ يُناغيها ويُسْعدها ... انظرْ بدائعَ ما يأتى به الشَّجَرُ
غَنَّتْ عليه ضروبُ الطير ساجعةً ... حينًا فلما ذَوَى غَنَّى بـه البَشَر
فلا يزال عليـه – أو بـه – طربٌ ... يَهِيجُه الأَعْجَمان: الطَّيْرُ والوَتَرُ

فقد كانت ضروب الطير وصنوفه تغنى على هذا العود ، وهو موصول بشجرته ، فلما قُطع منها وذَوَى غنى عليه البشر بما شدُّوا عليه من أوتار ، وكأنما يهيجه طوال حياته أعجمان : الطير قديما والوتر حديثا . ويبدو أن سمك القرش المفترس كان يتراءى أحيانا فى مياه تونس فقال ابن قاضى ميلة يصفه[2] :

وأَشْغَى بفكَّيه مثـلُ المُـدَى ... طـويلُ القَرَا مُدْمجُ الأَعْظُمِ[3]
تصرُّفُـه فى ضمـان الميـاهِ ... ومهجتُـه فى يَدِ الخِضْرِمِ[4]
يخاف الهواء و يخشى الضياءَ ... وإن كانَ أجْرَأَ مِـنْ ضَيْغَمِ[5]
له داخلَ اليَـمِّ بَطْشُ الأسـودِ ... وتصحبُـه مِشْيةُ الأَرْقَـمِ

وقد وصف ابن قاضى ميلة القرش وصفا دقيقا فقال إنه مختلف الأسنان وإن بفكيه مثل المدى أو السكاكين وإنه طويل الظهر مدمج العظم واللحم ، ولا يعيش إلا فى الماء يخاف الهواء والضياء ، وإن كان أجرأ من أسد فاتك ، غير أنه لا يعلو على سطح الماء بل يظل فى داخله متلويا فى مشيته كالأفعوان . وكان يعاصر ابن قاضى ميلة عبد الله بن محمد الجراوى وسنخصه بترجمة. وأهدى نزار الخليفة الفاطمى فى القاهرة المنصور بن بلكين سنة ٣٨٤ هدية فيها خيل وإبل وحمار وحشى مخطط وفيل ، ووصفها جميعا عبد الكريم النهشلى، وفى الخيل يقول[6] :

وبُلْقٌ تقـاسَمْنَ الدُجُنَّـةَ والضُحَى ... فمـن هـذه شَطْرٌ ومن هـذه شَطْرُ
وصُفْرٌ كأن الزعفـرانَ خِضابُهـا ... وإلا فمـن مـاء العقيق لها قِشْرُ
وشُهْبٌ مـن اللُجِّ استُعيرتْ متونُهـا ... ومن صور الأقمـار أوجهها قُمْرُ[7]
عليها الـروجُ المحكماتُ إذا مشتْ ... بها خُيَـلاء الخـيل رنَّحها كِبْرُ

والخيل بينها بلق يلتقى فيها السواد بالبياض ، وكأن الظلمة والضحى اقتسما لونها فلكل

(١) ابن خلكان ٥/ ٣٤٨ .
(٢) الأنموذج ص ٢١٣ .
(٣) أشغى : متخالف الأسنان . القرا : الظهر .
(٤) الخضرم : البحر : متعاظم الموج ومتلاطمه .
(٥) ضيغم : الأسد الواسع الشدق .
(٦) الأنموذج ص ١٧٣ .
(٧) قمر : مشرقة كالقمر .

منهما نصيب ، ومنها صفر كأنما خُضبتْ بالزعفران وإلا بقشر من ماء العقيق ، ومنها شهب يختلط فيها بياض الشعر بسواده ، وكأنما استعيرت ظهورها من لجِّ الليل وظلمته الشديدة السواد أما أوجهها فمضيئة ضياء الأقمار الساطعة ، وتمشى مزهوَّة مشية خيلاء متعالية ، ويقول فى الفيل الذى كان مصاحبا للهدية[1] :

وأضخمُ هندىٌّ النِّجار تُعِدُّهُ ... ملوكُ بنى ساسانَ إنْ رابها أمرُ
يجىءُ كطَوْدٍ جائلٍ فوق أربعٍ ... مضبَّرةٍ لُمَّتْ كما لُمَّت الصَّخْرُ[2]
له فَخِذان كالكثيبين لُبِّدا ... وصدرٌ كما أوفى من الهَضْبة الصَّدْرُ
ووجهٌ به أنفٌ كراووقِ خمرةٍ ... ينال به ما تُدْرك الأُنْمُلُ العَشْرُ[3]

والنهشلى يقول عن الفيل إنه ضخم هندى الأصل ، كانت تعده ملوك الفرس حين يريبها أمر . ويشبهه بجبل يتحرَّك فوق أربع مكتنزة اللحم والعظم تضامَّت أجزاؤها تضامّ أجزاء الصخر ، وله فخذان كأنهما كثيبان متراكمان وصدر عريض متسع ، ووجه به أنف طويل طول عنق إبريق الخمر ينال به ما يناله الإنسان بأنامله العشرة . ونلتقى فى بلاط بنى حماد ببجاية بالطبيب ابن أبى المليح شاعر الأمير العزيز الحمادى (٤٩٨ - ٥١٥هـ) وله يصف خيوله وموكبه فى قصيدة عيديَّة منشدا[4] :

وجالتْ بهِ جُرْدُ المذاكى كأنَّها ... عذارَى ولكن نُطْقهُنَّ تَحَمْحُمُ
بصفراء كالتِّبْرِ العتيقِ صقيلةٍ ... ودهماء يتلوها كُمَيْتٌ وأدهمُ
وأشقرَ لو يجرى وللبرق جُهْدُه ... لكان له يوم الرِّهان التقدُّمُ
وجاء لواءُ النَّصْر يتبع رايةً ... بها العزُّ معقودٌ عليها متمِّمُ

وهو يقول : جالت بالأمير خيل كريمة مدربة كأنها لم تركب لأول مرة : صفراء كالتبر ودهماء كالليل يتلوها كميتٌ وأسود وأشقر ، ولو أن الأشقر سابق البرق لسبقه ، وجاء موكب الأمير تقدمه راية العز والنصر .

وإذا اتجهنا إلى تلمسان التقينا بشاعرها فى القرن السابع الهجرى ابن خميس، وكان قد بارحها إلى الأندلس، وله قصيدة بديعة يتشوق فيها لرؤية مشاهدها ومتنزهاتها فى مثل قوله[5] :

---

(١) الأنموذج ص ٧٥ .
(٢) مضبَّرة : مكتنزة اللحم
(٣) الراووق : إبريق الخمر .
(٤) الخريدة ١/ ١٨٤ .
(٥) الديوان : النسخة المصورة ص ٨٥ .

تلمسانُ جادتْها السحابُ الدَّوالِحُ ... وأَرْسَتْ بواديها الرياحُ اللواقحُ[1]
فَفى كل شَفْرٍ من جفونىَ ماتحٌ ... وفى كل شطرٍ من فؤادىَ قادحُ[2]
كتمتُ هواها ثم بـرَّح بى الأَسَى ... وكيف أُطيق الكتمَ والدَّمْعُ فاضح
لساقية الرومىِّ عندى مزيَّةٌ ... وإن رغمتْ تلك الرَّوابى السَّوانحُ[3]
وكم لى عليها من غدوٍّ وروحةٍ ... تساعدنى فيها المنى والمنائحُ[4]
ظباءٌ مغانيها عواطٍ عواطفٌ ... وطيرُ محانيها شوادٍ صوادحُ[5]
تقتّلهم فيها عيونٌ نواظرٌ ... وتُبْكيهمُ منها عيونٌ نواضحُ[6]
وإن أَنْسَ لا أَنْسَ الوَرِيطَ ووقفةً ... أُنافح فيها روضه وأُفاوحُ[7]
مُطِلاًّ على ذاك الغدير وقد بدتْ ... لإنسان عينى من صَفاه صفائحُ[8]
أماؤك أم دمعى عشيَّة صدَّقتْ ... عُلَيَّةُ ما قال العَذول المكاشحُ[9]
لئن كنت ملآنا بدمعىَ طافحًا ... فإنىَ سَكرانٌ بحُبِّك طافح

وابن خميس يخلط مشاهد تلمسان بالغزل بها وبفتياتها الحسان ، وهو يستهل قصيدته بالدعاء لتلمسان أن تجود عليها السحب دائما وتظل بواديها الرياح الملقحة المنتجة ، ويقول إن فى كل حرف من جفونه ماتح يملأ دلاءه بدموعه شوقا إليها وفى كل شطر من فؤاده قادح لنيران الوجد والحب ، وكم كتم حبه ووجده غير أن دموعه تفضحه ، فلم يعد بُدٌّ من إعلانه ، ويذكر مشهد القناة المسماة بساقية الرومى وإن عتبت عليه الروابى من حولها ، ويذكر كم له فيها من غدو وروحة وأبواب المنى والآمال مفتوحة فى وجهه وحسانها يبدين له العطف ، والطير من حوله ترقص وتصدح وتغنى ، وهنَّ يقتلن بجمالهن من يطيل النظر إليهن ، وينصرفون عنهن بعيون باكية ذرفت كل ما كان بها من دموع ، ولا ينسى منتزه الوريط وما كان ينافحه فيه ويفاوحه من نسيم عطر ، ولا ينسى جناح الغدير به ، وقد بدت لرصد مياهه الصافية صفائح الدروع ، ويسأله أبك ماؤك أم دمع عينى عشيَّة صدَّقتْ عُلَيَّة ما قال العذول المعادى ، ولئن كنت ملآنا بدمعى طافحا به فإنى سكران طافح بحبى . ويقول الشهاب الخلوف شاعر قسنطينة فى أواخر عصر الدولة الحفصية يصف الطبيعة فى يوم ممطر[10] :

(١) الدوالح : المثقلة بالأمطار . اللواقح : الملقحة بما تحمل من أمطار وغير أمطار .
(٢) الشفر : حرف الجفن . ماتح : نازع للدلو من البئر . قادح : أى للنار .
(٣) ساقية الرومى : قناة جميلة بمشاهد الزروع حولها . السوانحُ : المتعرضة .
(٤) المنائح جمع منيحة : العطية .
(٥) مغانيها : منازلها . عواط : لا تستصعب .
(٦) نواضح : جمع ناضح تنزف كل ما بها من دموع .
(٧) الوريط : منتزه . أنافح : أستخرج نفحه وشذاه وكذلك أفاوح .
(٨) صفاه : يريد ماءه الصافى .
(٩) المكاشح : البغيض .
(١٠) مجمل تاريخ الأدب التونسى ص ٢٢٧ .

لقـد بَلَّ أردانَ الثَّرى دمـعُ مُزْنَةٍ تنـاثر فى أسلاكهـا فتنظَّما[1]
وجـرَّ عـلى هـام الرُّبى ذيْلَ وَبْلِهِ فدبَّج أثـواب الربـوع وسهَّما[2]
وخـطَّ بطِرْس الجوُّ سـطرا مذهبًا فنقَّطه قَطْرُ الغمـام وأعجما[3]
وشـاب لَجَيْنَ الطَّلِّ عسجدُ بارقٍ فدنَّر أزهـارَ الربيـع ودَرْهما
ودار بساق الغصن خلخالُ جَدْوَلٍ كما سـوَّر التجعيدُ للنهر مِعْصَما

وهو يقول إن دموع السحابة بلَّت أكمام الربى وتناثرت فى أسلاكها وانتظمت ، وسحَب المطر على رءوس الربى ذيل وبله فزيَّن ثيابها وخطَّطها تخطيطا بديعا ، وخط على صفحة الجو سطرا مذهبا نقَّطه قطر الغمام ، وشاب لجينَ الطل المتلألئ عسجدُ البرق ، فاستحالت أزهار الربيع دنانير ودراهم ، واستحال ما فى الجدول من تجعدات للرياح خلاخيل لسيقان الغصون على نحو ما جعلت تجعداتها للنهر أساور تزين معصمه . واشتهر إبراهيم بن عبد الجبار الفجيجى التلمسانى بأخرة من عصر الدول الحفصية بقصيدة طويلة فى مائتى بيت وأربعة عشر وصف فيها صيد الصقر ، وسنخصه بكلمة . ونمضى إلى العهد العثمانى ، ومن طريف ما نقرأ فيه وصف ابن أبى راشد لمدينة الجزائر فى الربيع ، وفيه يقول[4] :

سقى المطـرُ الهطـال أرضًا تشرَّفتْ بمصرٍ غدتْ للفضل والفخر جامعهْ
بمَزغَنَّة الفيحـاء تظهـر من مَدًى تُرَى كسقيط الثَّلْج بيضاءَ ناصعهْ[5]
وحيـث الربيـع الغَضُّ تم شبابُه ترى أرضهـا تبـدى النضارة يانعه
تريك احمـرارا فى ابيضاضٍ كأنهـا دمـاءٌ على أرضٍ من الثلـج واقعه
دواليبُهـا تسقى الغصـونَ فتنثنى حمائمُها تشدو على القُضْبِ ساجعه.
فتبصر أغصـانَ الحـدائق سُجَّدًا تميد من الصوت الحنـون وراكعـه
وما هى إلا جنَّـة قد تأرَّجـتْ مباخرُها بالطيب والمسـك ساطعه

وابن أبى راشد يدعو بالسُّقْيا لمدينة الجزائر التى أصبحت مصرا وعاصمة لقطرها فى عهد العثمانيين وغدت جامعة للفضل والفخر ، ويظل المطر يهطل على مزغنَّة الفيحاء ، وكأنه يسميها باسمها القديم ، ويقول إن مبانيها جميعا بيضاء بياض الثلج المتساقط الناصع ، وإنها لتُرى فى الربيع وقد لبست ثوبا من رفاهة العيش والنضارة ، وترى ورودها الحمراء تكسو ورودها البيضاء ، وسواقيها تروى بساتينها والحمام يشدو على الغصون مبتهجا ، وكأنما الأغصان تستمع إلى صوتها الحنون الشجى ، فما تزال بفعل الرياح ساجدة راكعة ، وما مدينة الجزائر

(١) أردان جمع ردن : كم .
(٢) ديج : زين ونقش . سهَّم : خطط .
(٣) طرس : صفحة . أعجمه : أزال عجمته بنقطه .
(٤) تاريخ الجزائر الثقافى للدكتور أبى القاسم سعدالله ٣٠٧/٢.
(٥) مزغنة: القبيلة التى بنت مدينة الجزائر وقد تسمى باسمها .

إلاجنة ، قد فاحت مباخرها بالطيب والمسك وسطع شذاها سطوعا عظيما . وحرى أن نفرد ترجمة لكل من عبد الله بن محمد الجراوى وإبراهيم بن عبد الجبار الفجيجى .

عبد الله بن محمد الجراوى[1]

شاعرجزائرى من جراوة بين مدينة قسنطينة وقلعة بنى حماد ، تأدب فى مسقط رأسه جراوة داخل الجزائر ، وقدم إلى القيروان –كايقول ابن رشيق– فى أوائل العقد الرابع من حياته، وتعلق بخدمة المعز بن باديس. ويقول ابن رشيق: كان شاعرا فحلا وصافا جيد الفكر والخاطر، تحسب بديهته رويَّته، يتحدَّر كلامه كالسيل ، وكان حسن الخلق جميل العشرة مزاحا ، سأله أيوب بن يطوفت أحد رجالات صنهاجة: أى بروج السماء لك؟ فقال : واعجبا منك مالى فى الأرض بيت فكيف يكون لى برج فى السماء، فضحك، وأمر له بدار جواره . ويذكر ابن رشيق أنه: توفى سنة خمس عشرة وأربعمائة وقد بلغت سنه نيفا وأربعين سنة، وكانوا قد أغروا به القائد حماد بن سيف (العزيز بالله) فدسَّ عليه من قتله ليلا، وعرف خطأه فأسف عليه. وقد أشاد به ابن رشيق كمارأينا فى الشعر إشادة رائعة، ومماأنشد له قوله البديع فى وصف ديك :

وكائنْ نَفَى النـومَ عن عُرْفانِ ... بديـع الملاحـة حلوِ المعانى[2]
بأجفـانِ عينيـه يا قوتتـانِ ... كأن وميضهمـا جمرتـانِ
على رأسـه التـاجُ مستشرفًـا ... كتاج ابن هرمزَ فى المِهْرجـانِ
وقُرْطـانِ من جوهـرٍ أحمـرٍ ... يزينانـه زَيْـنَ قُـرْط الحَصَـانِ
لـه عُنُـقٌ حولهـا رونقٌ ... كما حوت الخمرَ إحدى القَنانى
ودارَ بُرائِلُـهُ حولهـا ... كما نَوَّرَتْ شَعْـرَةُ الزعْفَرانِ[3]

والجراوى يقول إن النوم انتفى عن الديك وظل مسهدًا طوال الليل بديع الجمال حلو المعانى وبأجفانه ياقوتتان تومضان كأنهما جمرتان وعلى رأسه تاج عُرْفه كتاج ابن هرمز فى احتفال يوم المهرجان، وله قرطان من ياقوت أحمر يزينانه كما يزينان المرأة العفيفة الطاهرة، ويستدير حول جيده رونق من الجمال الرائع: وله ريش بديع زاهٍ زهو الزعفران، ويستتم وصفه للديك قائلا:

ودارتْ بِجُوْجُئِـهِ حُلَّـةٌ ... تروقُ كما راقك الخُسْروانى[4]
وقـام به ذَنَـبٌ معجـبٌ ... كباقةِ زهـرٍ بدتْ من بنان
وقـاس جناحًا على ساقهِ ... قِيـس سِـتْرٌ على خَيْزُران

(١) انظر ترجمة الجراوى فى الأنموذج ص ٢١٦ .
(٢) العترفان : الديك .
(٣) برائله : ريش يستدير حول عنقه .
(٤) الجوْجوُ : الصدر . الخسروانى : الطليسان .

وصفَّـق تصفيـــقَ مستهترٍ بمحمرَّةٍ من بنـــات الدِّنانِ
وغـــرَّد تغريـــدَ ذى لوعةٍ يبـــوح بأشواقه للغـــوانى

يقول الجراوى : قد استدارت حلة بصدره كما يروق الطيلسان الخسرواني ، وبدا له ذيل زاه كباقة زهر ، ورفرف بجناحه على ساقه وكأنه مقيسٌ عليه كستر يُسْدَلُ على خيزران ، وصفَّق به تصفيق مخمور ، وغرد تغريد ملتاع يبوح للغوانى بأشواقه الحارَّة .

إبراهيم[1] بن عبد الجبار الفجيجى التلمسانى

فجيج المنسوب إليها إبراهيم بن عبد الجبار هو وأبوه وأسرته فى أقصى الجنوب من تلمسان ، وكان أبوه فقيها ومفسرا وله تفسير للقرآن الكريم فى اثنى عشر جزءا ومختصر لحياة الحيوان ، ونشأ ابنه إبراهيم على غراره يعنى بتحصيل العلوم ، ورحل فى سبيل العناية بها إلى فاس وتلمسان ولقى علماءهما وأخذ عنهم ، ويقال إنه رحل إلى مصر وأخذ عن علمائها . وعاد إلى موطنه ، وله منظومتان : منظومة فى علم الصيد بالصقر سماها روضة السلوان وهى فى مائتى بيت وأربعة عشر ، ومنظومة ثانية فى الفقه سماها مفيدة الولدان . وكان حيا سنة ٩٢٠ وتوفى بمدينة جى ببلاد السودان الغربى القديم . وشرح قصيدة الصيد ابن أخيه أبو القاسم بن محمد بن عبد الجبار سنة ٩٨٦ . ويستهل أبو إسحق إبراهيم الفجيجى مطولته ببيان منافع الصيد فى عشرين بيتا ويتلوها بصفات الصائد فى اثنى عشر بيتا ، ومنها العفة والنزاهة وعدم الاختلاط بأهل اللؤم والغيبة ، فلا سوء عشرة ولا هتك هيبة . ويصف الصقر بمثل قوله :

طويـــلُ ثـــلاثٍ لا كطـــول بُغاثها جنـــاحٌ وعُنْقٌ ثمَّ طـــالت أصابعُ[2]
رحيـــبُ ثـــلاثٍ وهْىَ مـــا هىَ كفُّه وما بين منكبيه والصـــدر واسع[3]
عظيـــم ثـــلاث : رأسُـــه ثم فَخْذُهُ ومِنْسَرُهُ لجـــزْرِ ما هو صـــارع[4]
لـه عُدَّةٌ من نفســـه فى مخـــالبٍ شديدٍ سوادهـــا ، حِدادٍ ، لواسعُ[5]
يُمنـــاه بـــارقٌ محيـــطٌ بزَنْـــدِهِ من الفضة البيضاء كالسيف لامع[6]
كذلك فى يُسْـــراهُ ثـــانٍ وجُلْجُلٌ تلـــوَّن بالإبريـــز أصفـــرُ فاقعُ[7]

(١) انظر فى إبراهيم الفجيجى وترجمته شرح ابن أخيه أبى القاسم محمد بن عبد الجبار لقصيدته المسمى الفريد فى تقييد الشريد وتوصيد الوبيد بتحقيق الدكتور عبد الهادى التازى، وراجع تعريف الخلف ٧/٢ ولأبى راس شرح عليها باسم الشقائق النعمانية فى شرح الروضة السلوانية.

(٢) البغاث : من ضعاف الطير .

(٣) رحيب : متسع .

(٤) المنسر من الطير كالشفة من الإنسان . جزر : نحر . صارع : فاتك .

(٥) حداد : قاطعة . لواسع : تلسع كالعقرب .

(٦) بارق : خلخال لامع .

(٧) الجلجل : الجرس الصغير . الإبريز : الذهب الخالص .

إذا انقضَّ خلتَ البرق والريح عاصفًا ورعدًا به رِجْزٌ على الصيد واقـع[1]
دوىٌّ جلاجـلٍ ولمـعُ خلاخـلٍ وخَفْقُ جنـاحٍ كلٌّ ذلك فاجـع

والفجيجى يقول إن صقره يحوز صفات الصقر الحميد فهو طويل الجناح والعنق والأصابع ، وهو واسع الكف والصدر بعيد ما بين المنكبين عظيم الهامة ممتلىء الفخذين صلب المنقار لجَزْر ما يفتك به ، وعُدَّته مخالبه الشديدة السواد القاطعة التى تلسع لسع العقارب ، وفى يمناه خلخال لامع من الفضة بزنده ، وفى يسراه خلخال وجرس صغير أصفر مموه بذهب فاقع ، وإذا انقض على فريسته من الطير ظننت البرق والريح والرعد كل ذلك هجم عليه ، ولا تسمع سوى دوى جلاجل ولمع خلاخل وخفق أجنحة ، كل ذلك ينقض على الفريسة . ويصور الفجيجى انقضاضه على طائر الحبارَى منشدا :

ويلجـأ لاتَ حـين يأويـه ملجـأٌ فلا الأرضُ تنجيـه ولا الجوّ مانعُ
ذؤابَتُه فى كـفٍّ مـن لا يُقيلـه يساق بها للمـوت وهْو يـوادعُ
وتندبُـه حُبارِيَـاتٌ أُلِفْنَـهُ بفيفاء مَجْهَـلٍ وهنَّ جوازع[2]
نوائـحُ أعرابٍ على الطَّبْل حَلْقةً يحاجِلْنَ مجنـونا لهـن تواجـع
شَقَقْنَ جيوبًا ناشراتِ الرءوس قد جرحْـنَ خـدودا ما لهنَّ براقع

والفجيجى يقول إن الحبارى كان يطلب ملجأ حين رأى الصقر ، وضاق عليه الجو بأعاليه وضاقت عليه الأرض بجبالها الشاهقة وما رَحُبت ، وأخذ الصقر بذؤابة رأسه وريشه الطويل ، ولم يعد يجد مناصا ولا خلاصا منه فهو يوادعه موادعة اليائس من الحياة ، وتندبه حباريات ألفنه متجرعات عليه غصص الجزع . وشبههن الفجيجى بنوائح الأعراب حين يتحلقن على الطبل بحرقة الحزن ، ويحاجلن نَدَّابهن الذى يزيد فى حزنهن ويشعله فى نفوسهن ، ويشققن جيوبهن وينشرن شعورهن ويخمشن وجوههن السافرة حزنا على فقيدهن . ويمضى الفجيجى متمنيا لو عادت أيام الصغر أو أيام الشباب ويذكر مواضع كثيرة فى الربيع والشتاء كان يرودها للصيد ويندد بمن كانوا يتلومونه لاهتمامه به ، ويقول إن مثلهم مثل من لا تحرّكه بهجة الربيع ولا متعة العود والموسيقى وكأنهم لم يشعروا يوما بالحب والهوى . ويفيض فى عرض فقه الصيد وما أحلَّه الشارع منه وما حرَّمه وواجبات القانص إزاء ذلك وأجناس صيده فى البر ، ويتجه إلى قارىء قصيدته بعد نحو مائتى بيت قائلا :

أتيتـك بالتحقيـق نظمـا فخُذْ بـهِ ودَعْ عنـك ما سِواه فهْوَ جَعاجـعُ
فدونكهـا مـن بحـر فكـرىَ دُرَّةً تفجَّـر منهـا للعلـوم يَنابِـعُ
فمـن كان ذا جِدٍّ وَعَى خِصْبَ حكمةٍ ومن يبتغ الإحمـاضَ فالمَرْجُ واسـع

(١) رجز : شدة فى الصوت .
(٢) فيفاء : صحراء واسعة .

فقل روضةُ السلوان إن شئت فى اسمها وقل رَحِمَ الرحمن من هو ساجع
ولا تَعْدُوَنْ عيناك عنها لكونها بدت بدويَّةً وأنّى واضع
وكم رميةٍ لغير رامٍ فقرطستْ وأخرى لرامٍ أخطأتْ هل تنازع ؟
فأغْضُوا على ما كان واعْفوا وسامحوا وإن كان خَرْقٌ فليداركْهُ رافع

وهو يقول لقارىء قصيدته إنه أتاه من وصف الصقر وأحواله وأحكام صيده وفقهه وأحكامه بمالا مزيد عليه فى التحقيق ، ودع سواه من الجعاجع التى لا فائدة فيها ولا طائل وراءها ، وقد غُصْتُ عليها فى بحر فكرى واستخرجتها لك درة تتفجر بكثير من المعارف عن الصيد وفقهه ، فمن كان صاحب جِدٍّ وَعَى منها حكمة، ومن كان صاحب لهو وجَد فيها مبتغاه ، وسمّها باسمها : « روضة السلوان » وقل رحم الله ناظمها رحمة واسعة ، ولا تحقرها لأنها تتناول موضوع الصيد البدوى وأنى ناظمها ، وكم رمية قرطست وأصابت الهدف وكم رميات أخرى انحرفت عن الهدف والغرض المقصود ، وذلك فضل الله يمنُّ به على من يشاء . ويطلب من قارئه فى تواضع أن يغض الطرف عن هفواته ويعفو، وإن كانت فى قصيدته زلة فليتداركها بلطفه .

٣

شعراء الرثاء

الرثاء من أغراض الشعر القديمة ، والشاعر فيه إما أن يتفجع على الميت ويبكيه ويتوجع لفقده ويسمى ذلك ندبا ، وإما أن يبكى فيه خلاله ومناقبه التى حرم منها المجتمع ويسمى ذلك تأبينا ، وإما أن يفضى إلى ذكر الموت وأنه حوض لابد للحى من وروده ، ويسمى ذلك عزاء ، وقد يمزج الشاعر بين نوعين من هذه الأنواع وقد يمزج بين الثلاثة . ويلقانا الرثاء مبكرا فى الشعر الجزائرى على لسان بكر بن حماد شاعر تاهرت فى القرن الثالث الهجرى ، وكان قد مات له ابن فندبه طويلا بمثل قوله يخاطب نفسه وقد وقف على قبره[1] :

قِفْ بالقبور فنادِ الهامدين بها من أعظمٍ بَليتْ فيها وأجسادِ
قومٌ تقطّعت الأسباب بينهمُ من الوصال وصاروا تحت أطْوادِ
كيف البقاءُ وهذا الموتُ يطلبنا هيهات هيهات يا بكر بن حمّادِ
بينا ترى المرءَ فى لهوٍ وفى لعبٍ حتى تراه على نَعْشٍ وأعوادِ

وهو يقول قف بالقبور وناد بأعلى صوتك فلن يرد عليك أحد فقد تقطعت أسباب الوصال بينك وبين من فيها ولا سميع ولا مجيب ، ويقول كيف البقاء والموت يطلبنا فى كل لحظة ،

(١) الديوان ص ٨١ .

وبينما المرء لاهٍ عنه فى لهو وفى لعب إذا هو محمول على نعش وأعواد وآلة حدباء تقذف به فى مهاوى القبور . ويبكى ابنه طويلا بمثل قوله[1] :

بكيتُ على الأحبَّـــة إذ تـولَّوْا ... ولـــو أنِّى هلكتُ بكـوا عليَّا
فيا وَلَـدى بقـــاؤك كان ذُخْرًا ... وفَقدُك قد كَوى الأكبـاد كيَّا
كفى حَزَنًا بأنـى منـك خِلْوٌ ... وأنـك مَيِّتٌ وبقيـتُ حَيَّـا
ولـم أك يائسا فيئسْتُ لمـــا ... رميتُ التُّرْب فـوقك من يديَّـا

وهو يبكى أحبته وفلذة كبده بكاء حارا ، وقد كان بقاء ابنه ذخرا لا يماثله ذخر له وقد كوى فقده كبده كيًّا مؤلما أشد الألم ، ويقول إنه يكفيه حزنا أن مات ابنه وأنه عاش بعده يتلظى موجدة وحزنا ، ولم يك يعرف اليأس إلا حين فقده ، ورمت يداه عليه التراب فأظلمت الدنيا فى عينيه . ولابن الرَّبيب يرثى خمسة من القواد فى عهد باديس (٣٨٦ – ٤٠٦ هـ) غامروا بأنفسهم فى معركة خاسرة بالزَّاب ، وفيهم يقول مصورا بأسهم[2] :

أَبَتْ لهـمُ أن يرتضوا الضَّيْمَ أنْفُسٌ ... كرامٌ رأتْ رَمْيًا بهـا المـــوتَ أحْزَمَا
فهبُّوا ومـا هـابوا الرَّدَى فتدرَّعوا ... على خَطَرٍ قِطْعًا من الليـــل مُظْلِما[3]
وهوَّنَ وَجْدِى أنهم خمسةٌ مضوا ... وقد أقْعَصُوا خمسين قَرْمًـا مسوَّما[4]
وكان عظيما لـو نَجَوْا غير أنهـم ... رأوا حُسْنَ ما أبقوا من الذكر أعظما
أبـوا أن يَفِرُّوا والقنا فى نحورهم ... وأن يرتقوا من خشية الموت سُلَّما
ولـــو أنهـــم فـرُّوا لفـرّوا أعِـــزَّةً ... ولكـنْ رأوا صبرا على المـوت أكرما

وهو يقول إن أنفس هؤلاء القواد الخمسة كانت من الشعور بالعزة والكرامة بحيث أبت لهم أن يفروا بها عن الحرب فرموا بها فى أتونها وضرامها غير هائبين وتدرعوا طائفة من الليل ومضوا يتقدمون حتى لم يجدوا متقدَّما وحتى تقطعت السيوف فى أيديهم . خمسة أبطال قتلوا خمسين شجاعا معلما من الأعداء ، وكانوا يستطيعون النجاة ولكنهم رأوا الضرب فى الأعداء حتى النفس الأخير فإن فى ذلك ذكرا عاطرا باقيا لهم . وتكاثر عليهم الأعداء وأخذتهم الرماح من كل جانب وأبوا أن يفروا خشية الموت ، ولو فروا لفروا أعزة بما أذاقوا أعداءهم من كثرة القتل والطعن ، غير أنهم رأوا أن يصبروا وأن يموتوا فى ميدان الحرب ، لينالوا شرف التضحية بالنفس . ويقول ابن قاضى ميلة فى وصف غريق بالبحر[5] :

ومـا زلتُ أستسقى له القَطْرَ دائبًا ... وأستودع الـريحَ السـلام المجـدَّدَا

---

(١) الديوان ص ٨٥ .
(٢) الأنموذج لابن رشيق ص ١١٣ وما بعدها
(٣) الردى : الموت . قطعا : طائفة .
(٤) أقعصوا : قتلوا . قرما : شجاعا . مسوَّما : معلما
(٥) الأنموذج ص ٢١٥ .

فكان الذى استسقيتُ أولَ خاتلٍ له والذى استودعتُ من أعظم العِدَ[1]
فتًى فاظَ بين الماء والريح روحُه وما زاره أهلٌ ولا زارَ مُلْحدا[2]

وهو يقول إن الذى كان يستسقى القطر له ويستودع له الريح السلام حين تمر بدياره كان الماء أول خاتل غادر له إذ أتاه من حيث لا يشعر ، وكان الريح من أعظم أعدائه ، وقد فاظت روحه بين الماء والريح وصعدت إلى بارئها ، وما زاره أهل ، ولا زار لحدا ، فقد ذهب أدراج أمواج البحر ولم يَبِنْ له أثر . ونلتقى فى بجاية بمحمد بن على بن حماد فى القرن السابع ومرائيه للدولة الحمادية ، وسنخصه بترجمة . وكان السلطان أبو حمو موسى (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) شاعرًا ومرت له ترجمة فى الفصل الماضى ، ومن قوله يرثى أباه[3] :

قد كان لى فى الدُّنَى أبٌ يساعدنى فصار تحت الثرى فى لحده اكتنفا[4]
مدَدْتُ فى ظل نُعْماه يدى زمنا ونلت من رِفْده فى دهرىَ التُّحَفَا
يا فقدَ يوسفَ ما أبقيت لى جلدًا يا فقدَ يوسف إنَّ الصبر عنك غَفَا
ما مثل يوسفَ مفقودٌ لفاقدِه ولا كموسى أخو فَقْدٍ إذا وُصِفا
يا قبرَ يوسفَ لا تعدوك هاميةٌ من الغمام ولا زال الثرى وَجِفَا[5]

وأبو حمو موسى يبكى أباه ويذكر كثرة ما كان يساعده به فى الدنيا حربا وسلما ، ويذكر كم مدَّله يده فيملؤها له نعما وتحفا ، وقد أصبح تحت الثرى يكتنفه اللحد من جميع جوانبه ، وقد أفقده موت أبيه الصبر والجلد ، ويشيد به أبا مثاليا ويدعو لقبره أن تظل السحب وافدة عليه تهمى وتهطل ، ولا يزال الثرى أو القبر خافقا . ويقول محمد بن يوسف الثغرى فى تأبينه مواسيا أبا حمو موسى[6] :

أسفًا لمن فاق الملوك جلالةً وديانةً وبكلِّ فَضْلٍ حُوِى
أعْظِمْ به من زاهدٍ ومجاهدٍ ومنيلِ رِفْدٍ تارةً ومنيبِ
هوتِ النجومُ الزاهراتُ لفقدِه وذَوَى من الأزهار كلُّ رطيبِ
وتغيَّرتْ شمسُ النهار له أسىً وتبدَّلتْ من نورها بشحوب
وبكت سيوفُ الهند فى أغمادها بدمٍ ، بماء فِرِنْدِها مخضوبِ
ولقد بكتْه جيادُه بصهيلها وغدتْ تحنُّ له حنينَ النِّيب[7]
مَنْ للوفود إذا أوَتْ لجنابِهِ يلقاهمُ بالبشر والترحيب

والثغرى يجعله فوق الملوك جلالة ومهابة وديانة وبكل ضروب الفضل من زهد وجهاد

---

(١) خاتل : غادر .
(٢) فاظ : مات . ملحدا : لحدا .
(٣) كتاب أبوحمو موسى لعبدالحميد حاجيات ص٣٣٦.
(٤) الدنى: جمع دنية. اكتنفه اللحد: أحاطه من كل جانب.
(٥) وجفا : خافقا .
(٦) انظر الجزء الثانى من بغية الرواد ليحيى بن خلدون .
(٧) النيب : الإبل المعروفة بحنينها إلى أولادها .

وكرم وإنابة لله ، وكأنما هوت النجوم المتلألئة لفقده وذوت الأزهار الغضَّة ، وحتى شمس النهار تغيَّرت حزنا وتبدلت من نورها بشحوب . وإن سيوف الهند التى طالما شهرها على أعدائه لتبكيه بدم مخضوب بما يلمع على صفحاتها من تموجات الضوء ، وإن جياده لتنتظره مؤملة بصهيلها التى تعبر به عن حنينها له أن يمتطيها للقاء الأعداء . ويتساءل الشاعر من سيلقى الوفود الكثيرة التى كانت تفد على بابه بالبشر والترحيب وقضاء حاجاتها الكثيرة . ويقول الشهاب الخلوف شاعر السلطان عثمان الحفصى يبكى ابنا له مات صغيرا[1] :

أصبتَ عينَ المها يا موتُ بالرَّمَدِ ... وقد أهضتَ جناحَ المجـــد فاتَّئِدِ[2]
ناجزتَ فى صَرْفِ آجالٍ قد اقتربتْ ... إذ لا تسلَّمُهـــا إلا يـــدًا بِيَـــدِ[3]
كم زدتَ فى نَقْصك العَلْيَا جَوَى كبدٍ ... حَرَّى فيا ليت لم تنقص ولم تزد
وكـم تركتَ أبًا يبكى على ولـدٍ ... أذقتـه طعـــمَ ثُكْلِ الأمِّ للولـــدِ
بُنَىَّ ليتك لـم تُخْلق لِـوَرْى بِلًى ... يا ليتنى لم أسَمْ بالصبـر عن شَهَدِ[4]
سقى الحَيـــا قبرك الـزاكى وواصله ... سحابُ عفـوٍ وغفرانٍ مدى الأبـد[5]

وهو يخاطب الموت فجزونا ويقول له اتئد ، فقد أصبت عين الأمِّ بالرمد لكثرة البكاء على من تفقدهم وحطمت جناح المجد وناجزت فى حدث الموت وأبيت إلا أن تستلم ابنى يدا بيد ، وكم نقصتَ العليا وزدت الكبد حزنا وحرارة ، وكم أذقت أبا فقده لابنه فذاق طعم حزن الأم حين تفقد ابنها . ويخاطب ابنه فليته لم يخلق لبلى جسده وعظامه حتى لايسام أبوه ولا يكلف الصبر على ما نزل به ، ويستسقى له السحاب وأن يمنحه الله عفوه وغفرانه .

ويكثر منذ أواخر عصر الدولة الحفصية رثاء التلامذة لشيوخهم الأعلام فى تلمسان وغيرها من مدن الجزائر ، وكان من كبار علماء تلمسان فى القرن التاسع الهجرى محمد بن يوسف السنوسى نسبة إلى قبيلة مغربية وهو حَسَنى من ذرية الحسن بن على بن أبى طالب ، وفيه ألف تلميذه الملالى كتابا سماه « المواهب القدسية فى المناقب السنوسية » وكان فقيها ، بل كان إماما فى الفقه وفى علم التوحيد وله فيه الكتاب المشهور عقيدة أهل التوحيد وشُرح مرارا ، ورثاه تلميذه الشاعر محمد بن عبد الرحمن الحوضى حين توفى سنة ٨٩٥ هـ/١٤٨٩ م بقصيدة بديعة ، وفيها يقول[6] :

---

(١) الديوان ص ٢٥٠ .
(٢) أهضت : حطمت .
(٣) صرف : حدث . آجال : أعمار .
(٤) ورى بلى : اكتئام بلى . أسم : أكلف .
(٥) الحيا : الغيث . الزاكى الطاهر .
(٦) تعريف الخلف برجال السلف ص ٤٠٤ .

ما للمنـازلِ أظلمتْ أرْجـاؤها والأرضُ رُجَّتْ حين خاب رجاؤها
هـذا الذى ورث النبىَّ فأصبحتْ عِلَلُ الضـلال بـه استُفيد دواؤها
ودعا إلى التوحـيد دعوةَ مخلصٍ وإلى الشريعـة فاستنـار ضيـاؤها
يـا أوحـد العلمـاء يا علمًا بهِ كلُّ العلـوم بدتْ لنـا أنحاؤها
مَـنْ للتـآليف التـى ألَّفتَهـا يُبْدِى بهـا مـا استشكلتْ قُرَّاؤها
مَنْ للعلـوم على اختلاف فنـونها يبـدى لهـا نُكتًا يـروقُ سَناؤها
يـارَبِّ قَدِّسْ روحَـهُ وضَرِيحهُ ومِنَ الجِنـان تحفُّـه نَعْمـاؤها

والحوضى يقول إن الديار أظلمت والأرض كأنما زلزلت زلزالا عظيما بموت السنوسى الذى ورث الهدى عن الرسول الكريم فكأنما علل الضلال وجدت عنده أدواءها جميعا . وعملان عظيمان له الدعوة إلى عقيدة التوحيد والشريعة وفقهها المضيىء ، بل لقد أضاء للطلاب كثيرا من أنحاء العلوم التى درسها لهم لا فى الفقه والتوحيد فحسب بل أيضا فى المنطق والقراءات والفرائض وغير ذلك مما درسه وألف فيه . ويتكاثر رثاء التلاميذ لشيوخهم فى العهد العثمانى ، ونسوق من ذلك رثاء : شاعر مدينة الجزائر سعيد قدورة الذى اشتهر بشرحه لمتن السلم فى المنطق والمتوفى سنة ١٠٦٦ هـ/١٦٥٥ م فقد رثى أستاذه محمد بن على المجاجى وكان قد توفى مقتولا وفيه يقول[1]:

مصابٌ جسيمٌ كاد يُصْمِى مقاتلى ورُزْءٌ عظيـمٌ قاطـعٌ للمفاصلِ
ومَنْ لفنـون العلـم نحـوا ومنطقًا وفقها وتوحـيدا وفتـوى لسائلِ
لمنزلـــهِ كانتْ تُشَدُّ رِحـالُنا فمـن راكبٍ يَسْعَى إليـهِ وراجلِ
أحقًّـا قتلتَ الألمعىَّ محمَّـدا على قول حقٍّ لا على قول باطل
قتلتَ امرءًا من شأنه العلمُ والتُّقَى فيـا خيرَ مقتـولٍ ويا شرَّ قاتلِ
ومالَك يـوم العَرْض إلا جهنَّمٌ تقـادُ إليهـا صـاغرا بالسلاسلِ
عليـه من الرحمـنِ أوسعُ رحمةٍ وأزكى سلامٍ فى الضُّحَى والأصائلِ

وسعيد قدورة يقول إنه مصاب جسيم ورزء عظيم أن يقتل هذا العالم الجليل دون ذنب جناه ، ويقول إلى أين يذهب طلاب العلم نحوا ومنطقا وفقها وتفسيرا وتوحيدا ، وإلى من يرجعون فى الفتوى . وكانت تشد إليه الرحال من فجاج الأرض بين راكب وراجل ، ويعجب أن يقتله شخص وهو لا يصدر إلا عن حق لعلمه وتقاه ، وإنه لخير مقتول ، أما قاتله فشر قاتل ، ويتوعده أن يكون مصيره إلى جهنم يقاد إليها بالسلاسل والأغلال ، أما الشيخ المقتول

(١) تعريف الخلف ص ٤٤٢ .

فعليه من ربه أوسع رحمة وأطهر سلام وأعطره . ونتوقف قليلا لنترجم لشاعر بجاية محمد بن على بن حماد .

محمد[1] بن على بن حماد القلعى

من أهل قلعة بنى حماد وفضلائها ، قرأ بها وتفقه على علمائها ، ثم طلب المزيد فقرأ على علماء بجاية وكان بها أبو مدين شعيب فأخذ عنه كتابه : « المقصد الأسنى فى أسماء الله الحسنى » وشرحه من فاتحته إلى خاتمته ، ولزم دروس عبد الحق الإشبيلى وأخذ عنه كتاب الموطأ لمالك وغيره من الكتب ، وحضر على جلّة الشيوخ فى بجاية وغيرها ، وكان له برنامج يشتمل على مائتين واثنين وعشرين كتابا مسندة إلى مؤلفيها ، ويبدو أنه كان ينزع نحو المذهب الظاهرى مذهب دولة الموحدين ، ولذلك عيّنوه – فى رأينا – قاضيا بالأندلس فى مدينة الجزيرة الخضراء ، ثم نقلوه منها سنة ثلاث عشرة وستمائة إلى سَلا فى المغرب على المحيط وظل بها إلى أن توفى سنة ٦٢٨ هـ/١٢٣٠ م . وكان شاعرًا بارعًا ، وله قصائد أو مراث مختلفة يرثى بها دولة بنى حماد التى أزالها الموحدون عن موطنه سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م ، وفى إحداها يقول[2] :

أين العروسان لا رَسْمٌ ولا طَلَلُ ... فانظر ترى ليس إلا السهلُ والجبلُ
وقصر بلارةٍ أوْدَى الزمانُ بهِ ... فأين ما شادَ منه السادةُ الأُوَلُ
وما ورا الكوكبِ العُلْوىِّ معتصمٌ ... وقد عَرَا الكوكبَ التغيير والبَدلُ
وقد عَفا قصر حمادٍ فليس له ... رَسْمٌ ولا أثرٌ باقٍ ولا طَلَلُ
وإنَّ فى القَصْر قَصْرِ الملك معتبرًا ... لمن تغرُّه الأيام والدولُ
وما رسومُ المنار الآن ماثلةٌ ... لكنها نُبَذٌ يَجْرِى بها المَثَلُ
حتى المصلّى امَّحَتْ آياتُهُ وعَفَتْ ... إلا جدارا وما طلّت بهِ الطُّلَلُ[3]
كرجعك الطَّرْفَ كانت كلُّ آبدةٍ ... مما تراه كذاك العمرُ والأجَلُ

وهو يقول أين القصران العروسان المبهجان ، لم يعد حتى رسم ولا طلل ولم يعد إلا الفضاء ، وقد امَّحى قصر بلارة المجيد وما شاده فيه ملوكه الأول ، وامحى قصر الكوكب العلوى وقصر حماد إذ لم يبق منه رسم ولا أثر ولا طلل ، وإن فى ذلك لعبرة أى عبرة لمن يغتر بالأيام والدول ، وأين قصر المنار ؟ إنه لم يبق منه إلا آثار يتمثل بها الناس ، وحتى المصلى الذى كان يلحق بالقصور لم يبق منه إلا جدار وبقايا أطلال إذ سرعان ما زايلته النعمة سريعا وزايلت كل آبدة

(١) انظر فى ترجمة محمد بن على بن حماد عنوان الدراية ص ٢١٨ وتعريف الخلف ص ٤٨٧ وتاريخ الجزائر فى القديم والحديث للميلى ص ٦٣٤ وتاريخ الأدب الجزائري للأستاذ محمد الطمار ص ١٢٣ .
(٢) الميلى ص ٦٣٤ والطمار ص ١٢٣ .
(٣) الطُّلل : جمع طَلل .

وغريبة مما كان فى القصور من عجائب ونقوش ، فكل ذلك ذهب كرجعك الطرف إلى غير مآب كما تذهب الأعمار والآجال ، ويقول[1]

ألا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادى الهوى ما بين تلك الجداولِ
وهل أَسْمَعَنْ تلك الطيور عشيَّةً ... تُجاوب فى تلك الغصون البلابلِ

وهل أَرِدَنْ عين السلام على الصَّدَى ... فأُبْرِدَ من حَرِّ الضلوع النواهلِ[2]
وأنظر طيقان « المنار » مُطِلَّةً ... على الوجنات الزاهرات الخمائلِ[3]
كأن القباب المشرفات بأفقِهِ ... نجومٌ تبدَّتْ فى سعود المنازلِ
فإنْ ثنتِ الأيَّامُ عنها أعِنَّتِى ... وأنزلْنَنى فى غير تلك المنازلِ
فصبرٌ جميلٌ غير أنَّ صَبَابتِى ... ستبقى بقاء الطالعاتِ الأوافلِ

وابن حماد يتمنى فى غربته الطويلة ببلاد المغرب والأندلس لو بات ليلة بوادى بجاية : وادى الهوى والحبُّ بين جداولها يتسمع إلى الطيور وهى تجاوب البلابل فى المساء ، ويتمنى أن يرد على عين السلام ليبرد صداه ويشفى ظمأه الطويل وحر ضلوعه ، وينظر طيقان المنار وهى مطلّة على الخمائل المزهرة فوق الأرض الصخرية حول بجاية ، ويتصور كأن قباب هذا القصر التى كانت تشرف على ما حوله نجومٌ مُسْعدة . ويمتلىء شوقا وحنانا لبلدته بجاية فيقول إن ثنت الأيام أعنّتى عنها إلى سَلا وغير سلا من مدن المغرب والأندلس فسأفزع إلى الصبر الجميل ولكن صبابتى ببلدى وموطنى ستظل جاثمة فى فؤادى ما حييت ، وستظل باقية بقاء النجوم الطالعات الأوافل ، ويقول فى عين السلام[4] :

على عَيْن السلام سلامُ صَبٍّ ... غَذاه ماؤها العَذْبُ النَّمِيرُ
تأوَّد أَيْكُها وجَرَتْ صَبَاها ... وشَمَّ لها كما فُتِقَ العَبِيرُ
وأبردُ ما يكون الجوُّ فيها ... وأَنْدَى حين يحتدم الهجيرُ
وقد قام المنارُ على ذُراها ... كما قام العروس أو الأمير
بناءٌ يُزْدَرَى إيوانُ كِسْرَى ... لديهِ والخَوَرْنَقُ والسَّدِيرُ

وهو يرسل بالتحية إلى عين السلام التى طالما نهل من مائها العذب الصافى الزاكى ، وإن أيكها أو شجرها ليتثنى بفعل الرياح ويهب صَباها عليلا حاملا منها شذى عطرا ، وحين تشتد حرارة الهاجرة وراء بجاية فى الصحراء تصبح بجاية أبرد وأندى ما تكون ، وإن قصر المنار ليقف فى أعاليها وكأنه عروس ينتظر الزفاف أو أمير ينتظر الموكب الحافل ، وإنه

(١) المرجعين السالفين .
(٢) الصدى : العطش .
(٣) الوجنات : مرتفعات الأرض .
(٤) انظر فى الأبيات التالية المبلى ص٦٣٤ والطمار ص١٢٣ .

لقصر مشيد يُزْدَرَى بجانبه إيوان كسرى ، والخورنق والسدير : قصران كانا للملوك الحيرة فى الجاهلية .

٤

شعراء الزهد والتصوف

(أ) شعراء الزهد

الزهد قديم فى الأمة منذ العصر الإسلامى وزاهد الأمة الأول محمد ﷺ وكان كثيرون فى أيامه يأتسون بزهده وتقشفه ، ويفرد الجاحظ للزهاد صحفا كثيرة فى البيان والتبين حتى عصره ، ويتوالى مَنْ بعده فى الكتابة عنهم ، ويلقانا منهم فى المغرب كثيرون فى كتاب رياض النفوس للمالكى ، يقبلون على ما عند الله من ثواب الآخرة ويرفضون الدنيا ، ودائما يذكرون الموت وأنه مقبل لا محالة وأن من واجب الإنسان أن يتدبر أمره وغده وأنه عما قريب محمول على آلة حدباء وسيلقى ربه ، وحرى بالإنسان أن يعمل لآخرته قبل أن يفجأه الموت ويأتيه على حين غِرَّة أو غفلة ، وفى ذلك يقول بكر بن حماد متحدثا عن الموت[1] :

لقد جمحتْ نفسى فصدَّتْ وأعرضتْ ... وقد مَرقتْ نفسى فطال مروقُها[2]
فيا أسفى من جُنْح ليلٍ يقودها ... وضوءِ نهارٍ لا يزال يسوقها[3]
إلى مشهدٍ لابُدَّ لى من شهودهِ ... ومن جُرَعٍ للموت سوف أذوقُها
سحاب المنايا كلَّ يومٍ مظلَّةٌ ... فقد هطلتْ حولى ولاحَ بُروقها
تجهَّمتُ خمسًا بعد سبعين حِجَّةً ... ودام غروبُ الشمس لى وطلوعها
وأيدى المنايا كلَّ يومٍ وليلةٍ ... إذا فتَقتْ لا يستطاع رُتوقها
تُصبِّح أقواما على حينِ غفْلَةٍ ... ويأتيك فى حين البيَاتِ طروقُها

وهو يقول إن نفسه جمحت منه وركبت هواها وعصته عصيانا شديدا ، إذ لا تسمع إلى نصحه وإرشاده ، وكأنما زمامها بليل مظلم مما يؤسفه وإنها لا تتطلع إلى ضوء نهار مشرق يريها المشهد الحقيقى من الموت وجُرَعه وما سيَحْسُو منه ، وإن سحاب الموت ليظلّه ، وإنه ليهطل من حوله وتلمع بروقه ، وقد احتمل خمسا وسبعين سنة ، وطالما أشرقت عليه الشمس وغربت وأيدى الموت من حوله إذا فتقت فتقا لا يستطيع أحد رتقه ، وتصبِّح أقواما فجأة بمن تختطفه منهم وبالمثل تمسِّيهم ، وما أحرانا أن نعمل لآخرتنا قبل فوات الأوان . ويحدثنا صاحب

---

(١) الديوان ص ٧٨ .
(٢) جمحت : نفرت . مرقت : خرجت وعصت .
(٣) جنح الليل : ظلامه .
(٤) عنوان الدراية ص ٧١ .

عنوان الدراية عن الشيخ الفقيه النحوى اللغوى محمد بن الحسن بن ميمون القلعى البجائى ، وكان كثير التلامذة والطلاب وتقرأ عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والأدبية ، وكان يسلك فى شعره طريقة أبى تمام ، وتوفى سنة ٦٧٣ هـ/١٢٧٤ م وله منظومات فى الزهد والمديح النبوى ، ومن قوله فى الزهد[٤] :

الخُبْرُ أصدقُ فى المَرْأى من الخبَرِ ... فمهِّد العُذْرَ ليس العَيْنُ كالأثَرِ
واعملْ لأخرى ولا تبخلْ بمكرُمَةٍ ... فكلُّ شيء على حَدٍّ إلى قَدَرِ
وكل حَىٍّ وإن طالتْ سلامتُهُ ... يغتاله الموتُ بين الوِرْدِ والصَّدَرِ
هو الحِمام فلا تُبْعِدْ زيارتَهُ ... ولا تقل ليتنى منه على حَذَرِ
ياويحَ من غرَّه دَهْرٌ فَسُرَّ به ... لم يخلص الصَّفْوُ إلا شِيبَ بالكدرِ
تنافس الناسُ فى الدنيا وقد علموا ... أن المقام بها كاللَّمْح بِالبَصَرِ
انظُرْ لمن باد تنظرْ آيةً عجَبًا ... وعبرةً لأولى الألباب والعِبَرِ

وهو يقول إن التجربة أصدق من الخبر إذ ما يُرَى بالعين ليس كالأثر ، واعمل لآخرتك ولا تبخل بصالحة ، فكل شيء مقدر ، وكل حى وإن طالت سلامته سيغتاله الموت فجأة بين ورده لشيء وصَدَره عنه ، إنه الموت فلا تظن أن زيارته ستبطيء عنك ، ولا تظن أنك تستطيع أن تكون على حذر منه ، وياويح من غرَّه زمن سرَّه ، فإن الصفو دائما يشاب بالكدر ، وياويح الناس فإنهم يتنافسون فى الدنيا وأمانيها ومظاهرها وهم يعلمون أنهم راحلون عنها سريعا سرعة اللمح بالبصر ، وانظر لمن باد من السالفين فإن فى ذلك عبرة لأولى الألباب . ويذكر ابن ميمون البجائى الملوك الهالكين : دارا الفارسى وذايزن اليمنى وهرقل البيزنطى وغيرهم فكلهم أفناهم الدهر ولم تبق منهم إلا الأسماء والسير .

وتكثر الابتهالات إلى الله والاستغاثات والتوسلات على ألسنة الزهاد ، ويتسع ذلك فى العهد العثمانى ويتسع معه وضع الأذكار والأوراد ، ومن أطول الاستغاثات استغاثه[١] محمد بن حواء المستغانمى بربه ، وسميت الغوثية الكبرى فى الكرب والشدائد إذ تقع فى أربعمائة بيت ، بدأها بالحمد لله والصلاة على رسوله روح الوجود ومطلع الأنوار وقدوة الأقطاب ويخرج إلى دعاء ربه والاستغاثة به إلى أن قال[٢] :

يا سامعَ الدُّعاءِ يا قديرُ ... يا من إليه تَرْجعُ الأمورُ
يا مالك الملوك يا جبَّارُ ... انْصُرْ ذليلا ماله أنصارُ

(١) تعريف الخلف ٣٧٣/٢ .
(٢) نفس المرجع السابق .
(٣) سعد الله ١٤٨/٢ .

ولعبد الكريم الفكون ، صاحب رسالة فى التصوف ونقد رجاله وما صار إليه ؛ قصيدة يتوسل فيها إلى ربه جعل مطلعها[٣] :

بأسمائك اللهم أبدى توسلا فحقّقْ رجائى يا إلهى تفضُّلا

وكثر التوسل فى هذا العهد بين الفقهاء والشعراء جميعا ، وللمفتى المالكى محمد بن الشاهد صاحب القصائد المولدية : توسلٌ مطلعه[١] :

بأسمائك الحسنى فتحتُ توسلى ومنك رجوتُ العفوَ أسمى مطالبى

(ب) شعراء التصوف

نزل الجزائر أئمة التصوف الأندلسيون منذ القرن السادس الهجرى يتقدمهم أبو مدين شعيب[٢] المتوفى سنة ٥٩٤ هـ/١١٩٧ م ويقال إنه من تلامذة الشيخ ابن حرزهم بفاس المتوفى سنة ٥٥٩ ولبس الخرقة على يد الشيخ أبى عبد الله الدقاق وسلك طريقته على يد أبى يعزى المتوفى سنة ٥٧٢ واستوطن بجاية وانتشرت بها طريقته الصوفية ، وأرسل فى طلبه سلطان الموحدين المنصور يعقوب فمضى إليه عن طريق تلمسان وتوفى بها وقبره بالعباد فى جوارها ، ومن قوله : « بى قُلْ ، وعلىَّ دُلّ ، فأنا الكل » وهى عبارة قد تفيد أنه كان يؤمن بالاتحاد بالله ، وربما كانت شطحة من شطحاته وكان تصوفه فلسفيا . وممن نزل تلمسان فى القرن السادس أبو عبد الله[٣] الشوذى الإشبيلى من كبار العبّاد العارفين ، ويروى تلميذه ابن دهاق المتوفى سنة ٦١١ أنه رآه بتلمسان فى يده طبق به حلوى يبيعها للصبيان الصغار وهم ينقرون له ويدور ويشطح ، وكان يمزج التصوف بالفلسفة ويقول بوحدة الوجود[٤] . ومن هؤلاء الأئمة النازلين بالجزائر محيى[٥] الدين بن عربى المولود سنة ٥٦٠ والناشىء فى إشبيلية ، وعلى متصوفيها تلقن التصوف وفى سنة ٥٩٠ بارحها متجولا فى الأرض ونزل بجاية ولزم أبا مدين الصوفى فترة ثم اتجه إلى المشرق . وممن نزل بجاية ابن[٦] سبعين عبد الحق وأبو[٧] الحسن الششترى ، ويروى أنهما التقيا وأراد الششترى أن يتركه إلى أصحاب أبى مدين فقال له : إن كنت تريد الجنة فسر إليهم ، وإن كنت تريد ربَّ الجنة فهلمَّ إلىّ . وكأنه لم يبق فى القرنين السادس

---

(١) سعد الله ١٥٧/٢ .

(٢) افتتح الغبرينى كتابه عنوان الدراية بترجمة ضافية لأبى مدين وانظر أنس الفقير لابن منقذ والبستان ١٠٨ والتشوف للتادلى رقم ١٦٢ .

(٣) انظر فيه البستان ص ٦٨ وبغية الرواد ليحيى بن خلدون ص ١٢٧ وكتابنا عن تاريخ الأدب العربى فى الأندلس ص ٣٥٨ .

(٤) راجع كتابنا عن الأندلس وكتاب ابن سبعين للتفتازانى ٧١ – ٧٥ .

(٥) انظر فى ابن عربى عنوان الدراية ص ١٥٦ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٦٣ وما به من مراجع .

(٦) راجع فى ابن سبعين عنوان الدراية ص ٢٣٧ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٥٩ وما به من مراجع .

(٧) انظر عنوان الدراية ص ٢٣٩ وكتابنا عن الأندلس ص ٣٦٧ وما به من مراجع .

والسابع إمام من أئمة التصوف الأندلسيين المتفلسفين إلا نزل الجزائر والبلاد المغربية واستمعوا أشعاره . وهو ما جعل كثيرين من الجزائريين منذ القرن السابع الهجرى ينظمون أشعارا صوفية أو تنزع نحو التصوف كثيرًا ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بهذه الصلة إذ يترجم الغبرينى فى عنوان الدراية لكل من ذكرتهم من أئمة التصوف الأندلسيين ماعدا الشوذى نزيل تلمسان وقد كتب عنه يحيى بن خلدون فى تعداد من أنجبته تلمسان أو استقر بها من العلماء والصالحين . وطبيعى أن يكون أكثر المتأثرين بهؤلاء الأئمة من أهل بجاية التى نزل بها أبو مدين فى القرن السادس ونزلتها بعده كثرة من هؤلاء الأئمة . ونبدأ بعلى بن أحمد الحرالى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ/١٢٤١ م وفيه يقول الغبرينى : « العالم المطلق الزاهد الورع ، ممن جمع العلم والعمل ، أما علمه فإنه قد جمع فنون العلم بجملتها ، واستولى على كليتها : أما علم الأصول فأصول الدين وأصول الفقه وأما معقولات الحكماء فهو أعلم الناس بالمنطق ، وله فيه تصنيف سماه بالمعقولات الأول ،وأما علم الطبيعيات والإلهيات فكان أعلم الناس بها ، وكنا نقرأ عليه كتاب النجاة لابن سينا فيقرِّره ، ثم يوهنه ، وله تفسير على كتاب الله تعالى ، تكلم عليه لفظة لفظةوحرفا حرفا . وله فى التحقيق أو التصوف[1] :

ما لنا منا سوى الحـــال العَدَمْ ... ولبارينا وجـــودٌ وقِـــدَمْ[2]
نحـــنُ بنيـــانٌ بَنَتْهُ حكمـــةٌ ... وخليقٌ بالبُنَـــا أنْ ينهـــدمْ
أشـرقتْ أنفُسنا من نـــورهِ ... فوجودُ الكلِّ عن فَيْض الكـــرمْ
فترقَّ النفـسَ عـن عـالمهـــا ... باختباءٍ ليس تدنيـــه الهـــمم
ليس يـدرى مـن أنـا إلا أنـا ... ها هنا الفهمُ عن العقـــل انبهم
كلمـــا رُمْتُ بذاتـــى وُصْلَةً ... صار لى العقـلُ مع العلم جَلم[3]
يَقْطعانى بخيـالاتِ الفَنـــــا ... عن وجـــودٍ لـم يقيّدْ بِعَـدَمْ

وهو يقول ما لنا إلا العدم منه جئنا وإليه نمضى ، ولبارينا وجود أزلى وقدم سرمدى ، وهل نحن إلا بنيان ، بنته حكمة عليا ، وكل بنيان مصيره أن ينهدم ، وهاهى أنفسنا قد أشرقت من نور رب العزة ، وهل وجودنا إلا بفيض كرمه ، وإن النفس لترقى يوما عن عالمها الأرضى باختباء ما بعده اختباء ، وليس أحد سواى يدرى حقيقتى حتى ليغمض الفهم وتحار العقول ، وكلما رمت وصلة بذاتى تصلنى بربى وقف العقل مع العلم فى طريقى يمزقانى بخيالات الفناء دون وجودى المأمول مع ربى الذى لم يقيد بفناء ولا بعدم . وكان يعاصره أبو العيش الخزرجى محمد بن أبى زيد المتصوف التلمسانى وسنخصه بترجمة . ومن تلامذة الحرالى أبو زكريا

(١) عنوان الدراية ص ١٥٥ .
(٢) بارينا : خالقنا .
(٣) الجلم :المقص يقص به الصوف .

يحيى بن زكريا المتوفى سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م ومازال به الحرالى حتى ظهر له بعض التحقيق ، واعتمد – كما يقول الغبرينى – جادة الطريق ، وأنشده أبو زكريا – فى معنى ما ظهر له وبيّن له الحالى فيما لم يظهر له – هذه الأبيات[1] :

جلتْ لك لَيْلَى من مثنىً نِقابِهـا ... طريقا وأبدت لمعـةً من جمالهـا[2]
فطيتَ بهـا عيشا وتِهْتَ لـذاذةً ... وفَيَّأك الإلمـاعُ بـرْدَ ظـلالها[3]
فكيف ترى ليلـى إذا هى أسْفَرَتْ ... ضَحـاءً وأبدتْ وارفـًا من دلالها
وكيف بها إن لم يَغِبْ عنك شَخْصُها ... ولـم تُخْلِ وَقْتًا من مَنـال وصالها
وكيف يكون الأمـر إن أنت كُنْتَها ... وكانتْك تحقيقـا فَحُلْتَ لحالهـا

وهو يكنى عن الذات الإلهية باسم ليلى ، ويقول إنها كشفت قليلا من مثنى نقابها وأبدت لمعة من جمالها فطاب بها عيشا وتاه لذة وكأنما أظله الإلماع بجمالها برد ظلالها فكيف إذا أسفرت ضحى وأبدت ناضرا من دلالها ولم يغب عنا شخصها ومنال وصالها ، واتحدتْ بها وأصبحت كأنتى هى وتبدلت حالى . ويدون ريب تصوف أستاذه الحرالى أروع من تصوفه ، إذ تغيب فيه المادة والحس ، ولا تصبح الذات العلية ليلى ولا غير ليلى ممن يهيم بهن الشعراء ويتخذهن بعض المتصوفة رمزًا للذات الربانية . وكان يعاصر يحيى بن زكريا فى بجاية عبد الحق بن ربيع العالم المحقق الصوفى المجتهد المتوفى سنة ٦٧٥ هـ/١٢٨٥ م وكان فقيها وعالما بأصول الدين وأصول الفقه والمنطق ، وله قصيدة صوفية طويلة أعجب بها أستاذه الحرالى وانتقى منها طائفة من أبياتها من مثل قوله[4] :

سفرتْ على وجـه الجميل فأسْفَرا ... وبدا هلالُ الحسـن منهـا مُقْمِرا
ودنتْ فكاشفتِ القلـوبَ بسرِّها ... وسقت شرابَ الأُنْسِ منها كَوْثرا
ورأيتهـا فى كلِّ شىءٍ أبصرتْ ... عينـاىَ حتى عُدْتُ كُلِّى مُبْصِرًا
وسمعتُ نطـقَ الناطقـين فكلُّهم ... بالحمـد والتَّسْبيح عنهـا أخـبرا
وبها فَنِيتُ عن الفناء وغصْتُ فى ... مـاء الحيـاة مُسَرْمدا ومدهَّرا
إفصـاحُ قـولى لا يفى بمواجدى ... وبيانُـه لا يستقلُّ بمـا جَـرَى
لـو كان سرُّ الله يكْشَفُ لم يكن ... سـرًّا ولكـن لـم يكن ليذكَّرا

وهو يقول إن الذات العلية سفرت وأشرقت فأشرقت الدنيا وبدا هلال الحسن منها كأنه البدر فى تِمهِ واكتماله ، ودنت فعرفت القلوب سرها وسقتها كوثرا من شراب الأنس . وأحسَّ كأنه يراها فى كل شىء من حوله (فكرة الحلول التى يرددها بعض متفلسفة الصوفية) وكأن

(١) عنوان الدراية ص ١٠٣ .
(٢) مثنى : منعطف .
(٣) فيأك : أظلك .
(٤) عنوان الدراية ص ٥٩ .

كل شيء فيه أصبح مبصرا ، وسمع حمد كل ما فى الكون لربه وتسبيحه ، ويقول إنه فنى عن الفناء ، وهو بذلك يردد فكرة الفناء فى الذات الإلهية التى يرددها بعض متفلسفة المتصوفة . ويصرِّح بأن إفصاحه لا يفى بمواجده وكذلك بيانه ، ويقول إن سرالله فى الوجود لا يكشف ، ولو كشف لم يكن سرا غير أنه لا يكشف ولا يذكر . وعبد الحق بن ربيع بذلك كله أقرب إلى روح أستاذه الحرالى وتصوفه من زميله يحيى بن زكريا . ويقرب من روح الحرالى أيضا تصوف إبراهيم بن أحمد بن الخطيب ، ومن نظمه قوله[1] :

روْضُ المعـارفِ حَضْرَةُ العُرفـاءِ ... وجَنَا التفكـرِ جنَّـةُ العقلاء
ونعيمُ أهـل الحـق دَرْكُ حقائقٍ ... لاحتْ بأفْق القلب حـالَ صفاءِ
فاقرأ سطورَ الكـونِ فى منشورها ... بعيـانِ عَيْنٍ أو بِفَرْطِ ذكـاءِ
وانظر إلى الأكـوان كيف تمايلتْ ... طَـربا لِسرٍّ لاح عند خفـاءِ
وأفاض عن بحـر الجمـال أهلَّةً ... بهـرتْ محاسنهنَّ بـدرَ سمـاءِ
وتذكَّرتْ نجدا فهـاج لذكـره ... وَجْدٌ ونادى الشوق بالبُرَحَـاءِ[2]
ورأتْ به كلُّ العوالـم أُحْكِمَتْ ... فتَزَيَّنَتْ وتَـوَشَّحَتْ بضيـاءِ

وهو يقول إن حضرة المعلمين روض المعارف وجَنَا الفكر جنة العقلاء ، أما أهل الحق من المتصوفة فنعيمهم إدراك الحقائق التى تلوح بالقلب فى حال الصفاء . وتأمل فى الكون ، بل تأمل فى الأكوان وما تحمل من سر بل أسرار لرب الكون وما أفاض عن بحر جماله من أهلة تترى بهرت بدر السماء ، وتذكرت نفسه نجدا فهاج به وجد ملتاعٌ وشوق مضطرم ورأت كل العوالم أحكمت وتزينت بلمعة من ضياء الله ونوره .

وإذا تركنا بجاية ومتصوفتها إلى تلمسان وجدنا المتصوفة بها فى القرن السابع قليلين بالقياس إلى بجاية ، ومن متصوفتها أبو عبد[3]الله بن الحجام محمد بن أحمد بن محمد اللخمى واعظ أهل زمانه، حسن صوت وغزارة حفظ من سمعة واحدة لكل مايطرق أذنه، استقدمه المنصور الموحدى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى مراكش فاستوطنها وحظى عند المنصور والناصر والمستنصر ، وكان يتصدق براتبه ، ويجهِّز منه ضعيفات البنات ، وله فى الوعظ كتاب أسماه حجة الحافظين ومحجة الواعظين ، توفى سنة ٦١٤ هـ/١٢١٨ م ، ومما يؤثر من نظمه فى التصوف قوله :

غريبُ الوصف ذو علمٍ غريبِ ... عليلُ القلب من حُبِّ الحبيبِ
إذا ما الليـل أظلم قام يبكى ... ويشكو ما يكنُّ من الوَجِيب[4]
يقطِّع ليلـه فكـرا وذكـرًا ... وينطق فيـه بالعجب العَجيب

(١) عنوان الدراية ص ٢٣١ .
(٢) البرحاء هنا : شدة الحب ولواعجه .
(٣) انظر فيه بغية الرواد ليحيى بن خلدون ١٠٢/١ وتعريف الخلف ٣٦١/٢ وفيه أنه ابن اللحام لا الحجام .
(٤) الوجيب : الخفقان .

بـــهِ مـــن حُبِّ سيدهِ غَـرَامٌ يجـــلُّ عـن التطبُّبِ والطبيبِ
ومَـــن يكُ هكذا عبدا محبًّـــا تطيب ثيـــابه مـــن غير طيب

وهو يصف نفسه بغرابة الوصف والعلم واعتلال القلب من حب الحبيب ، ويقول إنه يتهجد ليلا وهو يبكى ويشكو ما يكن من خفقان قلبه ، ومايزال يقطع ليله فكرًا وذكرا لربه مسبحا مستغفرا وبه من حبه غرام يعز على التطبب والطبيب ، ومن يكن مثله عبدا محبا لائذًا بربه تطيب ثيابه من غير أن يمسه طيب . ونلتقى بعد ابن الحجام فى تلمسان بالنصف الأول من القرن السابع الهجرى بابن أبى العيش وسنترجم له . وتضن علينا كتب التراجم بشعر صوفى فى القرن الثامن حتى إذا كنا فى القرن التاسع الهجرى التقينا بصوفى كبير هو إبراهيم التازى نزيل وهران وسنترجم له ، وينظم عبد الرحمن الأخضرى قصيدة فى التصوف وآدابه يسميها القدسية .

ونمضى إلى العهد العثمانى فتكثر المنظومات فى الطرق الصوفية المشهورة وأصحابها وتكثر معها الشروح ونمثل لذلك بسينية ابن باديس فى طريقة عبد القادر الجيلانى البغدادى المتوفى سنة٥٦١ هـ/١١٦٦ م ومطلعها[1] :

ألا سِرْ إلى بغدادَ فَهْىَ مُنَى النَّفْسِ وحدِّثْ بها عمن ثَوَى باطنَ الرَّمْسِ

وشرحها أحمد بن محمد الحاج البجائى التلمسانى قاضى بجاية وسمى شرحه : « أنس الجليس فى جَلْو الحناديس عن سينية ابن باديس » . وشُرحت أيضا المنظومات فى التصوف وأحواله وفى مقدمتها منظومة « القدسية » لعبد الرحمن الأخضرى ، شرحها الورتلانى وسمى شرحه : « الكواكب العرفانية والشوارق الإنسية فى شرح ألفاظ القدسية » . ويتكاثر فى العصر التصوف الشعبى والدراويش وتدخل عليه شعوذات هو منها براء . ونقف للترجمة لابن أبى العيش وإبراهيم التازى .

أبو العيش[2] بن عبد الرحيم الخزرجى

هو محمد بن أبى زيد عبد الرحيم (وفى بعض الروايات عبد الرحمن وفى بعضها عبد الحق) بن محمد بن أبى العيش التلمسانى إشبيلى الأصل وكان فقيها جليلا ، روى ببلده تلمسان عن أبى بكر محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة المتوفى سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٤ م وعن أبى عبد الله بن عبد الرحمن التجيبى المتوفى سنة ٦١٠ هـ/١٢١٤ م وعن أبى محمد بن حوط الله

(١) سعد الله ١٣٦/٢ .. والرمس : القبر .

(٢) انظر فى أبى العيش الخزرجى وشعره بغية الرواد ص ١٠٣ وتعريف الخلف ٣٤٢/٢ ونيل الابتهاج ص ٣٣٢ والقسم الأول من السفر الثامن من كتاب الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة لمحمد بن عبد الملك المراكشى (طبع المغرب) ص ٣١٣ .

المتوفى سنة ٦١٢ هـ/١٢١٦ م وعن أبى عبد الله بن عبد الحق المتوفى سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م وكان عالما وأديبا بارع الكتابة وشاعرا جيد الشعر ، صنّف كتبا فى أصول الفقه وعقائد أصولية فى الدين ، وفسر القرآن الكريم وشرح الأسماء الحسنى ، وله فى التصوف نظم كثير وكذلك فى الزهد وسبل الخير والوعظ وتنزيه البارى جَلَّ شأنه . ولم تنص كتب التراجم على تاريخ وفاته ولكن كثرة أساتذته الذين عاشوا بين سنتى ٦٠٠ و ٦١٢ يدلّون بحياتهم على أنه عاش فى القرنين السادس والسابع للهجرة . ومن قوله فى التصوف :

اللّهَ قُلْ ودَعِ الوجـــودَ وما حَوَى ... إن كنت مرتـــادا بلوغَ كمـــالِ
فالكلُّ دونَ اللهِ إنْ حَقَّقْتَـــهُ ... عدمٌ على التفصيل والإجمـــالِ
والعارفـــون فَنُوا ولَمَّـــا يَشْهَدُوا ... شيئـــا سوى المتكبِّر المتعـــالِ
ورأوا ســـواه على الحقيقة هالكـــا ... فى الحـــال والمـــاضى والاستقبالِ
من لا وجـــود لذاتـــه من ذاتِهِ ... فوجـــوده لـــولاه عَيْنُ مُحـــال
فالْمَحْ بطَرْفك أو بعقلك هل ترى ... شيئا سوى فعلٍ من الأفعـــال
وانظر إلى أعلى الوجـــود وسُفْلِهِ ... نظـــرا تـــؤيِّده بالاستدلال
تجد الجميعَ يشير نحـــو جلالِهِ ... بلسان حـــالٍ أو لســـان مقـــالِ
وجب الوجـــودُ لذاتـــه وصفاتِهِ ... فَـــرْدًا عن الأكْفاءِ والأمثـــال
يبقى وكلٌّ يضمحلُّ وجـــودُهُ ... مـــا واجِـــبٌ كمقيَّدٍ بزوال

والأبيات من أول بيت إلى آخر بيت تقول ليس فى الوجود سوى الله فتعلّق به ودع ماسواه ، فالكل – كما يقول فى البيت الثانى – عدم ، والعارفون من المتصوفة فنوا فى ربهم ، ولم يشهدوا فى الوجود سواه ، ويقول إن من لا وجود لذاته من ذاته كربٌ العزة فوجوده لولاه ضرب من المحال ، وانظر بعينك أو بعقلك هل ترى إلا فعلا من أفعاله : أعلى الوجود وسفله ، والجميع يشير نحو جلاله بلسان مقال معترف أو بلسان حال شبه معترف بأنه واجب الوجود لذاته وصفاته الإلهية ، متفردا بذلك عن الأشباه والأمثال ، فليس كمثله شىء فى الوجود ، إذ يبقى وحده ويفنى الكل ، فهو وحده واجب الوجود وكل ما عليها فان . ويستمر منشدا :

هو مُمْسِكُ الأشياء من عُلْوٍ إلى ... سُفْلٍ ومُبْدِعُها بغير مثـــالِ
فاسكـــنْ إليـــه بهمَّـــةٍ عُلْوِيَّةٍ ... متنزِّهـــا عما سوى الفعَّـــالِ
وهو الذى يُرْجَى ويُخْشَى لا تَلُذْ ... بسواه فى حـــالٍ من الأحـــوال
فالشَّرعُ جاء بذا وأنـــوارُ الهدى ... قد أيَّدَتْـــهُ فَعِشْ خَلِىَّ البـــال

وابن أبى العيش يقول إن الله هو الذى يمسك السموات وغير السموات أن تزول وهو الذى يبدعها على غير مثال مرسوم ، فاطمئن إليه بهمة روحية فإنه الفعَّال لما يريد ، وهو موضع الخوف والرجاء فلا تَلُذْ بسواه . جاء بذلك الشرع والحديث النبوى ، وتمسَّك بذلك تعش رضيَّ النفس خليَّ البال . وله أبيات يصور فيها اعتزاله الخلق وانقطاعه إلى الحق رب الخلق يقول :

قنعتُ بما رُزِقْتُ فلستُ أَسْعَى ... لـدارِ أبى فـلانٍ أو فـلانِ
وآثرتُ المقـامَ بِكسْرِ بيتى ... ولا أحـدٌ أراهُ أو يرانـى
ولا أَلْقَى خليـلاً غيرَ صَبْرٍ ... مُعينٍ فى المعـارف أو معانى
وقد أيقنت أن الـرِّزْقَ آتٍ ... وإنْ لـم آتـه سَعْيًا أتانى
وقد حققتُـه فهمـا وعلمًا ... وقد شاهدتـه رأىَ العِيـانِ
فلازمْ ذا بإخـلاصٍ تُمَكَّـنْ ... هنـا وهنـاك من أَسْنَى مكانِ

والقطعة مع ما تصور من الانقطاع إلى عبادة الله تصور مبدأ التوكل المعروف عند المتصوفة بحيث لا يفكرون فى رِزْقِ الغد وأن ما سيرزقون به آت لا ريب فيه ، وهو يقول إننى قانع برزقى ، ولست أحاول أن أتسول من فلان أو أبى فلان ، إذ تكفينى كِسْرَة بيتى ولا أحد يرانى متذللا لأحد ، ولا أبحث عن خليل يعيننى ، غير صبر أستعين به فى دراسة المعارف أو بعض المعانى ، وقد أيقنت أن رزقى آتٍ سعيت إليه أو لم أسع ، عرفت ذلك وتحققت منه فهما وعلما وخبرة . واعمل بذلك تَحْظَ بأرفع مكان .

إبراهيم[1] التازى

هو إبراهيم بن محمد بن على التازى حفظ القرآن وأكبَّ على دراسة العلوم ، وحج وحضر دروس الشيوخ فى مكة والمدينة وتونس وتلمسان ، وبدت فيه ميول قوية للتصوف ولبس الخرقة من الشيخ صالح الزواوى بسنده إلى أبى مدين ، واشتهر بالتازى لولادته فى بربر تازا بالمغرب الأقصى ، وانتهى به المطاف إلى وهران ولقيه شيخها الصالح محمد بن عمر الهوارى لقاء حسنا ، وعنه ورث زاويته وطلابها بعد وفاته ، واشتهر ذكره ، وممن تتلمذ له الإمام السنوسى ، ويقال إنه هو الذى ألبسه الخرقة الصوفية . ويقول القلصادى إنه أقام معه فى زاويته ، ووجده معتنيا بكلام شيخه الهوارى ، وكان يقول : العالم لا تعاديه – والجاهل لا تصافيه – والأحمق لا تواخيه . وتوفى إبراهيم التازى سنة ٨٦٦ هـ/١٤٦١ م ذكر ذلك

---

(١) انظر فى ترجمة التازى تعريف الخلف ١١/٢ والبستان ص ٥٨ .

غير واحد ممن ترجموا له . وشعره الصوفى والنبوى كثير ويموج الأول بالدعوة إلى المحبة الربانية من مثل قوله :

أبعد الأربعين تروم هَزْلاً ... وهل بعد العشيَّة من عَرارِ
فخلِّ حظوظَ نفسِك والْهُ عنها ... وعن ذكر المنازل والديار
فما الدُّنْيا وزُخْرفُها بشيءٍ ... وما أيَّامُها إلا عَوَارِى
فتُبْ واخلَعْ عِذارك فى هوى مَنْ ... له دارُ النعيم ودارُ نارِ[1]
جمالُ الله أكملُ كلِّ حُسْنٍ ... فَلِلَّهِ الكمالُ ولا مُمارى
وذكرُ الله مرهمُ كلِّ جُرْحٍ ... وأنْقَعُ من زُلالٍ للأُوار[2]
ولا موجودَ إلا اللَّهُ حقًّا ... فدَعْ عنك التعلق بالشَّنار[3]

وهو يقول لصاحبه أتروم هزلا بعد سن الأربعين ، والشطر الثانى شطر بيت للصِّمَّة القشيرى ، والعرار نرجس برى ، يقول الصمة لصاحبه والإبل تسرع بهم إنه لن يتمتع بعد العشية بعرار فقد فات وقته ، كما فات وقت الهزل بعد الأربعين كما يقول التازى ، ويقول دع ما أنت فيه من غزل وتعلق بجمال المرأة ، فالدنيا ليست باقية ، وتعلق بمن لديه دار النعيم ودار الجحيم ، فجماله أعظم وأكمل من كل جمال ، وإن ذكره لشفاء لكل جرح ، وزلال بارد لكل عطش متقد ، إنه لا موجود سواه ، فدع عنك التعلق بما تعاب به ، ويُعَد قبيحا منك أى قبح . وله :

حسامى ومنهاجى القويمُ وشِرْعتِى ... ومنجاىَ فى الدَّارَيْن من كل فتنةِ
محبَّةُ ربِّ العالمين وذكرُه ... على كلِّ أُخْيانى بقلبى ومهجتى
وأفضلُ أعمال الفتى ذكرُ ربِّه ... فكُنْ ذاكرا يذكرْك بارى البَرِيَّة
وما من حسامٍ للمريدين غَيرُهُ ... وكم حَسموا ظهرًا لزارٍ وباهتِ[4]
وكم بَدَّدوا شملا لذى جُرْءةٍ وكم ... أبادوا عدوًّا مسَّهم بِمضرَّةِ
وكم دافع الله الكريمُ بذكرهمْ ... عن الخلق من مكروهةٍ ومُبيرة[5]
وأفضلُ ذكرٍ دعوةُ الحيِّ فلتكن ... بها لَهِجًا فى كل وقتٍ وحالةِ
فكثرةُ ذكر الشىء آيةُ حبِّهِ ... وحَسْبُ الفتى تشريفُه بالمحبَّةِ

هو يقول إن شجاعتى ومنهاجى القويم فى الحياة وشريعتى ومنجاى فى الدارين من كل

(١) خلع العذار : أراد به الشاعر الانهماك فى الحب .
(٢) الأوار : حرارة العطش .
(٣) الشنار : العيب والقبيح والعار .
(٤) زار : عائب . باهت : متدهش .
(٥) مبيرة :فاسدة ، مهلكة .

فتنة كل ذلك فى محبة رب العالمين وإنى لأذكره فى كل حين بقلبى ومهجتى ، وهل فى الدنيا عمل أفضل من ذكر الإنسان لربه ، فاذكره دائما ، اذكرْ خالق الخلق ومنشئهم ، وهل للمريدين تلامذة المتصوفة حسام سواه ، وكم قضوا على زار هازىءٍ وباهت متعجب وكم بدَّدوا جمعا جريئا وكم أبادوا عدوا لهم حاول أن يؤذيهم ، وكم دفع الله الكريم بذكرهم له عن الخلق من مهالك . وإن أفضل ذكرٍ دعوة الله فكرِّرها فى كل وقت وإن كثرة ذكر الشىء لأكبر دليل على حبه ، وإن محبة الله لشرف للإنسان أى شرف . وله قصيدة صوفية ذاعت وشاعت فى الجزائر باسم المرادية ، وتسمى أيضا باللامية ، استهلها بقوله :

مُرادى من المولى وغايةُ آمالى ... دوامُ الرِّضا والعَفْوُ عن سوء حالى
وإسقاطُ تدبيرى وحولى وقوَّتى ... وصدقىَ فى الأحوال والفعل والقالِ

والتازى يقول إنه يطلب من ربه دوام الرضا والعفو ، وإنه ليأمل منه أن يسقط عنه التدبير شأن الصوفية العظام فلا يفكر فى شأن من أمور معاشه وحياته ، ولا حول ولا قوة حتى ولا صدق له فى حال ولا فى فعل أو قول . وقد شرحها محمد الصباغ القلعى فى القرن العاشر الهجرى بشرح سماه : « شفاء الغليل والفؤاد فى شرح النظم الشهير بالمراد » سماها المراد استكمالا للسجعة ولابن مريم عليها شرح كما ذكر فى ترجمته له . ومنها فى وصف المريد تلميذ الشيخ الصوفى وتابعه :

وغُنْمُ مريدٍ فى انقيادٍ لكاملٍ ... له خبرةٌ بالوقتِ والعلم والحالِ
هو السرُّ والإكسيرُ والكيميا لمن ... أراد وصولا أو بَغَى نَيْلَ آمالِ
وقد عَدِمَ الناسُ الشيوخَ بِقُطْرنا ... وآخرهم شيخى وموضعُ إجلالى
وقد قال لى : لم يبق شيخٌ بغَرْبنا ... وذا منذ أعوامٍ خلونَ وأحوالِ[1]
يشير إلى أهل الكمال كمثلهِ ... عليه من اللَّهِ الرِّضا ما تَلاَ تالى

وهو يجعل المريد كأنه آلة مسخرة فى يد شيخه الخبير بزمنه وبالعلم وبأحوال التصوف ، إذ ينقاد له بكليته ولا يخرج بأى صورة عن إرادته . ويعظِّم الشيخ الصوفى إذ يجعله السر الإلهى والإكسير والكيمياء اللذين يحوِّلان المعدن ذهبا ، وبيده الأصول ومفتاح كل الآمال . وكنا نؤثر أن يترفع الشيخ التازى عن مثل هذه الدعاوى فى شيوخ الصوفية ، التى جعلت الناس يبالغون فيهم ويقولون بالقطب وما إلى القطب من الأبدال ، بل لقد أعدَّ ذلك لظهور دجاجلة المتصوفة ومن يرتزقون باسم صوفى سنى كبير . والتازى يستمر فيقول إن الناس عدموا

(١) خلون : مضين . أحوال : سنوات .

فى الجزائر شيوخ المتصوفة الحقيقيين وآخرهم كان شيخه محمد بن عمر الهوارى الذى كان يقول له ذلك قاصدا به أهل الكمال من الصوفية أو الصوفية الحقيقيين .

٥

شعراء المدائح النبوية

يأخذ شعراء المدائح النبوية فى الكثرة بالجزائر والبلاد المغربية منذ القرن السابع الهجرى، وخاصة منذ النصف الثانى منه، وفى مقدمتهم محمد بن الحسن بن ميمون القلعى البجائى الذى أنشدنا له مقطوعة طريفة فى التصوف وكان يكثر من النظم فيه وفى المديح النبوى مثل قوله[1] :

أمن أجْـلِ أن باتـوا فؤادُك مُغْرَمُ ... وقلبُك خفَّـاقٌ ودَمْعُك يَسْجُـمُ[2]
ومـا ذاك إلا أنَّ جسمـك منجـدٌ ... وقلبُك مَعْ من سار فى الركب مُتْهِمُ[3]
ومـا ضرَّهم لـو ودَّعـوا يوم أودعوا ... فـؤادى بتذكـار الصَّبـابةِ يُضْرَم
وإنـى لأدعـو الله دعـوةَ مذنبٍ ... عسى أنظـرُ البيت العتيـق وألَثمُ
فيـا طـول شوقى للنبىِّ وصَحْبِهِ ... ويـا شَدَّ مـا يلقى الفـؤادُ ويكتُم
إليك رسـولَ الله أرفـعُ حاجتى ... فأنت شفيع الخلـق والخلـقُ هُيَّمُ[4]
وقد أثقلتْ ظهـرى ذنـوبٌ عظيمةٌ ... ولكـنَّ عفـو الله أعلى وأعظـمُ

وهو لايخفى صبابته بأصحابه الذين فارقه موكبهم العظيم إلى الحج وزيارة الأراضى المقدسة وقلبه يخفق ودمعه يسجم ، فقد أنجد جسمه وفارق قلبه متهما مع من يرودون تهامة إلى مكة والمدينة ، ويقول ما ضر رفاقى الذين ستكتحل عيونهم بنور هذه البقاع الطاهرة لو ودعونى يوم رحيلهم حين أودعوا فى فؤادى نار الصبابة مضطرمة ملتهبة ، وإنى لأدعو الله دعوة خاشع يل دعوة مذنب أن يتاح لنظرى أن يكتحل بنور البيت العتيق وأقبِّل الحجر الأسود كما قبله الرسول الكريم ، وما أشد شوقى للرسول وصحبه ، وما أشد ما يلقى فؤادى وأكظم . وإنى يا رسول الله أتمنى عليك أن تشفع لى كما تشفع لجميع الخلق يوم القيامة ، وهم جميعا عطاش عطشا شديدا والحر من الزحام آخذ بخناقهم ، وقد أثقلتْ ظهرى ذنوبى ، ولكن أملى فى عفو الله أكبر وأعظم . وكان عبد المنعم الغسانى فقيه مدينة الجزائر وأديبها وشاعرها فصاحةَ لسان وإحكامَ بيان وتولى القضاء فى بجاية مدة طويلة ، وتوفى فى عشر الثمانين وستمائة ، ومن نبوياته قوله[5] :

---

(١) عنوان الدراية ص ٧٠ .
(٢) يسجم : يسيل .
(٣) منجد : فى نجد . متهم : فى تهامة .
(٤) هيم : عطاش .
(٥) عنوان الدراية ص ١١٢ .

لكـــل نبيٍّ دعـــــوةٌ مُستجابةٌ ... وسَيِّدُهُمْ طُـــرًّا خبَاهَـا لأمَّتِهْ
إلى يـــومَ لا يُغْنى عن المرء منطقٌ ... فصيحٌ ولا يُدْلـــى البليغُ بحجتـــه
ويـــوم يفرّ المَرْءُ من ولـــدٍ له ... حبيبٍ ولا يُجْزَى أبٌ بأبوَتـــــه
وكـــل نبيٍّ يســألُ اللهَ نَفْسَـــهُ ... ويَضْرِبُ صَفْحًا عن سؤالٍ لأمَّته[1]
خـلا شافـع فينـا كريـــم مشفَّعٍ ... بـه يشملِ اللهُ العبـــادَ برحمتـه
فيـا ربَّه بَلِّـــغْ عُبَيْدَك قـــبره ... ليحظى بتقبيـــلٍ لطاهـــر تربتـه
وجـــازِهِ عنا بالذى أنت أهلُـــه ... أعـــزُّ الـــورى أنت الكفيلُ بمِنَّته

وهو يقول إن لكل نبى دعوة مستجابة ، وسيد الأنبياء جميعا محمد ﷺ خبأ دعوته إلى يوم القيامة الموصوف فى سورة عبس بقوله جل شأنه : إنه يوم الصاخة التى تصخ الآذان وتصمها ، فلا يستطيع أحد نطقا ولا كلاما (يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) وحتى الأنبياء يشغلون بأنفسهم عن أممهم إلا سيد الخلق جميعا رسول الأمة الإسلامية فيدعو الله متشفعا لأفرادها فى هذا اليوم يوم المحشر الرهيب ، ويقبل الله شفاعته ، ويشمل بها العباد برحمته . ويتوسل الشاعر إلى ربه أن يبلغه المدينة ليحظى بتقبيل قبره الطاهر ، ويسأله أن يجزيه عن أمته بما هو أهله ، إنه خير الورى وهو الكفيل بإعطائه ما يتكافأ مع حقه وجزائه . ونلتقى بإبراهيم[2] بن أبى بكر التلمسانى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ/١٢٩٨ م والذى افتتح به أبو القاسم الحفناوى كتابه : « تعريف الخلف » وله أمداح نبوية منها – كما ذكر من ترجموا له – المعشرات على أوزان العرب ، وكانت كل قافية تشتمل على عشرة أدوار ، وله مدحة فى المولد النبوى ، ولم يذكر من ترجموا له شيئا من شعره فى مدح الرسول ﷺ . ويلقانا بأخرة من القرن السابع ومطالع القرن الثامن محمد بن عبد الله بن محمد العطار وسنخصه بترجمة.

وكان المشرق قد استنَّ الاحتفال بالمولد النبوى فى ليلة الثانى عشر من ربيع الأول فى القرن الحادى عشر الميلادى بمصر أيام الفاطميين بطريقة رسمية ، وأول احتفال به بطريقة جماهيرية شعبية كان فى إربل لأوائل القرن الثانى عشر الميلادى إذ احتشد له الحاكم الأيوبى والعلماء والشعراء والمتصوفة من مختلف البلاد العراقية وذبحت فيه ذبائح كثيرة وطاف الناس ليلا فى مواكب بمشاعل متوهجة وشاع ذلك فى البلدان . ونقله أبو العباس[3] العزفى الشريف إلى سبتة مدينته ، وعنها شاع فى تلمسان وغيرها من البلاد المغربية . وكان الذى أشاعه فى

(١) يضرب صفحا : يعرض .
(٢) له ترجمة فى بغية الرواد ليحيى بن خلدون ١٠٩ والإحاطة ٣٢٦/١ والبستان ص ٥٥ وتعريف الخلف ١٣/١ .
(٣) أزهار الرياض ٣٩/١ .

تلمسان والجزائر وجعله تقليدا للدولة الزيانية أبا حمو موسى (٧٦٠ - ٧٩١هـ) . يقول أبو عبد الله التنسى فى كتابيه[١] : « راح الأرواح فيما قاله أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح » ونظم الدر والعقيان فى بيان شرف بنى زيان : إن أبا حمو موسى كان يقيم ليلة مولد المصطفى ﷺ ويدعو لها فى احتفال كبير يحشد فيه الناس خاصة وعامة ، وما شئت من نمارق (وسائد) مصفوفة ومجالس مبثوثة وبُسطٍ موشَّاة ، ووسائد بالذهب مغشَّاة ، وشمع كالأسطوانات وموائد كالهالات ، وتُفاض على الجميع أنواع الأطعمة ، رُتِّبَ فيها الناس على مراتبهم ، تطوف عليهم ولدان لبسوا أقبية الخزّ الملون ، بأيديهم مباخر ومرشات ، ينال كل منها بحظه . وبعقب ذلك يبدأ المنشدون بأمداح المصطفى ﷺ ، وبمكفِّرات ترغِّب فى الإقلاع عن الآثام ، يخرجون فى كل ذلك من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب . وبالقرب من السلطان خزانة المنجانة « الساعة الدقاقة » الموصوفة فى الحديث عن الرفه بفصل المجتمع ، وقد زُخرفت ، ولها أبواب مغلقة على عدد ساعات الليل الزمانية، وكلما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها ، ويفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وتبرز منه جارية بديعة وبيدها اليمنى رقعة تشتمل على نظم فيه تلك الساعة ، ونسوق ما تقوله بعد انقضاء ثلاث ساعات من الليل ، وجميع ما تقوله مديح فى أبى حمو[٢] :

أمولاى يا بن الملـــوك الألى ... لهم فى المعـــــالى سنىُّ الرُّتَبْ
تولَّتْ ثلاثٌ من الليل أُبْقَتْ ... لك الفخرَ فى عُجْمها والعرب
فدُمْ حُجَّـةَ الله فى أرضـــهِ ... تنـــالُ الذى شئته مـن أَرَب

ولايزالون فى هذا الحفل النبوى إلى انبلاج عمود الفجر ونداء المؤذن حيَّ على الفلاح يبشِّر بصلاة الصباح. وكانت كل ليلة فى المولد النبوى لكل عام تبدأ بمدحة نبوية، وتسمى المدحة فى مولده ﷺ مولدية نسبة إلى أنها نظمت فى مولده، ومن قول أبى حمو فى إحدى مولدياته[٣] :

حيـــاتى ومـــوتى فى هواكـــم وإننى ... أعلِّل نفسى فيكـــــمُ بالأمـــانىُّ
فيا أهل نجدٍ أنجدونى على الهـــوى ... فإنِّىَ فى بَحْرٍ من الشَّـــــوق لُجِّىُّ[٤]
مقيمٌ بأقصى الغرب أشكو به الجَوَى ... وحالى على حكم النَّـــوى غيرُ مخفىُّ

(١) أزهار الرياض ٢٤٣/١ ومابعدها وقارن بتاريخ بنى زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان لأبى عبدالله التنسى ص١٦٢.
(٢) انظر فى أبيات المنجانة طوال ساعات الليل أزهار الرياض ٢٤٦/١ .
(٣) تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان لأبى عبد الله التنسى ص١٦٦ .
(٤) لجى : متراكم الأمواج .

تناسيتـــمُ عهـدى وحفظَ مـودَّتى ... وحُبُّكُمُ فـى القلـــب لـيس بمنْسىْ
ومـا أرتجـى إلا شفاعـةَ خَيْرِ مَنْ ... أتى بالهُـدَى يهدى بدينٍ حَنيفىْ[1]
بهِ يَرْتجى العاصـــون غُفـران ذنبهم ... وما عملوا فى الدَّهر من عملٍ سَىٍّ[2]
بمولـده قد أشرق الكـــونُ كلُّه ... وكـــلُّ سَنَا شمسٍ وبَـــدْرٍ ودُرِّىٍّ

فحياة « أبو حمو » وموته فى هوى الرسول ﷺ ، وإن نفسه لتمتلىء إزاءه بما لا يحصى من الآمال ، ويستغيث بأهل نجد أن ينجدوه على الهوى فإنه غارق من الشوق فى بحر لجى كثير اللجج لا أول له ولا آخر ، مقيم بأقصى الغرب فى تلمسان يشكو الوجد ، وحاله من البعد غير خاف . وتنتابه لحظة شك ، فيقول : تناسيتم عهدى ومودتى ونار حبكم فى قلبى لا تخمد ولا تنطفىء ، وإن كلى رجاء أن يشفع لى خير مشفع أتى بالهدى وبدين حنيفى مستقيم لا عوج فيه ، وإن العاصين ليقفون ببابه آملين فى شفاعته وأن يغفر لهم ربهم ما اقترفوا من آثام أو أعمال بالغة السوء ، وإنه لنور الوجود فمنه أشرق الكون كله ، ومنه ضوء كل شمس وبدر وكوكب درىّ . وللثغرى مولدية فى نفس السنة التى قال فيها أبو حمو مولديته السالفة وفيها يقول[3] :

شمسُ الرِّسـالة والنبـوة والهـدى ... بدرُ الجلالـــة نـورُها المتجسِّمُ
هـو رحمـــةُ الله التى يهمى بهـا ... فى الخلق بالحـــق المبين ويحكم[4]
يا من لـــه قبـــل الـولادِ وبعده ... آيـــاتُ إرشادٍ لمـــن يتوسَّمُ[5]
أسْرَيت للسبع الطِّبـــاق فأقبلتْ ... أملاكُها طُـــرًّا عليك تسلِّـمُ
وتبرَّكتْ بصـلاتك الأرســالُ إذْ ... صلَّتْ وأنت إمامُهـــا المتقـدمُ
رُفِعَتْ لك الحجُبُ العظيمة فاعتلى ... بك للعُلَى ذاك المقـــامُ الأعظم
حتى سمعتَ صَرِيرَ أقـلامٍ بمـا ... فى اللَّوحِ محفوظـــا تَخُطُّ وتَرْسمُ
تلك المـراتبُ لـم يكن لينالهـــا ... إلا النبىُّ الهـــاشمىُّ الأكـــرم

والثغرى يقول إن الرسول شمس الرسالة الساطعة وبدر الجلالة المنير ونورها الدرىّ المتجسِّد ، إنه رحمة الله التى لا تزال تنصبّ فى الخلق بالحق وتحكم ، يا أيها الرسول العظيم الذى سبقته وجاءت معه آيات ومعجزات لمن يتوسم الخير ويأمله . وهل معجزة أعظم من معجزة المعراج واختراق السموات السبع والملائكة حافّون به يسلمون عليه ، وهبط إلى بيت المقدس فأمَّ به الرسل ، إنه إمامهم المقدم الأعظم ، ورفعت له الحجب حتى سمع صرير الأقلام وهى تكتب فى اللوح المحفوظ ما خُطَّ للناس ورسم لهم . وتلك المراتب العليا لم يكن ليظفر

(١) حنيفى : مستقيم لا عوج فيه
(٢) سىٍّ : سيىء وخفف للقافية .
(٣) انظر تاريخ بنى زيان ملوك تلمسان ص ١٧١ .
(٤) يهمى بها : يصبّ بها وينشر .
(٥) يتوسم : يتفرس ويتأمل .

بها أحد إلا النبى العربى الهاشمى العظيم. ويذكر لنا يحيى بن خلدون فى الجزء الثانى من كتابه بغية الرواد مولدية له ألقاها بين يدى أبى حموموسى سنة٧٧٨ وفيها يقول مادحا الرسول الكريم:

سيِّدُ العالمـــين دُنْيا وأُخْرَى ... أشرفُ الخَلْق فى العُلا والسماحِ
صفوة الخلق أَرْفَعُ الرُّسْلِ قَدْرًا ... وسراجُ الهدى وشمسُ الفـلاحِ
من رَقَى فى السَّماء سَبْعًا طباقًا ... ورأى آىَ ربِّه فى اتضـــاحِ[1]
ودنا منـــه قـــابَ قوْسَيْن قُرْبًا ... ظـافـــرا فى العلا بكل اقتراح
مَنْ يُجير الوَرَى غَدًا يوم يُجْزَى ... كلُّ عـاصٍ وطائـــعٍ باجْتراحِ[2]
مَنْ إلى حَوْضِه وظـــلُّ لِـــواهُ ... يلجـأ الناسُ بين ظامٍ وضاحِ[3]

ويحيى بن خلدون يقول إن الرسول سيد العالمين طرا دنيا وأخرى ، وأشرف الخلق وصفوتهم وأرفع الرسل قدرا ومنزلة عند ربه ، وسراج الهدى وشمس الفلاح ، من منحه الله معجزة المعراج الكبرى ، فصعد به سبع سموات طبقة بعد طبقة و (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) كما جاء فى سورة النجم ودنا منه أى من جبريل (قاب قوسين أو أدنى) أى قدر ذراعين تقريبا ظافرا من ربه بكل ما توسل به إليه ، منزلة لم يحظ بها رسول قبله . وحسبه من محبة الله له أنه سيكون المجير لا للطائعين فحسب بل أيضا للعصاة يوم الفزع الأكبر : يوم الحشر الموعود ، وسيقف على حوضه ويمتد عليه لواء معلم ويسقى منه أمته يوم القيامة . وعلى عادة أصحاب المولديات التى تلقى فى الاحتفالات الكبرى بليلة المولد النبوى يستطرد يحيى بن خلدون فى مولديته – كما استطرد الثغرى أيضا فى مولديته –لمديح أبى حمو موسى . وعادة يتقدم المديح النبوى فى المولدية نسيب يكتظ بالوجد والصبابة وأحيانا يمزج ببعض الوعظ .

وكانت المدائح النبوية لا تزال تنظم بجوار هذه المولديات ، واشتهر بالنظم فيها غير شاعر مثل عبد الله البسكرى الصوفى معاصر يحيى بن خلدون ، فهو من شعراء النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، وله فى مديح المدينة قوله[4] :

دارُ الحبيـــب أحقُّ أنْ تهواهـا ... وتَحِنَّ من طـربٍ إلى ذِكْراهـــا
وعلى الجفون متى هممـتَ بزَوْرةٍ ... يـا بنَ الكرام عليك أن تغشـاها
فـلأنـــتَ أنتَ إذا حـللتَ بِطَيْبَةٍ ... وظَلِلْتَ تَرْتَعُ فى ظلال رُباهـا[5]
معنى الجمـالِ مُنَى الخواطر والتى ... سلبتْ عقـــولَ العاشـقين حُلاها

(١) رقى : صعد . طباقا : طبقة فوق طبقة .
(٢) اجتراح : اكتساب السيئات والحسنات .
(٣) ظام : فى أشد العطش . ضاح : أصابته حرارة الشمس .
(٤) تعريف الخلف ٢/٢٤٠ .
(٥) طيبة : المدينة .

لا تَحْسَبِ المِسْكَ الذَّكِيَّ كَتُرْبِها هيهات! أين المسكُ من رَيَّاها[1]؟!
طابتْ فإن تَبْغِ التطيُّب يا فتى فأدِمْ على الساعاتِ لَثْمَ ثراها

والبسكرى يقول إن دار الحبيب أحق دار بأن تهواها ويملأك الحنين شوقا إلى ذكراها ومتى هممت بزيارة أصبح واجبا عليك أن تغشى تلك الدار وتكتحل جفونك بمرآها وما أعظمك إذا حللت بها وتنقلت فيها ، إنها معنى الجمال وبها جميع منى الخواطر ، وطالما سلبت حُلاها عقول عاشقيها الهائمين بها وجدا وصبابة . وإن ترابها ليفوق المسك العاطر وهيهات ؟ أين المسك من شذاها الطيب ، لقد طابت فإن تبغ التطيب والتعطر فأدم تقبيل ثراها الذكى العطر .

وتلقانا شروح كثيرة لبردة البوصيرى فى المديح النبوى ، من ذلك شرح لسعيد[2] العقبانى المتوفى سنة ٨١١ للهجرة وثلاثة[3] شروح لابن مرزوق الحفيد أكبر وأوسط وأصغر ، وسمى الأكبر إظهار صدق المودة فى شرح البردة ، وسمى الأصغر الاستيعاب لما فى البردة من البيان والإعراب ، وشرحَ قصيدة الشقراطسى التونسى النبوية بشرح سماه المفاتيح القرطاسية فى شرح الشقراطسية . ونلتقى بالشهاب بن الخلوف بأخرة من القرن التاسع الهجرى ، وله ديوان جميعه مديح نبوى ، ولم يُتَحْ لى أن أراه ، غير أن ديوانه الكبير المنشور بتونس به مجموعة من المدائح النبوية ، ونذكر منها توسلا بديعا بالرسول كى يغفر الله له ذنوبه ، وفيه يقول[4] :

يا أرحمَ الراحمين ارْحَمْ وجُدْ كرمًا فأنتَ أنتَ أمانُ الخائفِ الوَجِلِ
واغفرْ بطَّه ذنوبًا ليس يغفرُها إلاَّك يا غافر الأوزار والخطَلِ[5]
ونَجِّنى واعْفُ عنى وَأْتِنى مِنَحًا تنيلنى الفوزَ فى حِلٍّ ومُرْتَحَلِ
وصَلِّ ربِّ على المختار من مُضَرٍ خير النبيين والأملاك والرُّسُلِ
روحُ العوالم سرُّ الكون أجمعهِ إكْسيرُ كنزِ المعالى عِلَّةُ العللِ[6]
عليه صَلَّى إلهُ العَرْش ما اتضحتْ آياتُ شمس الضحى فى دارة الحَمَلِ[7]
وآلهِ الغُرِّ والأصحاب ما خطرتْ معاطفُ البان فى أثوابها الخُضُلِ[8]

وهو يدعو ربه أن يجود عليه بالرحمة ، فإنه أمان الخائف الفزع ، ويتوسل إليه بالرسول أن يغفر ذنوبه وآثامه ، وهل يغفرها سواه ؟ إنه الرحيم الغفار ، ويسأل رب العزة النجاة والفوز مقيما وراحلا ، كما يسأله أن يصلى على رسوله العربى خير النبيين والملائكة والرسل ، ويقول إنه روح الوجود وسر الكون ، وإكسير المعالى الذى يرفعها إلى الذرى وعلة العلل فى الوجود

(١) ريَّاها : رائحتها الذكية الطيبة .
(٢) البستان ص ١٠٦ .
(٣) البستان ص ٢١٠ .
(٤) الديوان ص ٦٦ .
(٥) الأوزار : الآثام .
(٦) الإكسير : مادة تحول المعدن ذهبا .
(٧) الدارة : الهالة . الحمل : برج الشهر الأول فى الربيع .
(٨) الخضل : الخضراء الندية .

جميعه . وهذا البيت يجمع كل ما قاله البوصيرى وغيره عن الحقيقة المحمدية وأنها سر الكون وعلته ، ومنها يستمد نوره وضياءه . ويقول صلّى عليه إله العرش طالما اتضحت شمس الضحى فى أزمنة الربيع أى طوال الدهر ، وصلى أيضا على آله الأشراف وأصحابه ما ظلت أغصان البان ريّانة ندية أى على مر الزمن .

ونمضى إلى العهد العثمانى ، وفيه يكثر المديح النبوى كثرة مفرطة حتى لينظم فيه كل شاعر مدحة أو أكثر ، وقد ينظم فيه ديوانا مثل عبد الكريم الفكون المتوفىّ سنة ١٠٧٣ هـ/١٦٦٢ م إذله ديوان فى المديح النبوى وقد رتبه على حروف المعجم ، وجعل مبدأ كل مجموعة من أبيات كل قافية حرفا من حروف : « اللهم اشفنى بجاه محمد آمين » وجملة حروف هذه الصيغة خمسة وعشرون حرفا ، فى كل حرف مثلها أبياتا ففى قافية الهمزة خمسة وعشرون بيتا ، وهكذا إلى آخر الحروف ، وانتهى الفكون من نظم الديوان سنة ١٠٣١ هـ/١٦٢١ م وكان قد أصيب بشلل فى هذه السنة ألزمه الفراش ، فشفاه الله منه ، وله قصائد مختلفة فى التوسل إلى ربه . وكان يعاصره سعيد المنداسى التلمسانى الذى ترجمنا له فى شعراء الهجاء وكان يجمع بين الشعر الشعبى والشعر الفصيح ، ونظم كثيرا من الشعر الأول ، واشتهر فيه بقصيدة نبوية فى نحو ثلاثمائة بيت سماها « العقيقة » وشاعت بين أهل الجزائر شيوعا كبيرا ، ولأبى راس عليها شرح سماه الدرة الأنيقة ، ويقال له عليها سبعة شروح ، ولكل شرح عنوانه الخاص . وفى الديوان الذى نشره له الأستاذ رابح بونار أربع قصائد نبوية ، وقد أنشدنا قطعة من غزل أولاها فى باب الغزل ، ومن قوله فى مديحها النبوى[1]

هـل رأيتـم أو سمعتـم حَسنـًا ... فى الورى من حُسْنه الحسنُ اكْتَمَلْ
أحمدُ المبعـوث فينا رحمـةً ... خَيْرُ من قـام بحـقٍّ وكَفَـلْ
آيـةُ الله أمـينٌ صـادقٌ ... وحبيبُ الله بـرٌّ مُنتَضـلْ[2]
قد تحلّـى – إذ تجلّـى – بَدْرُهُ ... بالبَها مـن ربِّـه عـزَّ وجَـلّ
فامتطـى مَتْنَ جـوادٍ للعـلا ... خافـقٍ كالبَرْق للوصـل رَفَلْ[3]
أمَّ رُسْـلَ اللهِ ليـلاً وارْتقى ... للمنى يطـوى من السَّاحِ الكِلَلْ[4]
آدمُ المبـرور صلَّى خلفَـهُ ... وأولـو العـزم مصـابيحُ المِلَلْ
قد رأى من ربِّـه مـالا رأى ... قبلـه طَـرْفُ نَبِىٍّ مُرْتَسَـل

والمنداسى يقول : هل رأيتم أو سمعتم حسنا فى الورى ، كل حسن يستمد من أشعته النورانية ؟ إنه أحمد المبعوث رحمة هدية للعالمين ، أعظمُ من رعى الحقوق وأداها ، آيةُ الله الأمين

(١) ديوان سعيد المنداسى تحقيق الأستاذ رابح بونار ص٤٠.
(٢) منتضل : شجاع .
(٣) رفل : زها وتبختر فى سيره
(٤) الساح : يريد السموات . الكلل : يريد الطباق .

الصادق وحبيبه البر المجاهد فى سبيله ، وقد حفَّه الله بهالة من البهاء ، فسخَّر البُراق له يعرج به إلى السموات السبع ، وأمَّ الرسل ليلا تكريما له . ويفيض سعيد المنداسى فى بيان معجزاته ، ثم يعود إلى معجزة المعراج ويقول إن الله خص به رسولنا من دون الرسل جميعا تكريما لا يماثله تكريم . ويتحدث المنداسى عن مولد الرسول فى مدحة نبوية ثانية قائلا[1] :

طَهَ الأمـــين الذى تُرْجى شفاعتهُ ... يومَ التلاقى وطىُّ الخلـق منشـورُ[2]
مَنْ سَبَق الرُّسْلَ عند الله فى أزَلٍ ... فَضْلا وللخلق بعد الرسْـــل تأخـير
وانقضَّ إيـــوانُ كسرى عند مولدهِ ... وغابَ من نارِ وَسْطِ الفُرْس تسعير[3]
وجَلَّل الأفْقَ منه النـــورُ فى سحَرٍ ... كأنَّ فى الفَجْر هَدْىُ الصبح منحورُ[4]
وفى السمـاء خيول الشُّهْبِ راكضةٌ ... كأنها فى وغى الجـــو الزنـابيرُ[5]
وفى المنازل تحت العرش إذ علمتْ ... بمـولد المصطفى الولـدان والحـورُ
تزينتْ وازدهـتْ وساغ مَشْرَبُهـا ... وطرَّبتْها من الطـــير الزمـــامير[6]
حول الخيـام الغصونُ اللُّدْنُ ساجدةٌ ... وللمـــلائك تهليـــــلٌ وتكبـير

وهو يقول إن طه الرسول الأمين الذى تُرجّى شفاعته يوم الحشر الأكبر يوم كل إنسان يرى عمله المطوى منشورا تحت بصره . قد سبق الرسل فى الخلق والقدم الأزلى كما أن الرسل سابقون فيه بقية الخلق . ولقد حدثت معجزات شتى يوم مولده ، فقد انقض إيوان كسرى وانطفأت نار الفرس المجوس بعد أن ظلت مشتعلة متوهجة قرونا ، وعم الأفق منه نور فى السحر ، حتى ظُن أن هَدْى الإبل وغيرها إلى الكعبة ذبح فى فجر هذا النور استبشارا به . أما فى السماء فإن الشهب – ملأتها – زنابير . ويقول إن الولدان والحور العين فرحت بمولد الرسول وتزينت واستلأت زهوا وسرورا وغنتها الطيور بمختلف الأغانى ، وحتى الغصون اللينة الناعمة حول الخيام سجدت لربها شكرًا . وهللت الملائكة وكبرت تكبيرا .

وينقل أبو القاسم الحفناوى فى كتابه تعريف الخلف عن أحمد[7] بن عمار بترجمته أن مجلّى حلبة المولديات ومقدَّم الجماعة فيها وإمام الصناعة وركاب صعابها ومذللها عاشق الجناب المحمدى ومادحه بلا معارض ، ومثلّث طريقتى البوصيرى وابن الفارض ، الشيخ أبو العباس أحمد المانجلاتى ، أتحفه الله بمنفهق رضوانه ، وألحفه مطارف (حلل) التكريم فى

(١) ديوان سعيد المنداسى التلمسانى ص ٦٩ .
(٢) طى للخلق : الكتاب الذى كان مطويا عن الخلق .
(٣) تسعير : اشتعال وتوهج .
(٤) الهدى : ما يضحى به من الإبل وغيرها نسكا .
(٥) الزنابير جمع زنبور : حشرة تلسع .
(٦) الزمامير : يريد أصوات الطير وألحانها .
(٧) انظر تعريف الخلف ٨٩/٢ .

أعالى جنانه ، ويقول الحفناوى أثبتّ من مولدياته ما يطرب ويروق ، ويبهر الشمس عند الشروق ، فمن ذلك قوله من موشحه[1] :

باللهِ حادى القِطارْ قِفْ لى بتلك الديارْ واقْرَ السَّلامْ
سَلِّم على عُرْب نَجدِ واذكُرْ صبابةَ وَجْدِى كيف يُلامْ
مَنْ بادرتْه الدُّموعْ شوقًا لتلك الربوعْ مع المقامْ

وهو ينادى بالله على حادى القطار أى القافلة أن يقف بديار الحبيب ويقرئه السلام ، ويسلم على عرب نجد ، أصحاب الصبابة والوجد ، ويتساءل كيف يلام من ابتدرته الدموع شوقا لتلك الربوع وساكنها ومقامه العظيم . والمانجلاتى من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى وذكر ابن عمار أنه كان له ديوان نبوى جميعه قصائد مولدية تُزرى بالأزهار الندية ، ويقول : وجاء مصليا خلفه (تالياله) سحبان البلاغة وقُسُّ البراعة شيخنا أبو عبد الله محمد بن محمد المشهور باسم ابن على . وأنشد له موشحًا نبويًا على غرار موشح المانجلاتى وفيه يقول :

باللهِ طاوى القفارْ عرِّج بذاك المزارْ حيث الكرامْ
عرِّجْ برَبْع المعالْ وابرد بذاك الوِصالْ حَرَّ الغرامْ
حسب المشوق الكئيبْ أنْ شَمْلُه بالحبيبْ له التئامْ
نَأتْ علينا الديارْ وفى الفؤادِ جِمارْ لها انْضِرامْ

وابن على يقول : بالله يا قاطع القفار عرِّج نحو مزار الأحبة الكرام ، عرج نحو منزل المعالى وبَرِّد بهذا الوصال النار المضطربة فى الفؤاد وحسبى أن اجتمع شملى بالحبيب . ولقد بعدت عنا الديار ، وفى الفؤاد قطع من الوجد الملتهب تضطرم نارا حامية . ولأحمد بن عمار نفسه فى موشحة :

يا نسيما بات من زهر الرُّبى يقتفى الركبانْ
احملنْ منى سلامًا طيِّبًا لأُهَيْل البان
اقرأنْ منى سلاما عَبِقًا إن بدت نَجْدُ
إن لى قلبًا إليها شيِّقًا شَفَّه وَجْدُ

وموشحته يهبط أسلوبها درجة عن الموشحتين السابقتين ، ومع ذلك كان يعد من كبار الشعراء فى القرن الثانى عشر الهجرى ، وله شعر كثير فى الوصف وغيره من الموضوعات ، ويقال كان له ديوان فى المديح النبوى ، يشتمل على منظومات من القصائد والموشحات . ونتحدث الآن عن أبى عبد الله محمد بن عبد الله العطار أهم شعراء المديح النبوى الجزائريين .

---

(١) انظر فى المقطوعة التالية وتاليتها تعريف الخلف ٩٠/٢ وما بعدها .

محمد[1] بن عبد الله العطار

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن العطار ، هكذا نقلا عنه فى آخر ديوانه النبوى الذى سماه : « نظم الدرر فى مدح سيد البشر » وسماه أيضا : « الورد العذب المعين فى مولد سيد الخلق أجمعين » والاسم الأول هو الذى اشتهر به الديوان لأنه أخف وأطرف ، وجاء فى ختامه : « كان الفراغ منه ضحوة يوم الجمعة الثانى من شعبان سنة ست وتسعين وستمائة ما عدا أربع قصائد ، فإنها تقدمت على إنشائه أودعتها فيه ، وذلك بمدينة الجزائر ، جزائر بنى مزغنة من أقصى إفريقية من أرض مَتيجة » . ومتيجة هى الإقليم الذى تقع فيه مدينة الجزائر . وبذلك يكون قد فرغ من نظم هذا الديوان النفيس بمدينة الجزائر سنة ٦٩٦ هـ/١٢٩٧ م ويقول المقرى : « ليس هو بابن العطار المشرقى الذى كان معاصرا لابن حجة الحموى [المتوفى سنة ٨٣٧ هـ/١٤٣٣ م] فإن ذلك متأخر عن هذا .. وهذا مغربى وذلك مشرقى فلم يتفقا لا فى زمان ولا فى مكان سوى فى اشتراكهما بابن العطار » . ويذكر المقرى – وتبعه فى ذلك الحفناوى – أن محمد بن أحمد بن الأمين الأقشهرى روى الديوان عن ناظمه ابن العطار وأنه قرأه عليه قراءة ضبط وتصحيح ورواية مقابلة بأصله بموضع الحكم فى مدينة الجزائر فى ذى القعدة أواخر عام سبعة وسبعمائه . ويدل هذا النص على أن ابن العطار كان فى سنة ٧٠٧ هـ/١٣٠٨ م قاضيا بمدينة الجزائر . وقد اطلع المقرى على ديوانه ، وجاءنا منه ببعض روائعه ، بادئا بتسديس ، وقوافيه تكون عادة بعدد الحروف الهجائية ، ولكل حرف أربع شطور ، يليهما شطران ينتهيان بحرف يُلتزم فيهما بكل دور كقوله فى تسديس له[2] :

صَلُّوا على البَدْرِ المنيرِ الأكمـلِ ... صَلُّوا على الرَّوْض البهىِّ الأجْمَلِ
صلوا على الهادى النبىِّ الأَحْفَلِ ... المصطفى الأرقى لأنزه محفِلِ
فيـه تقدَّم وحـده تقديمـا ... صَلُّوا عليـه وسلِّمـوا تسليما

وهو يقول صلوا على البدر المنير الكامل والروض البهىِّ العاطر الهادى لأمته الحانى عليها والمحتفى بهداها ، المصطفى الذى صعد به ربه لأنزه وأروع مقام ـ تقدم فيه وحده دون الرسل جميعا يناجى وبه ، صلُّوا عليه وسلِّموا تسليما . والشطر الأخير يكرر فى كل دور مع شطر منته بالميم محدثا رنينًا صوتيًّا بديعًا للتسديس . ويذكر المقرى للعطار تسديسًا ثانيًا ، نذكر منه هذا الدور :

---

(١) انظر فى ترجمة العطار نفح الطيب للمقرى (طبعة د. إحسان عباس) ٤٨٠/٧ وما بعدها وكتاب تعريف الخلف لأبى القاسم الحفناوى ٥٥٠/٢ .

(٢) نفس المرجعين السابقين .

صَلُّوا على مَنْ قد تنامى فَخْرُهُ صَلُّوا على من قد تعاظم قَدْرُهُ
صَلُّوا على مَنْ قد تأرَّج نَشْرُهُ صَلُّوا على مَنْ قد تناسق دُرُّهُ
عَقَد السَّنَاءُ لمجده إكْليلا صلوا عليه بُكْرَةً وأصيلا

وهو يقول صلوا على من فخره لا يقف عند حد بل كل يوم فى نمو وازدياد لمحبة الخلق له ومحبة ربه . صلوا على من يتعاظم قدره عند الناس وعند الذات العلية . صلوا على من عطره يفوح من كل جانب ، ومَنْ لآلىء تعاليمه تطرد لأتباعه فى أنساق محكمة ، وقد عقد له الشرف والمجد تاجًا عظيمًا ، صلوا عليه بكرة وأصيلا . ويختم بهذا الشطر كل دور مع شطر لامى قبله . ويبثُّ العطار فى قصيدة له حنينا ظامئا إلى زيارة يثرب والرسول الكريم منشدا :

أهدتْ لنا طيبَ الروائحِ يَثْرِبُ فهبوبُها عند التنسُّم يُطْرِبُ
رقَّت فرقَّ من الصبابة والأسى قلبٌ بنيران البِعاد يعذَّبُ
شَوْقًا إلى أسْنَى نَبِيٍّ حبُّه يحلو على مَرِّ الزمان ويعذبُ
فُزْنا به بين الأنام بديمةٍ أبدا علينا بالأمانى تَسْكُبُ
حاز السيادةَ والكمال محمَّدٌ فإليه أشتاتُ المحامد تُنْسَبُ
محبوبُنا ونبيُّنا وشفيعُنا يُدْنى إلى وِرْد الرضا ويقرَّب
إن طابت الأنفاسُ من زهر الرُّبى رَيَّاه أذكى فى النفوس وأطيب

والعطار يقول إن يثرب أهدت لنا مع الرياح طيبا ، واختلاطها فى هبوبها بالأرج يملأ قلوبنا طربا ، ويقول إنها رقَّت ورق معها قلبى المعذب بالصبابة والوله شوقا إلى أعظم نبى حبه دائما عذب مستحب مهما كان الزمان مُرًّا كريها ، ويقول إننا فزنا منه بسحابة لا تزال تسكب علينا بكل ما نريد من الأمانى . وقد حاز السيادة والكمال ، إنه محبوبنا ونبينا وشفيعنا يوم الفزع الأكبر ، وإن حبه ليدنى من رضا الله ، وحسبك بذلك نعمة كبرى . ويقول إن أريج زهر الربى لا يقاس فى شىء إلى شذاه العطر ، إنه أذكى فى النفوس وأطيب فى القلوب . ومن قوله متشوقا إلى طيبة وزيارة الرسول الكريم :

أبدا تَشُوقُك أو تروقُك يثربُ فإلى متى يُقْصيك عنها المغربُ
هى جَنَّةٌ فى النَّفْس يعذبُ ذكْرُها والقرب منها والتدانى أعذب
والشَّوْقُ يثنينا إليها كلما وقف الحمام على الأراكة يخطبُ
يا حبَّذا فى رَبْع طَيْبَةَ وقفةٌ بين الركائب والمدامع تُسْكَبُ
حتى يرقَّ للوعتى وصبابتى ودموع عينى كلُّ من يتغرَّبُ
شوقًا لمن زانَ الوجودَ وحبُّه يدنى إلى ربٍّ الرِّضا ويقرِّبُ
خيرُ الورَى محبوبنا ونبيُّنا حزنا به الجاه الذى لا يُسْلب

فدائما تشوق العطارَ يثرب ودائما يقصيه عنها المغرب ، إنها الجنة التى يحلو له ذكرها ، والقرب منها والدنو أكثر حلاوة وعذوبة . وإنه ليحن إليها كلما سمع الحمام يشدو ويترنم على أغصان الأراك والأشجار . ويتمنى وقفة فى ربع الأحبة ودموعه تهطل صبًّا ملتاعا حتى ليعطف عليه المحبون مثله ، شوقا للرسول الكريم الذى زان الوجود بطلعته السنية ، والذى يدنى حبه من رضا رب العباد ، خير الورى ، محبوب أمته ، ونبيها الذى حازت به جاهها ومكانتها العالمية . ويشيد بالرسول ويحمِّل السلام إليه من يزورونه من جيرانه وصحبه ، منشدا :

أسْنَى النبيِّين قَدْرًا نـــورُهُ أبدا ... يزيد حُسْنًا على الأقمـار باهرُهُ
وأفضلُ الخلق من عُرْبٍ ومن عجمٍ ... أربتْ على الرَّمْل أضعافا مآثـره
رَوْضٌ من الحلم غَضٌّ رَاقَ منظرُه ... بحرٌ من العلم عذبٌ فاض زاخره
إن جادَ صاحِ بلقياه الزمانُ فمِلْ ... إلى مقـام حبيبٍ أنت زائـرُهُ
وصِفْ له حال صَبٍّ مُغْرَمٍ دَنِفٍ ... رام الدنـوَّ فأقصتْـه جرائرُهُ[1]
واذْكرْ هناك بعيدَ الـدار غربَتَهُ ... غَرْبٌ فما غائبٌ من أنت ذاكره
أُهْدِى السلامَ بلا حَـدٍّ ولا أمـدٍ ... إلى محـلٍّ رسـولُ الله عامـرُهُ

وهو يصف الرسول بأنه أعظم النبيين قدرا ، ونوره يزيد حسنا على نور الأقمار حين تكون بدورا كاملة ، وهو أفضل الخلق عامة من عرب ومن عجم ، ومآثره أضعاف الرمل إحصاء وعدًّا ، وإنه لروض زاه من الحلم يروق منظره ، وبحر عذب من العلم يفيض زاخره . ويتجه إلى بعض من أسعدته الظروف بالرحلة إلى زيارته ، فيطلب إليه أن يصف له صبابته بزيارته وغرامه ، وكيف حاول الاقتراب منه وأبعدته ذنوبه ، ويقول له اذكر حال بعيد الدار عاجز عن الوصول إليه . وإنه ليهدى السلام إلى يثرب بلا حد ولا غاية ولا نهاية . ويتخيل نفسه وقد اكتحلت عيناه بطيبة وترابها ، فينشد مبتهجا :

ولمـا بدتْ أعلام طَيْبَةَ قصَّرتْ ... من الشـوق ما قد طوَّلته السباسِبُ[2]
وقفنا وسلَّمنا وفاضتْ دموعُنا ... وحنَّت إلى ذاك الجَنـابِ الـركائبُ
نزلنـا وقبَّلنـا مـن الشـوق تُربَها ... وطـابتْ بذاك التُّربِ منـا التَّرائبُ[3]
فللعـين من تلك المعـاهد نزهـةٌ ... وللقلب فى تلك الرسـوم مآربُ
حَوَتْ سَيِّد الرُّسْل الذى جَلَّ قدرهُ ... له فى مقام القرب تُقْضَى المطالبُ
ترقىَّ إلى السَّبْع الطبـاق وما بـدا ... له فى ترقِّيه من الحُجْـب حاجبُ

(١) مغرم دنف : أشفى على الهلاك . جرائره : ذنوبه .
(٢) السباسب جمع سبسب : المفازة والفلاة .
(٣) الترائب : عظام الصدر .

لقد أشرقتْ شمسُ النهـــار بنورهِ وبدرُ الدُّجَى لمـا بدا والكـواكبُ
أعلِّل قلبـى بالوصـــــولِ لقبـرهِ وإنْ غبتُ ما قلبى – وحقِّك – غائبُ
وإنى أُناديـــــه وإن كنتُ نازحـــًا نـداءَ غـريبٍ غرَّبتـــه المغـــاربُ

والعطار يقول إنه حين بدت علامات طيبة أى المدينة قصَّرت خطا الشوق التى كانت قد طوَّلتها مفازات الطريق فى إفريقيا وجزيرة العرب ، وما أعظم فرحته – كما يقول – فقد وقفوا وسلموا على ربوع طيبة أو ربوع الحبيب ، وحنت معهم الركائب لهذه المنازل . ويقول إنهم نزلوا وقبَّلوا تراب طيبة العطر وطابت به صدورهم وأفئدتهم ، ونَعِمَت العيون بمشاهد تلك المعاهد ونعمت القلوب ، إذ حوت تلك المعاهد سيد الرسل الذى تجاب عنده المطالب ، والذى صعد به جبريل إلى السموات السبع طبقة بعد طبقة ورُفعت من دونه الحجب . وإنه لنور خالص ، نور أزلى ، ومن نوره تستمد الشمس والقمر والكواكب . وكأنما يفيق العطار من حلمه ، فيرى نفسه لا يزال فى مدينة الجزائر لم يبرحها ، ويقول إنه يمنِّى نفسه بزيارة الرسول ، وإن غبت عنه فإن قلبى ليس غائبا ، وإنى أناديه ، وسأظل أناديه نداء غريب ظامىء أشد الظمأ لرؤية قبره العطر الشريف .

الفصل السادس

النثر وكتّابه

١

الخطب والوصايا

طبيعى أن تكثر الخطب والوصايا مع الدولة الرستمية منذ تأسيسها سنة ١٦٠ هـ/٧٧٦ م إلى انتهاء مدة حكمها سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٨ م إذ كانت دولة إباضية ، وكان أئمتها لايزالون يدعون رعيتهم فى محيطها بتاهرت وخارج محيطها إلى امتثال دعوتهم مع تقوى الله وخشيته والقيام بفروضه الدينية ، وقد يطلبون إليهم فى بعض خطبهم طاعة من يولونهم عليهم من ولاتهم ، كما يلقانا عند إمامهم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١٧١ - ٢١١ هـ) حين ولّى على تاهرت فى غيبته عنها السمح بن أبى الخطاب نائبا عنه ، فقد جمع زعماء تاهرت وأهلها وخطبهم قائلا[١] :

« قد علمتم - معشر المسلمين - أن السمح وزيرى وأخص الناس بى وأحبهم إلىّ وأنصحهم لدولتى وأنى لا أصبر على فراقه ، وقد آثرتكم على نفسى ، تتميما لرغبتكم ، وها أنذا قد وليته عليكم فأحسنوا الطاعة والانقياد لأمره ما سار فيكم سيرة المسلمين ، ولم يحد عن جادّة العدل والإنصاف ، ولم يرتكب ما يؤذن بسخط الرب أو بمخالفتنا » .

وهذا المأثور من الخطبة ليس فيه تكلف لضروب السجع ولا لألوان البديع ، وهو بلغة جزلة مقبولة كلغة الخطب فى الصدر الإسلامى الأول . وعلى شاكلة هذه الخطبة كانت الوصايا فى أيام هذه الدولة كوصية عبدالله اللواتى وزير أفلح بن عبد الوهاب (٢١١ - ٢٤٠هـ) وهى تطرد على هذه الصورة[٢] :

« إنى موصيكم إخوانى ونفسى بتقوى الله العظيم فى السر والإعلان ، وباتباع آثار أهل دعوة المسلمين ، فإن الاتباع أولى من الابتداع وعليكم بالائتمار لما أمر الله به من طاعته ، والانتهاء عما نهى عنه من معصيته ، فاقتفوا آثار المسلمين فإن الله أوعد بالنار من خالفهم ، كما أوعد بها من خالفه وخالف رسوله ، إذ قال تبارك وتعالى : ﴿ومَنْ يُشاقق الرسولَ من بعد

(١) انظر المغرب العربى : تاريخه وثقافته للأستاذ راج بونارص ٥٥ .

(٢) النشاط الثقافى فى ليبيا للدكتور أحمد مختار عمر ص ١٨١ .

ما تبين له الهدى ويتبعْ غير سبيل المؤمنين نُوَلِّه ما تولَّى ونُصْله جهنَّم وساءت مصيرا﴾ . فاتقوا الله إخوانى واحذروا مخالفة آثار أئمتكم فى القليل والجليل .. وعليكم بالحذر من الانهماك فى الشر والخلاف بعد الزجر عنه فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك وغضب منه وقال : أمنهمكون أنتم فيها (أى الدنيا) بعد ماجئتكم بها (أى الرسالة) بيضاء نقية حنيفية سمحة سهلة » .

وهو يوصى بالتقوى واتباع أهل الدعوة من أئمة الإباضية ، فإن الاتباع كما يقول أولى من الابتداع ، ولغته رصينة قوية ، يحتج بالقرآن والحديث النيوى ملوحا بهما من بعيد على صحة معتقده . ويذكر صاحب الأزهار الرياضية عظة عامة للإمام أبى اليقظان محمد بن أفلح بن عبد الوهاب (٢٤١ – ٢٨١ هـ) وجَّهها إلى جميع رعاياه فى تاهرت وجبل نفوسة ، وفيها يقول[1] :

« إن أفضل ما تتواصى به العباد ويتحاضُّون عليه تقوى الله ولزوم طاعته ، والزَّجْر عن معصيته ، والترغيب فيما يورث الثواب من القول الطيب والعمل الصالح . وعليكم معاشر المسلمين بالتهيئ للقدوم على الله والتأهب والاستعداد ليوم تشخصُ فيه الأبصار وتتغير فيه الألوان ، ويشيب فيه الولدان ، و ﴿تذهل كلُّ مرضعةٍ عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سُكارى وما هم بسُكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ . واعلموا – رحكم الله – أن أهل العلم القائمين بهذه الدعوة قد انقرضوا وقلَّت الخلوف منهم ، فرحم الله امرءًا مسلما احتسب نفسه ، وأرصدها لله فى طلب العلم والنقض على من ضادَّ الله وعدل عن منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم وضادَّ المحققين من عباده ، حتى تكون كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم هى العليا والباطل زهوقا . وعليكم معاشر المسلمين اتباع الماضين من أسلافكم والمتقدمين من أئمتكم الصالحين من أهل دعوتكم ، فاقتفوا آثارهم ، واهتدوا بهداهم ، واحذرو الزيغ عن طريقهم والميل عن مناهجم » .

وواضح أن الإمام أبا اليقظان محمد بن أفلح يدعو فى عظته صراحة أهل دعوته من الإباضية أن يرصدوا انفسهم ويحتسبوها للدفاع عنها ، ضد خصومها الذين عدلوا فى رأيه عن منهاج رسول الله ومنهاج أهل الحق من أئمتهم ، ويدعوهم إلى اتباع ما تواضع عليه هؤلاء الأئمة من مبادىء آمنوا بها مخالفين الجماعة . ولابنه أبى حاتم يوسف (٢٨١ – ٢٩٤ هـ) عظة بديعة كان يخطب بها الخوارج الإباضية فى عهده أيام الجمعة وفيها يقول[2] :

(١) الأزهار الرياضية للبارونى ص ٢٤٠ . عمر ص ١٧٩ .

(٢) النشـاط الثقـافى فى ليبيـا للدكتور أحمـد مختار

« الحمدلله الذى ابتدأ الخلق بنعمائه ، وتغمَّدهم جميعا بحسن بلائه ، لا يشتمل عليه زمان ولا يحيط به مكان ، خلق الأماكن والأزمان ﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوْعًا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾ فقدَّرها أحسن تقدير ، واخترعها من غير نظير ، لم يرفعها بأعمدةٍ تُدْرَكُ بالمعاينة ، ولم يستعن عليها بأحد استكبارا عن الشركة والمعاونة ، وزيَّنها للناظرين ، وجعل فيها رجوما للشياطين (فتبارك الله أحسنُ الخالقين) جعل القرآن إمامًا للمتقين ، وهدى للمؤمنين ، وملجأ للمتنازعين ، وحكما بين المتخالفين ، ودعا أولياءه المؤمنين إلى اتباع تنزيله ، وأمرهم عند التنازع فى تأويله بالرجوع إلى قول رسوله ، فقال الله عز وجَلَّ : ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ .

وهذه الخطبة أو العظة تصور نهاية تطور كبير حدث فى كتابة النثر الأدبى ، فقد بدأ بسيطا عند الإمام أبى اليقظان محمد بن أفلح ، واتسع هذا الرقى عند ابنه الإمام أبى حاتم يوسف لا من حيث انتخاب الألفاظ فحسب ، بل أيضا من حيث ما يشيع فيها من السجع ومن التوازن فى العبارات والمقابلات الدقيقة . وتمضى بجاية وشرقى الجزائر فى عصر الحماديين والموحدين ثم الحفصيين بالعناية فى الخطابة والعظات ، وتتردد فى الكتب أسماء خطباء فى الجامع الأعظم ببجاية أو بقسنطينة ولكن الكتب لا تحفظ حتى بشظايا من خطبهم ، سوى أن يقال مثلا إن فلانا ولى خطابة الجامع الأعظم ببجاية أو جامع القصبة بها أو جامع الموحدين وكان فصيح القلم واللسان . ويكتفون بذلك دون أن يذكروا شيئا من خطبه الفصيحة أو البليغة ، أو يقولون مثلا إن أبا تمام الواعظ الوهرانى سكن بجاية واشتغل فيها بالتذكير واستدعاء الخلق لباب الله تعالى ، ولا تذكر لنا كلمة من مواعظه . ويمكن أن نجد صورا من العظات فى نثر الأذكار والأوراد التى كان يرددها المتصوفة عقب الصلوات ، ونقتطف كلمات مما كان يردده على بن أحمد الحرالى عقب صلاة الصبح إذ كان يجلس فى مصلاّه متربعا ويردد بعض أقوال له منها[1] :

« سبحان من سبقت رحمته غضبه ، سبحان من لا منجى ولا ملجأ إلا إليه ، يا مثبِّت القلوب ثبِّت قلبى . العقل أصل دينى ، الحب أساسى ، ذكر الله أنسى ، الثقة كنزى ، العلم سراجى ، الصبر ردائى ، الرضا غنيمتى ، الزهد حرفتى ، اليقين قوتى ، الطاعة حسبى ، الجهاد خلقى ، قرة عينى فى الصلاة » .

والمئات بل الآلاف من مواعظ الخطباء والأوراد والأذكار كانت تقرع أسماع الناس كل يوم فى بجاية وقسنطينة وغيرهما من بلاد الجزائر . وكان النساك وأهل الصلاح يكتبون أحيانا

---

(١) عنوان الدراية ص ١٥٢ .

وصية لربهم أن يرعى ذريتهم وأهليهم وما استودعوه من أموالهم صيانة للورثة والمال، من ذلك وصية رواها صاحب عنوان الدراية لابن نعيم الحَضْرميّ المتوفى بقسنطينة سنة٦٣٦ وفيها يقول[1]:

« هذا ما أودع العبد الله الذى خلق الأشياء ، ورزق الأحياء ، وملك العالمين ، وحفظ السموات والأرضين ، أودعه جميع ولد أبيه وأهله وأهل أخيه وجميع ما خوَّلهم من نعمه ظاهرا وباطنا ، وصيَّر ذلك إلى أمانته ، وأسلمه إلى رعايته ، واستحفظه فى ذلك كله ، وتبرَّأ إليه من حوله وقوته ، ولم يرج سوى فضله وطَوْله (أفضاله) هو الحفيظ الذى لا يهمل ، الوكيل الذى لايغفل ، الجواد الذى لايبخل ، الأول الذى ينعم ويتطول ، والأخير الذى لايزال ولا يتحول » .

وألفاظ الوصية مثل ألفاظ الحرالى ألفاظ منتخبة مصفَّاة ، وقد يجىء فيها السجع عفوا دون قصد ، وهى تدل على أن النثر كان قد أخذ يتطور ، وأخذ أصحابه يعنون بالملاءمة بين اللفظة واللفظة إرضاء للسمع وإمتاعا للسامع بما يسمع أو يقرأ من الكلم .

وإذا تركنا بجاية والقسم الشرقى من الجزائر إلى قسمها الغربى وتلمسان خاصة رأينا صاحب بغية الرواد يسوق فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد بجزئها الأول طائفة من مشاهير خطبائها ووعاظها مثل أبى عبدالله محمد بن أحمد الحجام المار ذكره بين شعراء المتصوفة والمتوفى سنة ٦١٤ ويسميه يحيى بن خلدون فى البغية : واعظ أهل زمانه ، ويذكر له – كما مر بنا – كتابا فى الوعظ اسمه « حجة الحافظين ومحجة الواعظين » . ومن كبار الخطباء الوعاظ الذين يذكرهم صاحب بغية الرواد عبد الرحيم بن أبى العيش الخزرجى المترجم لأبيه بين شعراء الصوفية ، وكان خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وإمامه ، وكان يعاصره أبو محمد عبد الله المجاصى المتوفى سنة ٦٤١ هـ/١٢٤٣ م وكان كثير البكاء فى وعظه حتى اشتهر بذلك ، وكان لا يرفع طرفه إلى السماء حياء من الله تعالى وخشية منه ، وكانت له مواعظ قيمة . ومن الوعاظ بعده سعيد العقبانى المتوفى سنة ٨١١ هـ/١٤٠٨ م خطيب الجامع الأعظم بتلسمان . ونقرأ أخبارا عن روعة مواعظ هؤلاء الخطباء وأن منهم من كانت تقشعر من وعظه الجلود لما يعرض له من عذاب الآخرة وكأنه يرى الجحيم تحت بصره ، ومنهم من كان يبكى مامعيه بمواعظه وما يورد من زواجره . ومع ذلك لم تحتفظ العصور السالفة بشظايا – ولو قليلة – من خطبهم ومواعظهم .

ولم تصلنا وصايا عن تلمسان لا من حكام الدولة الزيانية لأبنائهم ولا من شيوخ تلمسان

---

(١) عنوان الدراية ص ٣٣٢ .

لتلاميذهم فيما عدا وصية كبيرة استحالت إلى كتاب أوصى بها السلطان أبو حمو موسى الثانى (٧٦٠ – ٧٩١ هـ) ابنه أبا تاشفين وسماها « واسطة السلوك فى سياسة الملوك » وقد جعلها فى أربعة أبواب بين يديها مقدمة عن السياسة العملية ، والباب الأول نصائح فيما ينبغى على المالك أو الحاكم من العدل والتقوى وصيانة المال والعناية بالجيش ، والباب الثانى خاص بقواعد الملك أو الحكم وأركانه ، وهى العقل والعدل وحسن السياسة والعناية بالمال والجيش ، والباب الثالث خاص بالصفات التى تزين الملك والحكم ، وهى الشجاعة والكرم والحلم والعفو ، ويصرِّح فى خاتمة الكتاب بأنه وضعه لابنه أبى تاشفين ليتبع نصائحه فيه ، ويستقيم حكمه وملكه ، ونقتطف من هذه الوصية الكبرى بعض وصاياه لابنه عن الشجاعة[1] فى الحروب .

« يا بُنَىَّ إذا كان الملك شجاعا ، كان منصورا مطاعا ، ترهبه الأعداء ، وتطمئن إليه الأولياء ، يعتد به جيشه فى مواقع الحروب ، ويخاف سطوته الطالب والمطلوب . وإذا اقتحمت القتال ، واختلطت الأبطال بالأبطال ، فغايتك أن تكون حاكما على نفسك ، صابرا ثابتا فى جأشك[2] ، ناظرًا إلى ساقتك التى هى قلب جيشك ، فلتلزمْ بها الثباتْ ، ولا تتزحزح إلى جهة من الجهات ، ولتشدّ بثباتك الأنجاد[3] والحماة ، والمقاتلين الكُماة[4] ، وإن انكسر أحد الجناحين من جيشك فلا تهتم به ، ولا تنتقل بسببه ، فإن انكسار الجناحين مع ثبات القلب لا يضر ، والصبر فى مثل هذا عائد عليك بما يسرْ ، لأنه إذا كانت راياتُ القلب تخفق وطبوله تزأر كان ذلك حصنا للجناحين ، وأمانا للعسكر من الحَين[5] ، وأرجى للظفر بالعدو عند رجوع الجانبين » .

وهو ينصح ابنه حين تلتحم المعركة أن يثبت فى قلب جيشه ، وإذا رأى فى أحد الجناحين انكسارا لا يميل إليه بمن معه من العساكر ، حتى لا يتشوش الموقف ويُظَنَّ أنه منهزم ، وحتى لو انكسر الجناحان فإن ثبات القلب يردهما إلى المعركة ويكتب للجيش النصر . ويوصى ابنه ان تظل رايات الجيش فى قلبه تخفق وطبوله تزأر ليكون قدوة لقواد الجناحين ويعودوا إلى مواقعهم من المعركة . ويستمر أبو حمو موضحا لابنه أن الشجاعة لا تكون صحيحة إلا مع الرأى السديد ، أما بدونه فتكون مذمومة بل قد تصبح تهورا يؤدى إلى الهلك وإلى زوال الملك . ولا يلفتنا فى هذه الوصية الطويلة ما تحمل من فكر دقيق ولفظ منتخب رشيق فحسب ، بل يلفتنا فيها أيضا أنها مسجوعة سجعا محكما ، وهى شهادة قوية بأن النثر الأدبى رقى بالجزائر فى القرن الثامن الهجرى ، بحيث أصبح الكاتب يفكر فى جرس كلامه الذى يخلب به سامعه ،

(١) انظر قاعدة الشجاعة من الباب الثالث من كتاب واسطة السلوك .
(٢) جأشك : قلبك .
(٣) الأنجاد جمع نجد : الشجاع .
(٤) الكماة جمع كمى : المقدام المسلح .
(٥) الحين : الهلاك .

وأيضا ليس ذلك فحسب ، فإن الكاتب يلائم بين الكلمات فى السياق بحيث يأتى مع الكلمة بشقيقتها ورفيقتها التى يحسن أن تصاحبها والتى تؤلف معها لونا من التجانس أو الجناس ، حتى يروق السامع أو القارئ ويجذبه إليه .

وإذا مضينا إلى العهد العثمانى سمعنا – كما سمعنا فى الحقب السابقة له – عن خطباء كانوا بارعين فى الوعظ ، وكان الناس يجتمعون لهم فى خطبة الجمعة وينبهرون بما يسمعون منهم من وعظ مؤثر ، غير أننا لا نجد شواهد من هذا الوعظ ، وقد أشاد الكاتب محمد بن ميمون فى القرن الحادى عشر الهجرى بخطابة الشيخ مصطفى بن عبدالله البونى قائلا : « له فى الخطب الساعد المشتد ، والإلقاء الذى تميل إليه الهوادى (الأعناق) وتمتد ، والسكينة (الوقار) التى تجذب إليها الأبصار فلا ترتد ، ولم أرَ منذ عقلتُ بسنىً ، وعلقت خطابته بذهنى ، أحق منه فى طريقة الوعظ والخطابة والإمامه ، ولا رأيت من شيوخنا من تقدم أمامى لا جرم أنه استحوذ عليها ، صناعة استوفى شرطها واستكمل أسبابها .. وكذلك هو فى وعظه آية من آيات فاطره ، زعم من رآه أنه لم يسمع من حضرة الجزائر إلى أم القرى أخطب منه ، ولا من يدانيه إلا واحد من الأفاضل لم يكن بمماثل »[1] . وهذا الخطيب الممتاز الذى ليس له نظير فى وعظه من مدينة الجزائر إلى أم القرى : مكة لم يؤثر عنه شىء من خطابته ، فما بالنا بمن لا يبلغون مبلغه من روعة الخطابة . ومن المحقق أن الأسلاف من الجزائريين أضاعوا تراثا مهما من مواعظ أدبية لو أنها وصلتنا لأمكننا أن نؤرخ للأدب الجزائرى تاريخا أكثر دقة .

٢

الرسائل الديوانيـة

طبيعى أن لا توجد الرسائل الديوانية فى أمة إلا إذا وجدت فيها دولة ، واتخذت لها كتّابا يكتبون عنها الرسائل الديوانية ، وكان قيام الدولة الرستمية فى تاهرت مبشرا بأن تصدر عن حكامها رسائل ديوانية مختلفة ، وقد توجد الدولة وتوجد الرسائل الديوانية ولا يوجد من يهتم بتسجيلها ، غير أننا نجد رسائل الدولة الرستمية تدوَّن ويتناقلها كتاب متأخرون مثل الشماخى فى السير والبارونى فى الأزهار الرياضية ، فمن ذلك رسالة للإمام عبد الوهاب (١٧١ – ٢١١ هـ) كتب بها إلى أهل طرابلس وكانوا يوالونه ، وكان واليه السمح بن أبى الخطاب توفى ، واستخلف بعضهم غيره وراجعوه ، فكتب إليهم الرسالة التالية[2] :

« أما بعد فإنى آمركم بتقوى الله ، والاتباع لما أمركم به ، والانتهاء عما نهاكم عنه ، وقد

(١) تاريخ الجزائر الثقافى للدكتور سعدالله ٢/٢١٣ . (٢) السير للشماخى (طبع قسنطينة بالجزائر) ص١٨٠ .

بلغنى ما كتبتم إلىّ به من وفاة السمح واستخلاف بعض الناس « خلفا » له وردٌ أهل الخير ذلك ، فإن مَنْ ولّى « خلفا » من غير رضا إمامه فقد أخطأ سيرة المسلمين، ومن أبى توليته فقد أصاب، فإذا اتاكم كتابى هذا فليرجع كل عامل استعمله منكم السمح على عمالته التى ولى عليها إلا خلف بن السمح ، فحتى يأتيه أمرى ، وتوبوا إلى بارئكم ، وراجعوا التوبة ، لعلكم تفلحون » .

والرسالة مع إيجازها تؤدى الغاية المطلوبة منها ، إذ تبين حق الإمام وما جرى عليه عرف الإباضيين ويسميهم المسلمين ، وتصف فعل من ولى خلفا بعد السمح بالخطأ لا ضد الإمام وحده بل أيضا ضد المسلمين وعُرْفهم ، وتحرمه من أن تكون له صفة الشرعية فلا تصح له ولاية الناس بحال ، ويطلب إليهم التوبة مما وقعوا فيه من إثم . وكان عهد ابنه أفلح طويلا (٢١١ – ٢٤٠ هـ) ، وخرج عليه بعض الثوار ، منهم نفاث بن نصر من جبل نفوسة إذ كان يطعن فى إمامته ويكثر من نقده ، فتبادل معه عددا من الرسائل كان آخرها الرسالة التالية ، وهى طويلة ، ولذلك سنختصرها شيئا من الاختصار ، وفيها يقول[1] :

« أما بعد فالحمد لله المنعم علينا ، المحسن إلينا ، الذى بنعمته تتم الصالحات ، ولا يهتدى مهتد إلا بعونه وتوفيقه ، فله المنة علينا ، وهو المحسن إلينا إذ هدانا لدينه ، وجعلنا خلفا من بعد أسلافنا الصالحين ، وأئمتنا المهتدين .. قد كتبت إليك غير كتاب ، أنصح لك فيه ، وأدعوك إلى رشدك ، وفى كل ذلك لا يبلغنى من عمّالنا فيك إلا ما أكره ، ولا أرضاه لك فى دين ولا دنيا ، حتى حررتُ كتابا منشورا إلى عمالنا ، أمرتهم فيه بخلع كل مَنْ خالف سيرة المسلمين . وابتدع غير طريقتهم ، وسار بغير سيرتهم .. فكتبت إلىّ كتابا كأنك تسخط ذلك . أترى أنى أوازر من ابتدع فى ديننا ؟ ما كنت بالذى يفعل ذلك ، ولا أوازر من يسعى فى خلافنا ما كنا على الهدى . ثم قلتَ إنا أمرنا فى كتابنا بالبراءة منك ، فإن كنت كما كتب به إلينا عمّالنا فأنت محقوق بالبراءة (منك) ومقصىّ من جماعتنا ، لأننا ما كتبنا كتابنا ذلك إلا على أن كل من ابتدع فى ديننا خلاف أسلافنا .. فهو محقوق بالبراءة (منه) ومقصىّ من جماعة المسلمين ، فإن تكن أنت منهم فأنت الذى أبحت لنا البراءة منك ، وأحللت بنفسك ما لابد أن نفعله بك وبغيرك ، وإن لم تكن كذلك فأظهر الانتفاء منه ، وكذّب عن نفسك ما قيل عنك لتكون عندنا بالحالة التى تستحقها وتستوجبها ... وإنى غير كاتب إليك كتابا بعد هذا إلا إذا انتهى إلينا ما نحبّه ، فننزلك من أنفسنا بحيث تحب ، والله المستعان » .

وأفلح متمكن من لغته بأروع مما تمكن أبوه عبد الوهاب ، إذ هى فى يده سلسة القيادة ،

---

(١) الأزهار الرياضية ٢/ ١٩٥ .

وهو يصرّفها كما يشاء ، ويجعل الله هو الذى اختاره خلفا لأسلافه الصالحين وإماما لأهل دعوته حتى يجعل خروج نفاث عليه خروجا على طاعة الله وعصيانا لمشيئته وإرادته . وقد بنى الرسالة على الملاينة والترغيب تارة والتهديد والترهيب تارة ثانية ، مما يدل على حنكته السياسية وخاصة أن جعل باب الترغيب والتقريب مفتوحا على مصاريعه حتى يدخل إليه نفاث منه راضيا إذ ينزل منه بحيث الود والحب . ولأفلح رسالة عامة كتب بها إلى جميع رعاياه بهذه الصورة[1] :

« الحمد لله الذى هدانا إلى الإسلام ، وأكرمنا بمحمد عليه السلام ، وأبقانا بعد تناسخ الأمم ، حتى أخرجنا فى الأمة المكرَّمة التى جعلها الله أمةً وسطا شاهدة لنبيِّها بالتبليغ ، ومصدِّقة لجميع الأنبياء ، وشاهدة على جميع الأمم بالبلاغ من الأنبياء عليهم السلام مَنًّا من الله ورحمته ، وأرسل إلينا نبيَّه محمدا ﷺ بالهدى ، ووعده بالنصر على الأعداء ، وضمن له الفلاح والغلبة ، ووعده بالعصمة ، قال الله عز وجل : ﴿يا أيها الرسولُ بلِّغْ ما أُنزِلَ إليك من ربِّك وإن لم تفعل فما بلَّغتَ رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين﴾ فأدّى – عليه السلام – ما أمره الله به ، ونصح لأمته ، ودعا إلى سبيل ربِّه ، وجاهد عدوَّه ، وغلُظ على الكفار ، ولان للمؤمنين ، فكان لهم – كما وصفه الله – رءوفًا رحيمًا ، حتى انقضتْ مدته ، وفنيت أيامه ، واختار له ربُّه ما عنده ، فقبضه محمودَ السَّعْى مشكورَ العمل ﷺ ، فلم تبقَ خصلة من خصال الشر الداعية إلى الهلكة إلا وزجر عنها ، وأمر باجتنابها ، رحمة من الله بعباده ، فله الحمد على ذلك كثيرا . ثم أمر تعالى بالجهاد فى سبيله والقيام بحقه ، والأخذ بأمره ، والانتهاء عما نهى عنه ، وفرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإغاثة الملهوف ، والقيام مع المظلوم ، والقمع للظالمين ، لكى لا تقوم للشيطان دعوة ، ولا تثبت لأهل حزبه قدم ، ولا ينفذ لهم حكم ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عماد الدين وإعزازه ، وهو الجهاد وتأدية الحقوق الواجبة له تعالى . فعليكم معشر المسلمين بتقوى الله العظيم والقيام بحقه فيما وافق هواكم أو خالفه ، وتقرَّبوا إلى الله بالقيام بطاعته وطلب مرضاته ، لتنالوا بذلك ما وعد من جزيل الثواب وكرم المآب » .

وأفلح يقول فى عظته إن الرسول ﷺ بلَّغ الرسالة كما أمره ربه على خير وجه فبين لأمته الأوامر والنواهى الإلهية وجاهد الكفار ، وزجر عن كل خصال الشر ودواعيه وكان رحمة لأمته وفرض الله عليها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقمع الظالمين . ويردد الدعوة إلى تقوى الله وطاعته وطلب مرضاته ، مما ينال به التقى المطيع جزيل الثواب وحسن المآب .

وقضى أبو عبيد الله الشيعى داعية المهدى على الدولة الرستمية سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م ولم

---

(١) الأزهار الرياضية ٢/ ٢١٤ .

تقم فى الجزائر دولة حتى إذا أصبحنا فى أواخر القرن الرابع الهجرى وتولى حماد بن بلكين شأن المغرب الأوسط عمل على الاستقلال وأسس دولة بنى حماد فى قلعة بجاية (٤٠٦-٥٤٧) وظلت يرثها الأبناء عن الآباء نحو قرن ونصف ، وكان آخر حكامها يحيى بن العزيز (٥١٨-٥٤٧هـ) ومنه استولى عبد المؤمن على دولته وبلاده وضمها مع الجزائر وتونس وطرابلس إلى دولته . وكانت هذه الدولة تتخذ دواوين للإشراف على شئون الدولة ، وكان لها ديوان إنشاء نبغ فيه بعض الكتاب ، نذكر منهم أبا عبد الله محمدا الكاتب المعروف بابن دفرير ، ذكره صاحب الخريدة ، وقال عنه : أحد كتاب الدولة الحمادية المتصرفين فى الكتابة السلطانية ، وذكر له رسالة كتبها عن سلطانها يحيى بن العزيز الحمادى وقد فرَّ من مدينة بجاية أمام عسكر عبد المؤمن يستنجد فيها ببعض أمراء العرب القريبين من دولته ، وفيها يقول[1] :

« كتابنا ونحن نحمد الله على ما شاء وسرَّ ، رِضًا وتسليما للقدر ، وتعويلا على جزائه الذى يجزى به من شكر ، ونصلِّى على النبى محمد خير البشر ، وعلى آله وصحبه ما لاحَ نجمٌ بسحر ، وبعد فإنه لما أراد الله أن يقع ما وقع ، لقبح آثار مَنْ خان فى دولتنا وضيَّع ، استفزَّ أهل موالاتنا الشنآن[2] ، وأغْرَى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران[3] ، فأتُوا من حيث لا يحذرون ، ورموا من حيث لا يبصرون ، فكنَّا فى الاستعانة بهم والتعويل عليهم كمن يستشفى من داء بداء ، ويفرُّ من صِلٍّ[4] خبيث إلى حيَّة صمَّاء ، حتى بُغِتَ مكرهم ، وأُعْجِل عن التلافى أمرهم ، وردَّ وبال أمرهم إليهم . فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة ، وملنا إلى مظنَّة الأَمَنَة ، وبعثنا فى أحياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة ، ونستنفر مَنْ كنا نراه للمهم عُدَّة ، وأنتم فى هذا الأمر أول مَنْ يُلْهم الخاطر ، وتُثْنى عليه الخناصر » .

وابن دفرير فى رسالته لا يهمل الأسجاع لا قليلا ولا كثيرا ، إذ يوفر لها ما يستطيع من السجع وجرس الكلام لا بين عبارة وتاليتها فحسب ، بل بين عبارة وتواليها من العبارات ، حتى يلذ الأسماع حين تصغى إليه والألسنة حين تنطق به ، مع العناية باصطفاء الألفاظ والملاءمة بين الكلمات . وذكر العماد فى الخريدة من كتاب هذه الدولة الحمادية أبا القاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بالقالمى الذى اتخذه عبد المؤمن سنة ٥٤٧ كاتبا له ، وظل يكتب له ولابنه يوسف من بعده إلى أن توفى وسنخصه بترجمة ، وكان يخدمه فى عمله الكتابى عند الموحدين بجائى مثله هو ابن محشرة جعفر بن أحمد فلما توفى كتب مكانه لسلطان الموحدين يوسف ثم لابنه يعقوب حتى وفاته ، وسنفرد له ترجمة ، وكان يعاصرهما ابن محرز الوهرانى ، وسنفرد

(١) الخريدة للعماد الأصبهانى (نشر الدار التونسية) ١/ ١٧٩ .
(٢) الشنآن : الحقد والضغينة .
(٣) الكفران : الجحود وإنكار المعروف
(٤) صلٌّ : أفعى .

له أيضا ترجمة . وظل بعض الولاة فى بجاية يهتمون باتخاذ بعض الكتاب المجيدين ، ويذكر من بينهم صاحب عنوان الدراية محمد الوغليسى فى القرن السابع ، ويقول : عليه كان المعتمد فى وقته فى المخاطبات السلطانية إنشاء وجوابا[1] .

وإذا تركنا بجاية إلى تلمسان وجدنا بنى عبد الواد يؤسسون فيها الدولة الزيانية بزعامة يَغُمْرَاسن منذ سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م وتظل تلك الدولة نحو ثلاثة قرون ونصف ، وبمجرد أن أسس يغمراسن ملك أسرته أسس فيها الدواوين واتخذ أديبا من أبرع الأدباء الأندلسيين كاتبا له هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقى من أهل مرسية ، كتب قبله لأمراء غرناطة ونزل تلمسان فاتخذه كاتبا[2] له ، غير أنه توفى سريعا سنة ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨ م ، ولم يعن المؤرخون بذكر كتّابه بعده إلا ما أشار إليه يحيى بن خلدون من أن الشاعر الكبير ابن خميس التلمسانى المترجم له بين شعراء المديح كان يكتب له ، وظل - كما يبدو - يكتب لابنه عثمان الأول (٦٨١ - ٧٠٣ هـ) ونراه يترك تلمسان وعمله الكتابى بها فجأة سنة ٧٠٢ ويولى وجهه نحو سبتة ثم الأندلس ويتوفى فجأة . ومن أهم من خلفوه فى عمله الكتابى بتلمسان أبو عبد الله محمد بن منصور بن هدية المتوفى بأواسط[3] سنة ٧٣٥ . وينزل مصر أديب تلمسانى هو ابن أبى حجلة المتوفى بها سنة ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٥ م وفى كتابنا عن مصر دراسة عنه وتحليل لكتابه « ديوان الصبابة » . ويذكر صاحب بغية الرواد أن أباحمو موسى الثانى (٧٦٠ - ٧٩١ هـ) اختار لكتابة العلامة المميزة لرسائل دولته أبا عبد الله محمد بن[4] محمد بن المشوش ، وغالبا كانت تسند إلى صاحبها رياسة الدواوين . ونحن إنما نقف فى كتاب الدولة الزيانية على أسماء ، ولا نقف على كتاباتهم بحيث نستطيع أن نصفها وصفا دقيقا . وإذا كنا لاحظنا على كتاب بجاية فى عصر الدولة الحمادية شيوع السجع فى كتاباتهم فإن ذلك سيستمر عند أبى القاسم القالمى والوهرانى وابن محشرة ، وقد لاحظناه عند أبى حمو موسى فى وصيته الطويلة لابنه ، وحتى المؤرخون من أمثال محمد بن عبد الله التنسى فى كتابه تاريخ بنى زيان ويحيى بن خلدون لا يخلون كتابتهم التاريخية من السجع أحيانا وخاصة فى تقديمهم للأمراء الزيانيين فإنهم يعنون فيه بجمال الجرس والملاءمة بين نهايات العبارات بحيث تزدان بالسجع حلية الأدب فى زمنهم .

ونمضى إلى العهد العثمانى ، وفيه ضعفت كتابة الرسائل الديوانية بالعربية لأن الدولة الحاكمة كانت تركية وكانت تعتمد على اللغة التركية فى رسائلها ومنشوراتها الديوانية إلا فى عهود باشوات أو ولاة معدودين هم : محمد بكداش ومحمد الكبير والحاج أحمد فى قسنطينة ،

(١) عنوان الدراية ص ٢٨٢ .
(٢) بغية الرواد ١/ ١٢٩ والإحاطة ٢/ ٢٧٥ .
(٣) بغية الرواد ١/ ١١٦ والبستان ص ٢٢٥ .
(٤) بغية الرواد ١/ ١٢٣ .

فإنهم اتخذوا لهم كتابا يحذقون العربية . أما من عداهم فظل يتخذ التركية فى المعاملات الرسمية ، وبدون ريب أضعف ذلك من شأن الكتابة الديوانية العربية التى كانت تلتفُّ حولها طبقة من الكتاب الممتازين المتنافسين ، وكل منهم يحاول الامتياز على زملائه فى براعته الأدبية ، أما فى هذا العهد فلا تنافس ، وحسب الكاتب أن يكتب بلغة مسجوعة لا تخلو من ضعف وركاكة أحيانا . ومن رسالة لكاتب يسمى محمدًا القالى قدمها إلى محمد بكداش طالبا منه بعض العون ، وفيها يقول[1] :

« جَلَّ الله تعالى مالك الملك ومقيم قسطاس العدل بما أراده من إعزاز السادات الترك ، جمع سبحانه وتعالى بهم كلمة الدين الحنيف ، وآثرهم بهذا الملك الكبير وهذا العز المنيف ، وشرفهم بما وهبهم من الرتب العالية وهم أصل للرفعة والتشريف ، وخصهم بمكارم الأخلاق ونزاهة الأقدار ، وجعلهم بهذا القطر رحمة للعباد ، وأخمد بشوكتهم نار الفتنة والعناد ، فسُلكت بهم السُّبُل وأمنت بهم البلاد ، لطفا منه سبحانه بهذه الأقطار ، نسأل الله أن يبقى جنابهم السعيد عاليا على كل جناب ، وأن يخلِّد الملك فيهم على مرور الدهور وانقضاء الأعمار .. وبعد فإن الله تعالى مَنَّ على المسلمين بسيدنا مولانا سلطان الملوك والأكابر ، المخصوص بأفضل الشمائل والمآثر ، الإمام العادل ، السلطان الفاضل ، العالم العامل ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، الذى أطلعه الله فى سماء الجلالة بدرا ، ورفع له فى درجات الأمراء قدرا ، وأجرى له على ألسنة الخلق ثناء جميلا وذكرا ، فأصبح الدين مبتهجا بكريم دولته ، وجناب الكفر مهتضما بعظيم صولته » .

وواضح ما يجرى فى الرسالة من التكلف الشديد ، فالترك أهل الرتب العالية ولكن الصيغة لا تتم من حيث السجع فيضيف إليها قوله : « وهم أصل للرفعة والتشريف . ويطيل العبارة بعدها حتى يقع على سجعة : « للعباد » واستعصت عليه سجعة الراء بعدها فأطال العبارة حتى تمكن من إيرادها بقوله : « الأقطار » . وقد أكثر من ألقاب محمد بكداش وأوصافه وبالغ ما شاءت له المبالغة مع كثرة الأدعية . وكل ذلك تكلف وتمحل فى الرسالة ، وكأنما أصبح من الصعب أن تعود إلى الرسالة الديوانية حيويتها ونضرتها القديمة .

٣

الرسائل الشخصية

يبدو أنه لم يكن بالجزائر اهتمام مبكر بتسجيل الرسائل الشخصية ، ولولا أن الإباضية

---

(١) تاريخ الجزائر الثقافى ٢/ ١٩٦ .

اهتموا بتدوين الرسائل الديوانية لحكام الدولة الرستمية لضاعت أو سقطت من يد الزمن وأول رسالة شخصية جزائرية مهمة وصلتنا عن الحقب الأولى رسالة أبي على ابن الربيب الحسن بن محمد التميمى التاهرتى الذى ترجم له ابن رشيق فى كتابه : « الأنموذج » وقال إنه تولى القضاء طويلا فى بلدته تاهرت وإنه توفى سنة ٤٢٠ هـ/١٠٣٠ م ولم يذكر الرسالة ولا أشار إليها ، وإنما ذكرها ابن بسام فى كتابه الذخيرة ، إذ قال فى ترجمة أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم : كتب إليه أبو على بن الربيب رقعة يقول فيها[1] :

« إنى فكَّرتُ فى بلدكم أهلَ الأندلس ، إذ كان قرارةَ كل فَضْل ، ومقصد كل طُرْفة ، ومورِدَ كلِّ تحفة ، إن بارت تجارة أو صناعة فإليكم تُجْلَبُ ، وإن كسَدتْ بضاعة فعندكم تَنْفُق[2] ، مع كثرة علمائه ، ووفور أدبائه ، وجلالة ملوكه ، ومحبتهم للعلم وأهله ، ورَفْعهم مَنْ رفعه أدبهُ ، وكذلك سيرتهُم فى رجال الحرب ، يقدِّمون مَنْ قَدَّمتْه شجاعتهُ ، وعظمتْ فى الحروب نِكايتُه ، فشجُع عندكم بذلك الجبان ، وأقدم الهَيْبان[3] ، ونَبَه الخامل ، وعلم الجاهل ، ونطق العَيِيّ ، وشعر البَكيّ .. وتنافس الناس فى العلوم ، ثم هم مع ذلك فى غاية التقصير ، ونهاية التفريط من أجل أن علماء الأمصار دوَّنوا فضائل أعيانهم ، وقلَّدوا الكتب مآثرَ أقطارهم وأخبار الملوك والأمراء ، والكتاب والوزراء ، والقضاة والعلماء ، فأبقوا لهم ذكرا فى الغابرين ، و (لسانَ[4] صِدْقٍ فى الآخرين) . وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم ، كل امرىء منهم قائم فى ظله لا يبرح ، وثابتٌ على كعبه لا يتزحزح ، يخاف إن صنَّف ، أن يعنَّف ، أو (تخطفه[5] الطَّيْرُ أو تَهْوِى به الرِّيحُ فى مكانٍ سحيق) لم يتعب أحد منهم نفسا فى [جمع] مفاخر[أهل] بلده ولم يستعمل نقْسا (مدادا) فى فضائل ملوكه ، ولا بَلَّ قلما بمناقب كتَّابه ووزرائه ، ولا سوَّدَ قرطاسًا بمحاسن قضاته وعلمائه . على أنه لو أطلقَ ما عقل الإغفالُ من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمالُ من بيانه ، لوجد للقول مساغا ، ولم تَضِقْ عليه المسالك هنالك .

ولكن همُّ كل أحد منهم أن يطلب شَأْوَ[6] من تقدَّمه من رؤساء العلماء ، ليحوز قصَب السَّبْق ، ويفوز بقِدْح[7] ابن مقبل ، ويأخذ بكَظْم[8] دَغْفل ، ويصير شَجًى فى حَلْق

(١) الذخيرة ١٣٣/١ .
(٢) تنفق : تروج .
(٣) الهيبان : الهائب الخائف .
(٤) اقتباس من سورة الشعراء .
(٥) اقتباس من سورة الحج .
(٦) شأو : غاية .
(٧) ابن مقبل شاعر يتمثل بقدحه فى الفوز والظفر .
(٨) دغفل : نسابة كبير عند العرب ، يأخذ بكظمه : يمائله فى علم النسب ، وأصل الكلمة : يأخذ بكظمه الإمساك على ما عند المرء من العلم وغيره .

أبى العَمَيْثل[1] ، فإذا أدرك بغيته ، واخترمتْه – بعد – منيته ، دُفن علمه معه ، ومات ذكره ، وانقطع خبره . ومَنْ قَدَّمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم ، فألَّفوا دواوين يبقى لهم بها ذكر يتجدَّد طول الأبد . فإن قلت إنه كان مثل ذلك من علمائكم ، وألفوا كتبا لكنها لم تصل إلينا ، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق ، لأنه ليس بيننا وبينكم إلا روحةُ راكب ، أو رحلة قارب ، لو نفث[2] ببلدكم مصدور ، لأسمع ببلدنا مَنْ فى القبور ، فضلا عَمَّنْ فى الدور والقصور ، وتلقَّوا قوله بالقبول ، كما تلقوا ديوان ابن عبد ربه منكم الذى سمَّاه بالعقد[3] . على أنه يلحقه فيه بعض اللَّوْم ، إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة[4] عِقْده ، ومناقبَ ملوكه يتيمة سلكه ، لكنه أكثر وطوَّل ، وأخطأ المِفْصل[5] ، وأطال الهزَّ بسيف غيرمِقْصل[6] ، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعنيهم ، وإغفال ما يهمهُّم . فأَرْشِدْ أخاك – أرشدك الله – إن كان عندك فى ذلك الجليَّة ، وبيدك فَصْلُ القضية ، إن شاء الله» .

وقد ذكرت الرسالة بتمامها لأدل على ما أصابه نثر الرسائل الشخصية من إحكام فى الصياغة ، حتى ليقترب أسلوب الرسالة من أسلوب الجاحظ وما اشتهر به من المزاوجة وكثرة الترادف ، فالعبارات تتقابل دون أن تتحد نهاياتها بأسجاع متعاقبة ، وإن حدثت سجعة عفوا سرعان ما يعدل ابن الربيب عن مثيلة لها إلى التعادل والترادف فى العبارات . ونشعر بجانب ذلك أن الصياغة محكمة ، فالألفاظ جزلة مصقولة ، أُحكم ترتيبها كما أُحكم وضع الاقتباسين القرآنيين فيها ، مع الإطراف فى الكنايات والاستعارات ، كتعبيره فى تكاسل الأندلسيين عن الكتابة عن أعلام بلدهم ، إذ يقول : « كل امرىء منهم قائم فى ظله لا يبرح ، وثابت على كعبه لا يتزحزح » ويقول عمن أهمل الكتابة عن الكتاب والوزراء : إنه « لم يبلّ قلما بمناقبهم » يقصد أنه لم يغمس قلمه فى مداد للكتابة عنهم . ويترك الكناية إلى الاستعارة قائلا : « على أنه لو أطلقَ ما عقل الإغفال من لسانه ، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه » . ويستغل ثقافته فى التعبير عن الفوز والظفر ، إذ يقول : وليستغل قَصَب السَّبق ، ويفوز بقدح ابن مقبل الذى تغنى فى شعره بفوزه ، ويأخذ بكظم دَغْفَل كأنما يساويه فى قدرته المشهورة بعلم الأنساب ، ويصبح شَجًى وغُصَّة فى حلق أبى العميثل على نحو ما أصابه أبو تمام بغصة مريرة حين ردَّ عليه ردًّا مفحما . وتلطَّف ابن الربيب لمخاطبه أبى المغيرة بن حزم الأندلسى حين قال له :

(١) أبو العميثل هو الذى تعرض لأبى تمام يقول له لماذا لا تقول من الشعر ما يفهم فقال له : وأنت لماذا لا تفهم ما يقال .

(٢) نفث : نفخ .

(٣) هو كتاب العقد الفريد المشهور .

(٤) واسطة العقد : الجوهرة الكبيرة فى وسط العقد .

(٥) المفصل : كل ملتقى عظمين فى الجسد ويضرب التعبير مثلا للخطأ الجسيم .

(٦) المقصل من السيوف : القاطع .

« لو نفث ببلدكم مصدور (مريض بصدره) لأسمع ببلدنا مَنْ فى القبور فضلا عمن فى الدور والقصور » . ثم أورد عليه إشكالا ربما كان هو السبب المهم فى الرسالة ، ذلك أن ابن عبد ربه الأندلسى ألف كتابًا أدبيًا فى مجلدات سماه العقد الفريد ، وهو مطبوع بمصر مرارا فى أربع مجلدات كبار ، وفيه يعرض الثقافة الأدبية فى المشرق ، ولم يعن فيه بالحديث عن أدباء بلده وشعرائه إلا ما كان من تمثله ببعض شعرهم وذكره للشاعر الأندلسى يحيى الغزال ، أما بعد ذلك فالكتاب مشرقى خالص بما فيه من أخبار وشعر ونثر مما جعل الصاحب بن عباد حين اطلع عليه يقول : « هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا » . وابن الربيب محق فى اعتراضه على كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، لأنه لم يعرض فضائل بلده وما أنتج من نثر وكتّاب وشعر وشعراء ، غير أن ابن عبد ربه قصد بكتابه العقد إلى ذلك وأن يعرض على مواطنيه الأدب المشرقى . على أن ابن الربيب بالغ ، فإن وراء ابن عبد ربه كثيرين من الأندلسيين عنوا بعرض أخبار ولاتهم وحكامهم ، نذكر منهم عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ وفى كتابه تحدث عن تاريخ الأندلس حتى أيام معاصره : عبد الرحمن الأوسط ، ولأحمد بن محمد الرازى المتوفى سنة ٣٤٤ للهجرة كتاب أخبار ملوك الأندلس ، ولابن القوطية المتوفى سنة ٣٦٧ كتاب تاريخ افتتاح الأندلس يتحدث فيه من الفتح حتى نهاية أيام الأمير عبد الله سنة ٣٠٠ وفى أخبار الفقهاء والقضاة والعلماء من كل صنف تلقانا كتب مثل كتاب الفقهاء لابن عبد البر أحمد بن محمد وتاريخ قضاة قرطبة للخشنى المتوفى سنة ٣٦١ ومن كتب الأطباء والصيادلة طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل المتوفى سنة ٣٧٧ ومن كتب اللغويين كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدى المتوفى سنة ٣٧٩ ومن كتب العلماء الأندلسيين عامة تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى المتوفى سنة ٤٠٣ . فالأندلسيون لم يقصروا فى حق ملوكهم وعلمائهم كما تبادر إلى ظن ابن الربيب ، وسيكثرون بعد زمن ابن الربيب من كتابة المجلدات الضخام فيهم وفى الشعراء كما نعرف مثلا عن المقتبس لأبى حيان والذخيرة لابن بسام .

ولا تسجِّل كتب التراجم والأدب فى الحقب التالية رسائل شخصية جزائرية أدبية طريفة من طراز رسالة ابن الربيب ، بل تظل مغفلة هذا النوع من الرسائل ، ومن المؤكد أنها أخذتْ تزدان بالسجع منذ ازدانت به الرسائل الديوانية الحمادية ، وكان مما عمل على ذلك أن الأندلس أخذت تُلْقى بطائفة من صفوة كتابها منذ القرن السابع الهجرى إلى بجاية وشقيقاتها من مدن الجزائر ، وكان لبجاية منهم الحظ الأوفر ، فقد نزلها واستوطنها – على الأقل فترة طويلة – غير كاتب منهم ، وقد عرضنا فى غير هذا الموضع لمن نزلها من المتصوفة وكيف كان لهم تأثير كبير فى أهلها وفى شيوع الشعر الصوفى بينهم واستقرار كثير منه فى صدورهم وأفئدتهم . ونلاحظ نفس الملاحظة على من نزلها من كبار الكتاب الأندلسيين واستوطنها إلى آخر حياته أو أقام فيها شطرًا كبيرًا من حياته ثم رحل عنها إلى تونس ، ومن يرجع إلى كتاب عنوان

الدراية للغبريني الذى ترجم فيه للعلماء والأدباء ببجاية فى القرن السابع وشطر من القرن السادس يحسُّ أن تراجم الكتاب مقسومة بين تراجم بجائية وتراجم أندلسية . وكان البجائيون أخذوا يتأنقون فى كتابتهم الأدبية واندمج ذوقهم فى الذوق الأندلسى الأنيق وأصبحنا بإزاء كتابة أنيقة عامة فى الرسائل الشخصية والديوانية ، وحتى فى كتب التراجم كما نجد فى صدر كثير من تراجم الغبرينى فى كتابه عنوان الدراية ، وفى التعريف بملوك الدولة الزيانية عند يحيى بن خلدون ومحمد بن عبد الله التنسى .

فإذا قلنا إن الرسائل الشخصية أخذت تطبع فى الجزائر – منذ القرن السادس الهجرى – بطوابع السجع ، بل لقد كانت تضيف إلى ذلك حُلًى من المحسنات البديعية لم نكن مبالغين . ونمضى إلى العهد العثمانى وتظل للرسائل الشخصية هذه السمات مع ما يداخلها من التكلف ، وكان أحمد المقَّرى صاحب نفح الطيب راسل عبد الكريم الفكّون شيخ الإسلام بقسنطينة ، وظل حكام الجزائر العثمانيون يعينونه أميرًا للحج عن بلده والجزائر عامة ، وكان المقرى أرسل إليه بمنظومة فى علم الكلام يتمنى أن يتلطف بصنع شرح لها ، فردَّ عليه برسالة أثبتها المقرى فى نفح الطيب قائلا فى ديباجتها إنها كتاب وافاه من عالم قسنطينة وصالحها وكبيرها وفقيهها ، سلالة العلماء والأكابر ، وارث المجد كابرا عن كابر ، المؤلف العلامة الشيخ عبد الكريم الفكون حفظه الله . وبعد البسملة والصلاة على الرسول الكريم يقول الفكون[1] :

« إنى أحمد الله إليك وأصلى على نبيه سيدنا محمد ، ولا أريد إلا صالح الدعاء وطلبه منكم ، فإنى أحوجُ الناسِ إليه ، وأشدهم فى ظنى إلحاحا عليه ، لما تحققت من أحوال نفسى الأمَّارة ، واستبطنت من دخيلاتها المثابرة على حب الدنيا الغرَّارة ، كأنما عميت عن الأهوال التى أشابت رءوس الأطفال ، وقطعت أعناق كُمَّل الرجال ، فتراها فى لُجج هواها خائضة ، وفى ميدان شهوائها راكضة ، طغت فى غيِّها وما لانت ، وجمحت فما انقادت ولا استقامت ... والله أسأل حُسْنَ الألطاف ، والسَّتر عما ارتكبناه من التعدى والإسراف ، وأن يجعلنا من أهل الحِمى العظيم ، وممن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم : سندنا سيدنا ومولانا وشفيعنا النبى الرءوف الرحيم .. وقد اتصل بيدى جوابكم ، أطال الله فى العلم بقاءكم ، فرأيت من عذوبة ألفاظكم وبلاغة خطابكم ، ما يذهل من العلماء فحولها ، وينيلها لدى الجثوِّ[2] لسماعه سُؤْلها ومأمولها .. وقد ذيَّلتموه بأبيات أنا أقل من أن أوصف بمثلها ، على أنى غير قائم بفرضها ونَفْلها ، فالله تعالى يمدكم بمعونته ، ويجعلكم من أهل مناجاته بحضرته .. وظنُّنا لكم أن نجعل على منظومتكم الكلامية يعنى : « إضاءة الدجنَّة » تقييدا

(١) نفح الطيب ٢٣٨/٣ وانظر تعريف الخلف ٦٣٢/٢ .

(٢) الجثو : الجلوس على الركبتين .

أرجو من الله فيه توفيقًا وتسديدًا بحسب قدرى لا على قدركم ، وعلى مثل فكرى القاصر لا على عظيم فكركم .. »

ويختم الرسالة بالصلاة على سيد الخلق ويذكر أنها كتبت فى سابع أو ثامن رجب من عام ١٠٣٨ للهجرة . وواضح ما يجرى فى الرسالة من سجع متكلف وأنها تقوم على المبالغة المسرفة حتى لينسب الشيخ إلى نفسه الإسراف فى الشهوات والآثام ، لا لأن ذلك حقيقة ولكن لأنه يريد صنع سجعات ، ويقول إن نفسه عميت عن الأهوال التى أشابت رءوس الأطفال وقطعت أعناق كُمَّل الرجال ، والمبالغات فى الرسالة أكثر من أن نحصيها أو نقف عندها ، وقد اجتُلبت من أجل السجعات ورصفها .

ودائما نلتقى فى رسائل العهد العثمانى بمثل هذه المبالغات حتى فى رسائل التعزية ، على نحو ما نجد فى تعزية للمفتى محمد بن حسين عزّى بها عبد الرزّاق بن حمادوش فى ابن له توفاه الله ، فكتب إليه[1] :

« بلغنا ما أحار الأذهان وأشجاها[2]، وأطار النوم من الأجفان وأبلاها، وأضرم لواعج الأشواق، وأذكى[3] زواعج الاحتراق ، بالذى صَدَع أعشار[4] القلوب ، وأفاض على صحن الخدِّ الدموع من الغروب[5].. حتى أدركتنى محنتك وموت ولدك فأخذتنى الصدمة، وهيجت لى المحنة، فلقد رمانا الدهر بسهام صروفه فأصمانا[6]، وتعهدنا خَطْبه فهدَّ عروشا وأركانا .

والرسالة مبنية على المبالغة الشديدة فقد بلغه ما أشجاه وأغصَّه ، وأطار النوم من جفونه وجعلها بالية خلقة ، وهى مبالغة شديدة أتبعها بلواعج الأشواق ، ومكانها فى التعزية قلق وأشد منها قلقا السجعة التالية لها . وقد بلغه ما صدع وشقق قِطَعَ قلبه . والمجىء بصحن الخد شديد التكلف . ويبدو أنه كان فقد عزيزًا قبل ذلك فتكسر النصل على النصل فى فؤاده ، وأصابته سهام الدهر فى الصميم كما أصابت ابن حمادوش ، وقد بالغ مبالغات شتى فى تصوير حزنه . ولعله حشدها من أجل السجع .

٤

المقامات

يبدو أن الجزائر – مثل بقية البلدان العربية – عرفت المقامات مبكرة ، إذ كانت فنا جديدا أعجب به أدباء العرب فى كل مكان وأخذوا يتدارسونه ، ونلتقى فى القرن السادس الهجرى

(١) تاريخ الجزائر الثقافى ٢/٢٠٥ .
(٢) أشجاها : أغصّها .
(٣) أذكى : أوقد .
(٤) أعشار : قطع .
(٥) الغروب : المآقى .
(٦) فأصمانا : أصابنا فى الصميم.

بجزائرى يكتب فى هذا الفن هو الوهرانى المتوفى سنة ٥٧٥ هـ وسنفرد له ترجمة ، ويذكر الغبرينى فى كتابه عنوان الدراية طائفة من الأساتذة كانوا يدرسون مقامات الحريرى للطلاب طوال القرن السابع الهجرى مثل عبد الله بن نعيم الحضرمى ويوسف بن يخلف ومحمد بن الحسن بن ميمون القلعى ، غير أن أدباء الجزائر قبل العهد العثمانى لم يحاولوا محاكاة الوهرانى فى مقاماته ولا محاكاة كتابها الأصليين من أمثال بديع الزمان الهمذانى والحريرى . أما فى عهد العثمانيين فنجد غير أديب يحاول كتابتها على نحو ما نجد عند أحمد البونى ، إذ كتب سنة ١١٠٦ هـ/١٦٩٤ م مقامة[1] فى أربع صفحات بعنوان: «إعلام الأخيار بغرائب الوقائع والأخبار» وهى فى بيان علاقة العلماء بالسلطة والشكوى من وشايات أهل العصر ، ويستهلها بقوله :

« الحمد لله الذى جعل المصائب وسائل لمغفرة الذنوب ، والنوائب فضائل لذوى الأقدار والخطوب ، وسلط – سبحانه وتعالى – على الأشراف أرباب الزور والفجور والإسراف ... وبعد أيها العلماء والفضلاء النبلاء الكملاء فرِّغوا أذهانكم وألقوا آذانكم ، وتأملوا ما يلقى إليكم من الخبر الغريب ، وما يرسله الله تعالى على كل عاقل أريب ، فقد ارتفعت الأشرار ، واتضعت أرباب المعارف والأسرار ، وانقلبت الأعيان ، وفشا فى الناس الزور والبهتان ، وأُهملت أحكام الشريعة ، وتصدَّى لها كل ذى نفس للشر سريعة . بينما نحن فى عيش ظله وريف ، وفى أُهنأ لذة بقراءة العلم الشريف ، إذ سعى فى تشتيت أحوالنا وقلوبنا ، وهتك أستارنا وعيوبنا ، من لا يخاف الله ولا يتقيه ، فرمى كل صالح وفقيه ، بما هو لاقيه ، واعتدَّ فى ذلك بقوم يظنون أنهم أفاضل ، وهم – والله – أوباش أراذل . وما كفاه بثُّ ذلك فى كل ميدان .. حتى أوصله لمسامع السلطان ، فلم نشعر إلا ومكاتبات واردة علينا من جانب الأمير ، بعزل صديقنا الشهير .. من خطة الفتوى ، مع أنه ذو علم وتقوى ، وتحيرنا من ذلك أشد التحير ، وتغيرنا بسببه أعظم التغير » .

ومن التجوز تسمية ذلك مقامة إذ لا تقوم على الكدية والشحاذة الأدبية وأقاصيص الأدباء السيارين الذين يجولون فى البلاد متفاصحين بأدبهم ، محتالين على الناس حيلا شتى فى أخذ دراهمهم ودنانيرهم ، على نحو ما نعرف عند بديع الزمان والحريرى ، إنما ذلك أشبه برسالة تتناول موضوعا هو وشاية الناس النمامين لذوى السلطان للوقيعة بينهم وبين بعض العلماء ، ولا مقامة ، ولا ما يشبه المقامة .

وبعد نحو عشر سنوات أو تزيد قليلا ألف محمد بن ميمون ترجمة لوالى الجزائر محمد بكداش سماها التحفة المرضية فى الدولة البكداشية فى بلاد الجزائر المحمية » ، وجعلها فى ستة

---

(١) انظر فى هذه المقامة تاريخ الجزائر الثقافى ٢١٨/٢ .

عشر فصلا ، وسمىَّ كل فصل مقامة تحكى جانبا من سيرة الوالى العثمانى محمد بكداش (١١١٧-١١٢١ هـ) والمقامة الأولى أو الفصل الأول فى نبذة من أخلاق محمد بكداش ، ثم تتوالى المقامات أو الفصول عن أعماله . والصلة الوحيدة بين الفصول وبين المقامة هو تسمية فصولها مقامات ، أما بعد ذلك فهى ترجمة متكاملة لسيرة وال عثمانى وكل ما يمكن أن يكون بينها وبين المقامة من شبه هو كتابتها سجعا ، وقديما كتب العتبى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ/١٠٣٥ م سيرة محمود الغزنوى سجعا فى كتابه عنه الذى سماه اليمينى نسبة إلى لقب محمود الذى لقبه به الخليفة العباسى : يمين الدولة ، ونسج على منواله العماد الأصبهانى فى كتابه : « الفيح القُسِّى فى الفتح القدسى » وفيه يصف بإسهاب فتح صلاح الدين لبيت المقدس سجعا . ولم يقتبس محمد بن ميمون فى كتابه من أسلوب المقامات السجع وحده ، فقد اقتبس أيضا ألفاظا لغوية وأنواعا بديعية كما قال فى مقدمته .

ويقدم ابن حمادوش الجزائرى المتوفى بأخرة من القرن الثانى عشر الهجرى ثلاث مقامات فى رحلته المنشورة بالجزائر بتحقيق د . أبى القاسم سعد الله ، وأولاها تصف الطريق من تطوان إلى مكناس وما رآه فيها من غرائب ، يقول[١] :

« ومن غريب ما رأيت فى مرج طويل أنى رأيت غُرَّتين ، كل واحدة فى أفحوصها[٢] فوق الماء ، تحضن بيضها ، وشهد أهل الحى كبيرهم وصغيرهم أن الغر وأبا غطاس وطيورًا أخرى لا تلد إلا فوق الماء فى الموضع الذى يكون عليه كقطعة حصير من الكلأ[٣] ، يبنون به أفحوصهم ويبيضون ويفرخون ، ولا يمسّ بيضهم الماء ، وإن مسَّه الماء فسد ، وهو يُبْنَى بناء صحيحا جدا . وأتونا ببيض الغُرِّ ، معظمه كبيض الدجاج ، ولونه كلون بيض الحجل[٤] ، إلا أنه أشد بياضا من بيض الحجل ، وفيه نقط سود . والغر طائر قدر الدجاج أسود اللون وبين عينيه غرة بيضاء .. ومن غرائب ما رأيت أن فى هذا المرج قوارب يصطادون بها السمك والطير وبيضه ، ويعدُّون (يجتازون) عليها من ناحية إلى أخرى ، ويحملون عليها أحمال الزرع وغيره ، وهى من حِزَمِ البردى[٥] ، يعقدون حزمة بحبال الدوم الرقاق ويجعلونها وُسْطَى ، ويعقدون حزمتين ، يجعلون من كل ناحية واحدة عالية يمينا وشمالا ، ووسطها منخفض ، ويجمعون بينها بالربط من مقدمها ، ويشدّون الكل بالربط بينها . ويركب فيها ، ويمسك الراكب فى يده عودا طويلا يكتدُّ[٦] به ولا يقذف » .

(١) رحلة ابن حمادوش الجزائرى (طبع المكتبة الوطنية بالجزائر) ص ٧٣ .
(٢) أفحوص الطائر : مكان بيضه ورقاده عليه - والغرُّ نفس الطائر المعروف فى مصر .
(٣) الكلأ : العشب .
(٤) الحجل : طير فى حجم الحمام .
(٥) قوارب النيل والبحيرات فى الدلتا كانت تصنع أيضا من البردى أيام الفراعنة .
(٦) يكتد بالعود : يدفع القارب بعود فى يده وعلى صدره كما فى مصر حين يقترب من البر .

وابن حمادوش يقول إن أغرب ما رآه فى طريقه من تطوان إلى مكناسة طائرات من الغر فى بركة بأحد المروج ، والغر معروف فى مصر بنفس الاسم ويُرَى كثيرا شتاء فى الإسكندرية ودمياط وبورسعيد أو بعبارة أدق فى البرك والبحيرات هناك . ويذكر للناس هناك قصة عنه : أنه ينبى أفحوصه أو مرقده للبيض على قطعة من حصير الكلأ ، وإنه ما يزال يتعهد بيضه حتى لا يمسه الماء فيفسد ، وحتى يفرخ ، ويصف بيضه وصفا دقيقا ، ثم يذكر ما رآه فى نفس المرج وبركته من قوارب صيد السمك والطير وبيضه ، وكيف أنها كانت تصنع من نبات البردى ، وتُضَمّ حزمه بعضها إلى بعض بحبال الدوم الرقاق ، وهى بذلك تشبه أدق الشبه قوارب الصيد أيام الفراعنة ، وتطورت هذه القوارب عند المصريين حتى أصبحت سفنا كبيرة تجرى فى المياه بمجاديف متعددة ، ولم تكن أعواد القوارب التى رآها ابن حمادوش تقذف بمياه أى أنها لم تكن مجاديف ، إنما كانت ما يسمى فى مصر عند صياديها وملاحيها باسم مِدْرَى ، وهى عود طويل من خشب يدفع به النُّوتىّ القارب ، ممسكا به بيديه ودافعا له بصدره بمنتهى ما يملك من قوة ، ليندفع القارب كما يريد . وليس فى المقامة كدية ولا شحاذة أدبية بل هى وصف لطريق ومشاهده وصفا أدبيا . ولا يلبث ابن حمادوش أن يورد فى رحلته مقامة ثانية باسم المقامة الهركلية ، ويستهلها قائلا[1] :

« الحمد لله حدا بى حادى الرحلة إلى أن دخلت فى بعض أسفارى هركلة[2] ، فنزلت بها فى خان[3] كأنه من أبيات النيران ، أو كنائس الرهبان ، بل لا شك أنه من أبيات العِصْيان ، فلذلك لا يُسَرُّ به الناظر ، ولا ينشرح له الخاطر ، فاختصصت منه بحجرة ، أو نقرة فى حجرة ، وكأنى وقعت من السماء فى حفرة ، أو تبعت أفعوانا فدخلت جُحْره ، فغلّقت بابى ، لأحفظ حيائى وأؤمّن جنابى ، من شدة أتعابى .. حتى مدّ الليلُ جناحه ، وأوقد فى السماء مصباحه ، وهدأت الأصوات ، وصرنا كالأموات ، وتوغلت فى حبائل النوم ، ولم أدر ما هنالك من القوم ، ولم توقظنى إلا جلبة الأصوات ... وشددت الرحال ، وتهيأت للترحال » .

والمقامة ليس فيها إلا هذا الوصف للخان ، فهى أضعف من صاحبتها أدبيا أو من حيث المشاهد الأدبية ، وسمى البلد هركلة ولعله يريد هرجلة لما سمع فى الفندق من هرج وصياح وجلبة هنا وهناك ، مما جعله يشد الرحال ويعزم على الترحال . ويورد فى رحلته مقامة ثالثة لكن لا فى وصف بعض المشاهد أو المدن أو الفنادق ، وإنما فى وصف زوجته التى كانت تمتلىء عليه سخطا كما يقول فى رحلته حين تجده يخسر أمواله فى التجارة ، وكذلك حين

(١) رحلة ابن حمادوش الجزائرى ص ٧٨ .
(٢) هركلة : بلدة .
(٣) خان : فندق .

تجد علمه لا يروج ولا يردّ عليه ما يخسره ، مما كان يجعلها تعمد إلى مغاضبته ، وفيها يقول فى مقامته الثالثة التى سماها المقامة الحالية واصفا لها[1] :

« قُرِنتُ بجارة غِرَّة[2] ، عيشتها مرة ، آمالها ظنون ورغبتها فيما لا يكون ، الدهر كله ساخطة ، ومطالبها شائطة[3] ، تخزيك أو تحرجك أو تحزنك ، لا تطلب إلا العنقاء[4] ، ولا ترغب إلا فى الرُّخّ[5] ، ولا تتغذى إلا بَيْض[6] الأَنْوُقِ ، ولا تجنى إلا ثمرةَ الخلاف ، ولا تركن إلا لعدم الإسعاف .. غذتها أمُّها لبن القرود ، فشبَّتْ لا تألف المقصود .. بيد أنها تسرُّ الناظرين ، وتُصْبِى السَّامعين ، يصبو إليها الحليم ، ويرنو إليها الكريم .. أشبهت فى القَدِّ الغُصْنَ القويم ، والسَّمْهَرِىّ[7] المستقيم ، وقد صدق عليها قول الشاعر :

أسيلات أبدانٍ رقاقٌ خُصورها وَثيراتُ ما التاثتْ عليه المآزرُ[8]

كأنها درَّة مصونة ، أو جوهرة مكنونة .. فلذا اخترتها أما لأولادى ، ومنفقة[9] لطارفى وتلادى علما منى أن الدنيا دار كدر ، وقليل فيها ما يسرّ ، نظرا لقول الصادق الصدوق : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » .

وهو قضاؤه وقضاء كثيرين مثل ابن حمادوش يسيئون اختيار زوجاتهم ، لما قد يُصْبيهم فيهنَّ من حسن وجمال كما أصبى ابن حمادوش ، ومع ذلك فهناك زوجات كثيرات جميلات خلقة وخلقا لأنهن من أصل كريم . وقد صوَّر ابن حمادوش زوجته غرة يسهل انخداعها ، بل جمعت السوء كله إذ عيشتها مرة ، ودائما غاضبة ساخطة تطلب ما لا يتأتّى ولا يكون ، ولا تترك وسيلة لخزى زوجها وإحراجه إلا تقترفها ، ودائما تطلب منه المستحيل من مثل طير العنقاء والرخ الأسطورين وبيض النوق الذى لا يمكن أن يوجد . ودأبها دائما الخلاف بل لكأنما تجد فيه لذتها فهى تجنيه وتقطفه من كل واد ومن كل طريق ، ولكأنما غذَّتها أمها بلبن القرود فهى ما تنى تقفز من خلاف إلى خلاف ومن نكد وغمّ إلى نكد وغم . وقد يكون ابن حمادوش أراد أن أن يداعب زوجته ، فجرته المداعبة إلى هذه المبالغات التى استخدم فيها محفوظاته من مثل العنقاء وطائر الرخ وبيض الأنوق وثمر الخلاف أو شجره . وقد يدل على ذلك أنه عاد يصفها بصفات جمال مختلفة ، ويجعلها درة مصونة أو جوهرة مكنونة . وواضح

---

(١) رحلة ابن حمادوش ص ١٦٤ .
(٢) غرة : يسهل أن تخدع .
(٣) شائطة : متجاوزة الحد .
(٤) العنقاء : طائر خرافى لا وجود له .
(٥) طائر الرخ : طائر خرافى .
(٦) بيض الأنوق : بيض وهمى لأن النوق لا تبيض .
(٧) السمهرى : السيف .
(٨) أسيلات : ناعمات . وثيرات : ممتلئات . التاثت : التفت .
(٩) فى الأصل : نافقة .

أن هذه المقامة الثالثة تبعد بدورها عن فن المقامة كما رسمه بديع الزمان والحريرى ، وكان حريا بابن حمادوش أن لايسمى تلك الأعمال الثلاثة مقامات . وكأن الجزائر لم تعرف فن المقامة برسومه وتقاليده وخصائصه ، ولذلك يكون من الصعب أن يقال إنها شاركت فيه ، لأن أديبا سمى عملا له مقامة أو سمّاه له آخرون ، بينما هو لا يمت إلى فن المقامة بصلة حقيقية .

٥

كبار الكتاب

أبو القاسم عبد[1] الرحمن القالمى

أغفلت كتب التراجم الحديث المفصّل عن سيرة هذا الكاتب الفذ الذى تنبّه إليه عبد المؤمن سلطان دولة الموحدين حين استولى على بجاية سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م وقضى فيها على الدولة الحمادية ، فألحقه بكتّابه كما يقول عبد الواحد المراكشى ، ويذكرأنه من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكان من كتاب الدولة الحمادية وربما قرأ له عبد المؤمن رسالة عن يحيى بن العزيز آخر ولاة هذه الدولة إليه فأعجب بكتابته ، وكان قد استسلم له يحيى وصحبه معه إلى مراكش ، فربما هو الذى أشار عليه به . على كل حال صحبه معه عبد المؤمن –كما صحب يحيى– إلى مراكش ،وألحقه بكتاب الإنشاء فى ديوانه ، وكان يكتب معه فيه أبو جعفر أحمد بن عطية وأخوه أبو عقيل وعبد الملك بن عياش ، ولما توفى عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٢ م وخلفه ابنه يوسف ظل يكتب له مع عبد الملك بن عياش ، ويبدو أنه لم يعمر طويلا فى عهده ، وأنه ظل فيه سنوات معدودة ، إذ لم تؤثر له رسالة عنه دُوِّنت فى مجموع رسائل موحدية المنشور بالرباط ، وكل ما له فيه رسالتان عن عبد المؤمن ، يتحدث فى إحداهما عن تنكيله بالنصارى فى ضواحى قرطبة ، حين حاولوا الإغارة على الجيش العربى وولوا على وجوههم مدحورين ، وفى الثانية يتحدث عن هزيمة الأعراب الهلاليين واستسلام الكثرة من القبائل للموحدين ودخولهم فى طاعتهم ، بحيث لم تدخل سنة خمس وخمسين وخمسمائة حتى اندمجوا فى دعوة الموحدين والشعب المغربى بعد أن ظلوا يعيثون فسادا فى ديار المغرب نحو قرن كامل ، وهو يستهل الرسالة الثانية بقوله[2] :

« من أمير المؤمنين – أيّده الله بنصره ، وأمدّه بمعونته – إلى الطلبة والشيوخ والأعيان

(١) انظر فى القالمى كتاب الحريدة ١/١٨٠ وكتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى (طبع القاهرة) ص ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٣١٧ وله فى مجموع رسائل موحدية (طبع الرباط) رسالتان .

(٢) انظر مجموع رسائل موحدية ص ١١٣ .

والكافَّة من الموحدين من أهل فاس ، أعزَّهم الله بتقواه ، وأدام كرامتهم بحسناه – سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فالحمد لله الذى تمَّم مقاصد أوليائه فيما اعتمدوه من إقامة أمره الواجب ، وأناف[1] بأغراضهم المقصورة على مرضاته على مطامح المطالب ومدارك الرغائب . وبلَّغهم فى أعدائهم – الذين ولَّوا أمر الله – وقد استقبلهم – جانبَ الإعراض والإدبار ، و ﴿ بدَّلوا[2] نعمة الله كفرا وأحلُّوا قومهم دار البَوار﴾ – أمانىَّ الظافر الغالب . ووكَّل بهم أيَّةً وَلجوا ، وعلى أى مدرج درجوا من النصر المحالف المصاحب ما يكون لعامَّة أكنافهم ، وجنبات أوساطهم وأطرافهم ، عَيْنَ المحافظ المراقب . ومكن لهم إنقاذا لمقدوره ، وإفاضة لأشعة نوره ، أسباب التقلب فى أفياء[3] الأمنة وظلال السكون من جانب إلى جانب ، وأحظاهم[4] نعمةً منه وفضلا وقد فاءوا[5] بشرف الفتح الجسيم[6] ، واحتقاب[7] الحظ العميم ، وابتغوا ﴿ رضوان[8] الله والله ذو فضل عظيم﴾ وجعل أمرهم الذى هو أمره ناظما إلى قيام الساعة بين أطراف المشارق والمغارب . والصلاة على محمد عبده ورسوله الحاشر[9] العاقب[10] ، الصادع[11] بنوره الثاقب[12] ، لبابة[13] الانتخاب وسلالة الانتجاب من لؤى بن غالب ، المنبعث لتتميم مكارم الأخلاق بما خصَّه من الضرائب[14] المقدسة والمناقب ، وعلى آله وصحبه أولى العزم العاكف الدائب ، والجَدِّ الثابت اللازب[15] والأثرة (المنزلة) المشتملة على شرف المناسب ، وزُلَفِ المناصب . وأسأل الله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدىِّ المعلوم ، القائم بأمر الله وقد التفَّت حُجبُ الغياهب ، وتفرَّقت سبل المذاهب ، وخُبِط من ليل الحيرة فى حيث لا منقذ لجاءٍ ولا مخلِّص لذاهب ، فهدى الله بهداه إلى الواضح اللاحب[16]، وأنقذ به من هوة العاثر وشَفَا العاطب » .

وهذه فاتحة الرسالة وهو يطيل فى تحميدها وشكر الله على ما أتاح للموحدين من نصر عظيم ،وكأنه يجعل ذلك استهلالا وإرهاصا لموضوع الرسالة ، وهو هزيمة العرب الهلالية هزيمة ساحقة . ولا نكاد نقرأ فى التحميد حتى نلاحظ طول السجعة البائية التى بناها عليها ، بل لقد بنى عليها سجعات المقدمة جميعها فى التحميد والصلاة على الرسول الكريم والدعاء

---

(١) أناف : أشرف .
(٢) الآية رقم ٢٨ فى سورة إبراهيم .
(٣) أفياء : ظلال .
(٤) أحظاهم : أتاح لهم حظوة .
(٥) فاءوا : رجعوا .
(٦) الجسيم : العظيم .
(٧) احتقاب : ادخار .
(٨) الآية ١٧٤ فى آل عمران .
(٩) الحاشر : اسم من أسماء الرسول ومعناه الحاشد .
(١٠) العاقب: اسم من أسماء الرسول ومعناه خاتم الرسل
(١١) الصادع : مبلغ الرسالة .
(١٢) الثاقب : المصيب .
(١٣) لبابة : خلاصة .
(١٤) الضرائب : الطبائع والشمائل .
(١٥) اللازب : المتماسك .
(١٦) اللاحب : البيِّن .

لابن تومرت مهدى الموحدين . وهذا الطول فى السجعات قصد إليه قصدا ، لكى يضمِّن كل سجعة فى داخلها سجعتين أو أكثر . وهو يبتدىء ذلك منذ السجعة الثالثة : « وبلّغهم فى أعدائهم الذين ولوا أمر الله وقد استقبلهم جانبَ الإعراض والإدبار ، و (بدَّلو نعمة الله كفرا وأحلُّوا قومهم دار البوار) أمانيَّ الظافر الغالب . والسجعة بائية وفى داخلها سجعتان رائيتان حتى تتشابك الكلمات فى داخلها وتتعانق ، فيتم بذلك تناسق صوتي بديع . وهو تناسق تضيئه آية قرآنية وتزينه وتضيف إليه روعة . وتليها هذه السجعة : ووكلّ بهم أيَّةً ولجوا وعلى أى مدرج درجوا ، من النصر المحالف المصاحب ، ما يكون لعامةً أكنافهم ، وجنبات أوساطهم وأطرافهم ، عَيْن المحافظ المراقب » . وفى داخل السجعة البائية سجعة جيمبية فى أولها ثم سجعة ميمية ، وكأن الكلمات داخل السجعة تريد أن تتعانق عن طريق هذه الإرنانات المتلاحقة . وتكثر بجانب ذلك الصور والاستعارات ، ويكثر تلاحم الألفاظ لدقة انتخابها واختيارها مما يدل على أن القالمى كان كاتبا بارعا حقا .

والرسالة طويلة ، غير أنها – بجانب بلاغتها – ذات أهمية تاريخية فإن القالمى يذكر أنه لم يعد للقبيل الرياحى من بنى هلال المستولى على أنحاء كثيرة فى الجزائر ذكر يسمع ولا حديث يرفع ، ولا أثر يتقصَّى ويتتبَّع ، إذ لحقوا بقبيل العدم وأصبحوا كهشيم أهلته نفحة ضَرَم (شرر) ولم يجدوا إلى مستخلص سبيلا ويتمثل بالذكر الحكيم : (أينما ثُقفوا أُخذوا وقُتِّلوا تقتيلا) إلا ما كان من قبيلة بنى محمد الرياحية ، إذ ألقوا بمقاليد الانقياد ، وانخرطوا فى سلك أهل التوحيد بجميع الأنفس والأموال والأولاد ، وربطوا أنفسهم مدى أعمارهم على مضافرة[1] الغزو ومصابرة الجهاد . وأما قبيلة جُشَم فهم بمحلات أهل التوحيد معسكرون وعلى أعدل طريق المطاوعة والمتابعة مستمرون ، وهم عدد لا يحمله إلا البساط الفيَّاح[2] ، وكل من هذين الحيَّين : الجشمى والفخذ المحمَّدى الرِّياحى عَزَم – وعُزم به – على أن تُخْتَطَّ إن شاء الله بالمغرب دارهم ، ويبوِّأ هنا لك قرارهم ويُقْصر على خدمة هذا الأمر العزيز (يقصد دعوة الموحدين) جوارهم . فالحيان الأعرابيان الكبيران : فخذ بنى محمد الرياحى الهلالى وفخذ جشم سيختط لهما منازل فى الديار المغربية يكون فيها مستقرهم . وأما قبائل الأثبج وزغبة فيقول القالمى عنهم إن أعيانهم وصلوا مراكش عاصمة الموحدين يمدون يد الاستتابة ، ويطلقون ألسنة الإنابة والعودة إلى الطاعة . يقول القالمى : « وعلى الجملة فقد أظهر الله تعالى من بركة هذه الحركة الميمونة السعيدة ما لم يكن ينشأ بسماء الوهم والإحساس ، ولا يجرى على أساليب القياس » . فإن من درس القرن السابق لتلك الحركة وتسلط الأعراب فيه على المغرب الأوسط وتونس يظن أنهم لن يغلبوا على ما فى أيديهم ، حتى كانت هذه الحركة لعبد المؤمن بعد أن

(١) مضافرة : معاونة .

(٢) الفياح : المنداح ، الواسع .

استولى على بجاية سنة ٥٤٧ ، فإذا هو لا يصل إلى سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠ م حتى حرر فيها القالمى هذه الرسالة كما يقول فى نهايتها حتى يكون قد قلَّم أظفار أعراب الهلالية فى المغرب الأوسط ، وانسحبت منهم عشيرة المحمدية كما انسحبت قبيلة جشم وانضمتا إلى حيشه وختط لهما منازل فى الديار المغربية . وجاءته قبائل الأثبج وزغبة معلنة طاعتها . واندمج الأعراب الذين عاشوا قرنا كاملا فى المغرب الأوسط وتونس وبعض ديار المغرب يسلبون وينهبون ، اندمجوا فى البربر وأصبحوا شعبا واحدًا بفضل هذه الحركة المباركة لعبد المؤمن كما يقول القالمى . ورسالته لذلك بجانب أنها وثيقة أدبية تُعَدّ وثيقة تاريخية فى غاية الأهمية .

الوَهرانى[1]

هو أبو عبد الله محمدبن محرز الوهرانى ، منشؤه ومرياه فى وهران الواقعة على البحر المتوسط غربى مدينة الجزائر ، وكانت فيها – مثل بقية بلدان الجزائر – حركة علمية وأدبية أنتجت غير فقيه وأديب . وتفتحت موهبة الوهرانى الأدبية مبكرة ، ورأى – بعد نضجه وشهرته بالأدب –أن يرحل إلى مصر لعل أدبه يروج فيها ، فرحل إليها فى عهد السلطان صلاح الدين ، ولقى وزيره الكاتب المشهور القاضى الفاضل ومَنْ حوله من نبهاء الكتاب ، وأحسَّ أن بضاعته لا تروج عنده ، فانصرف عنه وعن الكتابة الأدبية الجادة إلى الكتابة الأدبية الهزلية . وعرف القاضى الفاضل فيه قدرته على الخطابة ، وكان كثير النزول بالشام مع صلاح الدين فى حروبه للصليبيين ويبدو أنه استدعاه هناك – أو لعله هو الذى رحل إليها – فعمل على تعيينه خطيبا فى جامع داريا بضواحى دمشق ،وظل فى تلك الوظيفة حتى توفى سنة ٥٧٥ هـ/١١٨٠ م . ويقول ابن خلكان أنه لما علم قصوره عن طبقة القاضى الفاضل عدل عن طريق الجد وسلك طريق الهزل وعمل المنامات والرسائل المشهورة به والمنسوبة إليه ، وهى كثيرة الوجود بأيدى الناس ، وفيها دلالة على خفة روحه ورقة حاشيته وكمال ظرفه ، ولو لم يكن له فيها إلا المنام الكبير لكفاه ، فإنه أتى فيه بكل حلاوة ، ولولا طوله لذكرته » .

والمنام الذى يشيد به ابن خلكان فى نحو أربعين صفحة من القطع الكبير ضمنه رسالة يرد بها على بعض أصحابه متماجنا بما ساقه من ألقابه العلمية والأدبية ومن كلام هزلى غلبه النوم فى أثنائه ، فرأى فى حلمه أن القيامة قامت وأن مناديا ينادى الناس هلموا إلى العرض على الله ويلبيه كثيرون بين قدماء ومعاصرين منهم الملوك والحكام والسلاطين والأدباء والشعراء والعلماء من العرب والعجم والفسَّاق والصلحاء ، وهو دائما يهذى ويهزل فى لقاء كل من يلم به أو يمر

(١) انظر ترجمة الوهرانى عند ابن خلكان ٣٨٥/٤ وتعريف الخلف ٤٩٤/٢ . وحقق أعماله وطبعها فى القاهرة إبراهيم شعلان ومحمد نعش باسم : منامات الوهرانى ومقاماته ورسائله نشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر .

عليه . ويرى بعض عظماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يرى مالك خازن النار ويحاوره ، ويرى الرسول مقبلا فى موكب عظيم من المقام المحمود يؤمّ مورد الحوض الذى يسقى منه أمته . يقول[1] :

« لما انتهى إلى شاطىء المشرعة[2] تقدمت إليه الصوفية من كل مكان وفى أيديهم الأمشاط وأخلّة الأسنان ، وقدموها بين يديه ، فقال : صلّى الله عليه ، مَنْ هؤلاء ؟ فقيل له : قوم من أمتك غلب العجز والكسل على طباعهم ، فتركوا المعايش وانقطعوا إلى المساجد ، يأكلون وينامون فقال : فبماذا كانوا ينفعون الناس ويعينون بنى آدم ؟ فقيل له :والله ولا بشىء البتة ، ولا كانوا إلا كمثل شجر[3] الخِرْوع فى البستان ، يَشْرَبُ الماء ويضيق المكان » .

وهو نقد مغربى مبكر للصوفية وما يحملون من أمشاط لشعرهم وخلال لأسنانهم ولا عمل لهم ينفعون به الأمة ، إلا ما كان من البطالة والكسل والتمويه على العامة بما يؤدون لهم من أطعمة وأكسية متظاهرين بالعبادة والنسك فى المساجد . وعلى نحو هذا النقد للصوفية ينقد كثيرين من معاصريه علماء وغير علماء كما ينقد كثيرين من القدماء ومواقفهم من على بن أبى طالب فى حرب صفين ومن الحسين فى مقتله بكربلاء ، بينما نراه ينوّه بالأيوبيين : أسد الدين شيركوه وأخيه أيوب وابنه صلاح الدين ، ولعله كان يحاول بذلك أن يتقرب من دولتهم . وربما كانت مقامته البغدادية الجادة أروع من هذا المنام الحزلى ، وهو يستهلها بقوله[4] :

« لما تعذرت مآربى ، واضطربت مغاربى ، ألقيت حبلى على غاربى[5] ، وجعلت مذهّبات الشعر بضاعتى ،ومن أخلاف الأدب وضاعتى ، فما مررت بأمير إلا حللت ساحته ، واستمطرت راحته ، ولا وزير إلا قرعت بابه ، وطلبت ثوابه ،ولا بقاضٍ إلا أخذت سَيْبه[6] ، وأفرغت جيبه ، فتقلبت بى الأعصار ، وتقاذفتنى الأمصار ، حتى قربت من العراق وسئمت من الفراق ، فقصدت مدينة السلام[7] ، لأقضى حجّة الإسلام ، فدخلتها بعد مقاساة الضرّ ، و مكابدة العيش المر .. وتاقت نفسى إلى محادثة العقلاء ، واشتاقت إلى معاشرة الفضلاء ، فدلّنى بعض السادة الموالى ، إلى دُكّان الشيخ أبى المعالى ، فقال هو بستان الأدب ، وديوان العرب ، يرجع إلى رأى مصيب ، ويضرب فى كل علم بنصيب ، فقصدت قصده ، حتى جلست عنده ، فحين نظر إلىّ ، ورأى أثر السفر علىّ ، بدأنى بالسلام ، وبسطنى بالكلام ، وقال : من أى البلاد خرجت وعن أيها درجت ! فقلت : من المغرب الأقصى .. وقال كيف معرفتك بدهرك ؟

---

(١) انظر مقامات الوهرانى ومقاماته ورسائله ٤٩ .
(٢) المشرعة : المورد .
(٣) شجر ورقه كورق التين ثمره مر .
(٤) مقامات الوهرانى ومقاماته ص ١ .
(٥) الغارب : الكاهل : ألقى حبله على غاربه :ذهب حيث شاء .
(٦) سيبه : عطاءه .
(٧) مدينة السلام : بغداد .

ومن تركته وراء ظهرك » . وسأله عن دولة الملثمين ثم عن دولة الموحدين قائلا :ما تقول فى عبد المؤمن (أول ملوك الموحدين) وأولاده ، وسيرته فى بلاده ؟ فقلت : مؤيد من السماء ، مسلَّط على من فوق الماء ، خضع له ذوو التيجان ،وخدمه الإنس والجان ، ولو أن للقلم لسانا ، وللورقة إنسانا[1] ، لتألمت ، وتظلمت ، ولأنشدتك فى الملا[2] قول الشخ أبى العلا[3] :

جَلَوْا صارمًا وتَلَوْا باطلا وقالوا صدقنا فقلنا نَعَمْ[4]

ولكن السكوت عن هذا أنجح ، ومسالمة الأفاعى أصلح »

وأول المقامة شبيه بمقامات الحريرى وبديع الزمان فى تصوير حيلهم على الناس واستخراجهم لدراهمهم ودنانيرهم . ولكنها لا تلبث أن تتحول إلى حديث عن الدول المعاصرة ورجالها ، وصاحب الدكان يسأل وهو يجيب ، وقد سأله بعد الملثمين والموحدين من ملوك المغرب الأقصى عن حاكم صقلية النورماندى ، وعن الدولة الفاطمية وزوال الحكم منها فى مصر إلى الدولة الأيوبية . ويشيد بغير أمير منها وخاصة صلاح الدين واستقدامه لأبيه وأهله ونقله الخلافة بمصر من الفاطميين إلى بنى العباس ببغداد ، ويمتدح المستضيء الخليفة حينئذ وبعض وزرائه وصاحب ديوانه . ولعل أسلوبه اتضح من خلال ما ذكرته من هذه المقامة ، إذ يتميز سجعه بالقصر مما يشيع فيه عذوبة بديعة ، وقد مزج مديحه لعبد المؤمن بنقد لاذع لحكمه وأنه يقوم على البطش والقهر الشديد . وتلك طريقته العامة فى رسائله الكثيرة ، إذ يخلط السم بالعسل ، وقد تصبح سما خالصا . وله أكثر من ثلاثين رسالة موجهة إلى القاضى الفاضل وغيره من رجال الدولة محملة بكثير من هذه السموم . ويدل منامه الكبير ومقاماته ورسائله على ثقافة واسعة ، وحياته وتحليل أعماله خليقان بدراسة مفصَّلة .

(جـ) أبو الفضل[5] بن محشرة

هو أبو الفضل جعفر بن محمد بن على القيسى المشهور باسم ابن محشرة ، من أهل مدينة بجاية ، كان أبوه قاضيا بها وعنى بتربيته علميا وأدبيا ، مما جعل الغبرينى ينعته فى عنوان الدراية بأنه الفقيه الجليل العالم الصدر النبيل النبيه الذكى السِنِّىّ القَدْر الكاتب البارع . وينعته عبد الواحد المراكشى فى كتابه : « المعجب » : ببراعة الكتابة وسعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس . ويقول الغبرينى : « استدعاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ – ٥٨٠ هـ) إلى حاضرتهم بمراكش وكان يجله لحسن سمته ورُوائه ووقاره ، وفى المعجب أنه كان يخدم أبا القاسم القالمى

(١) إنسانا : إنسان عين .
(٢) الملأ : الجماعة .
(٣) أبى العلا : أبى العلاء المعرى .
(٤) جلوا صارما : صقلوا سيفا وشحذوه .
(٥) انظر فى ابن محشرة عنوان الدراية ص ٥٣ والمعجب للمراكشى ص ٣١٧ ، ٣٣٨ ومجموع رسائل موحدية ص ١٤٩ – ٢٢٨ .

إلى أن مات ، فكتب للخليفة يوسف بن عبد المؤمن مكانه ، وقد يدل ذلك على أن القالمى – لا الخليفة يوسف – هو الذى استدعاه – ربما لمعرفته المظنونة بأبيه القاضى مواطنه أو لمعرفته بفضله . ويقول الغبرينى إنه ولد سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م أو قبلها بقليل ، وتوفى سنة ٥٩٨ هـ/١٢٠١ م غير أن المراكشى فى المعجب يقول إنه كتب للخليفة يعقوب الموحدى بعد كتابته لأبيه يوسف ، ولم يزل كاتبا له إلى أن توفى . ويقول أيضا إنه كتب ليعقوب بعد وفاته أبو عبد الله بن عياش ، وفى التكملة[1] أن يعقوب استكتب ابن عياش فى سنة ٥٨٦هـ/١١٤٠م وكأن هذه هى السنة التى توفى فيها ابن محشرة لا سنة ٥٩٨ كما توهم الغبرينى .

ولابن محشرة فى مجموع رسائل موحدية تسع رسائل : رسالة على لسان الخليفة يوسف الموحدى سنة ٥٧٦ هـ/١١٨٠ م وثمان على لسان الخليفة يعقوب الموحدى تبدأ فى سنة ٥٨٠ وهى السنة التى توفى فيها أبوه واستولى على صولجان الحكم ، والرسالة الأولى موجهة من الخليفة يوسف الموحدى إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافَّة بقرطبة يخبرهم فيها بأنه قام بحركة مباركة فى سنة ٥٧٥ إلى إفريقية التونسية استولى فيها على قفصة جنوبى تونس وقضى على ثائر بها وأنه اجتمع إلى سادة قبائل رياح وشيوخها فى تلك الرحلة وأنه أغراهم بارتحال قبائلهم إلى الأندلس لجهاد نصارى الإسبان مذكرا لهم بجهاد آبائهم فى الفتوح الإسلامية ، وأنهم لبُّوا دعوته ، يقول ابن محشرة على لسانه[2] :

« جُمع أشياخ العرب وأعيانهم والمشار إليهم من رؤسائهم ووجوههم وكبرائهم من جميع قبائل رياح (الهلالية) فذُكِّروا بحقوق هذا الأمر العظيم وآلائه الجزيلة ومِنَنه الجسام ، ونُبِّهوا إلى ما كان لسلفهم من العرب من كريم السوابق فى أول الإسلام ، وعُرِّفوا أن الغرض منهم إنما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس ، فقد طال استشراؤهم[3] ، وأملى الله لهم فزاد عليه اجتراؤهم . وتُدبوا إلى أن ينفروا إلى ذلك بقضِّهم وقَضيضهم[4] ، نفرة من انبتّ[5] عن الوطن ، ونَبَذ عُلَق المسكن والسكن ، وإن كانت هذه البلاد هى التربة التى مسَّت أولا جلودَهم ، وقضوا فيها من الشباب عهودهم ، فالذى ينتقلون إليه من الرِّباط فى سبيل الله يجمع لهم الخير فى الدين والدنيا ، والشرف بالكون فى عداد كلمة الله العليا .. وذاكرنا الجماعة المذكورة فى ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم ، وخلصت إلى نفوسهم ، وتغلغلت[6] فى بواطنهم ، فتحركت إلى ذلك حفائظهم[7] ، ومارت[8] لنصر دين الله عزائمهم .. وقد سالت بهم

(١) التكملة (طبع مدريد) رقم ٩٥٢ .
(٢) مجموع رسائل موحدية ص ١٥٢ وما بعدها .
(٣) استشراؤهم : اشتداد شرهم وتفاقمه .
(٤) بقضهم وقضيضهم : بجميعهم ينقض آخرهم على أولهم ويندفع .
(٥) انبت : انقطع ، وفى الأصل : أبنت .
(٦) تغلغلت : تعمقت ، وفى الأصل : تقلقلت .
(٧) حفائظ جمع حفيظة : الحمية والغضب .
(٨) مارت : تحركت ، وفى الأصل : ثارت .

الأباطح[1] ، وامتلأت بجموعهم المواسى[2] الفسائح .. وإن جموعهم لتكاثر الحصى[3] ، وتعادُّ[4] الدَّبى ، وتملأ الغيطان[5] والرُّبى » .

ولغة الرسالة جزلة مختارة ، اختارها كاتب حاذق يعرف كيف يسوِّى من اللغة أساليب تروق القارئ بسجعها ورصانة ألفاظها عامدا فى أحيان كثيرة إلى تأكيد معنى العبارة التى يوردها بجملة أو جمل ترادفها ، فتزيدها إيضاحا وبيانا كقوله فى أواخر ما اقتُبِس من رسالته : « وذاكرنا الجماعة المذكورة فى ذلك ذكرى أفضت إلى قلوبهم ، وخلصت إلى نفوسهم ، وتغلغلت فى بواطنهم ، فتحركت إلى ذلك حفائظهم ، ومارت لنصر دين الله عزائمهم » . والرسالة وثيقة تاريخية مهمة لأنها ترينا سياسة الموحدين الحصيفة ، إذ لم يكتفوا بأن يستشعر أعراب الجزائر وإفريقية التونسية الولاء لهم فحسب ، فقد رأوا أن ينقلوا جماهير غفيرة منهم إلى الأندلس للاستعانة بهم فى الحرب الدائرة هناك بين دولة الموحدين ونصارى الأندلس وكان لهم أثر كبير فى رجحان كفة الموحدين على أولئك النصارى فى وقائعهم معهم ، واستنَّ تلك السنة الخليفة يعقوب الموحدى مثل أبيه يوسف ، وبذلك انتصر فى موقعة الأرك المشهورة سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٤ م . ولم تُفْضِ هذه السياسة إلى انتصار الموحدين فى الأندلس لعهد يوسف ويعقوب فقط فقد أفضت أيضا إلى كفِّ أيدى الأعراب عن العبث لمدة قرن فى بلاد المغرب وخاصة فى الجزائر . وآخر رسالة لابن محشرة احتفظ بها مجموع رسائل موحدية كتبها – كما مر بنا – سنة ٥٨٦ على لسان يعقوب الموحدى إلى الطلبة – الموحدين – الأعيان والأشياخ والكافة بسبتة يخبرهم فيها بغزوة جيشه لابن الريق النصرانى فى غربى الأندلس وتنكيله بمن معه واستيلائه على حصن عظيم من حصونهم يسمى طُرُش . وهو يستهل الرسالة بقوله[6] :

« الحمد لله الذى أرغم لهذا الأمر العزيز شُمَّ المعاطس[7] ، وألان بأيده قَباح[8] الجامح الشامس ، وأخضع لعزّته وسطوته كل جيدٍ متطاول ، وأخشع كل لحظ مشاوس[9] ، وحكم بظهور أمره ، واستيلاء غلبته وقهره على ما توقَّل[10] فى الشُّمِّ الشوامخ وتوغَّل فى البيد البسابس[11] ويسَّر له من الفتوح الخارقة للعادة ، المقودة بزمامى البركة والسعادة ، ما تجاوز[12]

(١) الأباطح جمع أبطح : المكان المتسع يمر به السيل ويترك فيه التراب والحصى .
(٢) المواسى جمع موماة : المغازة الواسعة ، وفى الأصل : المواهى .
(٣) الحصى : صغار الحجارة ، وفى الأصل : الحصر .
(٤) تعاد : تفاخر فى كثرة العدد ، والدَّبى : الجراد وفى الأصل : مُعاد الرُّبى .
(٥) الغيطان جمع غيط : المطمئن الواسع من الأرض . الربى جمع ربوة : ما ارتفع من الأرض .
(٦) مجموع رسائل موحدية ص ٢١٨ .
(٧) المعاطس جمع معطس : الأنف والمراد بشم المعاطس الأعداء المستعلون .
(٨) قباح : عضد . الشامس : الجامح المستعصى .
(٩) مشاوس : متكبر .
(١٠) توقل : صعَّد .
(١١) البسابس : القفر الخالية .
(١٢) تجاوز : زاد عن .

تقدير المقدِّر وقياس القائس ، والصلاة على محمد نبيِّه المصطفى ، ورسوله الأكرم المُجْتَبَى ، المختار من أشرف المحاتد[1] وأطيب المغارس ، المسكت بُفْرقانه المعجز ، وبيانه الموجز ، كلَّ نافس ، والماحى بنور نبوته الخاتمة للملل ، وشريعته الناسخة للأديان والنحل ، مظلمات الغياهب[2] ومد لهمات الحنادس » .

وابن محشرة فى هذا التحميد وما تلاه من الصلاة على الرسول الكريم يختار حرف السين لسجعاته فيهما ، وبَدْءًا من السجعة الرابعة أخذ يطيل السجعة لتتوازن العبارات أو التعبيرات داخلها بحيث تتشابك ألفاظها وتتعانق فى سجعات داخلية ، ليدل على مدى قدرته فى السجع وصياغته ، وهو يضيف إلى ذلك عناية واضحة بالتصوير كما فى قوله « ألان بأيده قباح أو عضد الجامح الشامس » وتتوالى كنايات وتصاوير مختلفة كقوله عن الرسول إنه من أطيب المغارس ومحا بنور نبوته مظلمات الغياهب ومدلهمات الحنادس . ويقول – على لسان يعقوب – إن صاحب قشتالة المسيحى فى الشمال حين علم بهذا الجيش سارع إلى إعلان تمسكه بعهده مع الموحدين وأنه مستعد من أجلهم لمحاربة أهل ملته ، فأمضى له يعقوب السلم . وبالمثل سارع صاحب ليون يطلب تجديد مهادنته ، وهادنه يعقوب ليفرغ لابن الريق النصرانى فى الغرب . ويصف ابن محشرة انتساف الجيش لزروعه فى شنترين وإحراقه وتخريبه لمنازله وربوعه ، ويصور استيلاء جنوده على قلعة طرُّش المنيعة ، بقوله[3] :

« نهدوا[4] إلى قلعة للأعداء تسمى « طُرُّش » على هضبة منيفة[5] المراقب ، مسامية للكواكب ، قد انقطعت حافاتها ، وبعدت قُذفاتها[6] من كل الأرجاء والجوانب ، ولعظمها ومكانها من نفوسهم أشبُّوها[7] بالبناء الشامخ وحصَّنوها ، وألقوا بها جموعهم المؤتشبة[8] ووثقوا بها على حفظ نفوسهم وأموالهم وائتمنوها ، واعتدوها[9] قُفْل بلادهم ، فخانتهم – بحمد الله – آمالهم التى أمَّلوها[10]، وكذبتهم ظنونهم التى ظنوها . ولقد كانت من المنعة بحيث لا تُرام ، ولا يُهْتَضم[11] المتوقل فيها ولا يستضام ، ولا تثبت لمحاربها – لوعورة مراقيها[12] وجوانبها – الأقدام . لولا سعود هذا الأمر[13] الذى تؤيده الأقدار وتنجده الأيام ، والحمد لله

(١) المحاتد جمع محتد : الأصل .
(٢) الغياهب جمع غيهب والحنادس جمع حندس وهما الظلمة .
(٣) انظر مجموع رسائل موحدية ص ٢٢٣ .
(٤) نهد : نهض .
(٥) منيفة المراقب : عالية مواضع المراقبة .
(٦) قذفات جمع قذفة : جانب بعيد .
(٧) أشبوها هنا : حموها .
(٨) المؤتشبة : الملتفة .
(٩) اعتدوها : عدوها وفى الأصل : اعتدوا .
(١٠) بعد أملوها كلمة زائدة: «فى استقصائه»:حُذِفت .
(١١) يهتضم المتوقل : يقهر المقيم فيها . يستضام : يظلم .
(١٢) مراقيها : أماكن الصعود فيها وفى الأصل : مراقبها .
(١٣) هذا الأمر : هذه الدعوة دعوة الموحدين .

على ذلك حمدا تُسْتَنْجز به المنن وتستدام ، لا ربَّ سواه . فنازلها الموحدون – أعزهم الله – أصدق نزال ، وصالوا على كفرتهم أعظم صيَال[1] .. وعندما عضَّتهم الحرب الضروس[2] بنابها[3] ، وجَّرعتهم أكْؤس مُرِّها[4] وصابها .. رُغموا[5] فى أن يخرجوا بحشاشتهم ، ومن معهم من نسائهم وذرياتهم ، ويفرجوا للموحدين –أعزّهم الله – عن كل ما اشتمل عليه حصنهم من أموالهم وأقواتهم » .

والسجع مرصوف بإحكام والكلمات منتخبة بدقة والصور تتوالى بكثرة ، فقد ائتمنوا هذا الحصن وعدوه قفل بلادهم ، فخانتهم آمالهم وكذبتهم ظنونهم ، بفضل دعوة الموحدين التى تؤيدها الأقدار وتنجدها الأيام ، وعضَّتهم الحروب الضروس بنابها وجرَّعتهم أكؤس مرها وصابها ، فولَّوا على وجوههم خاسئين مدحورين إلى غير مآب .

---

(١) فى الأصل : مصال .
(٢) الضروس : العضوض المهلكة ..
(٣) فى الأصل : بها .
(٤) فى الأصل : مقرها .
(٥) فى الأصل : رغبوا .